
نيكوس كازانتزاكي
زوربا
رواية
دار الآداب

زوربا



نيكوس كازنتزاكي

زوربا

رواية

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الثالثة
كانون الثاني ١٩٧٨

نيكوس كازنتزاكي

نيكوس كازنتزاكي وجه من أشهر وجوه الأدب اليوناني المعاصر ٠ وهو ، بالاضافة الى كونه شاعراً ذا الهام ملحمي ، وروح شمولية ، قد عبَّر عن نفسه بقوة مماثلة في المأساة ، والروايـة ، والدراسة الفلسفية ٠ لقد نهـل مادته من الاساطير القديمة أو من الفولكلور الحالي لبلاده ، فبنى عملا يونانياً نموذجياً ، استقبل ، بالرغم من طـابعه القومي ، بحمـاسة في البلـدان الشمـالية والانجلوساكسونية وسائر بلدان العالم ٠

ولد نيكوس كازنتزاكي عام ١٨٨٥ في كاندي بجزيرة كريت ٠ ودرس الحقوق في جامعة آثينا ، وتوَّجه الى باريس حيث تابع دروس برغسون الذي أصبح من تلاميذه الأوائل ٠ ثم عاد الى اليونان وبدأ بنشر أعمـاله الشعرية والفلسفية الاولى ٠ وقد قطع انتاجه ليقوم بسلسلة من الرحلات الوثـائقية وزار انجلترا ، واسبانيا ، وروسيا ، ومصر ، والصين ، واليابان ، الخ ٠ وقد ظهرت انطباعاته عن هذه الرحلات في اليونانية وهي تعتبر تحفا ادبية في نوعها٠

في عام ١٩٤٦ ، دخل الحياة السياسية اليونانية ٠ وعين رئيساً للمجلس الاعلى للحزب الاشتراكي ، ثم وزيراً ، لكنه استقال ليستأنف نشاطه الادبي في حريـة ٠

في عام ١٩٤٧ ، ذهب الى فرنسا حيث ادار فنرة من الوقت مكتب ترجمة الكلاسيكيات الانسانية ، التابع لليونسكو ٠ ثم اقام في الآنتيب ٠ الى ان توفي عام ١٩٥٧ ٠

تضمُّ أعماله الكثيرة الهامة أنواعاً عدة ٠ فمنها الدراسات الفلسفية ، وعلى الأخص دراسته عن نيتشه وبرغسون ، ومآسٍ عدة اشهرها « ميليسا »

و « تيتيوس » ، ودواويـن شعرية ، اهمهـا « الاوذيسة » وهي ملحمة مـن (۳۳و۰۰۰) بيت تبدأ من حيث انتهت اوذيسة هوميروس ٠

ومن بيـن رواياته يجب ان نذكر : « الثعبـان والزنبقة » و « النفوس المحطمة » و « المسيح الذي اعيد صلبه » و « التجربة الاخيرة » ، و « القبطان ميشيل » أو « الحرية أو الموت » و « باكس وبونوم » ٠ وقد كتـب روايتين باللغة الفرنسية مباشرة : « تودار بارا » و « حديقة الصخور » ٠ ولا شك في ان اهم رواياته على الاطلاق هي الرواية التي بين يدي القارىء والتي ترجمت الى العديد من اللغات الحية ٠ وقد اخرج عدد من رواياته الى السينما ، كما رشح عدة مرات لنيل جائزة نوبل ٠

وأخيراً ، فان نيكوس كازنتزاكي قد ترجم عدداً من الكتب الهامة الى اليونانية الحديثة عن الفرنسية والاسبانية والانجليزية ، والايطالية ، والالمانية٠ وأهم ترجماته هي : الكوميـديا الالهية لدانتي (شعرا) ، وفاوسـت لغوته (شعراً) ، وهكذا تكلم زرادشت لنيتشه ٠

- ١ -

التقيت به لأول مرة في ميناء «بيريه» • كنت أقصد المرفأ لأستقل المركب الى كريت • كان النهار على وشك الطلوع • والسماء تمطر • وثمة ريح جنوبية شديدة تهب ، ورذاذ الامواج يصـــل حتى المقهى الصغير • كانت الابواب الزجاجية مغلقة ، والجو عبقاً بالعفونة البشرية وبنقيع القويسة المغلي • كان الطقس بارداً في الخارج ، وزفير الانفاس يندي الزجاج • وكان ثمة اربعة أو خمسة من البحارة من الذين سهروا الليل بأكمله ، ملتفيـن في صداريهـــم القاتمة ، المصنوعة من وبر الماعز ، يحتسون القهوة او القويسة وينظرون الى البحر عبر الزجاج الكابي • وكانت الاسماك التي سببت لها الدوار ضربات البحر قد وجدت مخبأ في مياه الاعماق الهادئة ، حيث كانت تنتظر ان تعود السكينة الى السطح • وكان الصيادون المتجمعون في المقاهي ينتظرون بدورهم نهاية العاصفة وعودة الاسماك ، مطمئنة ، الى السطح لتعض الطعم • وكانت اسماك الموسى وشياطين البحر والورنك تعود من رحلاتها الليلية • والنهــار يشرق •

وانفتح الباب الزجاجي ، ودلف منه عامل قصير ، دبغي اللون ، عاري الرأس ، عاري القدمين ، ملوث من رأسه الى اخمص قدميه •

وهتف نوتي مسن يرتدي ثوبا بلون الافق الازرق :

ـ مرحباً ! يا كوستاندي • كيف حالك ايها الشيخ ؟

وبصق كوستاندي • وأجاب بفظاظة :

ـ وكيف تريدني ان أكون ؟ صباح الخير ايها الحان ، مساء الخير ايها المنزل • صباح الخير ايها الحان ، مساء الخير ايها المنزل ! تلك هي حياتي •

وأخذ بعضهم يضحك ، بينما هز آخرون برؤسهم وهم يجدفون ·

وقال رجل له شارب ، درس الفلسفة على يد « القراقوز » :

ـ العالم سجن مؤبد · نعم سجن مؤبد ، عليه اللعنة !

وغمر الزجاج القذر نور شاحب هادىء يتـأرجح بين الازرق والاخضر ، ودلف الى المقهى ، وتعلق بالايدي والانوف ، والجباه ، ثم قفز الى المدفأة واضاء الزجاجات · ووهنت الانوار الكهربائية ، وقدم صاحب المقهى يده باسترخاء بعد تلك الليلة البيضاء ، واطفأ النور · وسادت لحظة صمت · وارتفعت جميع العيون ونظرت الى النهار الموحل في الخارج · وسمعت الامواج وهي تتحطم هادرة ، وقرقرة بضع نارجيلات داخل المقهى ·

وتنهد النوتي المسن :

ـ قل ! ما الذي يمكن ان يكون قد حدث للكابتن ليموني ؟ ليكن الله في عونه !

والقى نظرة غضبى على البحر · ثم صرخ :

ـ يا للبحر اللعين ، صانع الارامل !

وعض على شاربه الرمادي ·

كنت جالساً في احدى الزوايا ، والبرد يتأكلني ، وطلبت قدحاً ثانياً من القويسة · كنت أرغب في النوم ، واغالب النعاس والتعب وكآبة الفجر · وأرنو عبر الزجاج الندي الى المرفأ الذي أخذ يستيقظ ويزعق بصافرات البواخر ، وبصراخ سائقي العربات والملاحين · ومـع ادامة النظر ، اطبقـت على قلبي ، بخيوطها المشدودة ، شبكة خفية حبكت من البحر والمطر والرحيل ·

كانت عيناي عالقتين بمقدمة مركب كبير أسود ، وكان هيكله كله لا يزال غارقا في الليل · كانت السماء تمطر ، بينما كنت ألمح خيوط المطر تربط السماء بالوحـل ·

كنت انظر الى المركـب الاسود ، والظلال ، والمطر ، وتجسَّدت كآبتي · وعاودتني الذكريات · وفي الجو الندي راح يتحدد وجه الصديق الحبيب من خلال المطر والتأسفات · أكان ذلك في العام الماضي ؟ في دنيا أخرى ؛ البارحة ؟ متى نزلت الى هذا المرفـأ لأودّعه ؟ انني لا أزال اذكر المطر ايضـا ، والبرد ،

والفجر . في تلك المرة ايضا كان قلبي مثقلا .

يا لمرارة الافتراق ببطء عن الاحباء ! من الافضـــل الانقطاع عنهـم مرة واحدة ، والعودة الى الوحدة ، وهي جو طبيعي للانسان . ومع ذلك ، في ذلك الفجر الممطر ، لم أكن لأستطيع الانفصال عن صديقي . (فيما بعد ، فهمـــت لماذا ، بعد فوات الاوان مع الاسف) . لقد صعدت معه الى المركب ، وجلست في مقصورته ، بين الحقائب المتناثرة . كنت انظر اليه ملياً وبالحاح ، بينما كان انتباهه منصرفا الى مكان آخر ، وكأنني أود ، ان اسجل ملامحه ، الواحد تلو الآخر ، في ذاكرتي : عينيـــه المضيئتين بلون أزرق اخضر ، ووجهـه المليء ، والتعبير النفاذ المترفع المرتسم عليه ، وفوق كل شيء ، يديه الارستقراطيتين بأصابعهما الطويلة النحيلة .

وفجأة ، باغت نظرتي الجشعة البطيئة المنسابة عليه . فالتفت وعلى وجهه تلك السخرية التي يلجأ اليها عندما يريد أن يخفي انفعاله . ونظر الي . وفهم . وسألني بابتسامة ساخرة ليخفي كآبتنا :

ـ الى متى ؟

ـ ماذا : الى متى ؟

ـ ... هل ستستمر في مضغ الورق والتلوث بالحبر ؟ تعالَ معي ، أيها المعلم العزيز . هناك ، في القوقـاز ، آلاف البشر من عِرْقنـا في خطر . هيا لانقاذهم .

وأخذ يضحك وكأنه يريد الهزء من مقصده النبيل . وأضاف :

ـ من الممكن ألا نستطيع انقاذهم . ولكننا سننقذ انفسنا بمحاولتنا انقاذ الآخرين . أليس هذا ما تعظ به ، أيها المعلم ؟ « الطريقة الوحيدة لانقاذ نفسك هي ان تناضل لانقاذ الآخرين ... » . اذن ، الى الامام ، أيها المعلم ، انت الذي تعظ جيدا جدا . تعال !

ولم أجب بشيء . يا أراضي الشرق المقدسة ، يا أم الآلهة ، أيتها الجبال العالية حيث تعالت صيحات بروميثيوس المستنكرة . ان عرقنا المسمَّر مثله على هاتيك الصخور نفسها ، كان ينادي . كان يواجه الخطر مرة أخرى ، وينادي أبناءه لنجدته . وكنت انا أصغي اليه ، غير مبالٍ ، وكأن الألم لم يكن الا حلماً والحياة مأساة آسرة ، يثبت فيها من يسرع الى المسرح ويأخذ حصته من العمل ، غلاظته وسذاجته .

ونهض صديقي ، دون ان ينتظر جواباً . لقد صفر المركب للمرة الثالثة .

ومد لي يده ، مخفيا مرة اخرى انفعاله تحت ستار السخرية ، قائلا :
ـ الى اللقاء أيها الفأر قارض الورق !
كان صوته يرتجف · كان يعرف انه لأمر يدعو الى الخجل ألا يستطيع السيطرة على قلبه · الدموع ، الكلمـات الرقيقة ، الحركـات المضطربة ، والعواطف المبتذلة ، كل ذلك كان يبدو له ضعفاً ولا يليق بالانسان · اننا لم نتبادل قط ، نحن اللذين كنا نحب بعضنا بعضاً كثيراً ، اية كلمة تودد · كنا نمثل ونتخادش كما تفعل الحيوانات · هو ، الانسان الرقيق ، السـاخر ، الدمث · وانا ، البربري · هو ، الذي يسيطر على نفسه ، ويستنفذ بسهولة كل انفعالات روحه بابتسامة · وانا ، الجلـف ، الذي ينفجر بضحكة خرقاء وحشية ·
وحاولت ، انا ايضاً ، ان أخفي اضطرابي تحت ستار كلمة قاسية ، الا انني شعرت بالخجل · لا ، ليس لأنني شعرت بالخجل ، ولكنني لم أستطع · وشددت على يده · وتشبثت بها ، ولم أتركها · ونظر اليّ ، دهشاً · ثم قال وقد ارتسم على شفتيه شبح ابتسامة :
ـ أمنفعل ؟
فأجبته بهدوء : نعم ·
ـ لماذا؟ ما الذي قررناه؟ ألم نتفق منذ عدة سنوات؟ ماذا يقول اليابانيون الذين تحبهم كثيراً ؟ « فودوشيم » !
سكينة ، اطمئنان ، وعلى الوجه قناع مبتسم لا يتحرك · اما ما يجري وراء القناع ، فهذا من شأننا ·
فأجبت من جديد : « نعم » وانا أحاول ألا احرج نفسي بالقـاء جملة طويلة · لم أكن واثقاً انني أستطيع منع صوتي من الارتجاف ·
وتعالى صوت الجرس ، يطرد الزوار ، من مقصورة لأخرى · كان المطر يهطل بهدوء · وامتلأ الجو بكلمات الوداع الحزينة ، وبالايمـان ، وبالقبلات الطويلة ، وبالتوصيـات السريعة اللاهثة · كانت الأم تتهـافت على ولدها ، والمرأة على زوجها ، والصديق على صديقه · وكأنهم يفترقون للأبد · وكأن هذا الفراق يذكرهم بالفراق الآخر ، « الفراق الكبير » · وتعالى الصوت العذب فجأة ، مـن المؤخرة الى المقدمة ، في الهواء الرطـب ، كنـاقوس جنـائزي · وارتعدت ·
ومال صديقي اليّ ، وقال بصوت منخفض :

ـ أصغ ، أينذرك قلبك بشرّ ؟
فأجبت :
ـ نعم •
ـ أتؤمن بمثل هذه الترّهات ؟
فأجبت برباطة جأش :
ـ كلا •
ـ اذن ؟
لم يكن ثمة مجال لـ « اذن » • انني لا اؤمن ، لكنني كنت خائفا •
ووضع صديقي يده اليسرى على ركبتي بلطف ، كما اعتاد أن يفعل في اللحظة الاكثر وداً من مناقشاتنا • كنت أدفعه لاتخاذ قرار ما ، وكان يقاوم ، ويرفض ، ليستسلم في النهاية ، وعندئذ يلمس ركبتي وكأنه يريد ان يقول : « سأفعل ما تريد ، من أجل الصداقة ••• » •
وطرفت جفونه مرتين أو ثلاثاً • وحدق فيّ من جديد • لقد فهم انني كنت حزيناً ، وتردد في استعمال اسلحتنا المفضلة : الضحك ، والابتسام ، والسخرية ••• وقال :
ـ حسناً • اعطني يدك • اذا ما واجه احدنا خطر الموت •••
وتوقف ، كأنه شعر بالخجل • نحن اللذين كنا نسخر ، منذ سنوات ، من هذه « الغارات » الميتافيزيقية بالنباتيين ، والروحيين ، والمتصوفين ، ومحضري الارواح •••
وسألته وأنا أحاول ان أحزر :
ـ اذن ؟
فأجاب بسرعة ليخرج من الجملة الخطرة التي وضع نفسه فيها :
ـ لنأخذ الامر على سبيل اللهو • اذا ما واجه احدنا خطر الموت ، فليفكر بالآخر بالحاح كثير ، ليحذّره ، حيثما كان ••• اتفقنا ؟
وحاول ان يضحك ، لكن شفتيه لم تتحركا ، وكأنهما قد جمدتا • فقلت :
ـ اتفقنا •
واسرع صديقي يضيف ، وقد خشي أن يكون قد اظهر اضطرابه كثيراً :
ـ انني لا اؤمن مطلقاً ، بالتأكيد ، بمثل هذه الاتصالات الهوائية بين الارواح •••
فتمتمت :

ـ هذا لا يهم . ليكن . . .
ـ حسناً . اذن ، فليكن . لنمثّل . اتفقنا ؟
فأجبت من جديد :
ـ اتفقنا .

كانت تلك آخر كلماتنا . وتصافحنا دون أن نفوه بشيء ، والتقت اصابعنا ، بحرارة ، ثم افترقت فجأة ، وغادرته بخطا سريعة دون ان التفت ، وكأنني مطارد . وبدرت مني حركة لأدير رأسي وأرى صديقي للمرة الاخيرة ، لكنني تمالكت نفسي . وأمرتها : « لا تلتفت ! امشِ ! »

ان الروح الانسانية ، المتمرغة في الجسد ، لا تزال في الحالة الخام ، غير كاملة . انها عاجزة ، بما في ملكاتها من نقص في التطور ، عن التنبؤ بشكل واضح وأكيد . ولو كانت قادرة على ذلك ، لكان ذلك الفراق مختلفا جداً . كان الضوء ينبلج أكثر فأكثر . واختلط الصباحان . انني أرى الآن بشكل أوضح وجه صديقي الحبيب ، الذي بقي تحت المطر ، ساكناً ، حزيناً ، في جو المرفأ . وانفتح باب المقهى ، وهدر الموج ، ودخل بحـار ، قصير ، منفرج الساقين ، له شاربان متدليان . وتعالت أصوات ، مرحة :

ـ مرحباً ايها الكابتن ليموني !

وانزويت ، محاولا تثبيت الرؤية من جديد . لكن وجه صديقي كان قد ذاب في المطر .

كان الضوء يزداد ، وأخرج الكابتن مسبحته المكهربة وراح يمرّرها تحت ابهامه ، بقسوة وصمت . كنت اقاوم كي لا أرى ، كي لا اسمع وكي اتشبث اكثر فأكثر بالرؤية التي كانت تتلاشى . أن اعيش مرة أخرى ايضا ذلك الغضب الذي تملكني آنذاك ، غضباً يمازجه الخجل ، حين دعاني صديقي بـ « الفأر قارض الورق » ! وانني لأذكر منذ ذلك الحين ان كل قرفي من الوجود الذي كنت اعيشه قد تجسّد في هذه الكلمة . كيف تركت نفسي أتيه ، منذ زمن طويل ، انا الذي كان يحب الحياة كثيراً ، بين تلك الاكداس من الكتب والاوراق المسودة ! لقد ساعدني صديقي ، في يوم الفراق ذاك ، على الرؤية بوضوح . فاطمأننت . أما وقد أصبحت الآن اعرف اسم شقائي ، فلعلني سأستطيع ان أقهره بسهولة أكبر . ان شقائي لم يعد متفرقاً وغير متجسد ، لقد دخل في الكلمة ، لقد تجسّد وأصبح من السهل عليّ مقاومته .

لقد تغلغلت هذه الكلمة فيّ بالتأكيد، دون ضجة، ورحت أبحث منذ ذلك

الحين عن ذريعة لأهجر الاوراق والقي بنفسي في العمل • لقد كان يقرفني ان تسكن بين اثاث بيتي تلك الحشرة القراضة البائسة • وها قد سنحت لي ، منذ شهر ، تلك الفرصة التي طالما تمنيتها • لقد استأجرت على أحد شطآن جزيرة كريت ، من جانب بحر ليبيا ، منجماً قديماً مهجوراً للينيت ، وسأذهب الآن لأعيش مع بشر بسطاء ، وعمال ، وفلاحين ، بعيداً عن جنس الفئران قارضة الورق • وهيأت لوازم الرحيل ، وانا بالغ الانفعال ، وكأن هذا السفر يخفي وراءه معنى من المعاني • لقد قررت أن أبدل طريقة حياتي • وقلت لنفسي : « حتى اليوم يا نفسُ ، لم تكوني لتريْ سوى الظل ، وكنت تكتفين به ، أما الآن فسأقودك الى الجسد » •

لقد اصبحت مستعداً أخيراً • وعشية رحيلي ، وبينما كنت افتش بين أوراقي ، وجدت مخطوطا لم ينته بعد • فأخذته ونظرت اليه ، بتردد • منذ سنتين ، في اعمق اعماق نفسي ، كانت ثمة رغبة كبيرة ترتعش : بوذا • كنت احس بها في كل لحظة في احشائي تتأكلني وتنضج • كانت تنمو ، وتتحرك ، ثم أخذت ترفسني في صدري لتخرج • والآن لم اعد اجرؤ على الالقاء بها • انني لا استطيع ذلك • لقد فات الاوان لمثل هذا الاجهاض الروحي •

وفجأة ، وبينما انا ممسك بالمخطوط بتردد ، ارتسمت ابتسامة صديقي في الهواء ، مليئة بالسخرية والحنان • فقلت وقد لسعت : « سآخذه ، سآخذه ، لا تبتسم ! » • ولففته بعناية ، كطفل في قماطه ، وحملته •

وتناهى الي صوت الكابتن ليموني ، وقوراً وجافاً • وأصغيت • كان يتحدث عن العفاريت التي تسلقت اثناء العاصفة صواري مركبه وراحت تلعقها •

كان يقول :

ـ انها لدنة ولزجة ، وعندما يلمسها الانسان يحسّ بالنار في يديه • ورفعت رأسي دفعة واحدة ، وطوال الليل كنت ألمع كشيطان • عند ذاك ، وكما قلت لكم ، دخل الماء الى مركبي • وتبللت شحنتي ، وثقلت ، ومال مرْكبي • لقد قضي علي • لكن الاله الرحيم اشفق عليّ وأرسل لي صاعقة طيبة ، حطمت مصاريع كوى المخزن وسقط الفحم • امتلأ البحر بالفحم ، وخف ثقل المركب ، وعند ذاك انتصب من جديد • وهكذا انقذت نفسي في هذه المرة أيضا •

أخرجت من جيبي كتاب دانتي الصغير ، « رفيق السفر » • واشعلت غليوني ، واسندت ظهري الى الجدار ، وجلست مرتاحاً • وترددت رغبتي

لحظة : من أين أنهل الاشعار ؟ من قار الجحيم المحرق ، من شعلة المطهر المبردة، أو اطير رأساً الى أعلى طابق للأمل البشري ؟ كان لي الخيار • وكنت امسك بكتاب دانتي الصغير ، واتذوق حريتي • ان الاشعار التي سأختارها في هذا الصباح الباكر ستعطي الايقاع ليومي كله •

وانحنيت على الرؤية الكثيفة لاتخذ قراراً ، لكن الوقت فاتني • ورفعت رأسي ، فجأة ، قلقاً • لست ادري كيف ، فقد شعرت ان ثقبين انفتحا في أعلى جمجمتي ، واستدرت فوراً ، ونظرت خلفي خلال الباب الزجاجي • وبسرعة البرق ، عبر نفسي الأمل المجنون برؤية صديقي ثانية • كنت على استعداد لتلقي المعجزة • لكن المعجزة لم تحدث • كان ثمة شخص مجهول ، يقارب الستين ، طويل القامة جداً ، نحيل ، جاحظ العينين ، قد الصق أنفه بالزجاج وراح ينظر اليّ ، وكان يمسك بصرة صغيرة مسطحة تحت ابطه •

ان ما أثارني فيه أكثر من أي شيء آخر ، هو عيناه ، الحزينتان ، القلقتان ، الهازئتان ، المتألقتان • أو هكذا بدتا لي على الاقل •

وما ان تصالبت انظارنا ـ وكأنه كان يتأكد من انني أنا الذي يبحث عنه ـ حتى مدّ المجهول يده بحزم وفتح الباب • ومر بين الموائد بخطا سريعة ومرنة وتوقف امامي • ثم سألني :

ـ أمسافر ؟ الى اين اذن ؟

ـ الى كريت • لماذا ؟

ـ أتأخذني معك ؟

ونظرت اليه باهتمام • خدان اجوفان ، وفك قوي ، ووجنتان ناتئتان ، وشعر رمادي مجعد ، وعينان يقدح منهما الشرر •

ـ لماذا ؟ ماذا تريد ان افعل بك ؟

فهزّ كتفيه وقال باحتقار :

ـ لماذا ! لماذا ! ألا نستطيع ان نفعل شيئا دون لماذا ؟ من أجل لا شيء ، لمجرد اللذة ! حسناً ، خذني معك ، ولنقل ، كطباخ • انني احسن صنع الحساء بأنواعها !

ورحت اضحك • ان حركاته وكلماته القاطعة اعجبتني • والحساء أيضا • وقلت في نفسي : ليس ثمة ضرر من أخذ هذا المخلوع الساذج معي الى ذلك الشاطىء البعيد المنعزل • حساء ، واحاديث ••• يبدو عليه انه قد جاب البحار كثيراً • انه اشبه بالسندباد البحري ••• لقد اعجبني •

وقال لي وهو يهز رأسه الضخم :

ـ بماذا تفكر ؟ انك توازن بين الربح والخسارة ، انت ايضا ، اليس كذلك ؟ حوالي غرام واحد تقريباً ، أليس هذا صحيحاً ؟ هيا ، قرّر ، وتشجع !

كان العملاق الكبير يقف فوقي ، وتعبت من رفع رأسي اليه لأكلمه · فأغلقت كتاب دانتي · وقلت :

ـ اجلس · أتشرب قدحاً من القويسة ؟

فجلس ، ووضع بحذر صرّته على المقعد المجاور ، وقال باحتقار :

ـ قويسة ؟ كأس روم ، ايها السيد !

واحتسى كأس الروم . بجرعات صغيرة ، وهو يحتفظ به في فمه طويلا ليتلذذ به ، ثم يتركه ينساب ببطء ليدفيء احشاءه ·

وقلت في نفسي : « شهواني ، خبير ماهر ··· » · وسألته :

ـ ما مهنتك ؟

ـ كل المهن : بالرجل ، واليد ، والرأس ، كل شيء · ولا ينقصني الا ان اختـار ·

ـ أين كنت تعمل ، في المدة الاخيرة ؟

ـ في منجم · انني عامل خبير في المناجم ، لو تعرف · وخبير في المعادن، أعرف كيف أجد العروق ، وأشق الانفاق ، وأهبط الى الآبار ، ولا أخاف · كنت أعمل جيداً ، اذ كنت رئيسا للعمال ، ولم يكن ثمة شيء أشكو منه · مساء السبت الماضي ، شربت ، لم أسكر ، بل كنت بين بين ، وذهبت الى صاحب العمل الذي جاء في ذلك اليوم للتفتيش وضربته ···

ـ ضربته ؟ لماذا ؟ ما الذي فعله لك ؟

ـ لي ؟ لا شيء ! لا شيء مطلقاً ، أؤكد لك ذلك ! كانت المرة الأولى التي أراه فيها · بل لقد وزع علينا سجائر ·· المسكين ·

ـ اذن ؟

ـ أواه ! انك تكثر من هذه الاسئلة ! لقد خطر لي ذلـك هـكذا ، أيها الشيخ ! أتعرف قصة زوجة الطحان ، حسناً ! هل كان قفـا زوجة الطحـان يعرف الاملاء ؟ ان قفا زوجة الطحان هو العقل البشري ·

لقد قرأت كثيراً من التعاريف للعقـل البشري · وبدا لي هذا التعريف أكثرها غرابة وأعجبني · ونظرت الى رفيقي الجديد باهتمـام شديـد · كان وجهه مليئاً بالغضون ، تعباً ، وكأن العواصف والأمطار قد تأكلته · ثمة وجه آخر أوحى لي بالانطباع نفسه ، بعد عدة سنوات ، وبدا لي كأنه من الخشب

المنحوت المتألم : انه وجه بانائيت استراتي (١) ·

ـ وماذا لديك في صرتك ؟ مؤونة ؟ ثياب ؟ أدوات ؟

فهز رفيقي كتفيه وضحك قائلا :

ـ كل شيء فيك يبدو لي منطقياً ، مع احترامي لك ·

وداعب الصرة بأصابعه الطويلة القاسية وأضاف :

ـ كلا ، انه سانتوري (٢) ·

ـ سانتوري ؟ أتعزف على السانتوري ؟

ـ عندما أكون مفلساً ، أجول في الخمارات ، وأنا اعزف على السانتوري · انني انشد اغاني ماسيدونية قديمة ، ثم اجمع النقود في هذه القبعة ، وتمتلىء بالقروش الكبيرة ·

ـ مـا اسمك ؟

ـ الكسيس زوربا · ويدعونني ايضاً « مجرفة الفرن » من بـاب المزاح بسبب طـولي وجمجمتي المسطحة كالكعـكة · الا انهم أحرار في ان يقـولوا ما يشاؤون · ويدعونني ايضاً « تمضية الوقت » لأنني كنت أبيع ، في يـوم من الأيام ، بزر اليقطين المحمص · ويدعونني ايضاً « ميلديو » اذ يبدو انني أسبب الأضرار حيثما ذهبت · ولي ايضاً ألقاب اخرى ، ولكنني سأخبرك بها في مرة قادمة ···

ـ وكيف تعلمت العزف على السانتوري ؟

ـ كنت في العشرين · عندما سمعت لأول مرة عزفا على السانتوري ، وذلك في احد أعياد قريتنا ، هناك ، عند سفح الاولمب · وانبهرت أنفـاسي · ولم آكل شيئاً ، خلال ثلاثة ايام · وعندما سألني والدي ذات مساء : « ما بك ؟ » أجبت : « أريد ان اتعلم عزف السانتوري » !

ـ ألا تخجل ؟ أأنت غجري ؟ أتريد أن تصبح عازفاً ؟

ـ نعم أريد ان أتعلم عزف السـانتوري ! · كنت أملك بضعة قروش ادخرتها كي أتزوج عندمـا يحين الوقت · كنت لا ازال غلاماً بعد ، طـائشاً أشعر بالحرارة في دمي ، واريد الزواج ، انا الملعون المسكين ! وهكذا دفعت كل ما أملك واشتريت سانتوري · هـا هو · وهربت به ، واتيت سالونيك وذهبت لرؤية شخص تركي ، يدعى رتسب افندي ، وهو استاذ ماهر في عزف

---

١ ـ كاتب يوناني معاصر · من رواياته المشهورة « كيرا كيرالينا » · « المترجم »

٢ ـ آلة موسيقية وترية · « المترجم »

السانتوري . وألقيت بنفسي على قدميه . وعندما سألني : « ماذا تريد ، ايها الرومي الصغير ؟ » أجبت : ـ اريد تعلم العزف على السانتوري . ـ حسناً ، فلماذا تلقي بنفسك اذن على قدمي ؟ ـ لأنني لا أملك قرشاً واحداً ادفعه لك ! ـ اذن أ الى هذا الحد أنت مهووس بالسانتوري ؟ ـ نعم . ـ حسناً ، ابق اذن ، يا صغيري ، فأنا لست محتاجاً لأن تدفع لي ! » .

وبقيت سنة عنده ادرس ، ولا بد انه قد مات الآن . واذا كان الله يسمح بدخول الكلاب الى فردوسه ، فمن الممكن ان يفتح الباب لرتسب افندي . ومنذ ان تعلمت العزف على السانتوري ، انقلبت الى رجل آخر . فعندما تسودّ الدنيا في عينيّ ، او عندما افلس ، اعزف السانتوري فتتحسن حالي . وقد يحدثونني عندما اعزف ، لكنني لا اسمع ، وحتى اذا سمعت ، فانني لا استطيع الحديث . لقد حاولت كثيراً ، لكن عبثاً ، انني لا استطيع !

ـ لكن لماذا ، يا زوربا ؟

ـ آه ! الهوس !

وانفتح الباب . ودخل هدير البحر مرة اخرى الى المقهى ، وكانت أرجلنا وايدينا قد تجمدت من البرد . وازددت انزواء في ركني وتلففت بمعطفي ، وأحسست بلذة كبيرة . وقلت في نفسي : « الى اين اذهب ؟ انني مرتاح هنا . ليت هذه الدقيقة تدوم سنوات » .

ونظرت الى الشخص الغريب الذي امامي . كانت عيناه تحدقان فيّ ، عينان صغيرتان مستديرتان ، سوداوان ، وفي بياضهما أوعية شعرية حمر . كنت احس بهما تنفذان فيّ ، وتنقبان في داخلي دونما شبع ، وقلت :

ـ اذن ؟ ثم ماذا ؟

فهز زوربا من جديد كتفيه البارزة عظامهما ، وقال :

ـ دعك من هذا . أتقدم لي سيجارة ؟

وقدمتها له . واخرج من صدريته حجر صوان ، وفتيلة ، واشعلها ، واغلق عينيه نصف اغلاقة ، مسروراً .

ـ هل تزوجت ؟

فقال مغيظاً :

ـ انني رجل . انني رجل ، اي أعمى . انا ايضاً وقعت في الفخ ، وعلى رأسي اولا ، كجميع الناس . فتزوجت . وسرت في المنحدر السيء . واصبحت رب أسرة . وبنيت بيتاً . وصار لي اطفال . وازعاجات . ولكن ليتقدس السانتوري !

ـ كنت تعزف في بيتك لطرد الهموم ، أليس كذلك ؟

ـ آه ! يا صديقي ! مـن الواضح انك لا تعزف على اية آلة ! مـا الذي تقوله لي ؟ في البيت ، المتاعب ، والمرأة ، والأطفال • ماذا سنأكل ؟ ما الـذي سنرتديه ؟ ما الذي سنصير اليه ؟ يـا للجحيم ! كلا ، كلا ، يجب ان تكون متفرغاً لعزف السانتوري ، يجب ان تكون صافياً • فاذا مـا قالت لي امرأتي كلمة زائدة ، فكيف تريـد ان يكون لي قلب لعزف السـانتوري ؟ واذا كان الاطفال جائعين ينوحون ، فحاول اذن ان تعزف • كي تعزف السانتوري ، لا بد ان يكون رأسك عند السانتوري ، لا في مكان آخر ، أفهمت ؟

وفهمت ان زوربا هذا هو الرجل الذي ابحث عنه منذ مدة طويلة دون ان اجده • قلب حي ، فم واسع نهم ، روح خام كبيرة •

ان معنى كلمات الفن ، والحب ، والجمال ، والطهـارة ، والهوى ـ راح هذا العامل يوضحها لي بكلمات انسانية كأبسط ما تكون •

• ونظرت الى يديه اللتين تعرفان كيف تمسكان بالمعول والسـانتوري ـ يدان جاسئتان ، مشققتان ، مشوهتان وعصبيتان • وبحذر وحنان ، وكأنهما تخلعان ثياب امرأة ، فتحتـا الصرة واخرجتا منهـا سانتوري عتيقـا صقلته السنون ، مع مجموعة من الأوتار ، مبطناً بالنحاس والعاج ، له طرة من الحرير الأحمر • وراحت الأصابع الطويلة تداعبه كله ، ببطء وبانفعال ، وكأنها تداعب امرأة • ثم غلفتاه من جديد كأنهما تغطيان جسداً حبيباً خشية البرد • وتمتم وهو يضعه بحذر على المقعد :

ـ هي ذي آلتي !

كان البحارة يقرعون كؤوسهم ويقهقهون • وربت العجوز برفق ومودّة على ظهر الكابتن ليموني •

ـ انك خائف ، أليس كذلك ايها الكابتن ليموني ، قـل الحقيقة ! الله يعلم كم من الشموع قدوعدت بها القديس نيقولا !

وقطب الكابتن حاجبيه الكثيفين :

ـ اقسم لكم بالبحر ايها الرفاق ، انني عندمـا واجهني الموت ، لم افكر بالعذراء القديسة ولا بالقديس نيقولا ! بل التفتّ الى ناحية سالامين ، وفكرت بامرأتي وصرخت : « آه ! يا كاترينا الطيبة ، ليتني كنت في فراشك ! » •

وانفجر البحارة مرة اخرى ضاحكين وضحك الكابتن ليموني ايضاً • وقال :

ـ يا للانسان من حيوان غريب ! كان ملاك الموت فوق رأسه مع سيفه ،

لكن روحه كانت هناك ، هناك بالضبط وليس في مكان آخر ! تباً له ! ليأخذه الشيطان ، ذلك الخنزير !

وضرب بيديه صارخاً :

ـ ايها المعلم ، اسقِ الرفاق !

كان زوربا يصغي ، واذناه الكبيرتان ممدودتان · واستدار ، ونظر الى البحارة ، ثم الي ، وسأل :

ـ اين هناك ؟ ما الذي يقوله هذا الشخص ؟

ولكنه فجأة فهم وقفز ، وقال باعجاب :

ـ مرحى ! ايها الصديق ! ان هؤلاء البحارة يعرفون السر · ولعل ذلك لأنهم يناضلون ضد الموت صبحاً ومساء ·

وحرك في الهواء يده الكبيرة ، وقال :

ـ حسناً ! تلك قصة أخرى · لنعد الى قصتنا : أأذهب أم ابقى ؟ قرّر ·

فقلت ، وانا أمسك نفسي كي لا القي بها بين ذراعيه :

ـ زوربا ··· زوربا ، اتفقنا ؟ ستأتي معي · عندي لينيت في كريت ، وستراقب العمال · وعند المساء سنتمدد كلانا على الرمل ـ ليس لي في العالم شيء : لا امرأة ، ولا اطفال ، ولا كلب ـ ونأكل ونشرب معاً · ثم ، ستعزف على السانتوري ···

ـ ··· اذا كنت مستعداً له ، فسوف تسمع ، شرط أن تكون مستعداً له حقاً · أن أعمل لك ، فلك ذلك · فأنا رجلك · لكن السانتوري شيء آخر · انه حيوان وحشي ، وهو بحاجة الى الحرية · اذا كنت مستعداً له فانني سأعزف ، بل سأغني · وسأرقص ، كل انواع الرقص ، لكنني اقول لك بصراحة : يجب ان أكون مهيأ · ان الحسابات الطيبة تخلق الاصدقاء الطيبين · فاذا اجبرتني ، انتهى آلامر · يجب ان تعلم : انني ، بخصوص هذه الاشياء ، انسان ·

ـ انسان ؟ ماذا تعني ؟

ـ ما الغرابة ؟ اعني حراً !

فناديت :

ـ ايها المعلم ، كأساً اخرى من الروم !

فهتف زوربا :

ـ كأسين من الروم ! ستشرب كأساً ، أنت ايضاً ، وسنقرع كأسينا ·

القويسة والروم ، هذان لا يتفقان • سنشرب قدحاً من الروم ، انت ايضاً ، لندعم اتفاقنا •

وقرعنا الكأسين الصغيرتين • في هذه المرة ، كان النهار قد اشرق وراح المركب يصفر • وأشار لي النوتي الذي حمل حقائبي الى المركب • فقلت وأنا انهض •

ـ ليكن الله معنا • هيا !

ـ ••• والشيطان !

أتم زوربا جملتي بهدوء • ثم انحنى ، ووضع السانتوري تحت ذراعه ، وفتح الباب وخرج قبلي •

- ٢ -

البحر ، والعذوبة الخريفية ، والجزر المغرقة بالنور ، والحجاب الشفاف من المطر الصغير الناعم الذي يغطي عري اليونان الأبدي • وقلت في نفسي : ما أسعد الانسان الذي أتيح له ، قبل أن يموت ، أن يمخر عبر بحر ايجه •

عديدة" هي أفراح هذا العالم ـ النساء ، والفواكه ، والأفـكار • أما أن تشق عبـاب هذا البحر ، في فصل خريفي حنـون ، وانت تتمتم بـاسم كل جزيرة ، فأنا لا اعتقد ان ثمة فرحاً كهذا يغرق قلب الانسان في الفردوس • وعلى كل ، فليس ثمة مكان آخر يمكن ان ينتقل فيه الانسان ، بهدوء وسهولة ، من الحقيقة الى الحلم ، كهذا المكان • وتضاءلت الحـدود ، وانطلقت صواري اقدم المراكب اغصاناً وعناقيد • وكأن المعجزة هنا ، في اليونـان ، هي زهرة الحاجة التي لا بد منها •

كان المطر قد انقطع عنـد الظهر ، ومزقت الشمس الغيـوم ، وظهرت ناعمة ، عذبة ، لم يمض وقت طويل على اغتسالها ، وداعبت بأشعتها الميـاه والأراضي الحبيبة • كنت أقف في مقدمة السفينة ، وانتشي ، حتى أعمـاق الأفق ، بالمعجزة •

كان على المركب يونانيون ، خبثـاء كالشيطان ، ذوو عيـون كاسرة ، وعقول تساوم طويلا على البضائع التافهة ، وثرثرة في السياسة والمخاصمات ، وبيانو غير متناسق الالحان ، ونساء شريفات وخبيثات • وكان يسود ذلك جو من البؤس القروي • ان الرغبة لتتملكك في أن تـأخذ المركب مـن طرفيه ، وتغرقه في البحر ، وتهزه بعناية كي تسقط عنه جميع تلك الحيوانـات التي تلوثه ـ من رجال ، وفئران وفسافس ـ ثم تعوّمه من جديد ، مغسولا ، طرياً ، فـارغاً •

ولكن الشفقة تملكتني اثناء ذلك • شفقة بوذية ، باردة كاستنتاج قياسي

ميتافيزيقي • شفقة لا على البشر فحسب ، بل على العالم أجمع ، العالم الذي يناضل ، ويصرخ ، ويبكي ، ويـأمل ولا يرى ان كل شيء ان هو الا محـاولة لاظهار الاشباح من العدم • شفقة على اليونان ، وعلى المركب ، وعلى البحر ، وعليّ ، وعلى منجم اللينيت ، وعلى مخطوط « بوذا » ، على كل تلك المركبّات الباطلة من الظل والنور التي تثير فجأة الجو الصافي وتلوثه •

كنت انظر الى زوربا ، وهو منهك ، شاحب ، وقد جلس على لفافة من الحبال في مقدمة المركب • كان يستنشق ليمونة ، ويمد أذنه الضخمة ويصغي الى الركاب وهم يختصمون ، الواحد مع الملك ، والآخر مع « فينيزيلوس » • وكان يهز برأسه الضخم ويبصق • وتمتم باحتقار :

ـ أقمار قديمة ! ألا يخجلون !

ـ وماذا تعني بأقمار قديمة ، يا زوربا ؟

ـ كل ذلك : ملوك وديموقراطيات ونواب • يا للمراءاة !

ان الاحداث المعاصرة لم تكن سوى أمور قديمة في روح زوربا ، مـا دام هو نفسه قد تجاوزها • ولا شك في ان البرق ، والمراكب البخارية ، وسكك الحديد ، والاخلاق السائدة ، والوطن ، والـدين ، كانت تبـدو ، في عقله ، كبنادق عتيقة صدئة • لقد كانت روحه تتقدم بأسرع مما يتقدم العالم •

كانت الحبال تصر على الصواري ، والشطآن ترقص ، وأصبحت النساء اشد صفرة مـن الليمـون • لقـد القين بأسلحتهن : الحمرة ، والمشـدات ، ودبابيس الشعر ، والامشاط ، وشحبت شفاههن ، وازرقت اظافرهن • كان ريش الغربـان العجـوز يتسـاقط ، والريش المستعار يتهـاوى : الشرائط الجفون ، ومشدات الصدور ـ وعند رؤيتهن على وشك التقيؤ ، يحس الانسان بالاشمئزاز وبشفقة كبيرة •

واصفر زوربا بدوره ، ثم اخضر ، وكبت عيناه المتألقتان • ولم يعد الى نظره تألقه الا عند المساء • ومد ذراعه وأراني درفيلين كانا يقفزان ، وينافسان المركب على سرعته • واضاف بمرح :

ـ درافيل !

ولاحظت للمرة الأولى ان ابهام يده اليسرى كانت مقطوعة الى منتصفها تقريباً • وارتعدت ، وقد تملكني نوع من الاستياء •

وصرخت :

ـ ما الذي حدث لاصبعك ، يا زوربا ؟

فأجاب ، وقد استاء من انني لم اتمتع كثيراً برؤية الدرفيلين :
ـ لا شيء !
فألححت قائلا :
ـ أهي آلة قد سحقتها ؟
ـ ما دخل آلتك في الموضوع ؟ لقد قطعتها بنفسي ٠
ـ بنفسك ؟ لماذا ؟
فقال وهو يهز كتفيه :
ـ انت لا تستطيع ان تفهم ، ايها الرئيس ! لقد قلت لك انني عملت في جميع المهن ٠ وذات مرة ، اشتغلت فخاراً ٠ ولقد احببت هذه المهنة ، كالمجنون٠ أتعرف ماذا يعني ان تأخذ كمية من الطين وتفعل منها ما تريد ؟ فررر ! تسيَّر الدولاب ويدور الطين كالممسوس بينما تقف انت فوقه وتقول : سأصنع جرة ، سأصنع صحفة ، سأصنع قنديلا وكل ما اريد ، مهما كان ! هذا ما يجعلك انساناً : الحرية !

لقد نسي البحر ، ولم يعد يعض على الليمونة ، وعادت عيناه صافيتين ٠ فسألته :
ـ حسناً ؟ واصبعك ؟
ـ كانت تزعجني على الدولاب ٠ وتأتي لتقف وسط كل شيء ، وتفسد عليّ خططي ٠ لذلك امسكت ذات يوم بالفأس ٠٠٠
ـ ألم تتوجع ؟
ـ كيف ، لم اتوجع ؟ انني لست أرومة شجرة ، انني انسان ، لقد اوجعتني ٠ ولكنها كانت تزعجني ، قلت لك فقطعتها ٠

غربت الشمس ، وهدأ البحر قليلا ، وانقشعت الغيوم ٠ ولمعت نجمة المساء ٠ ونظرت الى البحر ، ونظرت الى السمار ، ورحت افكر ٠٠٠ ان نحب هكذا ، ونأخذ الفأس ، ونقطع ، ونتألم ٠٠٠ لكنني أخفيت انفعالي ٠ وقلت وانا ابتسم :
ـ انها لطريقة سيئة ، يا زوربا ! انها تذكرني بقصة ترويها « الاسطورة الذهبية » ٠ ذات يوم ، رأى ناسك امرأة فأوقعت في نفسه الاضطراب ٠ فتناول عندئذ فأساً ٠٠٠

فقاطعني زوربا وقد حزر ما سأقول :
ـ يا للأحمق ! يقطع ذلك ! يا للأبله ! لكن ذلك المسكين ، ليس عقبة مطلقاً ٠

فقلت ملحاً :

ــ كيف ! بل انه عقبة كبيرة ٠

ــ امام ماذا ؟

ــ امام دخولك الى ملكوت السماوات ٠

فنظر اليّ زوربا مواربة ساخراً وقال :

ــ لكن ذلك هو بالضبط مفتاح الفردوس !

ورفع رأسه ، ونظر اليّ ملياً وكأنه اراد ان يتبين فكرتي من وراء ذلك : الحياة المستقبلة ، وملكوت السماوات ، والنساء والكهنة ٠ لكنه لم يستطع ، على ما يبدو ، ان يحزر شيئا كبيراً ٠ وهز بحذر رأسه الضخم الرمادي ٠ وقال :

ــ ان الخصيان لا يدخلون السماء !

ثم صمت ٠

وذهبت لأتمدد في مقصورتي ، وأخذت كتاباً ، كان بوذا لا يزال يتحكم في افكاري ٠ وقرأت « حوار بوذا والراعي » الذي كان يملأني ، في السنوات الاخيرة ، بالسلام والأمن ٠

« الراعي ــ لقد هيأت طعامي ، وحلبت نعجاتي ، ووضعت المزلاج على باب كوخي ، واشعلت ناري ٠ وأنت تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ــ انني لا احتاج مطلقاً الى الطعام او اللبن ٠ الرياح في كوخي ، وناري قد انطفأت ٠ وانت تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

الراعي ــ عندي جواميس ، وعندي ابقار ، وعندي مروج آبائي وثور قوي يحضن بقراتي ٠ وأنت ، تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ــ ليس عندي ثيران ولا ابقار ٠ وليس لي مروج ٠ ليس عندي شيء ٠ ولست اخشى شيئا ٠ وانت ، تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

الراعي ــ عندي راعية مطيعة ومخلصة ٠ انها امرأتي منذ سنوات ، وانا سعيد باللهو معها ليلا ٠ وانت ، تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء !

بوذا ــ لي روح مطيعة وحرة ٠ منذ سنين وانا ادربها واعلمها اللعب معي ٠ وانت تستطعين ان تمطري قدر ما تشائين ، ايتها السماء ! » ٠

كان هذان الصوتان لا يزالان يتكلمان ، عندما أخذني النعاس • وهبّت الريح من جديد ، وراحت الامواج تتكسر على النافذة الزجاجية السميكة • كنت اعوم كدخان بين النوم واليقظة • وانفجرت عاصفة عنيفة ، وإظلمت المروج ، وابتلعت الأمواج الجواميس والأبقار والثور القوي • وحملت الريح سقف الكوخ ، وانطفأت النار وصرخت المرأة وتهاوت ميتة في الوحل ، وبدأ الراعي مرثيته : كان يصرخ ، ولم اكن اسمع ما يقوله ، لكنه كان يصرخ ، بينما رحت انا ازداد غرقاً في النوم ، وانساب فيه كسمكة في البحر •

عندما استيقظت ، عند مطلع النهار ، كانت الجزيرة الكبيرة الرئيسية تمتد على يميننا ، مزهوة وحشية • والجبال الوردية الشاحبة تبتسم وراء الضباب تحت شمس الخريف • وحولنا كان البحر الازرق القاتم ثائراً هائجاً •

كان زوربا ، وقد تلفع بغطاء داكن ، ينظر دونما شبع الى كريت ، ونظره يطير من الجبل الى السهل ، ثم يمتد على طول الشاطىء ، ويتفحصه ، وكأن جميع هذه الاراضي وهذه البحار مألوفة بالنسبة له وكأنه تمتع باستعراضها مرة ثانية في فكره •

اقتربت ولمست كتفه ، وقلت :

ـ لا شك انها ليست المرة الأولى التي تأتي فيها الى كريت ، يازوربا ! انك تنظر اليها كصديقة قديمة •

وتثاءب زوربا وكأنه ضجر • وشعرت بأنه ليس مستعداً للدخول في محادثة •

وابتسمت •

ـ أيضجرك ان تتكلم ، زوربا ؟

فأجاب :

ـ ليس هذا ما يضجرني ، ايها الرئيس ، لكنني أتألم من فعل ذلك •

ـ تتألم ؟ لماذا ؟

ولم يجب فوراً • ومن جديد أجال نظره على طول الشاطىء • كان قد نام على الجسر ، وشعره الرمادي المجعد يقطر بالندى • وكانت الشمس الطالعة تضيء الغضون العميقة في خديه وذقنه ورقبته •

واخيراً ، تحركت شفتاه المتدليتان وكأنهما شفتا تيس :

ـ انني اتألم عند الصباح من فتح فمي • ألم كثير ، اعذرني •

وصمت وثبّت من جديد عينيه الصغيرتين المستديرتين على كريت •

وقرع جرس الافطار • وراحت وجوه كدرة ، مخضرة الاصفرار ، تبرز من

المقصورات • وكانت ثمة نساء ، شعث الشعور ، يجررن اذيالهن ، مترنحات ، من مائدة لأخرى • وكانت تفوح منهن رائحة القيء والكولونيا ، ونظرتهن مضطربة ، وجلة وبلهاء •

وكان زوربا يحسو قهوته بتلذذ ، وهو جالس امامي • ويغمس الخبز المطلي بالزبدة والعسل ويأكله • وتألق وجهه شيئا فشيئا ، واطمأن ، ولان فمه • كنت اتأمله خلسة بينما كان يخرج من أسر نعاسه وعيناه تزدادان توقداً •

وأشعل لفافة ، واستنشق انفاساً منها بلذة ، واطلق منخراه المليئان بالشعر غيوم الدخان الازرق • وثنى ساقه اليمنى تحته ، وجلس الاربعاء • لقد اصبح من السهل الآن عليه الحديث • وبدأ الكلام :

ـ أهي المرة الاولى التي آتي فيها الى كريت ؟ ••• (واغلق عينيه نصف اغلاقة ونظر بعيداً ، عبر النافذة ، الى جبل « ايدا » الذي كان يمتد وراءنا) كلا ليست المرة الاولى • لقد كنت في عام ١٨٩٦ رجلا حقاً • كان شاربي وشعري بلونهما الحقيقيين ، اسودين كالغراب • كنت في عنفوان الصبا ، وكنت ، عندما اسكر ، التهم اولا المقبلات ثم الطعام • لكن في تلك الفترة بالضبط أراد الشيطان ان تنشب ثورة في كريت •

« في ذلك الوقت ، كنت بائعاً جوالا في ماسيدونيا • كنت اذهب من قرية لقرية ، وأبيع الخردوات ، وبدلا من النقود ، كنت اطلب جبناً ، وصوفاً ، وزبدة ، وأرانب وذرة ، ثم ابيع كل ذلك وأربح ربحاً مضاعفا • وكنت ، في اية قرية حللت ليلا ، اعرف المنزل الذي اختاره للمبيت فيه • ففي كل القرى ، أرملة رؤوم • اقدم لها مكب خيطان او مشطاً ، او منديلا اسود بسبب المرحوم ، وأنام معها • ولم يكن ذلك باهظ الثمن ! ان الحياة الطيبة ليست باهظة الثمن ايها الرئيس • لكن ، كما قلت لك ، ها هي كريت قد عادت الى حمل السلاح • وقلت في نفسي : « تباً لك من حياة عاهرة ! ان كريت هذه لن تتركنا ابداً في سلام » • ووضعت جانباً المكبات والامشاط ، واخذت بندقية ، وانضممت الى سائر الثوار ، وسرنا نحو كريت • »

وصمت زوربا • اننا نسير الآن في خليج ، مستدير ، رملي ، هادىء • وكانت الامواج تنبسط فيه ، دون ان تتكسر ، وتترك فقط زبداً خفيفا على طول الشاطىء • وكانت الغيوم قد انقشعت ، والشمس تتألق ، وكريت القاسية تبتسم مطمئنة •

والتفت زوربا ، ورماني بابتسامة ساخرة :

ـ انك تتصور ، ايها الرئيس ، انني سأقدم لك كشفاً عن الرؤوس التركية التي قطعتها وعن الآذان التركية التي وضعتها في الكحول ··· فتلك هي العادة في كريت ··· انني لن أقول شيئا من ذلك ! لقد سئمت ، وانا إشعر الآن بالخجل · ما هذه الثورة ؟ انني اقول لنفسي الآن وقد رجح عقلي بعض الشيء ، ما هذه الثورة ؟ نلقي بأنفسنا على انسان لم يفعل لنا شيئاً ، ونعضه ، ونجدع انفه ، ونقطع اذنيه ، ونبقر بطنه ، وكل ذلك ونحن نطلب له العون من الله · وبمعنى آخر ، اننا نطلب منه ، هو ايضاً ، ان يجدع انوفاً وآذاناً ويبقر بطوناً · لكن دمي ، في ذلك الوقت ، كما ترى ، كان يغلي · وما كان باستطاعتي تفحص المسألة · فللتفكير بشكل عادل وشريف ، لا بد للانسان من ان يكون هادئا ، مسناً ، لا اسنان له · عندما يصبح الانسان بلا اسنان ، يسهل عليه ان يقول : « من العار ان تعضوا ايها الرفاق ! » · لكن عندما تكون له اسنانه الاثنتان والثلاثون ··· ان الانسان لحيوان مفترس عندما يكون شاباً ، نعم ، ايها الرئيس ، حيوان مفترس يأكل البشر !·

وهز برأسه ·

ـ انه يأكل خرافاً ايضاً ، ودجاجات ، وخنازير ، لكن اذا لم يأكل لحم انسان ، فانه لا يشبع ·

وأضاف ، وهو يسحق لفافته في صحن فنجان قهوته :

ـ كلا ، انه لا يشبع · ما رأيك انت ، ايها العلامة ؟

لكن بدون ان ينتظر جواباً ، قال وهو يحدق فيّ :

ـ ما الذي يمكن ان تقوله ، انت ··· ان سيادتك ، كما افهم ، لم يجع قط ، ولم يقتل قط ، ولم يسرق قط ، ولم ينم مع نساء الآخرين قط · ما الذي يمكن ان تعرفه عن العالم اذن ؟ (وتمتم باحتقار واضح :)

ـ عقل بريء ، وجسد لم يعرف الشمس ···

واحسست انا بالخجل من يديّ الدقيقتين ، ومن وجهي الشاحب وحياتي التي لم تلطخ بالدم والوحل · وقال زوربا ، وهو يمر بيده الثقيلة على المائدة وكأنه يمسح باسفنجة :

ـ ليكن ! ليكن ! ومع ذلك فأنا اريد ان اسألك شيئاً · لا بد انك قلبت مجموعة من الكتب ، فلعلك تعرف ···

ـ هيا ، ماذا يا زوربا ؟

ـ هذا غريب ، ايها الرئيس ··· هذا غريب جداً ، انه يبلبلني · فتلك

النذالات ، وتلك السرقات ، وتلك المجازر التي ارتكبناها ، نحن الثوار ، جاءت بالأمير جورج الى كريت · الحرية !

ونظر الي بعينين جاحظتين ، مذهولتين ، وتمتم :

ـ انه لسر ، سر كبير ! اذن ، فلا بد من الجرائم والنـذالات الكثيرة ، حتى تحل الحرية في هذا العالم ؟ ولو رحت اعدد لك كل ما ارتكبناه من قذارات واغتيالات ، لقفّ شعر رأسك · لكن ماذا كانت نتيجة كل ذلك ؟ الحرية ! ان الله بدلا من ان يرسل الصواعق علينا لحرقنا ، اعطانا الحريـــة ! انني لا افهم شيئا !

ونظر الي كأنه يستنجد · من الواضح ان هذه المشكلة قد عذبته كثيراً ، وانه لا يستطيع الوصول الى نتيجة · وسألني بقلق :

ـ أتفهم ، انت ، ايها الرئيس ؟

ماذا أفهم ؟ ماذا اقول له ؟ فاما أن يكون ما ندعوه الهاً غير موجود ، واما ان يكون ما ندعوه جرائم ودناءات ضرورياً للنضال ولتحرير العالم ···

وحاولت ان أجد تعبيراً أبسط بالنسبة لزوربا :

ـ كيف تنبت الزهرة وتنمو في السماد الحيواني والأقـذار ؟ افترض يا زوربا ان السماد والاقذار هي الانسان ، وان الزهرة هي الحرية ؟

فقال زوربا وهو يضرب بقبضته على المائدة :

ـ لكن البذرة ؟ كي تنبت الزهرة ، فلا بد من بذرة · فمن الذي وضـع بذرة كهذه في احشائنا القذرة ؟ ولماذا لا تنتج هذه البذرة ازهـاراً في الطيبة والشرف ؟ ولماذا تحتاج الى الدم والاقذار ؟

فهززت رأسي ، وقلت :

ـ لست ادري ·

ـ من يدري ؟

ـ لا احد ·

فصرخ زوربا يائساً ، وهو يرمي ما حوله بنظرات متوحشة :

ـ لكن ماذا تريد ان افعل اذن بالمراكب والآلات والقبات الأنيقة ؟

وتحرك مسافران او ثلاثة ممن اتعبهم البحر ، كانوا يشربون قهوتهم على المائدة المجاورة · لقد شموا رائحة خصام ، وارهفوا آذانهم · وأثـار ذلـــك اشمئزاز زوربا ، فقال بصوت خافت :

ـ دعنا من هذا · فعندما افكر فيه ، أود تحطيم كل ما تقع عليه يدي ، من كرسي ، او مصباح ، او رأسي ، بضربه على الجدار · ثم ما الذي استفيده من

ذلك ؟ ليأخذني الشيطان ! انني اما ان ادفع ثمن الأباريق المهشمة ، أو اذهب الى الصيدلي فيعصب رأسي • واذا كان الله موجوداً ، فهذا اسوأ : لقد قضي علينا ! اذ لا بد انه يرقبني من اعلى السماء ويتضور المأ •

وهز فجأة يده وكأنه يريد طرد ذبابة مزعجة • وقال بملل :

ـ اخيراً ! ان ما اريد ان اقوله لك هو هذا : عندما جاء المركب الملكي بهياً بزيناته وبدأ اطلاق المدافع ووضع الأمير قدمه في كريت ••• هل رأيت شعباً يصبح مجنوناً بأجمعه لأنه استعاد حريته ؟ كلا ؟ اذن يا رئيسي المسكين ، لقد ولدت اعمى ، واعمى ستموت • انا ، حتى ولو عشت الف سنة ، وحتى لو لم يبق مني سوى لقمة من اللحم الحي ، فاني لن انسى مطلقاً ذلك اليوم الذي رأيته • لو كان كل انسان يستطيع ان يختار فردوسه في السماء ، حسب ذوقه ـ وهذا ما يجب ان يكون لأن هذا ما اقصده بالفردوس ـ فانني سأقول للآله الرحيم : « ايها السيد ، ليكن فردوسي جزيرة كريت وقد ازدانت بالآس والاعلام ، ولتستمر قروناً تلك الدقيقة التي وضع فيها الامير جورج قدمه على ارض كريت • هذا يكفيني » •

وصمت زوربا من جديد • ورفع شاربه وملأ قدحاً بالماء البارد وجرعه دفعة واحدة •

ـ ما الذي جرى في كريت ، يا زوربا ؟ هاتِ !

فأجاب زوربا بعصبية :

ـ لن اجهد نفسي في تكلف العبارات • لقد قلت لك ، يا صديقي ، ان هذا العالم سر وان الانسان ليس سوى وحش كبير •

« وحش كبير واله كبير • كان احد أولئك الثوار الانذال ، ويدعى يورغا ، يبكي ، وكان قد نزل معي من ماسيدونيا ، وهو أشبه بربطة محزومة بالحبال ، خنزير نجس ، فقلت له : « لماذا تبكي أيها الملعون يورغا ؟ وكانت دموعي انا ايضاً تتدفق كالينبوع • لماذا تبكي ايها الخنزير ؟ » • لكنه سرعان ما ألقى بنفسه عليّ وراح يعانقني وهو ينوح كصبي صغير • ثم أخرج هذا الشحيح الكبير صرة نقوده ، وافرغ على ركبتيه قطع الذهب المسروقة من الأتراك ، وألقاها في الهواء بقبضة يده • أتفهم ، أيها الرئيس ، هذه هي الحرية ! » •

ونهضت وصعدت الى جسر المركب كي أتلقى صفعات ريح البحر العنيفة • وفكرت في نفسي : « هذه هي الحرية • ان تهوى شيئاً ما ، وان تجمع قطع الذهب ، وفجاة ، تتغلب على هواك وتلقي بكنزك في الهواء • أن تتحرر من

هوى ، لتخضع لهوى آخر اكثر نبلا منـه · لكن أليس هـذا شكلا آخر مـن العبودية ؟ ان تكرّس نفسك لفكرة ، لعرقك ، الله ؟ ام ان السيد كلما ارتفـع مركزه تطاول حبل العبودية ؟ وقد يمكنه عندئذ أن يلعب ويلهو في حلبة أوسع ثم يموت دون ان يصادف الحبل · أهذا اذن ما نسميه بالحرية ؟ » ·

وعند نهاية بعد الظهر ، حاذينا شاطئنا الرملي · رمل أبيض ، مغربـل بدقة ، واشجار غار وردية لا تزال مزهرة ، وأشجار تين ، واشجار خرنوب ، وابعد قليلا ، الى اليمين ، تل صغير واطىء رمادي ، بدون أشجار ، يشبه وجه امرأة من الخلف · وتحت ذقنه ، وعلى رقبته ، تمر عروق من اللينيت الأسمر القاتم ·

كان ثمة ريـح خريفيـة تهبّ ، وغيوم ممزقـة تمر ببطء وتلين الأرض بتغليفها بالظلال · وكانت غيوم أخرى تصعد من السماء ، مهددة · والشمس تتحجب وتشرق ، ووجه الأرض يضيء ويظلم كوجه حي مضطرب ·

وتوقفت لحظة على الرمـل ، ونظرت · كـانت الوحـدة القدسية تمتد أمامي ، حزينة ، مغرية ، كالصحراء · وبرز الشعر البوذي من الأرض وتغلغل حتى أعماق كياني : « متى أنزوي اخيراً في الوحدة ، بمفردي ، دون رفـاق ، دون فرح او حزن ، لا يصحبني سوى اليقين المقدسي بـأن كل شيء ليس الا حلماً ؟ متى اعتزل فرحاً مع اسمالي ـ دون شهوات ـ في الجبل ؟ متى أختلي ، بعد ان أتبين ان جسدي ليس الا مرضاً وجريمة وشيخوخة وموتاً ، في الغابة ، حراً ، دون خوف ، مليئا بالفرح ؟ متى ؟ متى ؟ متى ؟ » ·

واقترب زوربا ، والسانتوري تحت ذراعه · فقلت لأخفي انفعالي :

ـ هوذا اللينيت ! ومددت ذراعي نحو التل الذي يشبه وجه امرأة ·

ولكن زوربا قطّب حاجبيه دون ان يلتفت ، وقال :

ـ فيما بعد ، فليس الآن وقت ذلك ، أيها الرئيس · يجب اولا ان تتوقف الأرض · انها ما تزال تتحرك ، وحق الجحيم ، انها تتحرك ، العاهرة ، مثـل جسر مركب · هيا بسرعة الى القرية ·

ثم مضى بخطى كبيرة ·

وأسرع صبيّان ، عاريا الأقدام ، جلدهما برونزي كالفلاحين ، وحملا الحقائب · وكـان رجل ضخم ، أزرق العينين ، مـن رجـال الجمرك ، يدخن النارجيلة في الكوخ الخشبي الـذي حُوّل لمكتب للجمرك · ورمقنا بطـرف عينه ، وألقى نظرة متناومة على الحقائب ، وتحرك قليلا فوق كرسيه وكأنـه

سينهض · لكن الشجاعة خانته · ورفع ببطء نربيش نارجيلته ، وقال بصوت مسترخٍ :

ـ أهلا وسهلا !

واقترب احد الفلاحين مني · وغمز بعينيه السوداوين كالزيتون ، وقال بسخرية :

ـ انه ليس كريتياً ! كسول !

ـ أليس الكريتيون كسالى ، أليسوا كذلك ؟

فأجاب الكريتي الصغير :

ـ انهم لكذلك ··· انهم لكذلك ··· ولكن بشكل آخر ···

ـ هل القرية بعيدة ؟

ـ الله أعلم ! على بعد طلقة بندقية ! انها وراء البساتين ، في الوادي · هي قرية جميلة ، ايها الرئيس ، بلد كثير الخيرات · فيها خرنوب ، ولوبياء ، وحمص ، وزيت ، وخمر · وهناك في الرمل ، ينبت الخيار ، والبطيخ الذي يبكر في النضج قبل أية منطقة أخرى في كريت · هواء افريقيا هو الذي ينضجها · واذا ما نمت في بستان ، فانك تسمعها تطقطق كرر ! كرر ! وتنمو أثناء الليل ·

كان زوربا يغذ السير الى أمام مترنحاً بعض الشيء · وكان رأسه لا يزال يدور · فصرخت به :

ـ تشجّع ، يا زوربا ! لقد نجونا ، لا تخف !

كنا نسير بسرعة · كانت الأرض مشوبة بالرمل والاصداف · وبين الحين والحين تبرز شجرة أثل ، او تينة برية ، ابو باقة من الخيزران ، او نبات سكر الحوت المر · كان الجو ثقيلا · والغيوم تهبط وتدنو من الأرض ، والريح تهدأ ·

ومررنا قرب شجرة تين كبيرة لها جذع مزدوج ، مخملي ، أخذت الشيخوخة تدب فيها · وتوقف احد الفلاحين · وأشار بحركة من ذقنه الى الشجرة العجوز · وقال :

ـ تينة الآنسة !

وفوجئت · ان لكل شجرة ، لكل صخرة ، في أرض كريت هذه ، قصتها المؤسية ·

ـ تينة الآنسة ؟ لماذا تدعى هكذا ؟

ـ في ايام جدي ، وقعت ابنة احد الاعيان في غرام راعٍ شاب · لكن

والدها لم يرضَ ، فكانت الآنسة تبكي ، وتصرخ ، وتتضرع ، لكن الشيـخ لم يبدل موقفه ! وذات مساء اختفى الشابـان • وبحثوا عنهما ، يوماً ، واثنين وثلاثة ، واسبوعاً ، لكن عبثاً ! وفـاحت رائحة نتنة ، فتتبعوها ووجدوهمـا تحت هذه التينة ، متعانقين ، منتنين • أتفهم ؟ لقد وجدوهما بسبب النتانة •

وانفجر الصبي ضاحكاً • وسمعنا ضوضاء القرية • وأخذت كلاب تنبح ، ونساء يتصايحن ، والديكة تعلن تغيُّر الوقت • وفي الهواء كانت تنتشر رائحة تفل العنب الفائحة من القدور التي يقطر فيها العرق •

وصرخ الغلامان وهما ينطلقان :

ـ هي ذي القرية !

وما ان انعطفنا حول تل الرمل ، حتى ظهرت القرية الصغيرة ، متسلقة سفح الوادي • منازل منخفضة من التراب ، مبيضة بالكلس ، ملتصقة الواحد بجانب الآخر • وكانت نوافذها المفتوحة كبقـع سوداء تشبه جمـاجم مبيضة محصورة بين الحجارة •

ولحقت بزوربا • وقلت له بصوت منخفض :

ـ انتبه يا زوربا ، ليكن سلوكك كما يجب ، وقد أصبحنا الآن في القرية • يجب الا يشكوا في شيء ، زوربا ! لنظهر بمظهر رجال الاعمال الجديين : انا الرئيس وانت المشرف على العمال • اعلم ان الكريتيين لا يمزحـون • فما ان يقع نظرهم عليك ويجدوا فيك عيباً ، حتى يُلصقوا بك لقباً • وبعد ذلك لن نجد اية وسيلة للتملص منه ، وستجري ككلب عُلقت في ذنبه قدر •

وأخذ زوربا شاربه بجماع يده وغرق في التأمل ، واخيراً قال :

ـ اصغِ ، ايها الرئيس ، اذا كانت هناك أرملة في القرية ، فلست بحاجة للخوف ، أما اذا لم تكن هناك أرملة •••

وفي تلك اللحظة ، عند مدخل القرية ، ركضت متسولة ملفعة بالأسمال ، ممدودة اليد • كـانت شديـدة السمرة ، متسخة ، لها شـارب أسود كث • وصرخت بزوربا :

ـ ايها الرجل ، ايها الرجل ! هل لك روح ؟

وتوقف زوربا وأجاب بجدية :

ـ لي روح •

ـ اذن اعطني خمسة دريهمات !

فأخرج زوربا من جيبه حافظة بالية وقال :

ـ خذي !

وانفرجت شفتاه المريرتان عن ابتسامة · والتفت قائلا :

ـ الحياة هنا ليست غالية على ما ارى : الروح بخمسة دريهمات ·

وأسرعت كلاب القرية نحونا ، وانحنت النساء من فوق الأسطحة ، وراح الأولاد يقلدون خطواتنا وهم يصرخون · كان البعض ينبح ، وآخرون يبوقون كالسيارات ، وغيرهم يتقدموننا وهم ينظرون الينا بعيون كبيرة مبهوتة ·

ووصلنا الى ساحة القرية · كان فيها شجرتان ضخمتان من الحور الأبيض محاطتان بجذعين منحوتين بدونً اتقان على شكل مقاعد ، ويواجههما مقهى تعلوه يافطة عديمة اللون « مقهى ومجزرة الاحتشام » ·

وسألني زوربا :

ـ لماذا تضحك ، ايها الرئيس ؟

لكن لم يتح لي الوقت للاجابة · اذ خرج من المقهى ـ المجزرة خمسة او ستة رجال طوال يرتدون قمصاناً زرقاً قاتمة لها حزام احمر ، وهتفوا :

ـ اهلا وسهلا · تفضلا لتناول كأس من العرق · انه لا يزال حاراً ، فقد قطر منذ لحظات ·

ولعق زوربا لسانه :

ـ ما رأيك ، أيها الرئيس ؟

والتفت اليّ وغمز بعينه :

ـ أنشرب قدحاً ؟

وشربنا قدحاً ، احرق أحشاءنا · وجاءنا صاحب المقهى ـ المجزرة ، وهو شيخ صلب العود ما يزال محتفظاً بصحته ونشاطه بمقعدين ·

وسألته أين نستطيع ان نقطن · فصرخ أحدهم :

ـ اذهبا الى السيدة هورتانس ·

فقلت مذهولا :

ـ فرنسية ؟

ـ لقد جاءت من الطرف الآخر من العالم · لقد عاشت ، وساحت قليلا في كل مكان ، وعندما شاخت جاءت الى هنا ، وفتحت نزلا ·

والقى طفل بهذه الجملة :

ـ اهي تبيع ايضاً سكاكر !

وصرخ آخر :

ـ انها تتزين بالطحين والصباغ ! ولها وشاح حول عنقها ··· وعندها ايضاً ببغاء ·

فسأل زوربا :

ـ ارملة ؟ أهي أرملة ؟

ولم يجب احد ٠

وعاد الى السؤال ، واللعاب في فمه :

ـ ارملة ؟

وامسك صاحب المقهى بلحيته الرمادية الكثيفة وقال :

ـ كم في هذه اللحية من الشعر ، ايها الصديق ؟ كم ٠٠٠ حسناً ، لقد ترملتْ بعدد هذا الشعر ٠ أفهمت ؟

فأجاب زوربا وهو يلعق مشفريه :

ـ فهمت ٠

ـ يمكنها أن تجعلك انت ايضاً أرمل ٠

ـ خذ حذرك ، ايها الصديق !

هتف بذلك عجوز ، وقهقه الآخرون ٠

وظهر صاحب المقهى من جديد وهو يحمل على صحفة خبز شعير ، وجبن ماعز ، وكمثرى ٠ وصرخ :

ـ هيا ، دعوهما في سلام ! ليس لأية سيدة أهمية ! سوف يبيتان عندي ٠

فقال العجوز :

ـ انا الذي سيأخذهما ، يا كوندومانوليو ! اذ ليس عندي أطفال ، وبيتي كبير ، وفيه متسع ٠

فهتف صاحب المقهى وهو ينحني على اذن العجوز :

ـ عفواً ، ايها العم انانيوستي ٠ لقد كنتُ السابق الى قول ذلك ٠

فأجاب العجوز انانيوستي :

ـ ليس عليك الا أن تأخذ الآخر ، اما انا فسآخذ العجوز ٠

فقال زوربا وقد تملكه الغيظ بسرعة :

ـ اي عجوز ؟

فقلت ، وانا اشير الى زوربا بألا يغضب :

ـ اننا لن نفترق ٠ لن نفترق ٠ وسنذهب الى السيدة هورتانس ٠٠٠ اهلا وسهلا ! اهلا وسهلا !

وظهرت عند شجرتي الحور ، امرأة قصيرة القامة ، بدينة ، بهت لون شعرها ، واصبح لونها بلون الكتان ، وهي تتهادى على ساقيها ، ممدودة الذراعين ٠ وكان ثمة خال ، تتدلى منه شعرات اشبه بوبر الخنزير ، يزين

ذقنها • وكانت تضع على رقبتها وشاحاً مخملياً احمر ، وخداها الذابلان مطليان بمسحوق بنفسجي • وثمة خصلة صغيرة لعوب تتأرجح على جبهتها ، فتجعلها شبيهة بسارة برنار في دور العجوز بمسرحية « النسر الصغير » (١)•

فأجبت وانا اتهيأ لتقبيل يدها ، وقد تملكتني بشاشة مفاجئة :

ـ سعيد لتعرفي اليك ، ايتها السيدة هورتانس •

وبدت لي الحياة فجأة مثل حكاية ، مثل ملهاة لشكسبير ، ولنقل انها « العاصفة » • لقد نزلنا من السفينة ، كلنا بلل ، بعد حادثة الغرق الوهمية • كنا نستكشف الشواطىء الساحرة ونحيي سكان المكان بـابهة • ان السيدة هورتانس هذه تبدو لي وكأنها ملكة الجزيرة ، نوع من عجول البحر ، اشقر ولماع ، قد سقط ، وهو على وشك الانتان ، معطراً وملتحياً بشارب فوق ذلك الشاطىء الرملي • ووراءهـا شعب « كـاليبان » برؤوسه المتسخة الكثيرة ، الكثيفة بالشعر والمليئة بالروح المرحة ، ينظر اليها بكبرياء واحتقار •

وكان زوربا ، الامير المتنكر ، يتأملها ، هو ايضاً ، جاحظ العينين ، وهي اشبه برفيقة قديمة ، بسفينة حربية قديمة حاربت في بحـار بعيدة ، كـانت تنتصر مرة وتهزم مرة ، فغارت كوى مدافعها ، وتحطمت صواريها ، وتمزقت اشرعتها ـ وهي الآن ، بعد ان تخـددت بالشـقوق التي تسدها بالمعجونـات والمسحوقات ، قد انسحبت الى هذا الساحل وراحت تنتظر • انها ـ ولا شك ـ تنتظر زوربا ، القبطان ذا المئة نـدب • وكنت مسروراً لرؤية هـذين الممثلين يلتقيان اخيراً في هذا الديكور الكريتي ، الذي وُضع على المسرح ببساطة ، ودُهن بضربات كبيرة من الفرشاة •

وقلت وانا انحني امام ممثلة الحب الكوميدية العجوز :

ـ سريران ، يا سيدتي هورتانس ! سريران بلا فسافس •••

فهتفت وهي ترميني بنظرة طويلة متحدية :

ـ بلا فسافس ، نعم ، بلا فسافس !

فصرخت افواه شعب « كاليبان » ساخرة :

ـ يوجد فسافس ! يوجد فسافس !

فقالت وهي تضرب الحجارة بقدمها القصيرة السمينة ، الملتفحة بجورب ضخم أزرق سماوي :

ـ لا يوجد فسافس ! لا يوجد فسافس !

---

١ ـ مأساة شعرية من ستة فصول لادمون روستان • « المترجم »

وكانت تحتذي خفين مشقوقين ، مزينين بعقدة صغيرة ظريفة من الحرير ٠

ـ هوْ ! هوْ ! ليأخذك الشيطان ، ايتها المغنية !

قهقه بذلك ايضاً شعب كاليبان ٠

لكن السيدة هورتانس ، كانت قد سارت ، وكلها وقـار ، وشقت لـنا الدرب ٠ وكانت رائحة المسحوقات والصابون الرخيص تفوح منها ٠

ومشى زوربا وراءها وهو يفترسها بعينيه وقال لي بصوت خافت :

ـ قل اذن ، وتحقق من هذا ، ايها الرئيس ٠ كيف تتبختر ، العاهرة : بلاف ! بلاف ! كتلك النعجات التي لها اليات مليئة بالدهن !

وسقطت قطرتان او ثلاث ضخام ، واظلمت السماء ٠ وشقت الجبل بروق زرق ٠ وراحت فتيـات صغيرات ، متلفحـات بأغطيتهن الصغيـرة البيضـاء المصنوعة من وبر الماعز ، يرجعن بسرعة من المرعى بعنزة العائلة وخروفهـا ٠ واشعلت النساء ، المقرفصات امام المدفأة ، نار المساء ٠

وعض زوربا بعصبية على شاربه دون ان يكف عن النظر الى ردف السيدة المدور ٠ وتمتم فجأة متنهداً :

ـ هـمْ ! ان هذه الحياة العاهرة لا تضن ابداً بالمفاجآت ٠

- ٣ -

كان فندق السيدة هورتانس الصغير يتألف من حجرات قديمة للحمام ، ملتصقة بعضها ببعض · والحجرة الأولى كانت الدكان · وفيها سكاكر ، وسجائر ، وفستق عبيد ، وفتائل للمصابيح ، وابجديات ، وشموع ، ولبان ، ثم أربع حجرات أخرى متتالية تشكل غرف النوم · وفي الخلف ، في الساحة ، كان هناك المطبخ ، والمغسلة ، والقن ، ومكو الارانب · وحولها ، شجيرات الخيزران الكثيفة واشجار التين البرية ، مغروسة في الرمل الناعم · وكان هذا كله يفوح برائحة البحر ، والروث ، والبول · لكن بين الفينة والفينة ، عندما تمر السيدة هورتانس ، تتبدل رائحة الجو ، وكأنهم افرغوا تحت انفك طست الحلاق ·

وعندما هيء السريران ، استلقينا عليهما ولم نستيقظ الا عند الصباح · ولا اذكر انني حلمت ، لكنني كنت ، عندما استيقظت ، خفيفاً ونشيطاً وكأنني خارج من البحر ·

كان اليوم يوم أحد ، وسيأتي العمال في الغد من القرى القريبة ليبدأوا العمل في المنجم · فعندي متسع من الوقت اذن لأقوم بجولة في هذا اليوم لأعرف على أي شواطىء القى بي القدر · عندما خرجت كان الفجر يكاد يلوح ، وتجاوزت البساتين ، وسرت على شاطىء البحر ، وتعرفت بسرعة الى الماء ، الى الأرض ، الى هواء المنطقة ، وقطفت نباتات برية ، وتعطرت راحتاي بالصعتر ، والقويسة ، والنعناع ·

وصعدت الى تلة ، ونظرت · منظر اجرد ، من الغرانيت والصخور الكلسية الشديدة القسوة · اشجار خرنوب قاتمة ، واشجار زيتون لجينية ، واشجار تين وعنب · وفي التلاع المخفية ، بساتين من اشجار البرتقال والليمون والزعرور ، وعلى مقربة من الشاطىء ، المباقل · وفي الجنوب كان

البحر يهجم على كريت ويتأكلها ، البحر الذي لا يزال ثائراً ، هائلا ، قادماً من السواحل الافريقية ، هـادراً ، وعلى مسـافة قريبة جـداً ، جزيرة صغيرة منخفضة ، رملية ، لونها تحت الأشعة الاولى وردي عذري ٠

كان هـذا المنظر الكريتي يشبه ، على مـا بدا لي ، نثراً جيـداً : متقن الصنعة ، بسيطاً ، خالياً من التكلف ، قوياً ، جزلا ٠ انه يعبر عما هو أساسي بأبسط الوسائل ٠ انه لا يتبختر ، ويرفض استعمال اقل تصنع ٠ انه يقـول ما عليه ان يقوله بصرامة رجوليـة ٠ لكننا نلمح السطـور القاسية حساسية وليونة غير متوقعتين ، ففي التلاع المخفية ، كانت أشجار البرتقال والليمون تعبق ، ومن بعيد ينبع من البحر اللامتناهي ، شعر لا ينفد ٠٠٠ وتمتمت :

ـ كريت ٠٠٠ كريت ٠٠٠

وكان قلبي يخفق ٠

وانحدرت من فوق التل الصغير وسرت بمحاذاة الماء ٠ وظهرت صبايـا يثرثرن ، بمناديل بيض كالثلج وأحذية عالية صفر ، وتنورات مرفوعة ، وكن ذاهبات لسماع القداس في الدير الذي يشاهد هناك ، متألقاً بالبياض ، عنـد ساحل البحر ٠

وتوقفت ٠ وما ان شاهدنني ، حتى انطفـأت ضحكاتهن ٠ لقـد انغلقت اوجههن ، عند رؤية رجل غريب ٠ واتخـذن موقف الدفـاع من أعلى رؤسهن الى اخمص أقدامهن ، وتشبثت أصابعهن بعصبية بصداريهن المزررة بشدة ٠ لقد ذعر دمهن ٠ ان القراصنة ، على طول هذه السواحل الكريتية المتجهة نحو افريقيا ، كانوا يقومون ، خلال قرون كاملة ، بغزوات مفـاجئة ، ويخطفـون النعاج ، والنساء ، والأطفال ، ويربطونهم بأحزمتهم الزرقاء ، ويلقـون بهم في قعر السفينة ، ويقلعـون لبيعهم في الجزائر ، والاسـكندرية ، وبيروت ٠ ان البحر ، خلال قرون كاملة ، قد ضج بالبكاء ، على هذا الساحل المزدهر بالضفائر السود ٠ ورحت انظر الى الصبايا وهن يقتربن ، مستوحشات ، ملتصقـات بعضهن ببعض ، وكأنهن يردن تشكيل سد لا يمكن تخطيه ٠ حركات اكيدة ، كان لا بد منها في القرون الماضية ، تعـود اليوم للظهـور دون سبب ، حسب ايقاع الضرورة التي اختفت ٠

لكن عندما مرت الصبايا أمامي ابتعدت بهدوء وانا أبتسم ٠ وسرعان ما اضاءت وجوههن ، وكأنهن أحسسن فجأة ان الخطر قد زال منذ قرون ، بعـد ان استيقظن في عصر الأمن هذا ، وانفرج خط القتال المصنوع مـن الصفوف المتراصة ، وتمنين لي جميعاً بأصوات مرحة صافية صباح الخير ٠ وفي اللحظة

نفسها ، ملأت أجراس الدير البعيد ، السعيدة ، المرحة ، الفضاء بتهللها •

كانت الشمس قد أصبحت مرتفعة ، والسماء صافية • وربضت بين الصخور ، مختبئاً كطير الزمج في حفرة ، وتأملت البحر • وكنت أحس بجسدي ممتلئاً قوة ، رطباً ، طيعاً • وتموج فكري وهو يتبع الأمواج وخضع هو ايضاً ، دون أية مقاومة ، لايقاع البحر •

وشيئاً فشيئاً ، امتلأ قلبي ، وراحت أصوات غامضة ، آمرة متضرعة ، تصعد في داخلي • كنت اعلم من الذي يدعو • فما ان ابقى بمفردي لحظة ،حتى يهدر في داخلي ، وقد اقلقته الاحساسات الفظة ، والمخاوف المجنونة ، والهذيان ، ويروح ينتظر مني الانقاذ •

وفتحت بسرعة كتاب دانتي « رفيق السفر » كي أطرد الشيطان الرهيب ، ولا استمع اليه • وقلبت صفحاته ، وانا اقرأ بيتاً من هنا ، ومقطوعة من هناك ، معيداً الى ذاكرتي النشيد كله ، ومن خلال هذه الصفحات الحارة كانت ارواح الملعونين تتصاعد معولة • والى الاعلى ، نفوس جريحة تحاول ان تتسلق جبلا وعراً عالياً • والى الأعلى ايضاً ، كانت أرواح السعداء تجول في مروج زمردية ، كالحباحب اللامعة • كنت أذهب واجيء من اعلى مبنى القدر الرهيب الى اسفله ، وأجول على مهل في الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، وكأنني في مسكني الخاص• كنت اتعذب ، او آمل ، او اتذوق السعادة ، تحملني الاشعار الرائعة أنى شاءت •

وفجأة أغلقت كتاب دانتي ونظرت على مد البصر • كان احد طيور الزمج ، مسنداً بطنه الى الموجة ، يصعد ، ويهبط معها ، متلذذاً ، بسعادة ، بغبطة اللامبالاة • وظهر صبي صغير اسمر بحذاء الماء ، عاري القدمين ، وهو يغني أغاني الحب • ولعله كان يفهم الألم الذي تعبر عنه ، لأن صوته أخذته بحة كصوت ديك صغير •

ان اشعار دانتي كانت تنشد ، خلال سنين ، وقرون ، على النحو نفسه في بلد الشاعر • وكما ان أغنية الحب تهييء الصبيان والصبايا للحب ، كذلك كانت هذه الاشعار الفلورنسية تهييء الايطاليين البالغين للنضال من أجل الخلاص • كانوا جميعاً ، من جيل الى جيل ، يتصلون بروح الشاعر ، محولين عبوديتهم آلى حرية •

وسمعت ضحكاً خلف ظهري • وتدحرجت دفعة واحدة من الذرا الدانتية، والتفت ورأيت زوربا واقفاً ورائي ، وهو يضحك بكل وجهه • وهتف :

ـ ما هذه الحركات ، أيها الرئيس ؟ انني ابحث عنك منذ ساعات ، لكن

أين استطيع ان اكتشف مخبأك ؟

ولما رآني صامتاً ، بلا حراك ، صرخ :

ـ لقد مضى الظهر ، ونضجت الدجاجة ، انها ستذوب كلها ، المسكينة ! أتفهم ؟

ـ افهم ، لكنني غير جائع ٠

ـ لست جائعاً ! قال ذلك زوربا وهـو يضرب ساقيه ٠ لكنك لم تـأكل شيئاً منذ هذا الصباح ٠ يجب ان تهتم بالجسد أيضاً ، أشفق عليه ٠ أطعمه ، ايها الرئيس ، أطعمه ، فهو حمارنا الصغير ، كما ترى ٠ فاذا لم تطعمه ، تركك في منتصف الطريق ٠

انني احتقر ملاذ الجسد ، منذ سنوات ، ولو كان منـاسباً ، لأكلت في الخفاء ، وكأنني ارتكب عملا مخجلا ٠ ولكنني قلت كي لا يحتج زوربا :

ـ حسناً ، انني قادم ٠

واتجهنا نحو القرية ٠ لقد مضت الساعات بين الصخور كما تمضي ساعات الحب ، بأسرع مـن البرق ٠ وكنت لا ازال احس بنفحة الشعر الفـلورنسي المحرقة على وجهي ٠ وسألني زوربا ببعض التردد :

ـ أكنت تفكر باللينيت ؟

فأجبت ضاحكاً :

ـ وبأي شيء آخر تريدني ان افكر ؟ غداً ، سنبدأ العمل ٠ فكان لا بد من ان اقوم بالحسابات ٠

ورمقني زوربا بطرف عينـه وصمت ٠ وفهمت انه مـا يزال يزنني ، ولا يعرف بعد أعليه ان يصدق ام لا ٠ وسألني مرة أخرى ، بتقدم حذر :

ـ ونتيجة حساباتك ؟

ـ علينا ان نستخرج عشرة اطنان من اللينيت يومياً ، مدة ثلاثة أشهر ، لتغطية التكاليف ٠

ونظر اليّ زوربا من جديد ، لكن بقلق هذه المرة ٠ ثم قال بعد فترة ٠

ـ ولماذا ، بحق الشيطان ، ذهبت الى شاطىء البحر لتقوم بالحسابات ؟ اعذرني أيها الرئيس ، اذا كنت اسألك ذلك ، لكنني لا افهم ٠ انـا ، عندمـا اعلق بالارقام ، اود لو احشر نفسي في جوف الأرض ، كي لا أرى شيئاً ٠ امـا اذا رفعت عيني ورأيت البحر ، أو شـجرة ، أو امرأة ، ولو عجـوزاً ، فقـد قضي الأمر ! وراحت الحسابات وخنازير الارقام تفلت من مخي ، وكأنما نبتت لها اجنحة ٠٠٠

وقلت كي اغيظه :

ـ لكنها غلطتك يا زوربا ! فأنت لست قادراً على تركيز افكارك ٠

ـ انا لست ادري ، ايها الرئيس ٠ لكل حالة وضعها الخاص ٠ هناك حالات لا يستطيع حتى سليمان الحكيم ٠٠٠ فمثلا ، كنت ماراً ، ذات يوم ، في قرية صغيرة ٠ كان ثمة جد هرم في التسعين يغرس شجرة لوز ٠ فقلت له : « ايه ، أيها الاب الصغير ، أتزرع شجرة لوز ؟ » ٠ فالتفت الي وهو محني كما كان وقال : « انني اتصرف ، يابني ، وكأنني لن اموت ابداً » فأجبته : « وانا اتصرف وكأنني سأموت في كل لحظة » ٠ من كان منا المحق ، ايها الرئيس ؟

ونظر الي بانتصار ، وقال :

ـ ها هنا انتظرك ٠

وصمت ٠ كان ثمة ممران صاعدان وجريئان يمكن ان يؤديا الى القمة ٠ أن نتصرف وكأن الموت غير موجود ، وأن نتصرف ونحن نفكر بالموت في كل لحظة ، لعل الأمر سواء ٠ لكنني لم اكن اعرف في اللحظة التي سألني فيها زوربا ٠ وقال هازئاً :

ـ اذن ؟ لا تغضب ، أيها الرئيس ، فلن تخرج بنتيجة ٠ لنتكلم في أمر آخر ٠ انني ، في هذه اللحظة ، افكر بالغداء ، بالدجاجة ، بالارز المرشوش بالقرفة ، ورأسي يدخن مثل الارز ٠ لنأكل أولا ، ثم لنرَ ٠ كل شيء في وقته ٠ امامنا الآن الارز ، اذن يجب ان يتجه فكرنا الى الارز ٠ وغداً ، سيكون امامنا الليـنيت ، اذن فسيتجه فكرنا الى الليـنيت ٠ لا حلول وسطى ، أفهمت ؟

ودخلنا القرية ٠ كانت النسوة جالسات على العتبة يثرثرن ، والشيوخ مستندين الى عصيهم ، صامتين ٠ وتحت شجرة رمان حاملة ، جلست عجوز ضئيلة متغضنة ، تفلي حفيدها من القمل ٠

كان يقف ، امام المقهى ، شيخ مستقيم القامة ، قاسي الوجه منقبضه ، اقنى الانف ، تبدو عليه ملامح السادة الكبار ٠ انه مافراندوني ، شريف القرية السابق الذي أجرنا منجم الليـنيت ٠ وقد مر البارحة عند السيدة هورتانس ليأخذها الى بيته ٠ كان قد قال :

ـ انه لعار كبير علينا ان تظلا في فندق ، وكأنه ليس في القرية من يستطيع استقبالكما ٠

كان وقوراً ، وكلماته متزنة ٠ رفضنا ٠ فاستاء ، لكنه لم يلح ٠ وقال وهو ذاهب :

ـ لقد فعلت واجبي ، لكما الحرية ٠

وبعد فترة أرسل لنا كرتين من الجبن ، وسلة رمان ، وجرة من الزبيب ، وتيناً ، ونصف دن من العرق ٠

وقال الخادم وهو ينزل الحمل من فوق الحمار الصغير :

ـ تحية من قبل الكابتن مافراندوني ـ وهو يقول : قليل من الاشياء ، وكثير من القلب ٠

وحيينا شريف القرية السابق بفيض من العبارات الودية ٠

فقال وهو يضع يده على صدره :

ـ حياة طويلة لكما !

وصمت وتمتم زوربا :

ـ انه لا يحب التكلم كثيراً ، انه رجل قوي الشكيمة ٠

وقلت :

ـ وصلف ، انه يعجبني ٠

كنا قد وصلنا ٠ كان منخرا زوربا يختلجان مرحاً ٠ وما ان رأتنا السيدة هورتانس عند العتبة ، حتى أطلقت صرخة وهرعت الى المطبخ ٠

ووضع زوربا المائدة في الباحة ، تحت الدالية العارية من اوراقها ٠ وقطع شرائح كبيرة من الخبز ، وجاء بالخمر ، ووضع الصحاف وادوات المائدة ٠ والتفت ونظر الي بخبث ، واشار الى المائدة : لقد وضع ثلاث صحاف مع ادواتها ! وهمس :

ـ أتفهم ، ايها الرئيس ؟

فأجبت :

ـ انني افهم ، انني افهم ، ايها الفاسق العجوز ٠

قال وهو يلعق شفتيه :

ـ ان الدجاجات العجوز هي التي تصنع المرق الطيب ٠ انا اعرف شيئاً عن ذلك ٠

كان يهرع ، خفيفاً ، عيناه تقدحان شرراً ، ويدندن بأغاني حب قديمة ٠

ـ انها الحياة ، ايها الرئيس ، الحياة الطيبة ٠ وها انا الآن أتصرف وكأنني سأموت بعد دقيقة ٠ وأسرع كي لا اموت قبل ان آكل الدجاجة ٠

وهتفت السيدة هورتانس آمرة :

ـ الى المائدة !

ورفعت القدر ووضعتها امامنا ٠ لكنها وقفت فاغرة الفم ، اذ رأت الصحاف الثلاث ٠ ونظرت الى زوربا وقد اصبح لونها بلون القرمز ، والتمعت

عيناها الصغيرتان الحامضتان ، الزرقاوان • وقال لي زوربا بصوت منخفض :

ـ لقد دبّت النار في سراويلها •

ثم التفت الى السيدة بتهذيب كبير وقال :

ـ ياجنيَّة المياه الجميلة ، لقد غرقنا وألقانا البحر في مملكتك : تنازلي وقاسمينا طعامنا ، يا فاتنتي !

وفتحت المغنية العجوز ذراعيها بكل مداهما ثم أطبقتهما وكأنها تريد ان تضمَّنا كلينا ، وتمايلت بلطف ، ولامست زوربا ، ثـم لامستني ، وركضت ، هادلة ، الى غرفتها • وبعـد قليل ، عـادت الى الظهور ، مرتعشة ومتهادية ، مرتدية افضل ثيابها : ثوباً مخملياً عتيقاً اخضر ، رثـاً مزيناً بشرائط صفر متباعدة • وكان نصف فستانها الأعلى مفتوحاً على مداه ، وقد شكَّت عنـد صدرها وردة من نسيج متألق • وكانت تمسك بيدها بقفص الببغاء ، الـذي علقته بالدالية •

وأجلسناها في الوسط ، زوربا الى يمينها ، وانا الى يسارها • وهجمنا ثلاثتنا على الغداء • ومضى وقت طويل لم نفه خلاله بكلمة • كان الحيوان في داخلنا يتغذى ، ويروي ظمأه ، والغذاء يتحول بسرعة الى دم ، والعالم يصبح اجمل ، والمرأة التي الى جانبنا تصغر في كل لحظة وتمحي غضونها • وكـان الببغاء المعلق تجاهنا ، بردائه الأخضر وصدريته الصفراء ، ينحني لينظر الينا ، فيبدو لنا تارة مثل رجل ساذج مسحور ، وطوراً مثـل روح المغنية العجـوز بثيابها الخضراء والصفراء • وفوق رؤوسنا امتلأت الدالية العارية فجأة بعناقيد كبيرة من العنب الأسود •

وادار زوربا عينيه ، وفتح ذراعيه على مداهما ، وكأنه يريد ان يعانـق العالم ، وهتف مذهولا :

ـ ما الذي يحدث ، ايها الرئيس ؟ ما ان نشرب قدحاً صغيراً من الخمر ، حتى يفقد العالم رشده • ومـع ذلك ، فما الحياة ، ايهـا الرئيس ! قل لي بدينك ، هذا الذي يتـدلى فوق رؤوسنا ، أهـو عنب ، ام مـلائكة ، انني لا استطيع التمييز • ام ان هذا لا شيء مطلقاً ، ولا شيء موجود ، لا دجاجة ، ولا جنية ، ولا كريت ؟ قل ، ايها الرئيس ، قل والا جننت !

كان المرح قد تملك زوربا • لقد انتهى من الدجاجة وراح ينظر بنهم الى السيدة هورتانس • كانت عيناه تهاجمانها ، وتصعدان وتهبطان ، وتتغلغلان في صدرها المنتفخ وتجسانه وكأنهما يدان • وكانت عينا سيدتنا الطيبة تلمعان ايضاً ، انها تتذوق الخمر وقد جرعت عدداً لا بأس به من الكؤوس • واعادها

شيطان الخمر المعربد الى الأيام الماضية الطيبة · ونهضت ، وقد عادت اليها رقتها وبشاشتها وانطلاقها ، واغلقت الباب الخارجي بالمزلاج كي لا يراها القرويون ـ « المتوحشون » كما تدعوهم ـ واشعلت لفافة وراح انفها الصغير الاقصى على الطريقة الفرنسية ينفث دوائر الدخان ·

ان جميع ابواب المرأة تتفتح ، في مثل هـذا الحين ، وينام الحراس وتصبح للكلمة الطيبة الواحدة قوة الذهب او الحب · أشعلت اذن غليوني ولفظت الكلمة الطيبة :

ـ ايتها السيدة هورتانس ، انـك تذكرينني بسـارة برنار ··· عندما كانت شابة · لم اكن اتوقع ان اجد في هذا المكان المتوحش مثل هذه الاناقة ، وهذه الكياسة ، وهذا الجمال · وهـذا الأنس · فـأي شكسبير ارسلك الى هنا ، بين المتوحشين ؟

فقالت وقد جحظت عيناها الصغيرتان المغرورقتان :

ـ شكسبير ؟ اي شكسبير ؟

وطارت نفسها ، بسرعة ، الى المسارح التي شاهدتها ، وجالت ، في لمح البصر ، في المقاهي الغنائية ، من باريس الى بيروت ومن هنـاك على طـول شواطىء آسيا الصغرى ، وفجأة تذكرت : كان ذلك في الاسكندرية ، في قاعة كبيرة عامرة بالثريات ، والمقاعدالمخملية ، والرجال والنساء ، والظهور العارية ، والعطور ، والازهار · وفجأة ارتفع الستار وظهر عبد مرعب ···

وقالت من جديد وقد اخذتها هزة الكبرياء لأنها تذكرت اخيراً :

ـ اي شكسبير ؟ أهو الذي يدعونه ايضاً عطيل ؟

ـ هو نفسه · اي شكسبير ألقى بك ، ايتها السيدة النبيلة ، فوق هذه الصخور المتوحشة ؟

ونظرت حولها · كانت الأبواب مغلقة ، والببغاء نائما ، والارانب تتبادل الحب ، وكنا وحيدين · واخذت تفتح لنا قلبها منفعلة ، كما يفتـح صندوق قديم مليء بالعطور ، والبطاقات الصفراء الناعمة ، وادوات الزينة النفيسة ···

كانت تتكلم اليونانية كيفما اتفق ، وتلحن في الكلمات ، وتختلط المقاطع· ومع ذلك كنا نفهمها تماماً ، واحياناً يصعب علينا كتمان ضحكتنا ، واحـياناً اخرى ـ وكنا قد شربنا أكثر من اللازم ـ نفيض بالدموع ···

ـ حسناً ، انا التي تحدثكما ، لم اكن مغنية في الكباريات ، كلا ! كنت فنانة مشهورة · كنت ارتدي فساتين حريرية مخرمة · لكن الحب ···

وتنهدت بعمق ، واشعلت لفافة اخرى من لفافة زوربا :

ـ كنت مغرمة بأميرال · كانت الثورة تجتاح كريت ، واساطيل الدول الكبرى قد ارست قلوعها في مرفأ سودا · وبعد عدة ايام ، ارسيت قلوعي انا ايضاً هناك ، آه يا للعظمة ! كـان عليكما ان تشـاهدا الاميرالية الأربعـة : الانجليزي ، والفرنسي ، والايطالي ، والروسي ، كلهم متلفحـون بـالذهب ، بأحذية لامعة ، والريش على الرأس · مثل الديوك · ديوك كبيرة يزن الواحد منها بين الثمانين والمئة كيلو · ويا لتلك اللحى ! متجعدة حريرية ، سمراء ، شقراء ، رمادية ، كستنائية ، وما كان أطيب رائحتها ! كان لكل منهم عطره الخاص ، وبهذه الطريقة كنت اميزهم في الليل · كانت تفوح مـن انجلترا رائحة ماء الكولونيا ، ومن فرنسا البنفسج ، ومن روسيا المسك ، ومن ايطاليا ، آه ! ايطاليا كانت مشغوفة بالعنبر ! يا لتلك اللحى ، يا الهي ، يا لتلك اللحى !

« كنا نجتمع غالباً في سفينة القيادة ، ونتحدث عن الثورة · كانت جميع البزات مفكوكة العرى ، ولم اكن ارتدى سوى ثوب من الحرير يلتصق بجلدي، لأنهم كانوا يغرقونه في الشمبانيا · كان ذلك في الصيف ، أتفهم · كنا نتحدث اذن عن الثورة ، احاديث جدية ، وكنت انا امسك بلحاهم واتضرع اليهم ألا يطلقوا مدافعهم على الكريتيين المساكين الأعزاء · كنـا نراهم بـالمنظار ، على صخرة ، قـرب كارنيـه ، ضئيلين ، ضئيلين ، مثل النمـل ، وهم مرتدون زرقاء واحذية صفراء · وكانوا يصرخون ، ويصرخون ، وكان معهم علم ··· »·

وتحركت القصبات التي تشكل سياج الباحة · وتوقفت المناضلة العجوز، مذعورة · ولمعت بين أوراق الأشجار عيون خبيثة · لقد شم اطفـال القريـة رائحة مرحنا وراحوا يرقبوننا ·

وحاولت المغنية ان تنهض ، لكنها لم تتمكن : لقد أكلت كثيراً وشربت كثيراً ، فعادت الى الجلوس والعرق ينسال منها · وتنـاول زوربـا حجراً ، فتفرق الأطفال وهم يصيحون ·

وقال زوربا وهو يقرب مقعده قليلا :

ـ تابعي ، يا جميلتي ، تابعي ، يا كنزي !

ـ كنت أقول اذن للأميرال الايطالي ، الذي كنت اجد معه حرية اكبر ، كنت اقول له وانا أمسك لحيته : « كانافارو ـ هكذا كان اسمه ـ يا صغيري كانافارو ، لا تفعل بُمْ ! بمْ ! لا تفعل بم ! بم ! » ·

« كم من المرات ، انا التي تحدثكما ، انقذت الكريتيين من الموت ! كم من المرات كانت المدافع مستعدة للاطـلاق ، لكنني كنت أمسك بلحيـة الأميرال ولا اتركه يفعل بم ! بم ! لكن من الذي يعترف بجميلي ؟ بدلا من وسام ···»·

لقد كانت السيدة هورتانس غاضبة من نكران البشر للجميل · وضربت

المائدة بقبضتها الصغيرة اللدنــة المتغضنة · ومد زوربـــا يده الى الركبتين المنفرجتين ، وامسكهما ، وقد تملكه انفعال متصنع وهتف :

ـ يا بوبولينتي (١) ، ارجوك ، لا تفعلي بم ! بم !

فقالت سيدتنا الطيبة وكأنها دجاجة تنادي افراخها :

ـ ارفع يديك ! ماذا تظنني ، ايها العجوز ؟

ورمقته بنظرة مرتخية ، وقال المحتال العجوز :

ـ يوجد اله رحيم ، لا تحزني يا بوبولينتي · نحن هنا ، يا عزيزتي ، لا تخافي !

ورفعت الجنية العجــوز الى الســماء عينيهــا الصغيرتين الزرقــاوين اللاذعتين ، ورأت ببغاءها نائما في قفصه ، اخضر اللون · وهدلت بحب :

ـ كانافارو ، يا صغيري كانافارو !

وفتح الببغاء عينيه ، عندما عرف صوتها ، وتشبث بقضبان القفص وراح يصرخ بصوت مبحوح لانسان يغرق :

ـ كانافارو ! كانافارو !

ـ حاضر ! هتف زوربا وهو يضع من جـديد يده على هــاتين الركبتين اللتين خدمتا كثيراً ، وكأنه يريد امتلاكهما ·

واستدارت المغنية العجوز فوق مقعدها ، وفتحت من جديد فمها الصغير المتغضن :

ـ لقد حاربت انا ايضاً ، صدراً لصدر ، ببسالة ··· لكن الايام السيئة جاءت · فقد تحررت كريت ، تلقت الاساطيل الامر بالعودة · « وانا ، مـــا الذي سأصير اليه ، كنت اهتف بذلك وانــا امســك بــاللحى الأربــع · اين ستتركونني ؟ لقد اعتدت على العظمة ، اعتــدت على الشمبانيا والفراريــج المحمرة ، اعتدت على البحارة الصــغار الجميلين الـــذي يحيونني بــالتحية العسكرية · ما الذي سأصير اليه ، أربع مرات أرملة ، يا سادتي القواد ؟ » ·

« أما هم ، فكانوا يضحكون · آه ! يــا للبشر ! واغرقوني بالجنيهــات الانجليزية ، والليرات الايطالية ، والروبلات والفرنكات · وضعت منهــا في جواربي ، في قميصي ، في حذائي · وفي المساء الاخير ، رحت أبكي وأصرخ ، فأشفق الاميرالية عليّ · فملأوا المغطس بالشمبانيا ، وغطسوني فيه ـ كنــا

---

١ ـ بوبولينا : بطلة حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ ـ ١٨٢٨) حاربت في البحر ببسالة · « المترجم »

متآلفين جداً كما ترى ـ ثم شربوا كل الشمبانيا على شرفي ، فسكروا · بعد ذلك أطفأوا الأنوار ··· » ·

« عند الصباح ، شممت الروائح الأربع : البنفسج ، وماء الكولونيا ، والمسك والعنبر · كنت امسك بالدول الأربع الكبرى ـ إنجلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا ـ كنت امسكها هنا ، على ركبتي ، وأجسّها ، انظر هكذا !» ·

وحركت السيدة هورتانس ذراعيها الصغيرين النحيلين ، بعد ان باعدتهما ، من الأسفل الى الاعلى ، وكأنها تلاعب طفلا صغيراً على ركبتيها ·

ـ هنا هكذا ! هكذا !

« وعندما طلع النهار بدأوا يطلقون المدافع ، انني لا أكذب ، اقسم لك بشرفي ، وجاء زورق ابيض فيه اثنا عشر جذافاً ، ليأخذني ويضعني على البر» ·

وأخذت منديلها الصغير وراحت تبكي ، بلا عزاء · وهتف زوربا ملتهباً :

ـ يا بوبولينتي ، اغلقي عينيك ··· اغلقي عينيك يا كنزي · انني انا كانافارو !

ـ ارفع يديك ، قلت لك ! صرخت من جديد سيدتنا الطيبة وهي تتدلل · انظر الى هذا الرأس ! أين هي الشارات الذهبية ، والقلنسوة ، واللحية المعطرة ؟ آه ! آه !

وشدت بلطف على يد زوربا وعادت الى البكاء ·

وبرد الطقس · وصمتنا لحظة · كان البحر ، وراء القصب ، يتنهد ، باطمئنان وحنان · وسكنت الريح ، وغابت الشمس · ومر غرابان من غربان المساء فوقنا وصفرت اجنحتهما وكأنهما قطعة من حرير تمزق ، ولنقل قميص مغنية حريري ·

وحل الغسق كغبار ذهبي واجتاح الباحة ·والتهبت عقدة السيدة هورتانس المجنونة وتأرجحت في نسيم المساء ، وكأنها تريد ان تطير لتحرق الرؤوس المجاورة · واكتسى بالذهب صدرها نصف العاري ، وركبتاها المتباعدتان اللتان هدلهما العمر ، وغضون عنقها ، وخفاها المتثنيان ·

وارتعدت جنيتنا العجوز · وراحت تنظر بعينيها الصغيرتين نصف المغلقتين المحمرتين بسبب الدموع والخمر ، تارة الي وتارة الى زوربا ، الذي ارتمى ، وقد جفت شفتاه ، على صدرها · واشتد الظلام · كانت تنظر الينا نظرة استفهام ، محاولة ان تميز أينا كانافارو ·

وهمس زوربا بشغف وهو يلصق ركبته بركبتها :

ـ يا بوبولينتي ، لا يوجد اله ، ولا شيطان ، فلا تهتمي · ارفعي رأسك

الصغير ، واسندي يدك الى خدك وغني لنا اغنية · لتحي الحياة ، وليفطس الموت ! · · ·

كان زوربا يشتعل اشتعالا · وبينما كانت يده اليسرى تسوي شاربه ، كانت يده اليمنى تنساب فوق المغنية النشوى · كان يتكلم ولهاثه متقطع ، وعيناه متعبتان · ولا شك انه لم يكن يرى امامه تلك العجوز المحنطة المطلية بالمساحيق الكثيرة ، بل كل « الجنس الانثوي » ، كما اعتاد ان يسمي المرأة · وراحت الفردية تختفي ، والوجه يمحي · سواء كانت شابة أم هرمة ، جميلة أم قبيحة ، فهذه لم تعد سوى صور لا أهمية لها · فوراء كل امرأة ينتصب وجه افروديت ، صارماً ، مليئاً بالاسرار ·

كان ذاك هو الوجه الذي يراه زوربا ، واليه كان يتحدث ، واياه يشتهي ، ولم تكن السيدة هورتانس الا قناعاً مؤقتاً شفافاً يمزقه زوربا ليقبل الفم الخالد ·

وعاد صوته المتضرع اللاهث يقول :

ــ ارفعي عنقك الثلجي ، يا كنزي ، ارفعي عنقك الثلجي ، وانطلقي في اغنيتك ·

واسندت المغنية العجوز خدها على يدها النحيلة ، التي خددها الغسيل ، وارتخت نظرتها · واطلقت صرخة نادبة ووحشية وبدأت اغنيتها المفضلة ، المكررة الف مرة ، وهي تنظر الى زوربا اذ كان اختيارها قد تم ــ بعينين منهزمتين ، نصف مطفأتين :

عند نهاية عمري ·

لماذا التقيت بك · · ·

وقفز زوربا ، وذهب ليأتي بالسانتوري ، وجلس على الأرض الاربعاء ، ونضا الغلاف عن آلته ، واسندها على ركبتيه ، ومد رجليه الضخمتين ، وصرخ:

ــ آي ! آي ! خذي سكينة واذبحيني ، يا بوبولينتي ·

عندما بدأ الليل يرخي سدوله ، وتدحرجت في السماء نجمة المساء ، وارتفع صوت السانتوري ، مداهناً متلمقاً ، تمددت السيدة هورتانس ، وقد اكتنظت بالدجاج والأرز واللوز المحمص والخمر ، بكل ثقلها على كتف زوربا وتنهدت · وتدلكت قليلا بخاصرتيه البارزة عظامهما ، وتثاءبت وتنهدت من جديد ·

وأشار زوربا اليّ ، وهمس بصوت منخفض :

ــ ان النار تشتعل في سراويلها ، أيها الرئيس ، اذهب !

- ٤ -

طلع النهار ، وفتحت عينيّ ، ورأيت أمامي زوربا ، جالساً مثني القدمين عند طرف سريره ، كان يدخن ، وهو غارق في تأمل عميق · وكانت عيناه الصغيرتان المستديرتان تحدقان بالنافذة التي صبغتها أشعة الفجر الأولى ببياضٍ حليبي · كانت عيناه منتفختين ، ورقبته العارية النحيلة ممتدة ، بطولها غير العادي ، كرقبة طائر صيد ·

كنت قد انسحبت البارحة مبكراً ، وتركته وحده مع الجنية العجوز · وقلت له :

ـ انني ذاهب ، أ'له' جيداً ، يا زوربا · وتشجّع يا فتاي !

فأجاب زوربا :

ـ الى اللقاء ، أيها الرئيس · دعنا نسوي قضيتنا ، مساء الخير ، أيها الرئيس ، نم جيداً !

والظاهر ، أنهما قد سويا قضيتهما ، لأنه بدا لي في نومي انني سمعت هديلاً مكتوماً ، وهزات تقلقل الغرفة المجاورة في احدى اللحظات · ثم عدت الى النوم · وبعد زمن طويل على مضي نصف الليل ، دخل زوربا عاري القدمين وتمدد على سريره ، بهدوء كبير ، كي لا يوقظني ·

والآن ، عند الفجر ، كان هناك ، عيناه ضائعتان بعيداً ، نحو النور ، ونظرته مطفأة · وكان ما يزال غارقاً في خدر خفيف ، وصدغاه لم يتحررا بعد من النعاس · واستسلم بهدوء وسلبية الى تيار من نور كثيف كالعسل · كان الكون يجري : الأراضي ، والمياه ، والأفكار ، والبشر ، نحو بحر بعيد ، وزوربا يجري معه ، دون مقاومة ، دون تساؤل ، وبحبور ·

بدأت القرية تستيقظ ـ ضجيج خليط من أصوات الديكة ، والخنازير ،

والحمير ، والبشر • وأردت ان أقفز من الفراش ، وأصرخ : « أيْ زوربـــا ، لدينا اليوم عمل ! » لكنني كنت أحس انا نفسي بهناء كبير اذ أستسلم هكذا ، دون كلمات ، دون حركات ، لتسربات الفجر • القلقة ، الرائعة • في مثل هذه الدقائق السحرية ، تبدو الحياة كلها خفيفة كالزغب • وتتشكل الأرض وتتعدل بنفح الريح ، وكأنها غيمة متموجة ، رخوة •

كنت أنظر الى زوربا يدخن ، ورغبت في التدخين انـــا ايضاً ، فمددت ذراعي وأخذت غليوني • ونظرت اليه بانفعال • انه غليـــون انجليزي ضخم وثمين أهداني اياه صـــديقي ــ ذو العينين الرمـــاديتين الخضراوين واليـــدين الضامرتي الأصابع ــ في ظهر أحد الأيام ، منذ عدة سنوات ، في بلد أجنبي • كان سيسافر ، بعد ان انهى دراسته ، الى اليونان في مساء نفس اليوم • فقال لي : « دعك من السجائر ، انك تشعلها وتدخن نصفها ثم ترميها وكأنها بغي • هذا عار • تزوج الغليون ، فهو المرأة المخلصة • عندما تعود الى بيتك ، تجده هناك دوماً ، ينتظرك دون ان يتحرك • فتشعله ، وتتطلع الى الدخان وهـــو يصعد في الهواء ، وتتذكرني » •

كان الوقت ظهراً ، وكنا خارجين من احد متاحف برلين ، حيث ذهـب ليودع لوحته العزيزة « المحارب » لرامبراندت ، بخوذته البرونزية ، وخديـه الهزيلين ، ونظرته المتألمة العنيدة • وتمتم وهو ينظـر الى المحارب الحاقـــد واليـــائس :

« اذا ما قمت في حياتي بعمل جدير بانسان ، فسأكون مدينا به له » •

كنا في باحة المتحف ، مستندين الى عمود • وأمامنـــا كان تمثال مـــن البرونز : فارسة عارية تمتطي برشاقة لا توصف حصاناً متوحشـــاً • وحـط عصفور صغير رمادي ، من نوع الذعرة ، على رأس الفارسة لحظة ، ثم التفت نحونا ، وهز ذنبه هزات صغيرة عنيفة ، وصفر مرتين او ثلاثاً لحناً هازئاً وطار•

وارتعدت ونظرت الى صديقي ، وسألته :

ــ أسمعت العصفور ؟ لقد بدا عليه انه قال لنا شيئاً •

ابتسم صديقي وأجاب مستشهداً ببيت من أغانينا الشعبية :

ــ « انه عصفور ، دعه يغني ، انه عصفور ، دعه يتكلم ! » •

كيف تعود ، في هذه اللحظة ، عند طلوع النهار ، فوق هذا الســـاحل الكريتي ، كيف تعود هذه الذكرى الى ذاكرتي مع هذا البيت الحزين الـــذي يغرق نفسي بالمرارة ؟

وحشوت غليوني ببطء وأشعلته • لكل شيء معنى خفي في هذا العالم • هكذا قلت في نفسي • البشر ، والحيوانات ، والأشجار ، والنجوم ، كلهـــا

ليست الا خطوطاً هيروغليفية ، وسعيد هو الذي بدأ بحلها وادراك ما تعنيه ، لكن يا لتعاسته أيضاً ! انه لا يفهمها عندما يراها ٠ فهو يعتقد انها بشر ، وحيوانات ، وأشجار ، ونجوم ٠ ثم يكتشف ، بعد عدة سنوات ، بعد فوات الأوان ، معناها الحقيقي ٠

المحارب ذو الخوذة البرونزية ، وصديقي المستند الى العمود ، والنور الكثيف في ظهر ذلك اليوم ، وعصفور الذعرة وما قاله لنا وهو يصفر ، وبيت الأغنية الحزينة ، كل ذلك ، يمكن ان يكون له معنى خفي ، هكذا أفكر اليوم ، لكن ما هو ؟

وتتبعت بعيني الدخان الذي كان يلتف وينتشر في نور الشفق العاتم وينقشع ببطء ٠ وكانت روحي تندمج بهذا الدخان ، وتتلاشى في دوائر زرق ٠ ومضى زمن طويل وكنت أحس ، دون تدخل المنطق ، وبيقين لا يوصف، بأصل العالم وتفتحه وزواله ٠ وكأنني قد غرقت من جديد في بوذا ، لكن هذه المرة بدون الكلمات الخادعة ، وألعاب الفكر البهلوانية والوقحة ٠ ان هذا الدخان هو خلاصة تعاليمه ، وهذه الدوائر المتلاشية هي الحياة التي تؤدي ، بهدوء واطمئنان وسعادة ، الى النيرفانا الزرقاء ٠ لم أن أفكر بشيء ، ولا أبحث عن شيء ، ولا أشك بشيء ٠ كنت أعيش في اليقين ٠

وتنهدت بهدوء ٠ وكأن هذه التنهدة أعادتني الى اللحظة الحاضرة ، فنظرت حولي ورأيت الكوخ الخشبي البائس ، ومرآة صغيرة معلقة على الحائط ، قد سقط عليها شعاع الشمس الأول ، فراحت تقدح بالشرر ٠ وكان زوربا جالساً امامي ، فوق فراشه ، مديراً ظهره لي ، يدخن ٠

وفجأة هدر في نفسي يوم' أمس بكل احداثه المضحكة ــ المبكية ٠ روائح البنفسج الفائحة ، البنفسج ، وماء الكولونيا ، والمسك والعنبر . وببغاء ، او كائن شبه انساني قد استحال الى ببغاء ، كان يضرب بجناحيه قضبان قفصه الحديدي وهو يدعو حبيباً قديماً ، وسفينة عجوز ، هي الوحيدة من أسطول كامل لا تزال على قيد الحياة ، تروي معارك بحرية قديمة ٠٠٠

سمع زوربا تنهدتي ، فهز رأسه واستدار متمتماً :

ــ لقد اسأنا التصرف ، لقد اسأنا التصرف ، أيها الرئيس ٠ لقد سخرت وكذلك أنا ، ورأتنا المسكينة ؟ ثم ذهبت ، دون ان تمهد لذلك ، وكأنها عجوز عمرها الف عام ، يا للعار ! ليس هذا بالادب ، أيها الرئيس ، ليس هكذا يجب ان يتصرف الرجل ، كلا ، اسمح لي ان اقول لك ذلك ! انها امرأة ، بعد كل

شيء ، أليس كذلك ؟ مخلوق ضعيف ، سريع البكاء • ولحسن الحظ بقيت أنا لأعزيها •

فقلت ضاحكاً :

ـ لكن ماذا تقول يا زوربا ، أتعتقد جدياً ان جميع النساء ليس في رؤوسهن غير ذلك ؟

ـ نعم • ليس في رؤوسهن غير ذلك • صدقني ، ايها الرئيس • انا الذي رأيت وعاشرت من جميع الالوان ، وان لي ، كما يقولون ، بعض الخبرة • ليس للمرأة شيء آخر في رأسها ، انها مخلوق مريض ، اقول لك ، سريعة البكاء • فاذا لم تقل لها انك تحبها وانك تشتهيها ، تأخذ بالبكاء • قد تقول لك لا ، وقد لا تعجبها مطلقاً ، وقد تثير اشمئزازها ، لكن هذه قصة أخرى • ان من يرونها ، عليهم ان يشتهوها • هذا ما تريده ، المسكينة ، اذن فأنت تستطيع ان تسرّها !

« أنا ، كانت لي جدة ، وكانت في الثمانين • ان قصة هذه المرأة لرواية حقيقية • لكن حسناً ، ان هذه أيضاً قصة أخرى ••• كانت اذن في الثمانين تقريباً ، وامام بيتنا كانت تقطن فتاة شابة نضرة كالزهرة • كانت تدعى كريستالو • وفي مساء كل سبت ، كنا ، نحن ، اغرار القرية ، نذهب لشرب قدح ، ونتتشي بالخمر • ونضع غصناً من الحبق خلف اذننا ، ويأخذ ابن عم لي قيثارة ونذهب للسيرينادا • يا للنار ! يا للهوى ! كنا نخور كالجواميس • كنا نريدها جميعاً ، ومساء كل سبت كنا نذهب قطيعاً واحداً لتختار منه •

« حسناً ! هل تصدقني ، ايها الرئيس ؟ انه لسر محير ، ان في المرأة جرحاً لا يلتئم أبداً • ان جميع الجراح تلتئم ، لكن هذا ، لا تصغ الى ما تقوله كتبك ، لا يلتئم ابداً • لماذا ، لأن المرأة قد بلغت الثمانين ؟ ان الجرح يبقى دوماً مفتوحاً •

« اذن ، كل سبت ، كانت العجوز تجر فراشها قرب النافذة ، وتأخذ خفية مرآتها الصغيرة ، وتمشط الشعرات القليلات التي بقيت ، وتفرقها الى فرقين ، وتنظر حواليها بطرف خفي خشية ان يشاهدها أحد ، واذا ما اقترب انسان تنكمش على نفسها بهدوء كأنها قديسة تدعي التقوى ، وتتظاهر بالنوم • لكن كيف تنام ؟ انها تنتظر السيرينادا • في الثمانين ! أترى ، ايها الرئيس ، ان هذا يدفعني الى الرغبة في البكاء اليوم • لكني في ذلك الوقت لم أكن الا طائشاً ، لا أفهم شيئاً ، وكان ذلك يثير سخريتي • وذات يوم ، غضبت عليها • كانت تسيء معاملتي لأنني اجري وراء الفتيات ، فصارحتها مرة

بحقيقة أمرها : « لماذا تمسحين شفتيك بورق الجوز كل سبت ، وتمشطين شعرك ؟ لعلك تتصورين اننا نقوم بالسيرنادا من اجلك ؟ نحن ، انما نريد كريستالو • اما انت ، فتفوح منك رائحة الجثث ! » •

« صدقني ، أيها الرئيس ! في ذلك اليوم ، عندما رأيت دمعتين كبيرتين تنسابان من عيني جدتي ، فهمت لأول مرة ما هي المرأة • فقد تقوقعت في زاويتها ككلبة وراحت ذقنها ترتعد • وصرخت وانا اقترب منها كي تسمعني جيداً : « كريستالو » ، « كريستالو ! » • ان الشباب حيوان مفترس ، لا انساني ، لا يفهم • ورفعت جدتي ذراعيها الضامرتين نحو السماء وهتفت : « ألعنك من اعماق قلبي » • ومنذ ذلك اليوم ، أخذت تهبط المنحدر ، وتتلاشى، وبعد شهرين كانت على وشك الموت • وفي اللحظة التي كانت تحتضر فيها ، شاهدتني • فتنهدت كالسلحفاة ومدت يدها اليابسة لتخدشني : « انت الذي قتلتني يا الكسيس ، يالعين • لتحل اللعنة عليك ولتتألم أنت أيضاً بقدر ما اتألم ! » •

وابتسم زوربا وقال وهو يداعب شاربه :

ــ آه ! ان لعنة العجوز لم تخطئني • انني في الخامسة والستين ، على ما اعتقد ، لكنني لن اصبح حكيماً ابداً ، حتى ولو عشت مئة عام • سأحمل دوماً مرآة صغيرة في جيبي وسأركض وراء الجنس الأنثوي •

وابتسم مرة أخرى ، والقى سيجارته من النافذة ، وتمدد قائلا :

ــ لدي اكداس من النقائص ، لكن هذه النقيصة ستقتلني !

وقفز من سريره :

ــ هذا يكفي • لقد تحدثنا كثيراً • اليوم ، سنعمل !

ولبس ثيابه في أقل من ثانية ، وانتعل حذاءه وخرج •

ورحت اجتر كلمات زوربا ، ورأسي محني على صدري ، وفجأة عادت الى صورة ذهني مدينة بعيدة مغطاة بالثلج • كنت واقفاً انظر ، في معرض لأعمال رودان ، الى يد ضخمة من البرونز ، « يد الله » • كانت الراحة نصف مغلقة ، وفي تلك الراحة رجل وامرأة يتدافعان ويمتزجان ، مأخوذين بالنشوة ، متعانقين •

واقتربت صبية ووقفت الى جانبي • وراحت تنظر ، مضطربة هي ايضاً الى عناق الرجل والمرأة القلق الخالد • كانت نحيفة ، أنيقة الثياب ، ولها شعر كثيف اشقر ، وذقن قوية ، وشفتان ضيقتان • كان فيها ثمة شيء مصمم

ورجولي· ولا أدري ما الذي دفعني الى التكلم مع انني اكره الدخول في محادثات سهلة · فالتفت قائلا :

ـ بمَ تفكرين ؟

فتمتمت بتحدٍ :

ـ لو نستطيع الهرب !

ـ للذهاب الى اين ؟ ان يد الله في كل مكان · لا سلام · أ آسفة لذلك ؟

ـ كلا · من الممكن ان يكون الحب أعظم فرح على هذه الأرض · هـــذا ممكن · لكنني اود ان اهرب ، اذ أرى الآن هذه اليد البرونزية ·

ـ أتفضلين الحرية ؟

ـ نعم ·

ـ لكن ما العمل ان لم تكن حريتنا الا في طاعة اليد البرونزيـــة ؟ واذا كانت كلمة « الله » ليس لها المعنى الشائع الذي تعطيه الجماهير لها ؟

فنظرت الي بقلق · كانت عيناها بلون المعدن الرمادي ، وشفتاها جافتين ومريرتين · وقالت :

ـ انني لا أفهم ·

وابتعدت وكأنها خائفة · ثم اختفت · ولم تعد الى خاطري قط منذ ذلك الحين · لكنها كانت تعيش بالتأكيد في داخلي ، تحت بلاطة صدري ، وها هي اليوم فوق هذا الساحل القفر ، تخرج من أعماق نفسي ، شاحبة نائحة ·

نعم ، لقد اسأت التصرف ، ان زوربا على حق · لقد كانت تلك اليـــد البرونزية ذريعة حسنة ، وكنا نستطيع ، بعد أن نجح الاحتكاك الأول وقيلت الكلمات الأولى اللطيفة ، ان نتعانق ، رويداً رويداً ، دون ان ينتبه احدنـــا ، ونتحد بهدوء تام في راحة الله · لكنني اندفعت فجأة من الأرض الى السماء ، فذعرت المرأة وهربت ·

وصاح الديك في باحة السيدة هورتانس · ان النهار يتســرب الآن ، شديد البياض ، من النافذة الصغيرة · ونهضت دفعة واحدة ·

اخذ العمال يجيئون حاملين معاولهم وعتلاتهم ومجارفهم · وسمعت زوربا يصدر الأوامر · لقد انهمك فجأة في عمله ، واصبح ذلك الرجل الذي يعرف كيف يأمر ، والذي يحب المسؤولية ·

ومددت رأسي من النافذة ورأيته واقفاً ، كعملاق ضخم وسط ثلاثين من الرجال ، النحيفين ، القساة ، السمر ، القصيري القامة · كانت ذراعه تمتدّ بشكل آمر ، وكلماته مختصرة ودقيقة · وبعد لحظة أمسك بعنق فتى صغير

كان يتمتم ويتقدم بتردد • وصرخ :

ـ أهناك شيء تود أن تقوله ؟ قله بصوت عالٍ ! انني لا أحب الهمهمات • لكي تشتغل ، لا بد ان تكون مستعداً ، فاذا لم تكن كذلك ، فأسرع الى الحانة•

وعندئذ ظهرت السيدة هورتانس ، شعثاء الشعر ، منتفخة الخدين ، غير مخضبة الوجه ، مرتدية قميصاً عريضاً قـذراً وخفين طـويلين باليين • وسعلت سعالا جافاً كسـعال المغنيات العجـائز ، اشـبه بالنهيق ، وتوقفت ونظرت الى زوربا باعتزاز • واضطربت عيناها • وسعلت مـن جديـد كي يسمعها ، ومرت قربه وهي تتأرجح وتهز ردفيها • ولم يبق الا قيـد شعرة لتمسه بكمها الواسع • لكنه لم يلتفت حتى لمجرد النظر اليها • وأخذ من أحد العمال قطعة من كعكة مصنوعة من الشعير ، وقبضة من الزيتون • وصرخ :

ـ هيا ، ايها الرفاق ، ارسموا اشارة الصليب !

وبخطا عريضة ، قاد الفريق في خط مستقيم نحو الجبل •

لن أصف ها هنا اعمال المنجم • ان ذلك يتطلب الصبر ، وليس لـدي شيء منه • لقد بنينا قرب البحر كوخاً من القصب والخيزران وصفائح الوقود• كان زوربا يستيقظ عند الفجر ، ويتناول معوله ، وينطلـق الى المنجم قبـل العمال ، ويحفر دهليزاً ، ويتركه ، ويجد عرقاً من اللينيت اللامـع كالفحم الحجري ويرقص من الفرح • لكن العرق كان يضيع بعد عدة أيام ، فيلقي زوربا بنفسه على الأرض ، رافعاً ساقيه في الهواء ، ويأخذ برجليه ويديه يتحـدى السماء •

كان يشتغل من كل قلبه • ولم يكن حتى ليستشيرني • وبعد عدة أيام، كان الهم كله والمسؤولية كلها قد انتقلت من يدي الى يده • انه هو الذي يقرر وينفذ • اما أنا فعلي أن أدفع ثمن الجرار المكسورة ـ وهذا لم يكن ليزعجنـي بالاصل ـ لأنني احس جيداً ان هذه الأشهر من حياتي ستكون من أسعد الأشهر على الاطلاق • وهكذا ، بعـد ان قمت بجميع حسـاباتي ، كنت أدرك انني اشتري سعادتي بقليل من التكاليف •

كان جدي لأمي الذي كان يسـكن في قريـة صغيرة بكريت ، يأخذ كل مساء فانوسه ويقوم بجولة في القرية ليرى اذا كان أحد الغرباء قد جاء اليهـا مصادفة • كان يأخذه الى منزله ، ويقدم له كثيراً من الطعام والشراب ، ثـم يجلس على الأريكة ، ويشعل غليونه التركي الطويل ، ويلتفت نحـو ضيفه ـ الذي حان أن يوفي ما عليه ويقول له بلهجة آمرة :

ـ حدثني !

ـ عمَ أحدثك ، ايها الأب موستيوري ؟

ـ ما بك ، من انت ، من اين قدمت ، ما المدن وما القرى التي شاهدتها عيناك ، كل شيء ، حدثني عن كل شيء • هيا تكلم !

ويبدأ الضيف بالحديث ، كيفما اتفق ، خالطاً الحقائق بالأكاذيب ، بينما يدخن جدي غليونه ، ويصغي اليه ويسافر معه ، وهو جالس بهدوء على الأريكة • واذا ما أعجبه الضيف ، يقول له :

ـ ستبقى غداً ايضاً ، لن تذهب • ما زال لديك أشياء لترويها •

ان جدي لم يغادر قريته • بل انه لم يذهب حتى الى « كانــدي » أو الى « كانيه » • كان يقول : « أأذهب اليها ، لماذا ؟ هناك سكان من كانيه وكانــدي يمرون من هنا ، ان كاندي وكانيه تأتيان اليّ • لست بحاجة الى الذهــاب اليهما ! » •

انني اليوم أستمر في عادة جدي فوق هذه الأرض الكريتية • لقد وجدت انا أيضاً ضيفاً ، وكأنني بحثت عنه بضوء فانوسي • انني لن أتركه يذهب • وهو يكلفني أكثر بكثير من ثمن عشاء ، لكنه يستحق ذلك • كل مساء ، انتظره بعد العمل، وأجعله يجلس بمواجهتي،ونأكل، ثم يأتي الوقتالذي يجبان يدفع فيه ، وأقول له : «حدثني ! » • وأدخن غليوني وأصغي اليه • لقد جاب هذا الضيف الأرض كثيراً ، وسبر غور الروح الانسانية جيداً ، وأنا لا أشبع مـن الاصغاء اليه •

ـ حدثني ، زوربا ، حدثني !

وما ان يفتح فاه ، حتى تتجلى كل ماسيدونيا أمامي ، وتمتد في الفسحة الصغيرة التي بيني وبين زوربا ، بجبالها ، وغاباتها وسيولها ، وجنودها غير النظاميين ، ونسائها اللواتي لا يشق عليهن العمل ، ورجالها الغلاظ القساة • وكذلك جبل آتوس بديوره الواحد والعشرين ، وترساناته ، وساكنيه الكسالى•

ويهز زوربا عنقه وهو ينهي قصصه عن الرهبان ، ويقول وهو ينفجـر ضاحكا : « ليحفظك الله ، أيها الرئيس ، من مؤخرات البغال ومـن مقدمــات الرهبان ! »

كل مساء ، يأخذني زوربا للنزهة عبر اليونان ، وبلغاريا والقسطنطينة ، واغلق عيني وأرى • لقد جاب البلقـان ، ولاحـظ كل شيء بعينيه المرتبكتين القلقتين الصغيرتين اللتين تشبهان عيني الصقر ، واللتين يجحظهما في كـل لحظة ، وقد تملكه الذهول • ان الأشياء التي اعتدنا عليها والتي نمر بهــا لامبالين ، تنتصب أمام زوربا وكأنها ألغاز مخيفة • فهو ان رأى امرأة تمر ،

يتوقف مبهوتاً ويسأل :

« ما هذا السر ؟ ما المرأة ، ولماذا تجعل عقلنا يدور ؟ ما معنى هذا ، قل لي قليلا ؟ »

انه يتساءل بالذهول نفسه أمام رجل ، او شجرة مزهرة ، او قدح من الماء البارد • ان زوربا يرى يومياً كل الأشياء للمرة الأولى •

كنا جالسين البارحة أمام الكوخ • وبعد ان شرب كأساً من الخمر ، التفت نحوي مذعوراً :

ـ ما هذا الماء الأحمر ، أيها الرئيس ، قل لي ! جذع شجرة عجوز ينبت أغصاناً ، وثمة انواع من الزخارف الحامضة المتدلية ، ويمضي الوقت ، وتنضجها الشمس ، فتصبح حلوة كالعسل ، وعندها تسمى عنباً ، وتداس بالأقدام ، و'يستخرج منها العصير الذي يوضع في براميل ، ويتخمّر من تلقاء نفسه ، ويفتح في عيد القديس جورج السكير ، فاذا هو خمر ! ما هذه المعجزة ايضاً ! وتشرب هذا العصير الأحمر ، فاذا بروحك تعظم ، ولا تعود تستطيع البقاء في الجسد العجوز ، وتتحدى الاله للمعركة • ما هذا ، ايها الرئيس ، قل لي ؟

لم اتكلم • كنت أحس ، وأنا أصغي الى زوربا ، ببتولية العالم تتجدد • وراحت جميع الاشياء العادية الباهتة تستعيد تألق ايامها الأولى ، لحظة خرجت من يدي الله • وعاد الماء ، والمرأة ، والنجمة ، والخبز ، الى النبع البدائي الغامض ، وانطلقت الدوامة السماوية من جديد في الجو •

لهذا كنت ، كل مساء ، انتظر زوربا وانا متمدد على حصى الشاطيء ، بشوق شديد • وكان يخرج من احشاء الأرض ، مليئا بالوحل وملوثاً بالفحم ، وكأنه فأرة ضخمة بقامته الطويلة المتهادية • ومن بعيد كنت احزر كيف سار العمل في ذلك اليوم ، من هيئة جسده ، من رأسه المنحني او المنتصب عالياً ، من اهتزاز ذراعيه الكبيرتين •

في البدء ، كنت أذهب معه ، وأراقب العمال • كنت اجهد نفسي للسير في درب جديدة ، وللاهتمام بالأعمال اليدوية ، ولمعرفة المادة الانسانية التي سقطت بين يدي ولمحبتها ، وللاحساس بالفرح الذي طالما تمنيته ، فرح العمل مع بشر احياء لا مع كلمات • وكنت أقوم بمشاريع رومانتيكية ـ فاستخراج الليينيت يتم بسرعة ـ لتنظيم نوع من الكومونة نعمل فيها جميعاً • وكل شيء يكون فيها مشتركاً ، فنأكل معاً جميعاً من نفس الطعام ونرتدي نفس الثياب ، كالأخوة • كنت اخلق في ذهني رهبانية جديدة ، خميرة حياة جديدة •••

لكنني لم اكن قد قررت بعد ان اطلع زوربا على مشاريعي • وكان ينظر الي ، بانزعاج ، وأنا اذهب واجيء بين العمال ، أسأل ، واتدخل ، وادافع دوماً عن العامل • ويزم زوربا شفتيه ويقول لي :

ـ أيها الرئيس ، ألاتود ان تقوم بجولة في الخارج ؟ ان الشمس رائعة هناك !

ولكنني كنت أصر في الأيام الأولى ، ولا أذهب • كنت أسأل وأثرثر ، واطلع على تاريخ جميع عمالي : الاطفال الذين عليهم ان يطعموهم ، والاخوات اللواتي عليهم ان يزوجوهن ، والوالدين العجوزين العاجزين ، وهمومهم ، وامراضهم ، ومشاغلهم •

وكان زوربا يقول لي بغضب :

ـ لا تنبش هكذا تاريخ حياتهم • فسيميل قلبك نحوهم ، وتحبهم أكثر مما يجب ، وأكثر مما تقتضي مصلحة عملنا • وستسامحهم مهما فعلوا ••• واذ ذاك ، فيا لشقائهم هم أيضاً ، يجب ان تعرف ذلك • عندما يكون الرئيس صلباً ، يخشاه العمال ، ويحترمونه ، ويشتغلون • وعندما يكون الرئيس ضعيفاً ، يضعون الرسن في عنقه ، ويجرونه بهدوء • أتفهم ؟

وذات مساء ، بعد ان انتهى العمل ، القى بمعوله امام الكوخ ، متعباً ، وصرخ :

ـ ارجوك ، ايها الرئيس ، لا تتدخل في أي شيء • أنا أبني وانت تهدم • ما هذه القصص التي كنت ترويها لهم اليوم ؟ اشتراكية وهراء ! أأنت واعظ أم رأسمالي ؟ يجب ان تختار •

لكن كيف اختار ؟ كانت الرغبة الساذجة تتأكلني في ان اجمع الأمرين معاً ، وان اجد التركيب الذي تتآخى فيه التناقضات التي لا سبيل للتوفيق بينها ، وان اكسب في آن واحد الحياة الأرضية وملكوت السماوات • ان هذا قد بدأ منذ سنوات ، منذ حداثتي • فمنذ أن كنت في المدرسة ، نظمت مع صفوة اصدقائي « أخوة ودية » ، وهو الاسم الذي اعطيناه للمنظمة ، واقسمنا ، وقد اغلقنا على انفسنا الغرفة بالمفتاح ، اننا سنكرس كل حياتنا للنضال ضد الظلم • وقد انسابت دموع كبيرة من اعيننا ، عندما اقسمنا وايدينا فوق قلوبنا •

مُثل عليا صبيانية ! ومع ذلك فيا لشقاء من يضحك اذا سمعها ! وانني اذ أرى الى أين انتهى اعضاء «الاخوة الودية » ـ ادعياء طب ومحاماة ، وعطارون، وسياسيون دجالون ، وصحفيون صغار ـ فان قلبي لينقبض • ان مناخ هذه

الأرض فظ وقاس على ما يبدو. رائمن البذور لا تنبت فيه أو هي تختنق في الشوك والقراص. ومع انني ارى ذلك الآن بوضوح، الا انني لم اصبح منطقياً بعد. ألا فليتمجد اسم الله! فأنا احس بأنني على استعداد لألقي بنفسي في غزوات دونكيشوتية.

كنا نستعد ليوم الاحد، وكأننا عروسان يريدان الزواج، فنحلق، ونرتدي قميصاً أبيض جديداً، ونذهب، وفي نهاية بعد الظهر، عند السيدة هورتانس. وكانت، في كل يوم أحد، تذبح لنا دجاجة، ونجلس من جديد ثلاثتنا، لنشرب ونأكل، ثم يمد زوربا يديه الطويلتين الى صدر السيدة الطيبة المضياف، ويمتلكه. وعندما يرخي الليل سدوله، نعود الى شواطئنا، وتبدو لنا الحياة بسيطة ومليئة بالنوايا الطيبة، وعجوزاً، لكنها لطيفة جداً ومضيافة، مثل السيدة هورتانس.

وذات أحد، قررت، ونحن عائدان من وليمتنا الوفيرة، ان احدث زوربا واطلعه على مشاريعي. وأصغى اليّ فاغر الفم، وهو يرغم نفسه على الصبر. ومن لحظة الى أخرى فقط كان يهز رأسه الضخم بغضب، وما ان سمع الكلمات الاولى، حتى طارت السكرة من عقله، وصفا ذهنه. وعندما انتهيت، انتزع بعصبية شعرتين أو ثلاثاً من شاربه. وقال:

ـ بالاذن منك، أيها الرئيس، فأنا احس بأن عقلك ليس صلباً جداً، بل هو أشبه بالمعجنات حقاً. كم عمرك؟

ـ خمس وثلاثون

ـ اذن! فهو لن يصبح صلباً مطلقاً.

وقهقه ضاحكاً. واحسست بأنني لُسِعت، وصرخت:

ـ الا تؤمن بالانسان، أنت؟

ـ لا تغضب، ايها الرئيس. كلا انا لا اؤمن بشيء. لو كنت اؤمن بالانسان، لآمنت أيضاً بالله، ولآمنت أيضاً بالشيطان. وتلك مشكلة. ان الامور يلتبس بعضها ببعض، وهذا يسبب لي، أيها الرئيس، كثيراً من الازعاج.

وصمت، وخلع قلنسوته، وحك رأسه بعصبية، وشدّ أيضاً شاربه وكأنه يريد انتزاعه. اراد ان يقول شيئاً ما لكنه امتنع. ونظر الي من جانب عينه، ثم نظر الي ثانية وقرّر. وصرخ وهو يضرب الحجارة بعصاه بعنف:

ـ الانسان بهيمة؟ بهيمة كبيرة. ان سيادتك لا تعرف ذلك، وكل شيء على ما يبدو كان سهلا بالنسبة لك، لكن اسألني أنا. بهيمة، اقول

لك ! اذا كنت سيئاً معه احترمك وخافك · واذا كنت طيباً فقأ عينيـــك ·
« حافظ على المسافات ، أيها الرئيس ، لا تشجع البشر كثيراً ، ولا تقل لهم اننا جميعاً متساوون ، وان لنا جميعاً الحقوق نفسها · والا فانهم سيدوسون حقك أنت ، ويسرقون خبزك ويتركونـــك تفطس من الجوع · حافظ عـلى المسافات ، أيها الرئيس ، من أجل الخير الذي أريده لك » ·

فصرخت غاضباً :

ـ لكن ألا تؤمن بشيء اذن ؟

ـ كلا ، لا اؤمن بشيء ، كم مرة يجب ان اقول لك ذلك ؟ انني لا أؤمن بشيء ، ولا بأي شخص آخر ، بل بزوربا وحده · ليس لأن زوربا أفضل من الآخرين ، ليس ذلـــك مطلقاً ، مطلقاً ! انه بهيمة هو الآخر · لكنني اؤمـــن بزوربا لأنه الوحيد الذي يقع تحت سلطتي، الوحيد الذي اعرفه،وكل الآخرين انما هم اشباح · انني ارى بعينيه ، واسمع بأذنيه ، واهضم بامعائه · وكل الآخرين ، اقول لك ، اشباح · عندما اموت انا ، فكل شيء يموت · ان كل العالم الزوربي سينهار دفعة واحدة !

فقلت ساخراً :

ـ انت تتحدث بأنانية !

ـ انني لا استطيع شيئاً ، ايها الرئيس ! الأمر هكذا : اذا أكلت فـولا فانني اتحدث عن الفول ، وانا زوربا ، اذن فأنا اتحدث على طريقة زوربا ·

لم أقل شيئاً · كنت احس بكلمات زوربا وكأنها صفعات سوط · انني اعجب لقوته هذه ، ولمقدرته على احتقار البشر الى هذا الحد ، وفي نفس الوقت لوجود مثل هذه الرغبة عنده في ان يعيش ويعمل معهم · أما انا ، فانني اما أن أصبح ناسكاً ، واما ان ازين البشر بريش زائف كي استطيع تحملهم ·

والتفت زوربا ونظر الي · وعلى ضوء النجوم ، تبينت وجهه الذي شقته ابتسامة حتى اذنيه ·

وقال وهو يتوقف فجأة :

ـ أأغضبتك ، أيها الرئيس ؟

كنا قد وصلنا الى الكوخ · ونظر الي زوربا بعطف وقلق ·

لم اجب · كنت احس بأن عقلي على اتفاق مع زوربا ، لكن قلبي كـان يقاوم ، يريد الانطلاق ، والهرب بعيداً عن البهيمة ، وفتح طريق له ·

وقلت :

ـ انني لا اشعر بالنعاس ، يا زوربا ، هذا المساء · اذهب للنوم ، انت ·

كانت النجوم تتلألأ ، والبحر يتنهد ويلعق الاصداف ، واضاءت احدى الحباحب تحت بطنها منارتها الصغيرة الفاضحة ٠ وكان شعر الليل يقطر ندى٠

وتمددت على الشاطيء ، وغرقت في الصمت ، دون ان افكر بشيء ٠ واصبحت انا والليل والبحر كلاً واحداً ، وأحسست بروحي وكأنها حباحب قد وقفت ، بمنارتها الصغيرة الذهبية الخضراء المضيئة ، فوق أرض رطبة وسوداء ، وراحت تنتظر ٠

كانت النجوم تسافر ، والساعات تمضي وعندما نهضت كنت قد رسمت في نفسي نهائياً ، دون ان ادري كيف ، المهمة المزدوجة التي علي ان اقوم بها على هذا الشاطيء :

ان اهرب من بوذا ، وأتخلص في الكلمات من كل همومي الميتافيزيقية ، واحرّر روحي من قلق غير مجدٍ ٠

ثم اقيم ، بدءاً من الآن ، احتكاكاً عميقاً ومباشراً مع البشر ٠

وقلت في نفسي : « لعل الوقت لم يفت بعد » ٠

- ٥ -

« العم انانيوستي ، المختار السابق ، يحييكما ويسألكما اذا كان يسركما ان تأتيا الى منزله لتناول الطعام • ان البيطري سيمر اليوم على القرية ليخصي الخنازير • وستطبخ لكما كيرا ماروليا ، زوجة المختار ، « الاعضاء » • وستتمنيان ايضاً عيداً سعيداً لحفيدهما ميناس ، فاليوم عيده » •

انه لمصدر فرح كبير ان تدخل الى منزل فلاحين كريتيين• فكل ما يحيط بك يدل على سيطرة الأب : المدفأة ، وقنديل الزيت ، والدنان المصفوفة على طول الجدار ، ومائدة ، وبضعة مقاعد ، والى يسار المدخل ، داخل تجويف في الجدار ، خابية الماء البارد • ومن عوارض المنزل الخشبية تتدلى سبحات السفرجل ، والرمان والنباتات العطرية : القويسة والنعنع المفلفل ، والعبيثران ، والصعتر •

وفي الداخل ، أربع أو خمس درجات خشبية تؤدي الى الدهليز الذي فيه السرير العالي ، وفوقه الأيقونات المقدسة والقنديل المشتعل دوماً • ان المنزل يبدو له فارغاً ، ومع ذلك ففيه كل ما لا بد منه ، ما دام الانسان الحقيقي يحتاج الى قليل من الاشياء •

كان النهار رائعا ، وشمس الخريف كثيرة العذوبة • وجلسنا أمام المنزل ، في الحديقة الصغيرة ، تحت شجرة زيتون حاملة • وبين الأوراق اللجينية ، كان البحر يتألق من بعيد ، هادئاً ، ساكنا • وثمة غيوم متبخرة تمر فوقنا ، فتحجب الشمس ، ثم تنقشع عنها ، وكأن الأرض تتنفس ، فرحة تارة ، وحزينة أخرى •

وفي آخر الحديقة ، داخل زريبة مقفلة ، كان الخنزير المخصي يصرخ ألماً ويصم آذاننا • ومن المدفأة ، كانت رائحة « الأعضاء » المشوية فوق الجمر تملأ انوفنا •

وتحدثنا عن اشياء خالدة : عن الحبوب ، والكروم ، والمطر · كنا مضطرين لأن نرفع صوتنا ، فالمختار العجوز لا يسمع جيداً · انه يقول ان أذنه متكبرة جداً · ولقد كانت حياة هذا الكريتي العجوز مستقيمة وهادئة كحيـاة شـجرة في وادٍ لا تصله الرياح · لقد ولـد ، ثم كبر ، ثم تزوج · وكان له اطفـال واحفاد · كثيرون منهم ماتوا ، لكن الآخرين لا يزالون أحياء ، فالذريـة إذن بـاقية ·

وتذكر الكريتي العجوز الأيام الماضية ، ايام الترك ، وعادت الى ذهنـه كلمات والده ، والمعجزات التي كانت تحدث في ذلك الزمان لأن النـاس كانوا يخشون الله ويؤمنون ·

ـ اليكما ، انا الذي يحدثكما ، انا العم انانيوستي ، لقد ولدت بمعجزة · نعم بمعجزة · وعندما سأروي لكما كيف ، ستدهشان وتقولان : « الرحـمة ، ايها الرب ! » · وستذهبان الى دير العذراء لتشعلا لها شمعة · ورسم اشارة الصليب وبدأ يتحدث بهدوء تام وبصوته العذب :

ـ في تلك الايام ، كان في قريتنا امرأة تركية غنية ـ عليها اللعنـة ـ وذات يوم حبلت اللعينة ، وجاء ميعاد وضعها · فحملت الى الأريكة وراحـت تصرخ كالعجل ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ · لكن الطفل لم يخرج · وقدمت لهـا صديقة ـ عليها اللعنة هي الأخـرى ! ـ نصيحة : « ظافر هـانم ، يجب ان تستدعي لنجدتك الأم ميبره ! » · والأم ميبره هو الاسم الـذي يطلقه الاتراك على العذراء · فصرخت ظافرة الكلبة « أأستدعي هذه ؟ هذه ؟ أفضل الموت ! » لكن الآلام كانت شديدة · وامضت أيضاً نهاراً وليلة · كانت تصرخ باستمرار، ولا تستطيع الوضع · ما العمل ؟ انها لم تعد تستطيع تحمـل الآلام · اذ ذاك اخذت تصرخ : « ايتها الام ميبره ! ايتها الام ميبره ! » · لقد صرخت كثيراً ما استطاعت ، لكن الآلام لم تتركها والطفل لا يأتي · فقالت لها عندئذ صديقتها : « انها لا تسمعك وهي لا تعرف التركية · ناديها باسمها المسيحي ، فصرخـت الكلبة عند ذاك : « يا عذراء الروميين ! يا عـذراء الروميين ! » · لـكن عبثاً ، فالآلام تزداد · فقالت الصديقة من جديد : « انك لا تنادينها كما يجب ، يـا ظافر هانم ، انك لا تنادينها كما يجب ولهذا فهي لا تأتي » · عندئذ لمـا رأت تلك الكلبة الكافرة الخطر اطلقت صرخة كبيرة : « ايتها العذراء القديسة ! » وانساب الطفل دفعة واحدة من بطنها كسمكة حنكليس · « جرى ذلك يـوم الأحد ، وفي الاحد التالي فاجأت الآلام والدتي بدورها · كانت تتألم هي ايضاً ، المسكينة ، كانت تتألم ، وتصرخ والدتي المسكينة · وتهتف : « ايتها العـذراء

القديسة ! ايتها العذراء القديسة ! » لكنها لم تر الخلاص يأتي مطلقاً • وكان والدي جالساً على الارض وسط الباحة ، وكان يتألم كثيراً حتى انه لم يستطع لا الشرب ولا الاكل ، ويوجه اللوم الى العذراء القديسة : « أترون ، لقد نادتها تلك الكلبة ظافرة في المرة الماضية ، فاسرعت اليها حتى كادت تدق عنقهـــا لتخليصها • اما الآن •••

وفي اليوم الرابع لم يعد والدي يستطيع التحمل ، فتملكه غضب شديد ، فأخذ عصاه وذهب الى دير « العذراء الذبيحة » • كانت في عوننا ! ووصــل ، ودخل الكنيسة حتى بدون ان يرسم اشارة الصليب ، بسبب غضبه الشديد ، وأغلق وراءه الباب بالمزلاج ووقف أمـام الايقونــة ، وصرخ : « قولي اذن ، أيتها العذراء القديسة ، ، ان امرأتي كرينيو ، انت تعرفينها ، فهي تحمل اليك الزيت مساء كل سبت وتشعل قناديلك ، ان امرأتي كرينيو في آلام المخاض منذ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ وهي تدعوك ، أفلا تسمعينها ؟ لا بد أنـك قد أصبحت صماء حتى لا تسمعينها • بالتأكيد ، لو كانت كلبة مثل ظافر ، قاذورة مـن قاذورات الأتراك ، لرأيناك تدقين عنقك لانقاذها • لكنــك أصبحت صمـــاء بالنسبة الى امرأتي ، المسيحية ، ولا تسمعينها ! حسناً ، لو لم تكوني العـذراء القديسة ، لأدبتك كما يجب ، بهذه الهراوة التي ترينها ! » •

« ولما انتهى من ذلك ، أدار ظهره دون ان يسجد ، ليخرج • لكن الايقونة أخذت تصرّ في اللحظة نفسها بصوت عالٍ ، وكأنها تذوب • ان الايقونات تصرّ هكذا عندما تصنع المعجزات ، اعلم ذلك اذا كنت تجهله • وفهم والدي فوراً ، فالتفت وركع على ركبتيه ورسم اشارة الصليب وصرخ : « لقـــد أخطـأت ، أيتها العذراء القديسة ، افترضي انني لم اقل شيئاً مما قلته ! » •

« وما كاد يصل الى القرية حتى بُشّر بالنبأ السعيد : « تهانينا ، يـــا كوستاندي ، لقد وضعت زوجتك •• انه صبي : وكان انـا ، انـــا نيوستي العجوز • لكني ولدت وأذني متكبرة (١) قليلا • ولقد جدّف والـــدي ، كما تريان ، ونعت العذراء بالصماء •

ولا بد ان العذراء قد قالت : آه ! أهكذا اذن ؟ حسناً ؟ انتظر قليـــلا ، سأجعل ابنك أصم ، وسيعلمك هذا كيف تجدف ! » •

ورسم العم أنا نيوستي اشارة الصليب وقال :

ــ وهذا ليس بمهم ، لأنها كانت تستطيع ان تجعلني أعمى او أبله ، او

---

١ ــ تعبير بالفرنسية يقصد به ثقل السمع • « المترجم »

أحدب ، او كانت تستطيع ـ ليحفظني الله ! ـ ان تجعلني بنتاً • هـــذا ليس بمهم ، انني أسجد امام نعمتها !

وملأ الكؤوس وقال وهو يرفع كأسه :

ـ لتكن في عوننا !

ـ في صحتك ، أيها العم انانيوستي ، انني اتمنى لك ان تعيش مئة عام وان ترى أبناء احفادك !

وجرع العجوز كأسه دفعة واحدة ومسح شاربه وقال :

ـ كلا ، يا ابني ، هذا يكفي • لقد رأيت أحفادي ، هذا يكفي ! يجب الا نطلب كثيراً • لقد حانت ساعتي • وها انا الآن عجوز ، أيها الأصدقاء ، لم تعد لي قوة ، ولا أستطيع شيئاً ، لكن ليست الشهوة هي التي تنقصني ، الا انه لم يعد بامكاني ان أبذر الأطفال ، اذن فماذا أفعل بالحياة ؟

وملأ الكؤوس من جديد ، وأخرج مـــن حزامه جوزات وتينات يابســة ملفوفة بورق الغار ، وتقاسمها معنا • وقال :

ـ كل ما أملكه ، أعطيته لأولادي • ولقد واجهنا الفاقة ، نعم الفاقـــة ، لكن هذه آخر همومي • ان الله لكبير ؟

فهمس زوربا في أذن العجوز :

ـ الله كبير ، أيها العم انا نيوستي ، الله كبير ••• لكننا نحن صغار !

وقطب المختار العجوز حاجبيه ، وقال بقسوة :

ـ قف ، لا تسيء معاملته هكذا ، أيها الصديق • لا تسيء معاملته هكذا ! هو أيضاً ، يعتمد علينا ، المسكين !

وفي تلك اللحظة ، جاءت الأم انا نيوستي ، بصمت وخضوع ، في صحن من الخضار «بأعضاء» الخنزير وبدلو كبير من النحاس مملوء بالخمر ، ووضعت هذه الأشياء فوق المائدة ، وظلت واقفة ، وصلبت يديها وخفضت عينيها •

وأحسست بالقرف من تذوق هذه المقبلات ، لكنني خجلت ، من جهـــة أخرى ، من الرفض • ونظر اليّ زوربا من طـرف عينه وهــو يبتسم بخبث ، وقــال :

ـ انه أطيب لحم ، أيها الرئيس • لا تقرف •

وضحك العجوز انا نيوستي بابتسامة صغيرة •

ـ انه ينطق بالحق ، انه ينطق بالحق ، جرّب تر • انه مثل النخاع ! عندما مر الأمير جورج بالدير ، هناك ، على الجبل ، هيأ الرهبان وجبة ملكية مع اللحم للجميع • ولم يكن للأمير الا صفحة حساء • وأخذ الأمير الملعقـــة

وراح يحرك حساءه · وسأل مدهوشاً : « لوبياء ؟ بيضاء ؟ فقـــال له رئيس الدير العجوز : كل يا أميري ، كل ثم سنتحدث عن ذلك فيما بعـد » · وذاق الأمير ملعقتين ، اثنتين ، ثلاثاً ، وأفرغ صحنه ولعق شفتيه · وقال : « ما هذه الآية ؟ ما ألذ هذه اللوبياء ! انها أشبه بالنخاع ! فقـــال رئيس الدير : انهـا ليست لوبياء ، أيها الأمير ، ليست لوبياء · انما خصينا كل ديكة الجوار » ·

وشك العجوز بشوكته ، وهو يضحك ، قطعة من « أعضاء » الخنزير · وقـال :

ـ طعام أمراء ! افتح فمك ·

وفتحت فمي ودس فيه القطعة ·

وملأ الكؤوس من جديد وشربنا نخب صحة حفيده · ولمعت عينا الجد · وسألته :

ـ ماذا تريد ان يصبح حفيدك ، أيهـا العم انانيوستي ؟ قل لنـــا حتى نتمنى له :

ـ ماذا يمكنني ان أريد يا ابني ·· حسناً ، ليسر في الطريق الصالح ، وليصبح رجلا شجاعاً ، ورب عائلة صالحاً ، وليكن له ، هـو الآخر ، ابنـــاء واحفاد ، وليشبهني أحد ابنائه · كي يقول الشيوخ وهم ينظرون اليه : « أنظر ، ما اشبهه بالعم انانيوستي ! ليرقد بسلام ، فقد كان رجلاً شجاعاً · » ·

وقال دون أن ينظر الى زوجته :

ـ ماروليا ، ماروليا ، املئي ابريق الخمر ! » ·

وفي تلك اللحظة انفتح باب الزريبة ، بدفعة قوية ، وأسرع الخنزير في الحديقة مدمدماً · فقال زوربا مشفقاً :

ـ انه يتألم ، هذا الحيوان المسكين ···

فصرخ العجوز الكريتي ضاحكاً :

ـ بالتأكيد انه يتألم ! لو فعلوا بك الشيء نفسه ، ألا تتألم ، انت ؟

فنقر زوربا على الخشب وتمتم خائفاً :

ـ ابلع لسانك ، أيها الأصم العجوز !

كان الخنزير يذهب ويجيء امامنا وينظر الينا غاضباً · فقـــال العـم انانيوستي ، وقد طرب للقليل من الخمر الذي شربه :

ـ وربي ، كأنه يفهم اننا نأكلها له !

لكننا رحنا نتابع الأكل ، بهدوء ، مسرورين ، وكأننا من أكلة لحـــوم البشر ، ونحن نحتسي النبيذ ، وننظر ، من خلال أغصان الزيتون الفضية ، الى

البحر الذي تورد لونه ساعة المغيب ٠

عندما أرخى الليل سدوله ، غادرنا منزل مختار القرية السابق ، وكان زوربا ، وقد انتشى هو ايضاً ، يرغب في الكلام ٠ وقال لي :

ـ ما الذي كنا نقوله أول امس ، أيهـــا الرئيس ؟ انت تريـــد ان تنير الشعب ، كما قلت ، وان تفتح عيونه ! حسناً ، انظر ! حـــاول أن تفتح عيني العم انانيوستي ! لقد رأيت كيف كانت امرأته تقف أمامه ، منتظرة الأوامر ، ككلب مطيع ؟ اذهب الآن وعلمهم انها لوحشية ان نجلس هنـاك ونحن نأكل قطعة من لحم الخنزير وهو يئن أمامنا من الألم الشديد ، أو ان للمرأة حقوق الرجل نفسها ٠ ما الذي سيفيده هذا الابليس المسكين ، العم انانيوستي ، من كل هذه الترهات البيانية ؟ انك لن تفعل أكثر من ان تسبب له الازعـــاج ٠ وما الذي ستفيده الام انانيوستي ؟ ستبدأ الخصومات ، فالدجاجة تريـــد أن تصبح ديكاً ، ولن يبقى في المنزل الا مناقير تتشابك ٠٠٠ دع الناس مطمئنين ، أيها الرئيس لا تفتح أعينهم ٠ اذا فتحت أعينهم ، فما الذي سيرون ؟ بؤسهم ! دعهم اذن مستمرين في أحلامهم !

وصمت لحظة ، وحك رأسه ٠ كان يفكر ٠ وأخيراً قال :

الا ، الا اذا ٠٠٠

ـ ماذا ؟ دعنا نرى قليلا ٠

ـ الا اذا كان لديك ، عندما يفتحون أعينهم ، عالم أفضل من عالم الظلمات الذي يعيشون فيه الآن ٠ ألديك هذا العالم ؟

لم أكن اعرف ٠ كنت اعلم جيداً ما سيتهدم ، لكنني لا أعرف مـا الذي سيبنى فوق الانقاض ٠ وفكرت في ان ما من شخص يستطيع معرفـة ذلك ، بشكل يقيني ٠ ان العالم القديم متين ، ملموس ، ونحن نعيشه ونناضل معه كل لحظة ، انه موجود ٠ وعالم المستقبل لم يولد بعد ، وهو غير قابل للمس ، مائع ، مصنوع من النور الذي نسجت منه الأحلام ، انه غيمة تتضاربها رياح عنيفة : الحب والحقد والخيال والصدفة والله ٠٠٠ ان أكبر نبي لا يمـكنه ان يعطي للبشر الا كلمة امر ، وكلما كانت كلمة الأمر هذه غير دقيقة ، كان النبي اعظـم ٠

وأجبت غاضباً :

ـ لدي هذا العالم ٠

ـ الديك ؟ دعنا نرَ !

ـ لا استطيع ان أقول لك ، فلن تفهم ٠

فقال زوربا وهو يهز رأسه :

ـ ايه ! هذا يعني انه ليس لديك ! لا تتصور انني ابله ايها الرئيس ٠ واذا قيل لك ذلك ، فهم قد خدعوك ٠ انني جاهـل كالعم انانيوستي ، لكنني لست ابله مثله ، آه ! كلا ! اذن ما دمت انا لن افهم ، فكيف تريد ان يفهموا ، هم ، ان يفهم ذلك الساذج نصف الاحمق ، وكل انانيوستي في العالم ؟ انهـا اذن ظلمات جديدة تلك التي سيرونها ؟ اذن دع لهم الظلمات القديمة ، فهم قد اعتادوا عليها ٠ لقد عرفوا كيف يتدبرون أمرهم حتى الآن ، ألا تعتقد ذلـك ؟ انهم يعيشون ويعيشون جيداً ، وينجبون الأطفال والأحفاد أيضـاً ٠ وحتى لو جعلهم الله صماً ، عمياً ، فانهم سيهتفون « ليتمجد الله ! » ٠ انهم مرتاحون في بؤسهم ٠ اذن دعهم والزم الصمت ٠

ولزمت الصمت ٠ ومررنا امام حديقة الارملة ٠ فتوقف زوربـا لحظة ، وتنهّد دون ان يقول شيئاً ٠ ولا بد انها امطرت في مكان ما ٠ كان الجو يعبق برائحة الأرض ، المليئة بالرطوبة ٠ وظهرت النجوم الأولى ٠ ولمع القمر الجديد، حنوناً ، بلونه الاصفر ـ الاخضر ، وطفحت السماء بالعذوبة ٠

وفكرت في نفسي : « ان هذا الرجل لم يذهب الى المدرسة ، ولم يتبلبل عقله ٠ لقد رأى من جميع الألوان ، وانفتحت نفسه ، واتسع قلبـه ، دون ان يفقد شجاعته البدائية ٠ ان جميع المشاكل المعقدة ، التي تبدو لنا بلا حـل ، يحسمها ، هو ، بضربة واحدة من السيف ، مثل مواطنه اسكندر الكبير ٠ ان من العسير عليه ان يسقط على جانبه ، لأنه يستند بأجمعه ، من القدمين الى الرأس ، الى الأرض ٠ ان متوحشي افريقيا يعبدون الثعبان لأنه يلمس الأرض بكل جسده فيعرف جميع اسرار العالم ٠ انه يعرفها ببطنه ، بذنبه ، برأسه ٠ انه يلمسها ، يتّحد بها ، يشكل كلا واحداً مع الام ٠ وهكذا كان زوربا ٠ اما نحن ، المثقفين ، فاننا لسنا الا طيورا طائشة في الفضاء » ٠

وتكاثرت النجوم ٠ متوحشة ، مزدرية ، قاسية ، غير مشفقة على البشر ٠

ولم نكن لنفوه بحرف ٠ كنا ننظر الى السماء بخوف ، ونرى في كل لحظة نجوماً أخرى تشتعل في الشرق والحريق يمتد ٠

ووصلنا الى الكوخ ٠ لم تكن لي أية رغبة في الأكل وجلست على صخرة قرب البحر ٠ واشعل زوربا النار ، وأكل ، وهم بالمجيء نحوي ، لكنه بـدّل رأيه ، واستلقى على الفراش ونام ٠

كان البحر ساكناً ، والصمت مخيّماً فوق الأرض الراقـدة تحت ألق النجوم ٠ لم يكن ثمة كلب ينبح ، ولا طائر ليلي يشكو ٠ صمت شامل ، خفي ،

خطر ، مصنوع من آلاف الصرخات ، الشديدة البعد ، أو العمق ، الكامنة فينا الى حد اننا لا نسمعها • كنت أحس فقط بهـــدير دمي وهـو يضرب صدغي واوردة عنقي •

وقلت في نفسي وانا ارتعد « انها ترنيمة النمر ! •• في الهند ، عندمـــا يرخي الليل سدوله ، يغنون بصوت منخفض لحناً مؤلماً ورتيباً ، أغنية وحشية وبطيئة وكأنها تثاؤب بعيد لحيوان مفترس : ترنيمة النمر • ويطفـــح قلب الانسان بانتظار راجف •

وبينما انا أفكر بالترنيمة المرعبة ، امتـلأ فـراغ صدري شيئاً فشيئاً • واستيقظت أذناي ، وأصبح الصمت صراخاً • وكأن الروح ، المصنوعـــة هي ايضاً من الترنيمة نفسها ، تفلت خارج الجسد لتصغي •

وانحنيت ، وملأت راحة يدي بماء البحـــر ، وبللت جبيني وصدغي • واحسست بالرطوبة تدبّ فيّ من جديد • وفي أعماقي ، ثمة صرخات تهدر ، مهددة ، مختلطة ، عديمة الصبر : ان النمر في داخلي يزأر •

وفجأة سمعت الصوت بوضوح :

ـ بوذا ! بوذا !

صرخت وانا انهض دفعة واحدة •

واخذت امشي بسرعة كبيرة ، بمحاذاة الماء ، وكأنني أريد الهرب • منذ فترة ، عندما اكون بمفردي ليلا والصمت سائد ، اسمع صوته ، حزينـــا في البدء ، متضرعاً وكأنه نـــدب ، ثم يغضب شيئاً فشيئاً ، ويوبـــخ ، ويأمر • ويضربني في صدري وكأنه جنين حان أوانه •

لا بد ان الوقت منتصف الليل • ثمة غيوم سوداء قد تجمعت في السماء ، وقطرات ضخمة تسقط على يديّ • ولكنني لم أعرها انتباهاً • كنت غارقـــاً في جو محموم ، واشعر ، من اليمين واليسار ، على صدغي ، بخصلتين مـن نـــار •

وقلت في نفسي وانا ارتعد : لقـــد حـان الوقت ، ان الدولاب البـــوذي ليشدني ، لقد حان الوقت لأتحرر من الحمل الرائع •

وعدت بسرعة الى الكوخ وأشعلت القنديل • وحرك زوربا جفنيه ، حين سقط عليهما النور ، وفتـح عينيه ونظر الي وانـا انحني على الورق واكتب • وتمتم بشيء ما لم اسمعه ، واستدار فجأة نحو الجدار ، وغرق في النور مـن جديد •

كنت اكتب بسرعة كبيرة ، كنت مستعجلا • « بوذا » كلـه كان فيّ ،

وكنت أراه يتدحرج خارج نفسي وكأنه شريط حزيري أزرق مليء بالاشارات ٠ كان يتدحرج بسرعة وانا اسرع للحاق به٠ واكتب٠ لقد اصبح كل شيء سهلا، بسيطاً جداً ٠ لم أكن اكتب ، بل انسخ ٠ ثمة عالم كامل يتبدى لي ، مصنوع من الشفقة ، من الرفض ، من الهواء : قصور بوذا ، ونساء الحريم ، والعربة الذهبية ، واللقاءات الثلاثة المشؤومة بين العجوز والمريض والموت ، والهرب ، والتصوف ، والخلاص ، واعلان النجاة ٠ وامتلأت الأرض بالأزهار الصفراء ، وارتدى المتسولون والملوك اثواباً صفراء ، وخف ثقل الاحجار ، والغابات ، والاجساد ٠ وأصبحت النفوس هواء ، أصبحت روحاً ، والروح تتبدد ٠ وتعبت اصابعي ، لكنني لم اكن أريد ، لم أكن أستطيع التوقف ، كانت الرؤية تمر ، سريعة ، وتهرب ، وعلي ان أمسك بها ٠

وعند الصباح ، وجدني زوربا نائماً ، ورأسي فوق المخطوط ٠

- ٦ -

كانت الشمس على ارتفاع اثنتي عشرة قدماً عندما استيقظت • كانت يدي اليمنى قد خدرت بسبب الكتابة ولم أعد استطيع ضم أصابعي • لقد مرت العاصفة البوذية فوقي ، وتركتني متعباً فارغاً •

وانحنيت لأجمع الاوراق المبعثرة على الارض • لم تكن لي الرغبة ولا القوة للنظر اليها • وكأن كل ذلك الالهام الآسر لم يكن الا حلماً لا أريد ان اراه سجين الكلمات ، ذليلا لها •

كانت تمطر في ذلك اليوم ، بلا صوت ، برخاوة • وقبل أن يذهب زوربا أشعل الموقد ، ولبثت طيلة اليوم جالساً ، مثني الساقين ، ويداي ممدودتان فوق النار ، دون أن آكل ، ساكناً ، اصغي الى المطر الاول وهو يسقط بهدوء • لم أكن افكر بشيء • وراح عقلي الذي تقوقع كخلد في أرض رطبة ، يستريح • كنت أسمع حركات الأرض الخفيفة ، وضوضاءها وقرقعتها ، والمطر الذي يسقط والحبوب التي تنضج • واحسست بالسماء والأرض تمتزجان كما كانتا في العصور البدائية تتحدان كرجل وامرأة وتلدان الاطفال • وأمامي ، على طول الشاطىء كنت اسمع البحر يهدر وأمواجه تتطاول كأنه حيوان مفترس يمد لسانه ليشرب •

انني سعيد ، أنا اعرف ذلك • عندما نعيش سعادة ما ، فنادراً ما نحس بذلك • وانما عندما تمضي وننظر الى الوراء ، نحس فجأة ـ واحياناً بدهشة ـ كم كنا سعداء • اما أنا ، فوق هذا الساحل الكريتي ، فأعيش السعادة واعلم انني سعيد •

البحر الأزرق القاتم ، الواسع ، يمتد حتى الشواطىء الافريقية • وغالباً ما تهب ريح جنوبية حادة جداً ، « الليفاس » ، تأتي من الرمال البعيدة الحارة • وعند الصباح يعبق البحر كالبطيخ الاحمر ، وفي الظهيرة يتبخر ساكناً ، مع

تموجات خفيفة كأثداء لما تتكوّر تماماً . وعند المساء ، يتنهد ، ولونـــه بلون الورد ، والخمر ، والباذنجان ، والزرقة القاتمة .

وألهو ، بعد الظهر ، بملء يدي بالرمل الناعم الأشقر ، ثم احس به وهو ينساب ويفلت ، حاراً رخواً ، من بين أصابعي . ان اليد ساعة رمليـــة تفلت الحياة منها وتضيع . تضيع وانا انظر الى البحر ، وأسمع زوربـــا ، واحس بصدغيّ ينبضان من السعادة .

انني اذكر ، ذات يوم ، ان ابنة أخي الصغيرة ألكا ، وهي لم تتجـــاوز الرابعة ، قد استدارت نحوي ، ونحن ننظر ، عشية رأس السنة ، الى واجهـة مليئة باللعب ، وقالت لي هذه الجملة المدهشة : « يا عمي الغول ، انني مسرورة جداً لأنه نبتت لي قرون ! » . وشدهت . يا للحياة من معجزة ، وكيف تلتقي جميع النفوس وتمتزج عندما تمد جذورها عميقة جداً ! لأنني سرعان ما تذكرت رأساً لبوذا منحوتاً من الابنوس ، رأيته في متحف بعيد . لقد تحرر بوذا وغمره الفرح الأعظم ، بعد نزع دام سبع سنين . ولقد انتفخت أوردة جبينه ، مـــن اليمين واليسار ، الى حد انها نبقت خارج الجلد واستحالت الى قرنين قويين ملتويين وكأنهما نابضان من الفولاذ .

وبعد العصر انقطع المطر الخفيف ، وعادت السماء صافية . كنت جائعاً ، ومسروراً لأنني جائع ، فسوف يأتي زوربا الآن ، ويشعل النار ، ويبدأ بحفلة المطبخ اليومية .

كان زوربا يقول غالب الأحيان وهو يضع القدر فوق النار :

ـ وهذه هي قصة اخرى بلا نهاية ! ليست المرأة ـ عليها اللعنة ! ـ هي وحدها قصة بلا نهاية ، بل هناك ايضاً الطعام .

ولأول مرة ، أحسست فوق هذا الساحل بعذوبة الطعام . كان زوربا ، عند المساء ، يشعل النار بين حجرين ويعد الطعام ، ثم نبدأ بالأكل والشرب ، ويحتدّ الحديث ، وأخيراً فهمت ان الأكل ايضاً عملية روحيـــة وان اللحم ، والخبز ، والخمر ، هي المواد الأولية التي تُصنع منها الروح .

وعند المساء ، قبل الطعام والشراب ، يكون زوربا ، بعد تعب العمل ، قد فقد كل بشاشته ، فعباراته ثقيلة ، لا يتـكلم الا اذا انتزعت منـــه الكلمات انتزاعاً . لكن ما ان يلقي ، كما يقول ، بالفحم الى الآلـــة ، حتى ينتعش كل مصنع جسده الخامد المتعب ، ويندفع ، ويبدأ بالعمل . وتشتعل عينـــاه ، وتطفح ذاكرته ، وتنبت له أجنحة في قدميه ، ويرقص .

ـ قل لي ماذا تفعل بما تأكله فأقول لك من انت . هناك مـــن يحوّلون

هذا الى شحم والى قذارات ، وآخرون الى عمل والى مزاج طيب ، وغيرهم الى
اله ، كما سمعتهم يقولون • اذن فهناك ثلاثة أنواع من البشر • اما انا فلست
من اشرارهم ، ولا من أخيارهم • انني اضع نفسي بين النوعين • وما آكلـه
أحوله الى عمل والى مزاج طيب • هذا ليس سيئاً جداً !

ونظر اليّ بخبث وأخذ يضحك • ثم قال :

ـ اما انت ، أيها الرئيس ، فانني اعتقد انك تحاول ان تحول ما تأكله الى
اله • لكنك لا تستطيع ذلك وتعذّب نفسك • لقد حدث لك ما حدث للغراب •

ـ ما الذي حدث للغراب ، يا زوربا ؟

ـ كان يمشي ، كما تعلم ، بشكل محترم ، مناسب ، مثل غراب حقاً •
لكنه رغب ذات يوم في أن يمشي متبختراً كالحجل • ومنذ ذلك الحين ، نسي
المسكين حتى مشيته الخاصة ، ولم يعد يعرف ماذا يفعل ، وأخذ يعرج •

* * *

رفعت رأسي • وسمعت وقع خطا زوربا وهو يصعد من النفق • وبعـــد
قليل رأيته يقترب ، متطاول الوجه ، عابساً ، وذراعاه الطويلتان تتأرجحان ،
مخلعتين • وقال بطرف شفتيه :

ـ مساء الخير ، ايها الرئيس !

ـمرحباً ، ايها العجوز ، كيف سار العمل اليوم ؟

لم يجب • ثم قال :

ـ سأشعل النار وأعد الطعام •

وأخذ قبضة من الأغصان من الزاوية ، وخرج ، ووضع حزمـة الأغصان
بحذق بين الحجرين واشعل النار • ووضع قدر الفخار ، وصبّ ماء فيها ، مع
البصل والبندورة والأرز وبدأ الطبخ • وأثناء ذلك ، كنت أضع أدوات المائدة
على الطاولة المستديرة الواطئة ، واقطع قطعاً سميكة من خبز القمح ، وأصبّ
الخمر من الدّن في القرعة المزينة بالرسوم التي أهدانا اياها العم انانيوستي
في الأيام الاولى •

كان زوربا راكعاً على ركبتيه أمام القدر ، ينظر الى النـــار ، بعينيـه
الواسعتين ، صامتاً • وفجأة سألته :

ـ ألك اولاد ، زوربا ؟

فالتفت اليّ :

ـ لمَ تسأل عن هذا ؟ لي بنت •

ـ متزوجة ؟

وأخذ زوربا يضحك .

ـ لمَ تضحك ، زوربا ؟

فقال :

ـ هذا لا يُسأل . بالتأكيد، متزوجة. انها ليست حمقاء. كنت اعمل في منجم للنحاس ، في « برافيتسا » بمقاطعة « شالسيديك » . وذات يوم تلقيت رسالة من أخي « ياني » . هذا صحيح ، لقد نسيت أن اقول لك ان لي أخاً ، انه رجل خبيء النفس ، عاقل ، متدين ، مراب ، مراءٍ ، رجل كما يجب ، من اعمدة المجتمع . انه عطار في « سالونيك » . لقد كتب لي : « الكسيس اخي ، لقد سارت ابنتك « فروسو » في طريق السوء ، وجلبت العار لاسمنا . ان لها عشيقاً ، وقد ولدت منه ، مما نال من سمعتنا . سأذهب الى القرية لأذبحها » .

ـ وأنت ، ماذا فعلت يا زوربا ؟

فهز زوربا كتفيه :

ـ « آفٍ ! يا للنساء ! » قلت ، ومزقت الرسالة .

وحرك الارز ، ووضع ملحاً ، وضحك .

ـ لكن انتظر ، سترى ما هو أغرب من ذلك . بعد شهرين تلقيت من أخي الأحمق رسالة ثانية ، يقول فيها : « لتعش في صحة وسرور . لقد عاد الشرف الى مكانه ، وتستطيع الآن ان ترفع جبهتك عالياً ، لقد تزوج الرجل المذكور فروسو ! » .

والتفت زوربا اليّ . وعلى بصيص سيجارته الهزيل رأيت عينيه تقدحان بالشرر . وهزّ كتفيه ثانية ، وقال باحتقار لا يمكن وصفه :

ـ آفٍ للرجال !

وبعد قليل أضاف :

ـ ما الذي يمكننا ان ننتظره من النساء ؟ أن يلدن الأطفال من اول قادم . ما الذي يمكننا أن ننتظره من الرجال ؟ ان يقعوا في الفخ . احفظ ذلك ، ايها الرئيس !

ورفع القدر من فوق النار وأخذنا نأكل .

وغرق زوربا من جديد في تأملاته . ثمة هم يقلقه . كان ينظر اليّ ، ويفتح فمه ، ثم يغلقه . وعلى ضوء مصباح الزيت ، كنت أرى بوضوح عينيه المكدودتين القلقتين .

ولم أعد استطيع صبراً ، فقلت :

ـ زوربا ، لديك شيء تريد أن تقوله لي ، قله • ان معدتك تؤلمك • فارقد !

ولم يتكلم زوربا • بل تناول حجراً صغيراً وألقاه بقوة من الباب المفتوح •

ـ دع الحجارة ، تكلم !

فمدّ زوربا عنقه المتغضن ، وسألني قلقاً ، وهو يحدّق في عيني :

أتثق فيّ ، أيها الرئيس ؟

فأجبت :

ـ نعم ، زوربا • مهما فعلت ، فانك لا تستطيع ان تخطىء • حتى لو اردت ، فانك لن تستطيع • انت كأسد ، أو بالأحرى ، كذئب • ان هذه الحيوانات لا تتصرف مطلقاً كخرافٍ او حمير ، انها لا تبتعد مطلقاً عن طرق طبيعتها • انت أيضاً ، انك زوربا حتى منتهى أظافرك • فهزّ زوربا رأسه ، وقال :

ـ لكنني لم أعد اعرف الى اين يسير !

ـ انا اعرف ، لا تهتم بذلك • سر الى الامام !

فصرخ :

ـ قل ذلك ثانية ، ايها الرئيس ، حتى اتشجع !

ـ سر الى الامام !

ولمعت عينا زوربا شرراً ، وقال :

ـ الآن استطيع ان احدثك • منذ ايام وفي رأسي مشروع كبير ، فكرة مجنونة • فهل نحققها ؟

وتسأل عن ذلك ؟ لكن انما لهذا جئنا الى هنا : لنحقق أفكاراً معينة •

ومدّ زوربا عنقه ، ونظر الي بفرح وخوف ، وهتف :

ـ تكلم بوضوح ، ايها الرئيس ! ألم نأت الى هنا من أجل الفحم ؟

ـ ان الفحم ليس الا ذريعة ، كي لا يتدخل الناس في شؤوننا • كي يظنوا اننا مقاولون عاقلون ، فلا يضربونا بالبندورة • أتفهم ، زوربا ؟

وظل زوربا فاغر الفم • انه يستبسل كي يفهم ، لكنه لا يستطيع أن يؤمن بهذا القدر الكبير من السعادة • وفجأة فهم • واسرع الي ، واخذني من كتفيّ وسألني بحماسة :

ـ أترقص ؟ أترقص ؟

ـ كلا •

ـ كلا ؟

واسبل ذراعيه ، مذهولا ، ثم قال بعد لحظة :

ـ حسناً • اذن فسأرقص انا ايها الرئيس • اجلس بعيداً حتى لا أصدمك • هاي ! هاي !

وقفز ، ووثب خارج الكوخ ، ورمى حذائيه ، ورداءه ، وصدريته ، ورفع سراويله حتى ركبتيه ، وأخذ يرقص • كان وجهه الذي لا يزال ملوثاً بالفحم ، أسود تماماً ، وعيناه البيضاوان تلمعان •

وغرق في الرقص ، وهو يضرب بيديه ، ويقفز ، ويدور في الهواء ، ويسقط على ركبتيه المثنيتين ، ثم يقفز من جديد مثني الساقين ، وكأنه من مطاط • وفجأة ، وثب عالياً جداً وكأنه يريد ان يقهر قوانين الطبيعة الكبرى ويطير • انك لتحس في هذا الجسم الرميم بالروح وهي تناضل لتجذب الجسد وتلقي بنفسها معه ، في الظلمات ، ككوكب سماوي • انها تدفع الجسد الذي يعود للسقوط ، اذ لا يستطيع الثبات في الجو طويلا ، وتدفعه من جديد ، بلا شفقة ، اعلى قليلا هذه المرة ، لكن المسكين يعود للسقوط ، لاهثاً •

وقطّب زوربا حاجبيه ، وبدا وجهه جدياً قلقاً • انه لم يعد يصرخ • بل يحاول ، بفكيه المشدودتين ، ان يبلغ المستحيل • وصرخت :

ـ زوربا ! زوربا ! هذا يكفي !

لقد خشيت ، الاّ يستطيع الجسد العجوز مقاومة هذا القدر الكبير من الجهد ، فيتناثر فجأة في كل اتجاه ، الف قطعة •

كنت استطيع ان أصرخ كثيراً • لكن كيف تريدون ان يسمع زوربا صراخ الأرض ؟ لقد أصبحت أحشاؤه كأحشاء الطيور •

ورحت اتتبع بقلق خفيف الرقصة الوحشية اليائسة • عندما كنت طفلا ، كانت مخيلتي تعمل دون توقف وأروي لاصدقائي أكاذيب ضخمة أؤمن بها انا ايضاً •

سألني ، ذات يوم ، رفاقي الصغار في المدرسة الابتدائية : « كيف مات جدك ؟ » •

ورحت فوراً اختلق اسطورة ، وكنت بمقدار ما استمر في اختلاقها ، ازداد ايماناً بها :

« كان جدي يحتذي حذاءين من المطاط • وذات يوم ، عندما ابيضت لحيته ، قفز من سطح بيتنا • لكنه ما ان لمس الأرض حتى قفز من جديد ككرة ، وارتفع أعلى من البيت ، أعلى باستمرار ، وأعلى ، حتى اختفى بين الغيوم ـ

هكذا مات جدي.» .

ومنذ اليوم الذي اختلقت فيه هذه الاسطورة ، وفي كل مرة اذهب فيها الى كنيسة سـان مينا الصغيرة وأرى ، في أسـفل الهيـكل ، صورة صعود المسيح ، امد يدي وأقول لرفاقي :

« انظروا ، هو ذا جدي بحذائيه المطاطيين » .

وفي هذا المساء ، بعد العديد من السنين ، عشت من جديد ، وأنـا ارى زوربا يقفز في الفضاء ، تلك الحكاية الصبيانية ، بخوف ، وكأنني أخشى ان أرى زوربا يختفي بين الغيوم . وصرخت :

ـ زوربا ! زوربا ! هذا يكفي !

لقد جلس الآن زوربا على الأرض لاهثاً . كان وجهه يتألق ، سعيـداً ، وشعره الرمادي قد التصق بجبينه ، والعرق ينسال من خديه وذقنه ، ممزوجاً بالغبار .

وانحنيت فوقه قلقاً . وبعد لحظة قال :

ـ لقد اعاد هذا الهدوء الى نفسي . كأنني فصدت . والآن استطيـع أن اتحدث .

ودخل الى الكوخ ، وجلس أمام الموقد ، ونظر الي ، مشع الوجه .

ـ ما الذي جعلك ترقص ؟

ـ ما الذي تريد ان أعمله ، ايها الرئيس ؟ كان الفرح يخنقني ، وعلي ان اروّح عن نفسي . وكيف اروح عن نفسي ؟ بالكلمات ؟ بف !

ـ اي فرح ؟

واظلم وجهه . واخذت شفته ترجف .

ـ اي فرح ؟ اذن فكل ما قلته ، قد قلته هكذا ، هباء ، دون ان تفهمـه انت نفسك ؟ لقد قلت اننا لم نأت الى هنا من أجل الفحم . لقد قلت ذلـك هكذا ؟ لقد جئنا لنمضي الوقت . نذر الرماد في عيون الناس ، كي لا يظنونا مجانين ويرمونا بالبندورة! لكننا عندما نـكون بمفردنا لا يرانـا اي انسان ، ننفجر ضاحكين ! هذا ، بشرفي ، ما أريده انا ايضاً ، لكنني لم اكن أفهم ذلك جيد الفهم . احياناً أفكر بالفحم ، واحياناً بالأم بوبولينا ، واحيانـاً بـك ... خليط عجيب . وعندما أشق نفقاً ، اقول : « ان الفحم هو ما أريد ! » . ومن اخمص قدمي الى رأسي ، أصبح فحماً . لكن بعد ذلك ، عندما ينتهي العمل ، واداعب تلك الخنزيرة العجوز ، ارمي بكل الليتيت وبجميع أربـاب العمـل خارجاً ، ومعهم زوربا ، من أجل شريط عنقهـا الصغير . وافقـد صوابي .

واخيراً ، عندما أصبح بمفردي ولا يبقى لدي ما اعمله ، افـــكر بك ، ايهـــا الرئيس ، ويذوب قلبي · لقد كان ذلك يثقل على نفسي ، واصرخ : « هـــذا عار ، يا زوربا ، عار ان تخدع ذلك الرجل الطيب ، وتبلع فلوسه · الى متى تظل نذلا ؟ الم تكتفِ ! » ·

« انني أقول لك ، ايها الرئيس ، لقد فقدت صوابي · ان الشيطـــان يجذبني من ناحية ، والرحمن من ناحيـــة ، وهـــكذا اتمـــزق بين الاثنين · ثم تحدثت ، ايها الرئيس ، جيداً ، واتضح لي كل شيء · لقد فهمت ! واتفقنا · والآن نضع النار في البارود ! كم بقي لديك من المال ؟ ائت بـــالكل ، فاننـــا مستهلكوه ! »·

وجفف زوربا عرقه وبحث حوله · كانت بقايا عشائنا متناثرة على المائدة الصغيرة · ومدّ ذراعه الكبيرة ، وقال :

ـ باذنك ، أيها الرئيس ، فأنا لا ازال جائعاً ·

وتناول قطعة خبز ، وبصلة ، وقبضة من الزيتون ·

وأخذ يأكل بشراهة ، ويرفع الى فمه ، دون ان يمس شفتيه ، القرعـــة ويبقبق الخمر · ثم يصفق بلسانه ، مغتبطاً · وقال :

ـ انني احس بالغم قد انفرج عني ·

وغمزني بعينه ، وسألني :

ـ لماذا لا تضحك ، ايها الرئيس ؟ لماذا تنظر الي ؟ انني هكذا · في داخلي شيطان يصرخ ، وانا افعل ما يقوله لي · وفي كل مرة اكون فيها على وشـــك الاختناق ، يصرخ : « ارقص ! » وأرقص · ويعيد هذا الهـــدوء الى نفسي ! ذات مرة ، عندما مات صغيري ديمتراكي ، في شالسيديك ، وقفت هـــكذا ورقصت · واسرع الاقارب والاصدقاء الذين كانوا يتطلعون الي وانا ارقص امام الجثة ، ليوقفوني ، واخذوا يصرخون : « لقد جُنّ زوربا ! جُنّ زوربا ! » · لكنني انا ، في تلك اللحظة ، لو لم ارقص لجننت من الالم · ذلك لأنه كان ابني البكر وقد بلغ الثالثة من العمر ولا استطيع تحمل فقده · اتفهم ما اقوله ، أيها الرئيس ، ام انني اتكلم مع الحيطان ؟

ـ انني افهم ، زوربا ، انني افهم ، انك لا تتكلم مع الحيطان ·

ـ ومرة أخرى ·· كنت في روسيا ، بالقرب مـــن نوفوروسيسك لأنني ذهبت الى هناك أيضاً ، من اجل المناجم ، كالمعتاد · مناجم نحاس ، في تلـــك المرة ·

« تعلمت خمس أو ست كلمات روسية ، أي ما يكفي بالضبط لشغلي :

« كلا ، نعم ، خبز ، ماء ، احبك ، تعالَ ، كم ؟ » • وارتبطت برباط الصداقة مع روسي ، بولشفي متحمس • كنا نذهب ، كل مساء ، الى حانة المرفأ • وذات مرة جرعنا عدداً لا بأس به من زجاجات الفودكا ، وانتشينا • وما ان بدأنا نسكر ، حتى انفتح قلبانا • هو يريد ان يروي لي كل ما جرى له اثناء الثورة الروسية ، وانا اريد ان اطلعه على وقائعي وحركاتي • لقد سكرنا معاً ، كما ترى ، واصبحنا أخوين • « واستطعنا ان نتفق بالحركات • كان هو الذي يتكلم أولا • وعندما اعجز عن الفهم ، اصرخ به : قف ! فيقوم عندئذ ليرقص • أتفهم أيها الرئيس ؟ ليرقص ما يريد ان يقوله لي • وكذلك كنت أفعل • كل ما لم نستطع أن نقوله بفمنا ، قلناه بأرجلنا ، بأيدينا ، ببطننا أو بصرخات وحشية : هاي ! هاي! هوب لا • هو هي :

« وبدأ الروسي يتحدث : كيف حملوا البنادق ، كيف اندلعت الحرب ، كيف وصلوا الى نوفوروسيسك • وحين أعجز عن فهم ما يقوله لي ، ارفع يدي واصرخ : قف ! وسرعان ما يندفع الروسي • وهيا ! ويأخذ بالرقص ! كان يرقص كمن اصابه مس • وانظر انا الى يديه ، وقدميه ، وصدره ، وعينيه ، وافهم كل شيء : كيف دخلوا الى نوفوروسيسك وقتلوا سادتهم ، وكيف نهبوا المخازن ، وكيف دخلوا الى البيوت وخطفوا النساء • في البدء ، رحن يبكين ، العاهرات ، ويخدشن وجوههن ووجوه الرجال ، لكن رويداً رويداً ، تضاءلت مقاومتهن ، واغلقن عيونهم ، ورحن يصرخن من اللذة • نساء ، وأي نساء •••

« وفيما بعد ، جاء دوري • ومنذ الكلمات الأولى ، ولعل ذلك لأنه كان اصم قليلا ولأن عقله لا يعمل جيداً ، صرخ الروسي : قف ! ولم اكن انتظر غير ذلك • واندفعت ، وازحت الكراسي والطاولات ، ورحت ارقص • آه ! يا شيخي المسكين ! لقد سقط البشر سافلا جداً، يا للعار! لقد جعلوا اجسادهم خرساء ولم يعودوا يتحدثون الا بالفم • لكن ماذا تريد ان يقول الفم ؟ ما الذي يمكنه ان يقوله ؟ لو استطعت ان ترى كيف كان الروسي يصغي الي ، من رأسه الى قدميه ، وكيف كان يفهم كل شيء ! ووصفت له ، وانا ارقص ، مصائبي ، واسفاري ، وكم مرة تزوجت ، والمهن التي تعلمتها : قالع حجارة ، عامل مناجم ، بائع متجول ، فخار ، جندي غير نظامي ، عازف سانتوري ، بائع بزر اليقطين ، حداد ، وقاطع طريق : وكيف ادخلوني السجن ، وكيف هربت ، وكيف جئت الى روسيا •••

« كل شيء ، كان يفهم كل شيء ، على الرغم من صممه • كانت قدماي

ويداي تتحدث ، وكذلك شعري وثيابي • وسكين معلقة بحزامي، كانت تتحدث هي أيضاً • وعندما انتهيت ، شدّني ، الاحمق الكبير بين ذراعيه ، وقبلني ، وملأنا كؤوس الفودكا من جديد ، وبكينا وضحكنا ، ونحن متعانقان • وعند الفجر كنا نفترق ونذهب لننام ونحن نترنح • وعند المساء نعود للتلاقي • « أتضحك ، ألا تصدقني ، أيها الرئيس ، انك تقول في نفسك : ما هذه الخزعبلات التي يرويها لنا هذا السندباد البحري ؟ أمن الممكن ان يتحدث الانسان بالرقص ؟ ومع ذلك فلأذهب الى النار ، اذا لم يكن هذا ما يجب ان تتحدث به الآلهة والابالسة •

« لكنني ارى ان النعاس يداعب اجفانك • هيا اذهب لتنام ، وغداً نعود للحديث • لدي مشروع ، مشروع عظيم ، غداً سأحدثك عنه • سأدخن سيجارة ، بل لعلي سأغطس على رأسي في البحر ، انني اشتعل ، يجب ان اطفىء نفسي • ليلة سعيدة ! » •

وتأخرت في النوم • وفكرت في نفسي : لقد ضاعت حياتي • لو أستطيع ان آخذ اسفنجة وأمحو كل ما تعلمته ، كل ما رأيته وسمعته ، ثم ادخل الى مدرسة زوربا وأبدأ بالأبجدية الكبيرة ، الحقيقة ! كم ستكون الطريق التي سأسلكها مختلفة ! سأدرب حواسي الخمس ، جلدي كله كي يتمتع ويفهم • سأتعلم الرقص ، والقتال ، والسباحة ، وركوب الخيل ، والتجديف ، وسواقة السيارة ، واطلاق البندقية • سأملأ روحي بالجسد • واملأ جسدي بالروح • سأوفق اخيرا ، في نفسي ، بين هذين العدوين الأبديين •••

كنت أفكر ، وانا جالس على فراشي ، بحياتي التي تذهب هباء • ومن الباب المفتوح ، كنت اميز بلا وضوح ، على ضوء النجوم ، زوربا وهو جالس على صخرة كطائر ليلي • انني احسده • اقول في نفسي : انه هو الذي وجد الحقيقة ، وتلك هي الطريق المستقيمة !

ان زوربا ، لو عاش في عصور اخرى بدائية وخلاّقة ، لكان رئيس قبيلة ، ولمشى في المقدمة ، يشق الدرب بفأسه • او لكان شاعراً مشهوراً من شعراء التروبادور ، يزور القصور ، ولتعلق كل العالم بشفتيه الغليظتين ، السادة والخدم والسيدات النبيلات ••• اما في عصرنا الجاحد ، فهو يجول ، جائعا ، حول البساتين المسورة ، كذئب ، او يسقط ، بالاحرى ، الى حد يصبح معه مهرجا لكاتب رديء •

وفجأة ، رأيت زوربا ينهض • خلع ثيابه ، ورمى بها على الحصى، وألقى بنفسه في الماء • وكنت أرى بين الفينة والفينة ، على ضوء القمر الوليد

الشاحب ، رأسه الضخم يظهر ثم يختفي • ومن حين الى حين ، يطلق صرخة ، وينبح ، ويصهل ، ويقلد صياح الديك : ان روحـــه في هــذه الليلة المقفرة ترتدّ الى الحيوانــات •

وبهدوء ، ودون ان أشعر ، غلبني النوم • وفي الغد ، عند الفجر ، رأيت زوربا مبتسماً ، منشرحاً ، وهو يسحبني من قدمي • وقال :

ـ انهض ، ايها الرئيس ، كي أطلعك على مشروعي • أتصغي ؟

ـ انني مصغٍ •

وجلس على الارض متربعاً ، وراح يشرح لي كيف سيقيم مصعداً من قمة الجبل حتى الشاطىء ، نستطيع به أن ننقل الخشب الذي نحتاج اليه للانفاق ونستطيع أن نبيع الباقي خشباً للبناء • ولقد كنا قررنا ان نكتري غابـــة للصنوبر ، هي ملك للدير ، لكن النقل كان يكلف غالياً ولم نكن لنجد بغالاً • فتصور زوربا اذن ان نبني مصعدا بالحبال الضخمة والأعمـدة والبكرات • وعندما انتهى سألني :

ـ اتفقنا ؟ أتوقع ؟

ـ انني اوقع ، زوربا ، اتفقنا !

وأشعل الموقد ، ووضع الدولة على النار ، واعد لي قهوتـــي ، وألقى بغطاء على قدمي يقيني من البرد ، وذهب مغتبطا • وقال :

ـ سنحفر اليوم نفقا جديدا • لقد وجدت عرقا من تلك العروق ! عرق ماس حقيقي أسود !

وفتحت مخطوط بوذا وغرقت في انفـاقي الخاصة • واشتغلت طيلـــة اليوم ، وكلما تقدمت كنت أحس بالخلاص ، ويغمرني انفعال معقد : طمأنينة وكبرياء واشمئزاز • لكنني تركت نفسي تستسلم للعمل ، لأنني كنت اعلم ، انني ما ان انهي هذا المخطوط واختمه وأطويه ، حتى اعود حراً •

كنت جائعاً • وأكلت بعض الزبيب ، ولوزاً وقطعة خبز • كنت أنتظـر ان يعود زوربا ، حاملاً كل الحسنات التي تبعث المتعـة في قلب الانســـان : الضحكة الصافية ، والكلمة الطيبة ، والأطعمة اللذيذة •

وظهر ، عند المساء • واعـدّ الطعام ، وأكلنا ، لكن ذهنه كان في مكان آخر • وركع على ركبتيه ، وغرس قطعاً صغيرة من الخشب في الأرض ، ومدّ خيطاً ، وعلّق عود ثقاب ببكرات صغيرة ، وراح يحاول ان يجد الميل الذي يجب اعطاؤه للخيط كيلا ينهار كل شيء • وقال لي :

ـ اذا كان الميل أكثر من اللازم ، فسيضيع كل شيء • واذا كان الميل

اقل ، فسيضيع كل شيء ايضا • ويجب ان نجد الميل على الشعرة• ومن أجل ذلك ، أيها الرئيس ، يلزمنا خمر وذكاء •

وانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال وهو ينظر اليّ بحنان :

ــ انك لست أحمق •

وجلس ليستريح واشعل سيجارة • لقد عاد اليه مرحه من جديد وانحلت عقدة لسانه • وقال :

ــ اذا أمكن للمصعد ان ينجح فسنقطع كل الغابة ، ونفتح مصنعاً • ونصنع ألواحاً ، وأعمدة ، واخشاباً ، ونجمع المال بالرفش ، ثم نبني مركباً بثلاث صواري ، ونقلع بكل ما معنا ، ونذهب لرؤية العالم !

ولمعت عينا زوربا ، وامتلأتا بنساء بعيدات ، بمدن ، بأنوار ، بمنازل كبيرة ، بآلات ، بمراكب •

ــ ذلك لأن شعري قد شاب ، أيها الرئيس ، وأخذت اسناني تتململ ، ولم يعد لي وقت اضيعه • اما انت ، فشاب ، وتستطيع ان تصبر • أما انا فلا أستطيع •بشرفي ، انني كلما كبرت ، ازددت توحشا ! ليكفوا عن القول لي ان الشيخوخة تشذّب الانسان وتهدّيء حرارته ! وانه يمد عنقه للموت عندما يراه وهو يقول : « اقطع رأسي ، من فضلك ، كي اذهب الى السماء ! »• اما انا فكلما تقدم بي العمر ، ازددت تمرداً • انني لا استسلم ، بل اريد ان اغزو العالم !

ونهض ، وتناول السانتوري من على الحائط ، وقال :

ــ تعالى هنا قليلاً ، يا ابليس • ماذا تصنع هناك ، على الحائط ، دون أن تقول شيئاً ؟ غنِ قليلاً !

لم أكن لأشبع من رؤية زوربا • بأي حذر وبأي حنان يخرج السانتوري من اللفائف التي غلفه بها • كان يبدو عليه وكأنه يقشر تينة ، أو يعري امرأة من ثيابها •

ووضع السانتوري على ركبتيه . وانحنى عليه ، وداعب الأوتار على مهل ، وكأنه يستشيره عن اللحن الذي سيغنيه ، ويرجوه ان يستيقظ ، ويأخذه باللطف كي يأتي ليصاحب روحه المعذبة ، التعبة من العزلة • وبدأ اغنية ، لكنها لم تخرج ، فتركها ، وبدأ اخرى ، وصرّت الاوتار وكأنها مريضة ، كأنها لا تريد • واستند زوربا الى الحائط ، وجفّف العرق الذي اخذ فجأة يرشح من جبينه • وتمتم وهو ينظر بجهد الى السانتوري :

ــ انه لا يريد ••• لا يريد •

ولفّه من جديد بحذر ، وكأنه وحش مفترس يخشى ان يعضه ، ونهض ببطء وعلقه على الحائط • وتمتم مرة أخرى :

ـ انه لا يريد •• يجب الا نغضبه •

وعاد للجلوس على الأرض ، وطمر بعض ثمار الكستناء في الجمر ، وملأ كؤوس الخمر • وشرب ، وشرب ، وقشّر ثمرة كستناء وقدمها لي • وسألني :

ـ أتفهم شيئا أيها الرئيس ؟ انا لا افهم • لكل الأشياء روحها ، الخشب، والأحجار ، والخمر الذي نشربه ، والأرض التي نسير عليها ••• كل شيء ، كل شيء ، أيها الرئيس • ورفع كأسه :

ـ في صحتك !

وافرغه وملأه من جديد • وتمتم :

ـ يا للحياة من عاهرة ! العاهرة ! انها هي أيضاً مثل الأم بوبولينا •

وأخذت اضحك •

ـ اقول لك صه ، أيها الرئيس ، لا تهزل • ان الحياة مثل الام بوبولينا• انها عجوز ،أليس كذلك ؟ ومع ذلك ، ففيها ما يثير • انها تعرف حيلاً تفقدك الرشد • وعندما تغلق عينيك ، تتصور انك بين ذراعي فتاة في العشرين •انها في العشرين ، اقسم لك ، يا صديقي ، عندما تكون مستعداً ، وقد اطفأت النور •

« قد تقول لي انها نصف ميتة ، انها عاشت حياة صاخبة ، انها تعهرت مع قباطنة ، وبحّارة ، وجنود ، وفلاّحين ، وبائعين جوالين ، وكهنة ، وصيادين ، ودرك ، ومعلمي مدرسة ، ووعاظ ، وقضاة صلح • ثم ماذا بعد ؟ ماذا يعني هذا ؟ انها تنسى بسرعة ، النذلة ، انها لا تتذكر أياً من عشاقها • انها تعود لتصبح دوماً ، انا لا امزح ، حمامة بريئة ، اوزة بيضاء ، يمامة صغيرة ، وهي تحمرّ ، تستطيع ان تصدقني ، تحمر وترتجف وكأنها المرة الأولى • ان المرأة لسر ، أيها الرئيس ! انها تستطيع ان تسقط الف مرة ، لكنها تنهض الف مرة من جديد عذراء • لكن ، قد تسألني لماذا ؟ حسناً ، لأنها لا تتذكر » •

فقلت كي أغيظه :

ـ ان الببغاء يتذكر ، يا زوربا • انه يهتف دوماً باسم ليس هو اسمك • ألا يغيظك ، في اللحظة التي تصعد معها فيها الى السماء السابعة ، ان تسمع الببغاء يصرخ : « كانافارو ! كانافارو! » الا تتمنى ان تمسكه من عنقه وتخنقه؟ أخيراً ، آن آن نعلمه ان يصرخ : « زوربا ! زوربا ! » •

فصرخ زوربا وهو يسدّ أذنيه بيديه الضخمتين :

ـ أوه ! ايه ايه ! يا لك من محافظ ! لماذا تريد ان أخنقه ؟

انني أهوىَ ان أسمعه يصرخ بالاسم الذي ذكرت · انها تعلقه ، العاهرة ، في الليل ، فوق الفراش ، وما ان يرانا ونحن نتفاهم ، لأن له عينين تثقبان الظلمة ، حتى يأخذ ، النذل ، بالصراخ : « كانافارو ! كانافارو ! » ·

« وسرعان ، انني أقسم لك أيها الرئيس ، ولكن كيف يمكنك ، ان تفهم هذا ، أنت الذي أفسدته تلك الكتب اللعينة ! انني أقسم لك ، سرعان ما أحس بحذاءين لامعين في قدمي ، وبالريش على رأسي وبلحية ملساء كالحرير تعبق بالعنبر ·

صباح الخير ! مساء الخير ! أتأكل معكرونة (١) ؟ انني أصبح كانافارو عن حق · وأصعد الى دارعتي المثقوبة بألف ثقب وهيا ··· النار في المرجل ! ويبدأ اطلاق المدافع ! » ·

وانفجر زوربا ضاحكاً · واغلق عينه اليسرى ونظر اليّ قائلاً :

ـ ستعذرني ، أيها الرئيس ، لكنني أشبه جدي ألكسيس ، ليرحم الله روحه ! كان يجلس كل مساء ، وقد بلغ المئة من العمر ، أمام بابه ليرقب الصبايا الذاهبات الى العين · كان بصره قد ضعف ، ولم يعد يميّز جيداً · وينادي الصبايا :

« قولي ، من أنتِ ؟ ـ لينيو ، ابنة ماستراندوني ! ـ تعالي قليلاً كي ألمسك ! تعالي ، لا تخافي ! » · وتمسك رغبتها في الضحك وتقترب · فيرفع عندئذ جدي يده حتى وجه الفتاة ويجسه ببطء ، بحنان ، بشراهة · وتنساب دموعه · وسألته ذات مرة : « لماذا تبكي يا جدي ؟ » فقال : « ايه ! ألا تعتقد ان هناك ما يدعو للبكاء ، يا بني ، عندما أكون انا على وشك الموت مخلفاً ورائي هذا العدد الكبير من الفتيات الجميلات ؟ » ·

وتنهّد قائلاً :

ـ آه ! يا جدي المسكين ، كم افهمك ! انني غالبا ما أقول لنفسي : « آه ! يا للشقاء ! لو ان جميع النساء الجميلات يمتن على الأقل في الوقت الذي أموت فيه انا ! » لكن هاته القذرات ، سيعشن ، ويترفهن ، ويأخذهن الرجال بين أذرعهم ، ويقبلونهن ، وسيكون زوربا قد أصبح ترابا يطأن فوقه ! » ·

وأخرج بضع كستناءات من الجمر ، وقشّرها · وقرعنا كأسينا · ولبثنا طويلاً على هذه الحال ، نشرب ونمضغ على مهل ، كأرنبين كبيرين ، ونسمع البحر يهدر في الخارج ·

---

١ ـ بالايطالية في النص · «المترجم»

- ٧ -

لبثنا صامتين قرب الموقد ، الى ساعة متأخرة من الليل · واحسست من جديد ببساطة وزهادة السعادة : كأس خمر ، ثمرة كستناء ، مدفأة حقيرة ، هدير البحر · ولا شيء آخر · وكي يحس الانسان ان كل ذلك هو السعادة ، يجب ان يكون له قلب بسيط وقنوع · وسألت :

ـ كم مرة تزوجت ، يا زوربا ؟

كنا نشوانيين قليلاً ، لا لكثرة ما شربنا فحسب ، بل أيضاً بسبب تلك السعادة الكبيرة التي لا يمكن التعبير عنها والتي كانت فينـــا · لم نــكن الا حشرتين صغيرتين فانيتين ، متشبثتين بالقشرة الأرضية ، وكنا نحس ذلك بعمق ، كل حسب طريقته · ولقد وجدنا زاوية مناسبة ، قرب البحر ، وراء القصب ، والالواح ، وآنية التنك الفارغة حيث نجلس شبه متعانقين ، وامامنا اشياء جميلة وطعام ، وفي داخلنا الهدوء والحب والطمأنينة ·

لم يسمعني زوربا · من يدري في اية محيطات ، لا يصلها صوتي، كانت روحه تطوف · ومددت ذراعي ولمسته بطرف اصابعي · وسألته ثانية :

ـ كم مرة تزوجت ، يا زوربا ؟

وانتفض · لقد سمع هذه المرة · واجاب وهو يحرّك يده الضخمة :

ـ اواه ! ما الذي ستبحث عنه الآن ! بعد كل شيء انني رجل · أنا أيضاً ارتكبت « الحماقة الكبيرة » · هكذا ادعو الزواج · ليسامحني كل النـاس المتزوجين · لقد ارتكبت اذن « الحماقة الكبيرة » ، وتزوجت ·

حسناً ، كم مرة ؟

وحكّ زوربا عنقه بعصبية · وفكّر لحظة · واخيراً قال :

ـ كم مرة ؟ صدقا ، مرة واحدة ، مرة واحدة لا أكثر · وبصدق قليل ، مرتين · وبلا صدق ، ألفاً ، ألفين ، ثلاثة آلاف مرة · كيف تريد ان أقـوم

بالحساب ؟

ــ حدثني قليلاً ، يا زوربا ! غداً الأحد ، سـوف نحلق ، ونرتدي ثياباً جميلة ، ونذهب عند الأم بوبولينا • ليس لدينا مانفعله ، اذن نستطيع ان نسهر هذا المساء • حدثني !

ــ أحدثك عن ماذا ؟ ليست هذه اشياء تُحكى ، أيهـا الرئيس ! ان الاتحادات الشرعية ، ليس لها طعم ، انها طعام بدون بهار • عمّ أحدثك ؟ عن انه ليست هناك أية لذة في التقبيل عندما يكون القديسون محدّقين بك مـن خلال ايقوناتهم ، مانحين لك البركة • اننا ، في قريتنا ، نقول : « ليس للحم طعم الا اذا كان مسروقا » • أما امرأتك عن حق ، فهي ليست لحماً مسروقا • والاتحادات غير الشريفة ، كيف تريدني الآن ان أتذكرها ؟ هل تمسك الديكة دفاتر حسابات ؟ أتتصور ذلك ! ومع ذلك ، عندما كنت شابا ، كنت معتـاداً على أخذ خصلة شعر من كل امرأة تنام معي • اذن فقد كنت أحمل دوماً مقصاً • حتى عندما اذهب الى الكنيسة ، يكون المقص في جيبي ! اننا رجال ، لا ندري مطلقاً ماذا يمكن ان يحدث ، أليس صحيحاً ؟

« اذن ، فقد كنت أجمع خصل شعر : كان عندي منها خصل سوداء ، وشقراء ، وكستنائية ، بل وأحيانا تشوبها شعرات بيض • ولكثرة ما جمعت حشوت بها وسادة • ثم ، بعد قليل من الزمن ، قرفت منها ، فقد أخـذت بالانتان ، فأحرقتها » •

وأخذ زوربا يضحك ، وقال :

ــ ذاك كان دفتر حساباتي ، أيها الرئيس • ولقد أحرقته • لقد سئمت منه • لقد اعتقدت انه لن يكون عندي الكثير من ذلك ، ثم تبينت ان الأمر لن ينتهي ، فرميت عند ذاك بالمقص •

ــ والاتحادات نصف الشريفة ، يا زوربا ؟

فأجاب هازئاً :

ــ ايه ! هذه الأخيرة لا ينقصها السحر • آه ! يا للنساء السلافيات ! ويا للحرية ! لا يسألنك أبداً : « أين ذهبت ؟ لمَ تأخرت ؟ اين نمت ؟ » • انهن لا يسألنك شيئاً ، ولا تسألهن شيئاً • الحرية ، وأية حرية !

ومدّ يده ، وتناول كأسه ، وأفرغه ، وقشّر ثمرة كستناء • وكان يمضغ ويتكلم في آن واحد •

ــ كانت هناك واحدة تدعى « سوفنكا » ، والأخرى « نوسا » • ولقـد تعرفت على سوفنكا في قرية كبيرة قرب نوفوروسيك • كان ذلك في الشتاء ،

والسماء تثلج ، وذهبت انا لأفتش عن عمل في منجم ، وبينما كنت ماراً بتلك القرية ، توقفت · كان يوم السوق · ومن جميع قرى الجوار نزل الرجـــال والنساء للشراء وللبيع · مجاعة مخيفة ، وبرد قارس ، والناس يبيعون كل ما لديهم ، حتى ايقوناتهم ، ليشتروا خبزاً ·

« كنت اذن اتجول في القرية ، عندما رأيت فلاحة شابة تقفز من عربـة صغيرة ، فتاة مرحة طولها متران وعيناها زرقاوان كالبحر ، ولها ردف ··· كالفرس ! ··· ووقفت مذهولا وقلت لنفسي : « أيْ يا زوربا المسكين ، لقد ضعت ! » ·

« ورحت أتتبعها ، وانظر اليها ··· من المستحيل ان أشبع ! كان لا بد لك ان ترى ردفيها اللذين يهتزان كأجراس الفصح · وقلت في نفسي : « لماذا تذهب لشراء المناجم ، أيها الشيخ المسكين ؟ انك تتنكب الـــدرب المستقيم ، أيها المتقلب الرأي ! تلـــك هي المنجم الحقيقي : الق بنفســـك فيه وشـــق انفاقك ! » ·

« وتوقفت الفتاة ، ساومت ، وابتاعت كمية من الخشب ـ يا للذراعين ، يا الهي ! ـ والقتها في العربة · واشترت قليلا مـــن الخبز وخمس أو ست سمكات مدخنة · وسألت : « كم اصبـــح الحســـاب ؟ ـ كذا ··· » · وفكت قرط اذنها الذهبي لتدفع · لما كانت لا تملك مالا ، فستدفع قرطها ·عندها لم يدر دمي سوى دورة واحدة · أأدع امرأة تدفع قرطيها ، وحليها ، وصابونهـا المعطر ، وزجاجة الخزامى ·· لو دفعت كل ذلك ، لضاع العالم ! تماماً كما لو انك تنزع عن طاووس ريشه · ألك قلب لتنزع ريش طاووس ؟ ابداً ! لا ، لا ، ما دام زوربا حياً ، فلن يحدث ذلـــك · هـــكذا قلت في نفسي ، وفتحت كيس نقودي ودفعت · كان ذلك عندما اصبحت الروبلات مزقاً من الورق · بمئـة درهم ، كنت تشتري بغلاً ، وبعشرة دراهم ، امرأة ·

« دفعت اذن · وحدجتني الفتاة بطرف عينها · وتناولت يدي لتقبلها · لكنني سحبتها · ماذا ، هل تظنني شيخاً ؟ وأخـــذت تصرخ : « سبا سيبا ! سبا سيبا ! » ، وهذا يعني « شكراً ! شكراً ! » · وبقفزة واحدة أصبحت في عربتها وتناولت العنان ، ورفعت السوط · وقلت في نفسي : « زوربا ، ايها الهرِم ، احذر انها ستهرب تحت نظرك » · وبقفزة واحدة ، كنت في العربـة الى جانبها · ولم تقل شيئاً · بـــل لم تلتفت لتنظر اليّ · وضربت الحصان بالسوط ، وانطلقنا ·

« وفي الطريق ، فهمت انني أريدها زوجة · وتمتمت كيفما اتفق بثلاث

كلمات روسية ، ولكن بخصوص هذه القضايا ، ليس ثمة داعٍ للتكلم كثيراً ٠ وتحدثنا بالأعين ، بالأيدي ، بالركب ٠ وباختصار وصلنا الى القرية ووقفنا امام عربة ٠ ونزلنا ٠ وبضربة من كتفها فتحت الفتاة الباب ودخلنا ٠ وانزلنا الخشب الى الباحة ، وأخذنا الخبز والسمك ودخلنا الى الغرفة ٠ وكانت فيها عجوز ضئيلة جالسة قرب المدفأة المطفأة ، ترجف ٠ كانت متلفحة بأكياس ، وخرق ، وجلد خراف ، لكنها كانت ترجف ٠ كان الطقس بارداً جداً ، حتى ان اظافرك تكاد تقع ، يا الهي ! وانحنيت ، ووضعت قبضة كبيرة من الأغصان في المدفأة واشعلت النار ٠ ونظرت اليّ العجوز الضئيلة مبتسمة ٠ لقد قالت ابنتها لها شيئاً ، لكنني لم أفهم ٠ لقد اشعلت النار ، وتدفأت العجوز ، فعادت اليها الحياة قليلا ٠

« وأثناء ذلك ، وضعت الفتاة أدوات المائدة ٠ وجاءت بقليل من الفودكا ، وشربناه ٠ واشعلت السماور ، وصنعت شاياً ، واكلنا ، وقدمنا للعجوز حصتها ٠ بعد ذلك ، أعدّت السرير بسرعة ، ووضعت أغطية نظيفة ، وأشعلت القنديل أمام أيقونة العذراء القديسة ورسمت اشارة الصليب ثلاث مرات ٠ ثم نادتني باشارة ، وركعنا امام العجوز وقبلنا يدها ٠ ووضعت يديها البارزتي العظام فوق رأسينا وهي تتمتم بكلام ما ٠ لقد منحتنا ، على الأرجح بركتها ٠ وهتفت : « سبا سيبا ! سبا سيبا ! » وبقفزة واحدة ، كنت في الفراش مع الصبية » ٠

وصمت زوربا ، ورفع رأسه ونظر بعيداً نحو البحر ، ثم قال بعد قليل :

ـ كانت تدعى سوفنكا ٠٠٠

وعاد الى الصمت من جديد ٠ فسألته وقد فقدت الصبر :

ـ ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ـ ليس هناك « ثم ! » ٠ كم أنت معتاد على « ثم » وعلى « لماذا » ايها الرئيس ! ان هذه الاشياء لا يجوز الحديث عنها ٠ ان المرأة لنبع بارد : تنحني فوقها ، وترى وجهها ، وتشرب ، وتشرب ، وتطقطق عظامك ٠ ثم ، يأتي غيرك وقد عضّه الظمأ هو ايضاً ، فينحني ، ويرى وجهها ويشرب ٠ ثم شخص ثالث ايضاً ٠٠٠ ان المرأة لنبع ، أؤكد لك ذلك ٠

ـ وبعد ذلك ، أذهبت ؟

ـ ماذا تريد أن افعل ؟ انها نبع ، أقول لك ، وانا عابر السبيل ، فعدت الى الطريق من جديد ٠ لبثت ثلاثة شهور معها ٠ لكنْ في نهاية الشهر الثالث تذكرت انني كنت ذاهباً للبحث عن منجم ٠ فقلت لها ذات صباح : « سوفنكا ،

عندي عمل ، يجب أن أذهب » • فقالت سوفنكا : « حسناً ، اذهب • سأنتظرك شهراً ، واذا لم تعد بعد شهر ، سأصبح حرة • وانت ايضاً • بنعمة الله ! » • وذهبت •

ـ وعدت بعد شهر ؟ ••

فهتف زوربا :

ـ لكنك احمق ، ايها الرئيس ، مع احترامي لك ! كيف اعود ؟ انهن لا يتركنك هادئاً ، العاهرات ! بعد عشرة ايام ، في « كوبان » ، التقيت بنوسا ،

ـ حدثني ! حدثني !

ـ مرة اخرى ، أيها الرئيس • يجب ألا نخلط بينهن ، المسكينات ! بصحة سوفنكا !

وجرع خمره دفعة واحدة • ثم قال بعد ان أسند ظهره الى الحائط :

ـ حسناً ، سأقصّ عليك قصة نوسا أيضاً • ان رأسي مليء ، هذا المساء ، بروسيا • هات ! سنفرغ ما لدينا !

ومسح شاربه وحرّك الجمر •

ـ تلك الأخيرة التقيت بها اذن ، كما قلت لك ، في قرية من قرى « كوبان » • كان ذلك في الصيف • جبال من البطيخ الاحمر والاصفر ، فانحنيت وتناولت واحدة ، ولم يقل لي احد شيئاً • وقطعتها الى قسمين ورحت انهشها • « كل شيء هناك ، كثير ، غزير في روسيا ، أيها الرئيس : اختر وخذ ! ليس فقط البطيخ الاحمر والاصفر ، لكن السمك والزبدة والنساء أيضاً • قد ترى ، وانت مار ، بطيخة فتأخذها • وقد ترى امرأة ، فتأخذها أيضاً • ليس كهنا ، في اليونان ، حيث لا تكاد تأخذ لأحدهم قشرة بطيخ حقيرة حتى يجرك امام المحاكم ، وما ان تلمس امرأة حتى يخرج أخوها سكينه ليفرم لحمك كما تفرم النقانق • افٍ ! اشحاء ، بخلاء •• اذهبوا لتشنقوا ! يا عصابة القذرين ! اذهبوا الى روسيا قليلا لتروا كيف يكون السادة العظام !

« كنت ماراً اذن بكوبان ، ورأيت امرأة في بستان • واعجبتني • يجب ان تعلم ، أيها الرئيس ، ان السلافية ليست كهاته اليونانيات النحيفات الطماعات اللواتي يبعنك الحب بالنقطة ويفعلن كل شيء ليدفعن لك اقل مما يجب ، ويغبطنك حقك • اما السلافية ، أيها الرئيس ، فتعطيك أكثر مما تستحق • في النوم ، والحب ، والاكل ، هي قريبة جداً من الأرض والبهائم : انها تمنح ، تمنح كثيراً ، أنها ليست كتلك اليونانيات اللواتي يساومنك طويلا !

وسألتها : « ماذا تدعين ؟ » · لقد تعلمت شيئاً من الروسية مع النساء ، كما ترى · « نوسا · وانت ؟ ـ ألكسيس · انك تعجبينني جداً ، يا نوسا · ونظرت الي بانتباه كما ينظر الانسان الى حصان يريد ان يبتاعه · وقالت لي : « انت ايضاً لا يبدو عليك انك مسكين · لك اسنان متينة ، وشاربان كبيران ، وظهر عريض ، وذراعان قويتان · انك تعجبني » · ولم نتحدث أكثر من ذلك ، اذ لم يكن ثمة داعٍ لذلك · وفي لحظة اتفقنا · كان علي ان اذهب في المساء الى بيتها بثياب الأحد · وسألتني نوسا : « الديك فروة ؟ ـ نعم ، لكن في مثل هذا الحر ···

ـ لا يهم · جيء بها · ستظهر بمظهر الغني » ·

« عند المساء اذن ارتديت ثيابي كأنني عريس جديد ، وأخذت الفروة على ذراعي ، وحملت أيضاً عصاة لها قبضة من الفضة كانت لدي ، وانطلقت · كان بيتها عبارة عن منزل قروي كبير ، فيه باحات ، وابقار ومعاصر ، ونيران مشتعلة في الباحة ، ومراجل فوق النار · وسألت : « ما الذي يغلي هنا ؟ ـ عصير البطيخ الاحمر ـ وهنا ؟ عصير البطيخ الأصفر » · وقلت في نفسي : « يا لهذه البلاد ، أتسمع هذا ! عصير البطيخ الاحمر والاصفر ، انها الأرض الموعودة ! في صحتك ، زوربا ، لقد وقعت كجرذ على قطعة جبن » ·

« وصعدت الدرج ، وكان ضخماً من الخشب الذي يصر · وفي إعلاه ، كان يقف والدا نوسا · كانا يرتديان نوعاً من القماش الاخضر وحزاماً احمر مزركشاً ، وقبعات ضخمة · وفتحا ذراعيهما ، واقبلك من هنا ، واقبلك من هناك · لقد امتلأت باللعاب · كانا يتحدثان معي بسرعة كبيرة ، ولم افهم جيداً ، لكن من تعبير وجهيهما ادركت انهما لا يريدان بي شراً ·

« ودخلت الى القاعة ، ، فماذا رأيت ؟ موائد مصفوفة ، ممتلئة وكأنها مراكب شراعية · كل الناس كانوا واقفين : الاقارب ، نساء ورجالا ، وفي المقدمة نوسا ، متزينة ، مرتدية اجمل ثيابها وصدرها مشرع في الهواء كأنه جؤجؤ السفينة · والجمال والشباب يطفحان منها · وكانت تعقد رأسها بمنديل احمر ، وقد طرزت فوق قلبها صورة منجل ومطرقة · وقلت في نفسي : « قل اذن ، يا زوربا ، ايها المحظوظ ، ألك انت كل هذا اللحم ؟ اهذا هو الجسد الذي ستحتضنه هذا المساء بين ذراعيك ؟

« ورمى الجميع بأنفسهم على الطعام ، النساء كالرجال · واكلنا كالخنازير ، وشربنا كبالوعة · وسألت والد نوسا الذي كان جالساً قربي وقد كاد ينفجر من كثرة ما أكل · « والكاهن ؟ اين الكاهن الذي سيباركنا ؟ »

فأجابني واللعاب يتطاير من فمه : « ليس هناك كاهن · ليس هناك كاهن · الدين افيون الشعب » ·

« وعلى اثر ذلك ، نهض نافخاً صدره ، وفكّ حزامه الاحمر ، ورفع ذراعه ليصمت الحاضرون · كان يمسك بكأسه ، المليئة حتى تكاد تطفح ، ويحدّق في عيني · ثم بدأ يتكلم ، ويتكلم ، والقى خطاباً ، وأي خطاب ! إما ما كان يقوله ؟ الله وحده يعرف ذلك ! وتعبت من كثرة الوقوف ، ثم ان السكر قد بدأ يدير رأسي قليلا · وجلست ، ولصقت ركبتي بركبة نوسا التي كانت جالسة الى يميني ·

« وما كان العجوز لينتهي من الكلام ، وأخذ عرقه يسيل · آنذاك القوا بأنفسهم عليه وشدوه بين اذرعهم كي يسكتوه · واشارت الي نوسا : « هيا ، تكلم ، أنت أيضاً !

« فنهضت بدوري والقيت خطاباً ، بلغة نصفها روسية ونصفها يونانية · اما ما قلته ؟ لتنصب مشنقتي اذا كنت اعرف · انني اذكر فقط انني في النهاية انطلقت في الاغاني الكليفتية وبدأت دون وعي انهق :

صعد كليفتيون الى الجبل
ليسرقوا احصنه !
لكن لم يكن هناك خيل ·
انها نوسا التي خطفوها ·
« كما ترى ، أيها الرئيس ، فقد حورت قليلا من اجل المناسبة · »
وانطلقوا ، انطلقوا ···
(هيا ، يا امي ، لقد انطلقوا !)
آه ! يا نوسا ،
آه ! يا نوسا ،
آي !

« وبينما كنت اصرخ « آي » ألقيت بنفسي على نوسا وقبلتها ·

« كان ذلك ما يجب ! فأسرع بعض الشبان الأشداء من ذوي اللحى الحمراء ، وكأنني أعطيت الاشارة التي ينتظرونها ، وكأنهم لم يكونوا ينتظرون غير ذلك ، وأطفؤوا الأنوار ·

« وراحت النسوة الخبيثات يصرخن ، مدّعيات الخوف · ثم رحن يطلقن ، في الظلام صرخات صغيرة · وكان ذلك يبعث على الدغدغة والمرح ·

أما ما جرى ، ايها الرئيس ، فالله وحده يعرفه · لكنني اعتقد انه لا

يعرفه ، والا أرسل الصاعقة لتشوينا • وتدحرج الرجال والنساء على الأرض ، الحابل بالنابل • ورحت انا ابحث عن نوسا ، لـكن عبثاً ! ووجدت أخـرى وقمت بالعمل معها •

« عند الفجر ، نهضت لأذهب مع امرأتي • كان الجو لا يزال معتماً ولم اكن أرى جيداً • وأمسكت بقدم ، وسحبتها لكنهـا لم تكن قدم نوسـا • وأمسكت قدماً أخرى : نفس الشيء ! وأمسكت ثالثة ، ورابعة ، وفي النهاية ، بعد ان سعيت ككلب ، وجدت قدم نوسا ، وسحبتها ، وخلّصتها مـن بين اثنين او ثلاثة أبالسة كانوا يسحقونها ، المسكينة ، وأيقظتها ، قائـلا لها : نوسا ، هيا بنا من هنا ! » • فأجابتني : « لا تنس فروتك ! هيـا ! » • ومضينا » •

فسألت من جديد ، بعد ان رأيت زوربا قد صمت :

ـ ثم ماذا ؟

فقال زوربا بعصبية :

ـ ها أنت تعود من جديد الى « ثم ماذا ؟ » • وتنهّد :

ـ عشت ستة أشهر معها • منذ ذلك اليوم ، أؤكد لك ، لم اعد أخشى شيئاً • لا شيء مطلقاً ، اقول لك ! لا شيء سوى أمر واحد : هو ان يمحـو الشيطان او الله من ذاكرتي هذه الأشهر الستة • أتفهم ؟

وأغلق زوربا عينيه • كان يبدو شديد الانفعال • انها المرة الأولى التي أراه فيها تتملكه بمثل هذه القوة ذكرى بعيدة • وسألته بعد عدة لحظات :

ـ لقد أحببتها اذن كثيراً ، نوسا تلك ؟

وفتح زوربا عينيه ، وقال :

ـ أنت شاب ، ايها الرئيس ، انت شاب ، لا تستطيع ان تفهم • عندمـا يشيب شعرك انت ايضاً ، سنعود للحديث عن تلك القصة الخالدة •

ـ اية قصة خالدة ؟

ـ المرأة ، بحق الشيطان ! كم مرة يجب ان أكرر لك ذلك ؟ المرأة قصة خالدة • اما الآن ، فأنت كالديكة الشابة التي تطبق على الدجاجات ثلاث مرات على دفعتين ثم تنفخ حوصلاتها ، وتصعد على المزبلة وتأخذ بالصياح والخيلاء • انها لا تنظر الى الدجاجات ، بل الى عرفها • اذن ، فما الذي يمكنها ان تفهمه من الحب ؟ لا شيء مطلقاً •

وبصق على الأرض باحتقار • ثم أدار رأسه ، اذ هو لا يريد ان ينظر اليّ •

فسألته مرة اخرى :

ــ ثم ماذا ، يا زوربا ؟ ونوسا ؟

فأجاب زوربا ونظرته ضائعة بعيداً نحو البحر :

ــ ذات مساء ، وانا عائد الى المنزل ، لم أجدها · لقد هربت مع عسكري جميل كان قد وصل الى القرية منذ بضعة ايام · لقد انتهى الأمر ! وانفطر قلبي وانشطر شطرين · لكنه سرعان ما التصق من جديد ، الشرير · لقد رأيت ، ولا بد ، تلك الأشرعة المرقعة بالقطع الحمراء ، والصفراء ، والسوداء ، والمخيطة بخيط ثخين ، والتي لا تتمزق ابداً ، حتى في اسوأ العواصف ؟ ان قلبي مثلها · فيه ستة وثلاثون ألف ثقب ، وست وثلاثون الف رقصة : انه لا يخشى شيئاً ابداً !

ــ ولمَ تحقد على نوسا ، زوربا ؟

ــ لماذا احقد عليها ؟ تستطيع ان تقول ما تشاء ، لكن المرأة شيء آخر ، انها ليست بشراً ! لماذا احقد عليها ؟ ان المرأة شيء لا يُفهم ، وكل قوانين الدولة والدين لا تعير هذا انتباهاً · ان على هذه القوانين ألا تعامل المرأة هكذا ، كلا ! انها قاسية جداً ، ايها الرئيس ، ظالمة جداً ! لو كنت انا الذي يسن القوانين ، فانني لن اسنها واحدة للرجال والنساء · عشر ، مئة ، الف وصية للرجل · الرجل رجل ، ويستطيع ان يتحمل هذا · لكن ثمة توصية للمرأة · لأن المرأة ، كم مرة يجب ان اقول لك ذلك ، ايها الرئيس ؟ لأن المرأة مخلوق ضعيف · في صحة نوسا ، ايها الرئيس ! وليضع الله لنا رصاصاً في مخنا ، نحن الرجال !

وشرب ، ورفع ذراعه ثم جعلها تسقط فجأة وكأنه يمسك فأساً ، وعاد يقول :

ــ ليضع لنا رصاصاً في مخنا ، او ليجرِ لنا عملية · والا ، يمكنك ان تصدقني ، فاننا هالكون ! ·

- ٨ -

اليوم ، أمطرت ببطء ، واتحدت السماء بالارض بحنان لا متناهٍ • انني اذكر نقشاً هندوكياً من الحجارة الرمادية القاتمة يمثل رجلا ملقياً ذراعيه حول امرأة ومتحداً بها بكثير من العذوبة والاستسلام حتى انك لتحس ، بعـد ان لعق الدهر الجسدين وتأكلهما ، انك ترى حشرتين متعانقتين بشـدة ، راح المطر الناعم يتساقط فوقهما ، والأرض تتشربه بلذة وتمهل •

انني جالس في الكوخ • انظر الى السماء تتكدر ، والى البحر يتـألق ببريق رمادي اخضر • ومن طرف الساحل الى طرفه الآخر ، ليس ثمة انسان ، ليس ثمة شراع ، ليس ثمة طير • رائحة الأرض وحدها تدخل من النافـذة المفتوحة •

ونهضت ، ومددت يدي الى المطر كأنني متسول • وفجـأة ، رغبت في البكاء • كان ثمة حزن ، ليس من أجلي ، ليس لي ، أعمق ، وأظلم ، يتصاعد من الأرض الندية • انه كالرعب الذي يتملك الحيوان الذي يرعى ، بلا مبالاة ، ثم يشم حوله فجأة ، في الفضاء ، دون ان يرى شيئاً ، أنه محاصر ، لا يستطيع أن يفلت •

وكدت اطلق صرخة ، مدركاً ان ذلك سيعيد الهدوء الى نفسي ، لكنني خجلت •

وكانت السماء تنخفض اكثر فأكثر • ونظرت من النافذة : كـان قلبي يرتعد بهدوء •

انها للذيذة ، وحزينة جداً ، تلك الساعات من المطر الناعم ، تعيد إلى الذهن جميع الذكريات المرة ، المدفونة في القلب : فراق الاصدقاء ، ابتسامات نساء قد انطفأت ، آمال قد فقدت اجنحتها كفراشات لم يبق منها الا الدود • ولقد وقف هذا الدود فوق اوراق قلبي وراح يقرضها •

ورويداً رويداً ، عبر المطر والأرض الندية ، صعدت من جديد ذكـــرى صديقي ، المنفي هناك ، في القوقاز • واخذت ريشتي ، وانحنيت على ورقي ، واخذت احدثه ، لأمزق شبكة المطر واتنفس •

« أيها العزيز جداً ، اكتب اليك من شاطيء منعـــزل في كريت ، حيث اتفقنا ، انا والقدر ، ان ابقى عدة شهور لأمثل ، امثل دور الرأسمالي ، مالـك منجم لليىنيت ، رجل اعمال • واذا نجح تمثيلي ، فسأقول آنذاك انه لم يـكن تمثيلا ، بل انني اتخذت قراراً كبيراً ، قراراً بأن اغيّر حياتي •

« انت تذكر انك دعوتني ، وانت مغادر ، « بالفأر قارض الورق » فأثرت غضبي ، وقررت آنذاك ، ان اهجر القرطاس لفترة من الزمن ـ او دوماً ؟ ـ وألقي بنفسي في العمل • فاستأجرت تـلا صغيراً يحتـــوي على اللينيت ، وتعاقدت مع عمال ، واشتريت معاول ، وارفاشاً ، ومصابيـــح الاسيتيلين ، وسلالا ، وعربات ، وحفرت انفاقاً ودفنت نفسي فيهـا • هـــكذا ، كي اثير غضبك • وتحوّلت ، بسبب الحفر وشق الدهاليز في الأرض ، من فأر قارض لورق الى خُلد • فأرجو ان تسرّ لهذا التحول • « ان افراحي هنـــا كبيرة لأنها في غاية البساطة ، مصنوعة من عناصر خالدة : هوآء صافٍ ، وشمس ، وبحر ، وخبز حنطة • وعند المساء ، يحدثني ، وهو جالس أمامي ، سندبـاد بحري رائع ، يتحدث ويتسع العالم كلما تحدث • واحياناً ، عندما لا تســد الكلمة حاجته ، ينتصب قافزاً ويرقص • وعندما لا يكفيـــه الرقص نفسه ، يضع السانتوري على ركبتيه ويبدأ بالعزف •

« أحياناً ، يعزف لحناً وحشياً ، فتحس بأنك تختنق ، لأنك تفهم فجأة ان الحياة تافهة وبائسة ، غير لائقة بالانسان • واحيـاناً يعـزف لحناً مؤلماً ، فتحس بأن الحياة تمر وتنساب كما ينساب الرمل من بين الأصابع ، وبـــأن الطمأنينة لا وجود لها •

« ويذهب قلبي ويجيء ، من طرف صدري الى طرفه الآخـــر ، كمكوك حائك • انه يحيك هذه الاشهر القلائل التي سأمضيها في كريت وانني اعتقد ـ ليسامحني الله ! ـ انني سعيد •

« يقول كونفوشيوس : « كثيرون يبحثون عن السعادة فيما هو اعلى من الانسان ،، وآخرون فيما هو اوطى منه • لكن السعادة بطول قامة الانسان » • هذا صحيح • اذن فهناك عدد من السعادات بصدد ما للانسان من قامات • تلك هي ، يا تلميذي ومعلمي العزيز ، سعادتي اليوم ، وانني لأقيسها ، واعيـــد قياسها ، قلقاً ، لأعرف ما طول قامتي الآن • لأن قامة الانسان ، كمـا تعلم ،

ليست دائماً واحدة ٠

« ان البشر يبدون لي ، هنا ، وانا انظر اليهم من عزلتي ، لا كالنمل ، لكن على النقيض من ذلك ، كوحوش هائلة ، من نوع الزواحف السَّامة الضخمة الطائرة المتحجرة ، تعيش في جو مشبع بحامض الفحم وبعفونة المستحاثات الكثيفة ٠ غاب غير مفهوم ، عبثي ، معول ٠ ان مفاهيم « الوطن » و « العرق » التي تحبها ، ومفاهيم « الوطن الاعلى » و « الانسانية » التي جذبتني ، لها قيمة نفحة الهدم الفائقة القوة ٠ اننا نحس اننا صعدنا من جديد لنقول بضعة مقاطع ، واحياناً حتى ليس مقاطع ، بل مجرد اصوات لا تلفظ مثل « آ » ! و « او » ! ـ ومن ثم نتحطم ٠ واسمى الافكار ، لو بقرت بطونها ، لتبينا انها ، هي أيضاً ، دمى محشوة بالنخالة ، ثم نجد ، نابضا من التنك مخفياً في النخالة ٠

« انت تعرف جيداً ان هذه التأملات القاسية ، وهي بعيدة عن ان تجعلني استسلم ، انما هي على النقيض من ذلك ، اعواد ثقاب لا بد منها لشعلتي الداخلية ٠ لأنني ، وكما يقول معلمي بوذا ، قد « رأيت » ٠ وبما انني رأيت واتفقت بغمزة عين مع المخرج المسرحي اللامرئي ، فانني استطيع من الآن فصاعداً ، وكلي مزاج رائق ورغبة في ان افعل ما لا داعي له ، ان امثل دوري على الأرض حتى النهاية ، اعني بانسجام وبدون ان تثبط عزيمتي ٠ ذلك بما انني رأيت ، فقد اشتركت ، انا أيضاً ، في العمل الذي امثله على مسرح الله ٠

« وهكذا ، اراك ، وانا انقل نظري في المسرح الكوني ، هناك في مغاور القوقاز الاسطورية ، تمثل ، انت أيضاً ، دورك ، اذ تجهد نفسك لانقاذ بضعة آلاف من ارواح عرقنا الذي يواجه خطر الموت ٠ انك بروميثيوس آخر ، لكنه يتحمل عذابات حقيقية وهو يناضل ضد قوى الظلام : الجوع ، والبرد ، والمرض ، والموت ٠ لكنك تسرّ احياناً ، لما فيك من كبرياء ، من ان قوى الظلام كثيرة الى هذا الحد وغير مرئية ، وهكذا يصبح هدفك في ان تكون بلا امل تقريباً ، أكثر بطولة ، وتدرك روحك عظمة اشد فجيعة ٠

« ان هذه الحياة التي تعيشها تعتبرها ، بلا شك ، سعادة ٠ ولما كنت تعتبرها هكذا ، فهي كذلك ٠ لقد فصَّلت ، انت ايضاً ، سعادتك على قدك ، وقدك الآن ـ ليتمجد الرب ! ـ يتجاوز قدي ٠ والمعلم الصالح لا يريد مكافأة اروع من هذه : ان ينشيء تلميذاً يتجاوزه ٠

« اما انا ، فأنسى غالباً ، وانتقد ، واتيه ، وما ايماني الا فسيفساء من الجحود المستمر ، وقد اشتهي احياناً ان اقوم بمقايضة : ان آخذ دقيقة صغيرة

واعطي حياتي كاملة • لكنك ، انك تمسك بالدفة بحزم ، ولا تنسى الى ايـن انت متجه ، حتى في اعذب اللحظات المميتة •

« اتذكر ذلك اليوم الذي كنا نعبر فيه معاً ايطاليا ، ونحن عائـدان الى اليونان ؟ لقد عزمنا على الذهاب الى منطقة « بونت » التي كانت في خطـر آنذاك ، اتذكر ذلك ؟ وفي مدينة صغيرة ، نزلنا من القطار بسرعـة ، اذ لم يكن امامنا الا ساعة واحدة قبل وصول القطار الآخر • ودخلنـا الى بستان كبير كثيف ، قرب المحطة ، مملوء بالأشجار ذات الأوراق العريضة ، وبأشجار الموز ، وبقصب لونه معدني قـاتم ، وبنحـلات كـانت متشبثة بغصن مزهر يرتجف ، سعيداً ، لأنه يراها تمتص •

« وتقدمنا بصمت ، وقد أخذتنا النشوة ، وكأننا في حلم • وفجأة ، عند منعطف الدرب المزهر ، ظهرت فتاتان تمشيان وهما تقرآن • لا اذكر ان كانتا جميلتين او قبيحتين • اذكر فقط ان احداهما كانت شقراء ، والأخرى سمراء ، وانهما كانتا ترتديان ثوبين ربيعيين •

« وبجرأة الانسان عندما يكون حالماً ، اقتربنا منهما وقلت لهما ضاحكاً :

« مهما كان الكتاب الذي تقرآنه ، فسوف نتناقش حوله » • كانتا تقرآن غوركي • وعند ذاك ، تقدمنا بسرعة لأننا كنا مستعجلين ، واخذنا نتحدث عن الحياة ، والبؤس ، وتمرد الروح ، والحب •••

« لن انسى ابداً فرحنا وألمنا • كنا قد أصبحنا ، نحن وتانك الفتاتـان المجهولتان ، اصدقاء قدماء ، احباء قدماء • كنا على عجلة من امرنـا ، وقـد اصبحنا مسؤولين عن روحيهما وجسديهما : فبعد بضع دقائق سنغادرهمـا للأبد • وفي الهواء المرتجف ، كانت رائحة الاغتصاب والموت •

« ووصل القطار وصفّر • وقفزنا كأننا استيقظنا • وتصافحنا • كيف ننسى تعانق ايدينا الشديد واليائس ، والأصابـع العشر التي لا تريـد ان تنفصل • كانت احدى الفتاتين شاحبة جداً ، والأخرى تضحك وترتعـد •
« واذكر انني قلت لك عندئذ : « هي ذي الحقيقة • اما اليونـان ، والوطن ، والواجب ، فهي كلمات لا تعني شيئاً • واجبتني انت : « اليونان ، والوطن ، والواجب ، هذا لا يعني شيئاً بالفعل ، لكننا من اجل هذا اللاشيء سنذهب عن طواعية لنموت » •

« لكن لماذا اكتب لك هذا ؟ لأقول لك انني لم أنسَ شيئاً ممـا عشناه معاً • ولأتيح لنفسي أيضاً فرصة كي اعبر عما كان مستحيلا عليّ التعبير عنه عندما كنا معاً ، بسبب تلك العادة الحسنة او السيئة التي كنا نتقيّد بها والتي

كانت تلزمنا بتمالك أنفسنا .

« والآن وانت لست أمامي ، ولا ترى وجهي ، وانا لا اخاطر بأن ابدو سخيفاً ، فانني أقول لك انني احبك كثيراً » .

وختمت رسالتي . لقد تحدثت مع صديقي وعاد الهدوء الى اعصابي . وناديت زوربا . وكان جالساً على صخرة كي لا يتبلل ، يجرب مصعده . وصرخت :

ــ زوربا تعال . انهض وهيا الى القرية لنتنزّه .

ــ مزاجك الآن حسن ، أيها الرئيس . انها تمطر . ألا تريد ان تذهب بمفردك ؟

ــ نعم . لكن لا اريد ان افقد مزاجي الحسن . واذا كنا معاً ، فلن اخاطر بشيء . تعال .

وضحك قائلا :

ــ انني سعيد لأنك بحاجة الي . هيا !

وارتدى قميصه الصوفي الصغير الكريتي ذا القبعة المدببة الذي اهديته له ، وخضنا في الدرب الموحل .

كانت تمطر . وقمم الجبال مخفية ، وليس ثمة نسمة هواء ، والحجارة تلمع . وكان جبل الليبيت الصغير مخنوقاً تحت الضباب . وكأن حزناً بشرياً يغلف وجه التل الانثوي ، وكأنه قد اغمي عليه تحت المطر . وقال زوربا :

ــان قلب الانسان يتألم عندما تمطر ، ويجب الا نلومه على ذلك !

وانحنى على اسفل سياج وقطف أولى ازهار النرجس البري ، ونظر اليها طويلا ، دون ان يشبع ، وكأنه يرى النرجس لأول مرة ، واستنشقها مغمضاً عينيه ، وتنهدّ وقدّمها الي ، قائلا :

ــ لو كنا نعرف ، أيها الرئيس ، ما تقوله الحجارة ، والازهار ، والمطر ! لعلها تنادي ، تنادينا ، ونحن لا نسمع . متى ستنفتح آذان الناس ؟ متى ستتفتح اعيننا لنرى ؟ متى ستنفتح الاذرع لنعانق الجميع ، الحجارة ، والازهار ، والمطر ، والبشر ؟ ماذا تقول عن ذلك ، أيها الرئيس ؟ وكتبك ، ما الذي تقوله ؟

فقلت مستخدماً التعبير المفضل عند زوربا :

ــ ليأخذها الشيطان ، ليأخذها الشيطان !

واخذ زوربا ذراعي :

ــ سأقول لك فكرة خطرت لي ، أيها الرئيس ، لكن يجب الاّ تغضب :

كوّم كل هذه الكتب واشعل فيها النار · وبعد ذلك ، من يعلم ، فأنت لست ابله ، انك رجل شجاع ··· يمكن ان يُصنع منك شيء ما !

وهتفت في نفسي : « انه على حق ، انه على حق ، لكنني لا استطيع ! » ·

وتردّد زوربا ، وفكّر · ثم بعد لحظة قال :

ـ ثمة شيء افهمه و ···

ـ ماذا ؟ قله !

ـ لست ادري على الضبط · يبدو لي ، هكذا ، انني افهم شيئاً ما · لكن لو حاولت ان اقوله لهدمت كل شيء · وذات يوم عندما اكون مستعداً ، سأرقصه لك ·

وازداد المطر عنفاً · ووصلنا الى القرية · كانت فتيات صغيرات يعدن بالخراف من المراعي ، والحرّاث قد فكوا الثيران ، تاركين حقلهم نصف محروث ، والنساء يجرين وراء اطفالهن في الازقة · لقد تملك القرية خوف سريع عند قدوم عاصفة المطر · النساء تطلق صرخات حادة وعيونهن تضحك ، وقطرات المطر الضخمة تتشبث بلحى الرجال الكثة وشواربهم المفتولة · وتصاعدت رائحة حادة من الأرض ، من الحجارة والعشب ·

ودخلنا ، بعد ان تبللنا حتى العظام ، الى المقهى ـ المجزرة « الحياء » · كانت غاصّة بالرجال ، البعض يلعب بالورق ، وآخرون يتناقشون بصوت عالٍ ، وكأنهم يتداعون من جبل لآخر · وفي صدر القاعة ، كان يتربع ، الى مائدة صغيرة ، على مقعد خشبي ، اعيان القرية : العم انانيوستي ، بقميصه الأبيض العريض الاكمام ، ومافراندوني ، الصامت ، القاسي ، الذي يدخن النارجيلة ، وعيناه متجهتان نحو الأرض ، والمعلم الذي انتصف به العمر ، الجاف ، الوقور ، المستند الى عصاه الضخمة والمصغي بابتسامة متنازلة الى رجل عملاق كثيف الشعر قد عاد تواً من « كاندي » وراح يصف روائع المدينة الكبيرة · وكان صاحب المقهى ، الواقف امام منضدته ، يصغي ويضحك ، مراقباً دولات القهوة ، الموضوعة على النار ·

وما ان رآنا العم انانيوستي حتى نهض قائلا :

ـ تفضلا بالحضور الى هنا ، يا مواطنيّ · ان سفاكيانو نيكولي يروي لنا كل ما رآه وسمعه في كاندي ، انه ظريف حقاً ، تعاليا هنا ·

والتفت نحو صاحب المقهى وقال :

ـ كأسين من العرق ، يا مانولاكي !

وجلسنا ، وانكمش الراعي المتوحش على نفسه ، عندما رأى غرباء ،

وصمت • وسألهٔ المعلم ليحمله على الكلام :

ـ اذن ، لقد ذهبت ايضاً الى المسرح ، ايها الكابتن نيكولي ؟ كيف وجدته ؟

وقدّم سفاكيانو نيكولي يده الضخمة ، وقبض على كأس خمره، وجرعه دفعة واحدة ، وتشجع ، وصاح :

ـ وكيف لم اذهب ؟ لقد ذهبت الى المسرح بالتأكيد • كنت أسمعهم دوماً يقولون : « كوتوبولي (١) هنا ، كوتوبولي هناك » • اذن ذات مساء ، رسمت اشارة الصليب وقلت : سأذهب الى هناك ، بديني، سأذهب لأراها ، انا أيضاً•

وسأل العم انانيوستي :

ـ وماذا رأيت ، ايها الشجاع ؟ قل ذلك !

ـ لا شيء • لم أر شيئاً ، أقسم لكم على ذلك • كنت اسمعهم يتحدثون من المسرح واعتقدت انذلك مسلٍ • لكن لم يكن الأمر كذلك • انني آسف للنقود التي أنفقتها • كان المسرح عبارة عن مقهى كبير ، مستدير ، وكأنه حظيرة ، ممتلىء بالناس حتى ليكاد ينفجر ، وبالمقاعد والشمعدانات • لم اكن مطمئناً ، وكان نظري مضطرباً ، ولم اكن أرى شيئاً • وقلت في نفسي : « يا الهي ! لا بد انهم يعدون لي مقلباً • سأهرب » • وفي تلك اللحظة ، اقتربت مني فتاة ترتعش كعصفور صغير ، واخذتني من يدي • فصرخت بها : « قولي ، الى اين تقودينني ؟ » • لكنها راحت تسحبني ، وتسحبني دون ان تهتم بما أقوله ثمالتفتت نحوي وقالت لي : « أجلس ! » وجلست • كان الناس في كل مكان : امامنا ، ووراءنا ، ويمينا وشمالا ، وفي السقف • واعتقدت انني سأختنق ، بالتأكيد ، وافطس ، اذ لم يكن هناك هواء ! والتفت نحو جاري : « من اين ستخرج ، الراقصات اذن ، ايها الصديق ؟ » • فقال لي وهو يشير الى ستار : « هناك ، من الداخل » •

« وكان هذا صحيحا ! هناك أولاً جرس يقرع ، ويرتفع الستار ، وتبدو كوتوبولي • لكن على الرغم من انها كانت كوتوبولي الاّ انها كانت امرأة ، امرأة حقيقية ، واي امرأة ! وأخذت تمشي وهي تتمايل على الجانبين • كانت تذهب ، وتجيء ، وبعد ذلك ، شبع الناس منها ، فراحوا يضربون بأيديهم ، فهربت بنفسها » •

وتلوى الفلاحون ضحكاً • واستاء سفاكيانو نيكولي وعبس • والتفت

---

١ ـ ممثلة مشهورة في اليونان • واسمها يعني دجاجة صغيرة •

نحو الباب · وقال كي يغيّر الحديث :
ـ انهـــا تمطر !
وتابعت كل الانظار نظره · وفي تلك اللحظة بالضبط ، مرت امرأة وهي تجري ، وقد رفعت ثوبها الأسود حتى ركبتيها ، واسبلت شعرها على كتفيها · كانت ممتلئة ، متمايلة ، وثيابها ملتصقة بجلدها ، تتكشف عـــن جسد مثير وصـــلب ·
وقفزت · وقلت في نفسي : اي حيوان مفترس هناك ؟ لقد بـــدت لي لدنة ، خطرة ، تلتهم الرجال ·
وأدارت المرأة رأسها لحظة وألقت نظرة هاربة تقدح بالشرر على المقهى ·
وتمتم شاب صغير قد بدا زغب لحيته ، جالس قرب الزجاج :
ـ ايتها العذراء القديسة !
وهدر مانولاكس ، حارس الغابة :
ـ عليك اللعنة ، يا زارعة الشقاق ! ان النـــار التي تشـــعلينها ، لا تطفئينها ·
واخذ الشاب الجالس قرب الزجاج يدندن ، بهدوء وتردد اولاً ، ثـم اخشوشن صوته شيئاً فشيئاً :
ان لوسادة الأرملة رائحة السفرجل ·
انا ايضاً شممتها ولم أعد استطيع النوم ·
وصرخ مافراندوني وهو يهزّ أنبوب نارجيلته :
ـ أطبق فاك !
وظل الشاب هادئاً · وانحنى رجل هرم على مانولاكاس ، حارس الغابة، وقال بصوت خافت :
ـ ها هو عمك قد بدأ يغضب · لو كان يستطيع لمزقها ارباً ، التعيسة ! ليحمها الله !
فقال مانولاكاس :
ـ ايه ! ايها الأب اندرولي ، يبدو لي انك ، انت ايضاً ، متعلق برداء الأرملة · ألا تخجل ، أنت ، ايها القوّاس ؟
ـ كلا ! اكرر عليك ذلك : ليحمها الله ! لعلك لم ترَ الأطفـــال الذين يولدون في قريتنا منذ بعض الوقت ؟ انهم جميلون كملائكة · أتســـتطيع أن تقول لي لماذا ؟ حسناً ، هذا بفضل الأرملة ! انها كما يقولون عشيقة جميـــع سكان القرية : فأنت تطفيء النور وتتصور انها ليست امرأتك تلـــك التي

تحتضنها بين ذراعيك . بل الأرملة • ولهذا ، فان قريتنا ، كما ترى ، تضع اطفالا في غاية الجمال •

وصمت الأب اندرولي لحظة ثم تمتم :

ـ سعيدة هي الأفخاذ التي تعانقها ! آه ! يا صديقي ، لو كنت في العشرين مثل بافلي ، ابن مافراندوني !

فقال احدهم وهو يضحك :

ـ سنراه الآن وهو عائد !

والتفتوا نحو الباب • كانت تمطر بغزارة • والماء يهدر فوق الحصى ، وبين الفينة والفينة يشق البرق السماء • ولم يعد زوربا يحتمل ، وقد بعث مرور الأرملة الحرارة في نفسه ، وأشار لي قائلاً :

ـ انها لم تعد تمطر ، هيا بنا !

وعند الباب ظهر صبي شاب ، عاري القدمين ، اشعث الشعر ، تائه العينين ، كبيرهما • هكذا كان الرسامون يمثلون القديس يوحنا المعمدان ، وقد انتفخت عيناه كثيراً بسبب الجوع والصلاة •

وصرخ بعضهم ضاحكين :

ـ السلام ، يا ميميتو !

ان لكل قرية عبيطها ، واذا لم يكن فيها أحد ، فانهم يصنعون واحداً لتمضية الوقت • وقد كان ميميتو عبيط القرية •

وصرخ بصوته المتلعثم والمخنث :

ـ أيها الأصدقاء ، أيها الاصدقاء ، لقد أضاعت الأرملة سورمولينا نعجتها • من وجدها ، له خمسة ليترات من الخمر مكافأة !

فصرخ العجوز مافراندوني :

ـ اغرب عنا ، اغرب عنا !

وانطوى ميميتو على نفسه ، خائفا ، في الزاوية ، قرب الباب •

وقال العم انانيوستي مشفقا :

ـ اجلس ، يا ميميتو ، تعالَ اشرب كأساً من العرق ليدفئك • الام تصير قريتنا بدون عبيطها ؟

وظهر عند العتبة شاب يبدو مريضاً ، ذو عينين زرقاوين فاتحتين ، يلهث ، وشعره ملصوق بجبهته يقطر ماء •

وهتف مانولاكاس :

ـ السلام ، يا بافلي ! السلام ايها الصغير ابن العم ! ادخل •

والتفت مافراندوني ، ونظر الى ابنه ، وقطّب حاجبيه • وقال في نفسه :

ـ أهذا ابني ؟ هذا الطرح ؟ بحق الشيطان من يشبه ؟ أود لو أمسكه من عنقه ، وارفعه ، واخبطه على الارض مثل اخطبوط !

كان زوربا يجلس على أحرّ من الجمر • لقد اشعلت الأرملة لبه ولم يعد يستطيع البقاء بين هذه الجدران الأربعة • وراح يهمس في اذني كل لحظة :

ـ هيا بنا ، ايها الرئيس ، هيا بنا ، اننا سنفطس هنا !

وبدا له ان الغيوم قد انقشعت وان الشمس قد اظهرت مـن جديـد • والتفت نحو صاحب المقهى وسأله وهو يتظاهر باللامبالاة :

ـ من هذه الارملة ؟

ـ فأجاب كوندو مانوليو :

ـ فرس •

ووضع اصبعاً على شفتيه وأشار بعينه الى مافراندوني الذي اتجهـت عيناه من جديد الى الارض • وأضاف :

ـ فرس ، دعنا من الحديث عنها ، كي لا نذهب الى جهنم •

ونهض مافراندوني ولفّ الانبوب حول عنق النارجيلة • وقال :

ـ اعذروني • سأعود الى بيتي • تعالَ ، بافلي ، اتبعني !

وأخذ ابنه ، وسرعان ما اختفى الاثنان تحت المطر • ونهض مانولاكاس وتبعـه •

وتربّع كوندومانوليو على مقعد مافراندوني ، وقال بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد من الطاولات المجاورة :

ـ يا للمسكين مافراندوني ، انه سيفطس من العار • انها لمصيبة كبيرة تلك التي حلّت ببيته • بالامس ، سمعت بافلي ، بأذني ، يقول له : « اذا لم تصبح زوجتي ، فسأنتحر ! » • ولكنها ، العاهرة ، لا تريده • انهـا تدعوه ، « الساذج ! » •

وكرّر زوربا قوله ، وقد ازداد اشتعالاً عندما سمع الحديث يدور عن الارملـة :

ـ هيـا بنـا •

وأخذت الديكة تصيح ، وخفّ المطر قليلاً • فقلت وانا انهض :

ـ هيـا !

وقفز ميميتو من زاويته ، وسار في اثرنا •

كانت الحصى تلمع ، واسودت الابواب المبللة بالمطر ، وخرجت العجائز

القميئات بسلالهن ليجمعن الحلزون ٠

واقترب ميميتو مني ولمس ذراعي قائلاً :

ـ اعطني سيجارة ، ايها الرئيس ، فهذا يجلب لك الحظ في الحب ٠

واعطيته سيجارة ٠ ومدّ يده النحيفة ، التي احرقتها الشمس وقال :

ـ اعطني ايضاً كبريتاً !

واعطيته ، واستنشق الدخان حتى اعماق رئتيه ، ونفثه من منخريـه واغمض عينيه نصف اغماضة وتمتم :

ـ انني مبسوط مثل باشا !

ـالى اين انت ذاهب ؟

ـ الى حديقة الأرملة ٠ لقد قالت انها ستقدم لي طعاماً اذا اعلنت لها عن نعجتهـا ٠

كنا نسير بسرعة وتمزقت الغيوم قليلاً ، وظهرت الشمس ٠ وابتسمت القرية كلها ، بعد ان اغتسلت بالمطر ٠

وقال زوربا ، وقد تصاعد اللعاب الى فمه :

ـ أتعجبك ، الأرملة ، يا ميميتو ؟

فصاح ميميتو ؟

ـ ولماذا لا تعجبني ؟ ألم اخرج من بالوعة ، انا ايضاً ؟

فقلت مندهشـاً :

ـ من بالوعة ؟ ماذا تعني ، يا ميميتو ؟

ـ من بطن امرأة ٠

وارتعدت ٠ وقلت في نفسي : ان شكسبير وحده ، يستطيع ، في مثـل هذه الدقائق الخلاّقة ، ان يجد تعبيراً واقعياً فجاً الى هذا الحد ، ليصف سر الولادة الغامض والمقرف ٠

ونظرت الى ميميتو ٠ كانت عينـاه كبيرتين ، فارغتين ، حولاويـن قليـلا ٠

ـ كيف تمضي ايامك ، ، يا ميميتو ؟

ـ كيف تريد ان امضيها ؟ مثل باشا ! استيقظ صباحاً ، وآكل قطعة من الخبز ،ثم ابدأ بالعمل ، واقوم بالسخريات ، لا يهم اين ، ولا مـاذا ٠ انني اقوم بحمل الرسائل ، وانقل السماد ، واجمع الروث ٠ واقطف الثمار ٠ انني اسكن عند خالتي ، الام لينيو ، النوّاحة ٠ من المحتمل أنك تعرفها ، فـكل الناس يعرفونها ٠ حتى لقد صوروها ٠ وعند المساء ، اعود الى البيت ، وآكل

صحفة من الحساء واشرب قليلا من الخمر . واذا لم يكن هناك خمر فانني اشرب ماءً ، ماء الله الرحمن ، حتى ارتوي ، ويصبح بطني كالطبل . وبعد ذلك ، ليلة سعيدة !

ـ ولن تتزوج ، يا ميميتو ؟

ـ انا ؟ انني لست مجنوناً ! ما الذي تقوله يا صديقي ؟ أآتي بالهم لرأسي ؟ ان المرأة تحتاج الى الاحذية ! فمن اين اجد لها منها ؟ انني اسير حافي القدمين .

ـ أليس عندك حذاء ؟

ـ كيف ليس عندي ؟ انه الحذاء الذي نزعته خالتي لينينو من قدمي شخص مات في العام الماضي . لكنني لا ألبسه الا في عيد الفصح لأذهب الى الكنيسة ، وأتسلى بالنظر الى الكهنة . وبعد ذلك ، أخلعه ، واضعه في رقبتي واعود الى البيت .

ـ ما الذي تحبه اكثر من اي شيء آخر في الدنيا ، يا ميميتو ؟

ـ اولاً الخبز . آه كم احبه ! وهو ساخن ! ومحمَّص ، على الأخص اذا كان خبز حنطة ! ثم ، الخمر . ثم النوم .

ـ والنساء ؟

ـ بف ! كل واشرب ونم ، كما أقول لك . وكل ما تبقى ، هم ؟

ـ والأرملة ؟

ـ دعها للشيطان ، فهذا أفضل ما تفعله ! ألا ابتعد عني يا ابليس !

وبصق ثلاث مرات ورسم اشارة الصليب .

ـ أتعرف القراءة ؟

ـ مطلقاً ! عندما كنت صغيراً ، جروني بالقوة الى المدرسة ، لكن سرعان ما اصبت بالتيفوس ، وأصبحت أبله . وهكذا تخلصت منها !

وضجر زوربا من اسئلتي ، ولم يكن يفكر بغير الأرملة . وقال لي وهو يأخذني من ذراعي :

ـ ايها الرئيس ...

والتفت نحو ميميتو وامره قائلاً :

ـ سر اماماً ، فلدينا ما نتحدث عنه .

وخفض صوته ، وكان منفعلاً ، وقال :

ـ ايها الرئيس ، هنا سأنتظرك . لا تلوث اسم جنس الذكور ! ان الشيطان ، او الرحمن ، يرسل لك هذا الطعام الذي يمكن ان تقبله او ترفضه،

وما دامت لك اسنان ، فلا ترفضه ! مد يدك وخذه ! لماذا منحنا الخالق اليدين؟ لنأخذ ! اذن ، خذ • لقد رأيت من النساء في حياتي كميات • لكن هذه الأرملة، تستطيع ان تسقط قبب الأجراس ، تلك اللعينة !

فقلت غاضبا :

ــ انني في غنى عن الازعاجات •

لقد ثارت عصبيتي ، لأنني ، انا أيضاً ، في داخلي ، اشتهيت ذلك الجسد الفائق القوة ، الذي مرّ أمامي ، كحيوان مفترس يبحث عن انثى •

فقال زوربا مدهوشاً :

ــ الا تريد ازعاجات ؟ فماذا تريد اذن ؟

ولم اجب • وتابع زوربا :

ــ ان الحياة ازعاج • اما الموت ، فلا • أن تعيش ، أتعرف مــاذا يعني هذا ان تفكّ حزامك ، وتبحث عن قتال •

ولم اقل شيئاً • كنت أعرف ان زوربا محق ، كنت أعرف ذلك ، ولكنني افتقد الى الشجاعة • لقد تنكبت حياتي الدرب الصحيح ، ولم يكن احتكاكي بالبشر الا مونولوجاً داخلياً • لقد انحدرت وانحدرت حتى انه لو كان علي ان اختار بين الوقوع في حب امرأة او قراءة كتاب جيد عن الحــب ، لاخترت الكتاب • وتابع زوربا :

ــ دعك من الحسابات ، ايها الرئيس ، وابتعد عن الارقام ، واهدم الميزان اللعين ، واغلق الدكان ، كما اقول لك • فالآن ستنقذ روحك او تخسرها • اسمــع ايهــا الــرئيس ، خــذ ليرتين أو ثلاثاً ، ولتكن ليرات ذهبية ، فالليرات الورقية لا تملأ العين ، واعقدها في منديل وارسلها الى الأرملة بواسطة ميميتو • وعلّمه ما الذي يجب ان يقوله : « ان رئيس المنجم يحييك ويرسل لك هذا المنديل الصغير • وقد قال ان هذه اشياء قليلة ، لكنّ معها كثيراً من الحب • وقال أيضاً لا تهتمي بسبب النعجة ، فاذا ضــاعت ، فــلا تحزني • فنحن هنا ، لا تخافي !لقد رآك تمرين امام المقهى ، ومنذ ذلك الحين ، لم يعد يفكر الا بك » •

« هو ذاك ! ثم ، في المساء نفسه ، تقرع بابها • يجب ان تطرق الحديد عندما يكون حامياً • وتقول لها ايضاً انك تهت في الطريق ، وان الليل فاجأك وانك بحاجة الى فانوس • او انك اصبت بوجع على حين غرة وانك تريد قدح ماء • او بالأحرى ، تشتري نعجة ، وتأخذها وتقول : « خذي ، يا جميلتي ، تلك هي النعجة التي اضعتها ، لقد وجدتها ! » • وثق بي ، ايهــا الرئيس ،

فستكافئك الارملة وستدخل ــ آه ! لو كنت استطيـع ان اجلس وراءك على الحصان ! ــ ستدخل على الحصان الى الجنة · وأؤكد لك ، يا صديقي ، انه ليست هناك جنة أخرى غير هذه · لا تصغ الى ما يقوله الكهنة ، فليس هناك جنة أخرى ! » ·

ولا بد اننا اقتربنا من حديقة الارملة ، لان ميميتو تنهد ، واخذ بصوته المتلعثم ، يغني ألمه :

ان الكستناء تحتاج الى خمر والجوز الى عسل ،

والفتاة الى شاب والشاب الى فتاة ·

وحث زوربا خطاه · واختلج منخراه · وتوقف ، وتنهد بعمق ونظـر الي ، وقال وقد فقد الصبر :

ــ اذن ؟

فأجبت بجفاء :

ــ لنذهـب !

وحثثت خطاي ·

وهز زوربا برأسه ودمدم بشيء ما لم اسمعه · وعندما وصـــلنا الى الكوخ ، جلس ، متصالب القدمين ، ووضع السانتوري على ركبتيه ، وخفض رأسه ، غارقاً في التأمل · كأنه يصغي الى اغان لا تحصى ويحاول ان يختار واحدة منها ، اكثرها جمالاً او يأساً · واخيراً قام باختياره ، وأنشد لحنـــاً مؤسياً · وكان ، بين الفينة والفينة ، يرمقني بطرف عينه · واحسست ان كل ما لا يستطيع او يجرؤ على قوله بالكلمات ، يعبر عنه بالســانتوري · وكان هذا السانتوري يقول انني افسدت حياتي ، وانني انا والأرملة حشــرتان لا تعيشان الا لحظة واحدة تحت الشمس ، ثم تموتان الى الأبد · وبعد ذلك لا شيء ! لا شيء !

ونهض زوربا بقفزة · لقد فهم فجأة انه يتعب نفسه بلا جـــدوى · واستند الى الحائط واشعل سيجارة ، ثم قال بعد فترة :

ــ ايها الرئيس ، سأسر لك بشيء قالته لي ذات يوم في سالونيـــك خادمة عجوز ، سأسر لك به ، حتى ولو كان لا يفيد شيئاً ·

« في ذلك الوقت ، كنت أعمل كبائع جوال في ماسيدونيا · كنت اذهب الى القرى لأبيع مكبات الخيطان ، والابر ، وحيـاة القديسين ، واللبــــان ، والبهار · كان لي صوت رائع ، صوت بلبل حقاً · ويجب ان تعلم ان النساء يؤخذن بالصوت ايضاً · (وبماذا لا يؤخذن ، العاهرات ؟) · الله يعلم ما الذي

يجري في احشائهن ! يمكنك ان تكون قبيحاً ، اعرج ، احدب ، لـكن اذا كان صوتك عذبا وتعرف الغناء ، فانك تسبي عقولهن ٠

« كنت بائعاً جوالاً في سالونيك ايضاً ، وأمرّ حتى بالاحياء التركية ٠وقد جذب صوتي ، على ما يبدو ، امرأة مسلمة غنية ، الى حد انها لم تستطع النوم٠ فاستدعت عند ذاك خادمة عجوز وملأت كفها بالمجيديات وقالت لها : « آمان ، قولي للبائع الجوّال الكافر ان يأتي ، آمان ! يجب ان اراه ! لم اعـــد استطيع ! » ٠

وجاءتني الخادمة وقالت لي : « ايها الرومي الشاب ، تعال معـي » ٠ فأجبتها : « لن آتي ٠ الى اين تريدين أخذي ؟ ــ هناك ابنة باشا كالماء العذب تنتظرك في غرفتها ،تعال ايها الرومي الشاب ! » لكنني كنــت اعلــم انهم يقتلون المسيحيين ، ليلاً ، في الاحياء التركية ٠ وقلت : « كلا ، لن آتي ــ الا تخشى اللهاذن، ايها الكافر ؟ ــ ولماذا اخشاه ؟ ــ لأن الذي يستطيع ، ايهـــا الرومي الشاب ، ان ينام مع امرأة ، ولا يفعل ذلك ، يرتكب خطيئـة كبيرة ٠ عندما تدعوك امرأة لتقاسمها الفراش ، يا ولدي ، ثم لا تذهب ، فان روحـك تهلك ! ان هذه المرأة ستتنهد يوم دينونة الله ، وهذه التنهدة ، مهمـا كنت ، وعلى الرغم من كل الأعمال الصالحة التي قمت بها ، ستسرع بك الى جهنم !»٠

وتنهّد زوربا ، وقال :

ــ اذا كانت الجحيم موجودة ، فسأذهب اليها ، وسيــكون هذا هــو السبب ٠ ليس لأنني سرقت ، وقتلت ونمت مع نساء الآخرين ، لا ، لا ! هذا كله ليس بشيء ذي بال ٠ ان الرحمن يغفر هذه الأمور ٠ لـكنني سأذهب الى جهنم ، لأن امرأة كانت تنتظرني ، تلك الليلة ، في فراشها ولم اذهب اليها ٠٠

ونهض ، واشعل النار ، وبدأ يطبخ ٠ ونظر الي من طرف عينه وابتسم باحتقار ، وتمتم ٠

ــ هناك اسوأ ممن هو أصم ، وهو الذي لا يريد ان يسمع ! وانحنى ، وراح ينفخ بشدة على الاغصان الرطبة ٠

- ٩ -

بدأ النهار يقصر ، والنور يغرب بسرعة ، والقلب يقلـــق في نهاية كل عصر • وتملكنا من جديد رعب اسلافنا البدائي ، الذين كانوا يرون ، خلال أشهر الشتاء ، الشمس تنطفيء قبل أوانها باستمرار ، كل مســـاء • كانوا يقولون في أنفسهم ، يائسين : « غداً ستنطفيء تماما » ، ويمضون الليلة كلها على المرتفعات يرتعدون •

كان زوربا يحس بهذا القلق ، بشكل اعمق واكثر بدائية مني • وكي يتخلص منه ، لم يعد يخرج من الانفاق الأرضية الا بعد ان تشتعل النجوم في السماء •

كان قد وجد عرقاً طيباً من اللينيت ، ليس فيه رمـاد كثير ، قليـــل الرطوبة ، غنياً بالحريرات ، وكان فرحاً لأن الربـح كان يبعـث في مخيلته ، فجأة ، تغيرات رائعة ، ويصبح اسفاراً ، ونساء ، ومغامرات جـديدة • كان ينتظر ، بنفاد صبر ، اليوم الذي سيربح فيه كثيراً ، والذي سينمو فيـــه جناحاه ـ فقد كان يدعو المال اجنحة ـ ليطير • وهـــكذا كان يمضي الليالي الكاملة وهو يجرب مصعده الصغير ، باحثاً عن الميل المضبوط ، كي تهبـــط الجذوع على مهل ، كما يقول ، وكأن ملائكة تحملها •

وذات يوم ، أخذ ورقة طويلة ، وأقلاماً ملونة ، ورسم الجبل والغابة ، والمصعد ، والجذوع الهابطة المثبتة بالحبال ، وكـــل واحدة منهـا مجهّزة بجناحين كبيرين بلون اللازورد • ورسم ، في الخليج الصغير المســـتدير ، مراكب سوداء عليها بحارة خضر مثل ببغاوات صغيرة ، وزوارق تحمل جذوع اشجار صفراء • وفي الزوايا الأربع يقف أربعة رهبان ، ومـن أفواههم تطير شرائط وردية مكتوب عليها بأحرف سوداء كبيرة : « ايها السيد ، ما أعظمك وما أعظم أعمالك ! » :

منذ بضعة أيام ، وزوربا يشعل النار بسرعة ، ويعد الطعام ، ونأكل ، ثم ينطلق نحو طريق القرية · وبعد قليل من الوقت ، يعود عابساً · وكنت اسألـــه :

ـ الى اين ذهبت ايضاً ، يا زوربا ؟

فيقـــول :

ـ لا تهتم بذلك ايها الرئيس ·

ويطرق حديثا آخر ·

وذات مساء ، سألني ، بعد ان عاد ، بقلق :

ـ هل الله موجود ، نعم او لا ؟ ما رأيك ، ايهـــا الرئيس ؟ واذا كان موجوداً ـ وكل شيء ممكن ـ فكيف تتمثله ؟

وهززت كتفي دون ان اجيب ·

ـ لا تضحك ، أيها الرئيس ، انني اتمثل الله شبيهاً بي ، انمــا اكبر ، واقوى ، واكثر هموماً · وقبل كل شيء ، خالد · انه يجلس مرتاحـــاً فوق جلود خرافٍ لدنة ، وكوخه هو السماء · انه ليس مصنوعاً من صفائح الوقود مثل كوخنا ، من الغيوم · وبيده اليمنى لا يمسك سيفاً او ميزاناً ـ فهـــذه الآلات انما هي للجزّارين والعطّارين ـ بل يمسك باسفنجة مليئـــة بالماء ، وكأنها غيمة من المطر · وعن يمينه ، الفردوس ، وعن يســاره ، الجحيـــم · وعندما تأتي روح من الأرواح ، مرتجفة ، عارية تماماً ، المسكينة ، لأنها اضاعت جسدها ، فينظر اليها الله وهو يُخفي ضحكته ، لكنه يتظاهر بالغضب ،ويقول لها بصوت جهوري : « تعالي هنا ، ايتها اللعينة ! » ·

« ويبدأ الاستجواب · وتلقي الروح بنفسها على قدمي الله · وتصرخ به : « الرحمة ! سامحني ! » · وتبدأ بتعداد خطاياها · تعد ولا تنتهـــي · ويتملك الضجر الله · ويتثاءب · ويصرخ بها : « اسكتي ، فقد صدعـــت رأسي ! » · وبلمحة بصر ، يمسح بالاسفنجة كل خطاياها · ويقول لهـــا : « هيّا عني ، اغربي الى الفردوس ! يا بطرس ، ادخـــل ايضـــاً هـــذه الفتـــاة المسكينـــة ! » ·

« لأن الله ، ايها الرئيس ، يجب ان تعلم ذلك ، سيد كبير ، والنبل هو ان تغفر ! » ·

وفي ذلك المساء ، تذكرت انني كنت أضحك بينما كان زوربا منطلقاً في هذره العميق · لكن « نبل » الله هذا راح يتجسّد وينضج فيّ ، وكله اشفاق ، وكرم ، وقدرة فائقة ·

وفي مساء آخر ، بينما كانت السماء تمطر ونحن متكومان في كوخنا ، مشغولان بشيّ الكستناء في الموقد ، أدار زوربا عينيه نحوي ونظر اليّ ملياً وكأنه يريد ان يكشف سراً كبيراً . وفي النهاية ، لم يعد يستطيع . وقال :

ـ اريد ان اعرف ، ايها الرئيس ، ما الذي يمكن ان تجده عندي ؟ ما الذي تنتظر لتأخذني من أذني ، وتلقي بي خارجاً ؟ لقد قلت انهم يدعونني « مليديو » لأنني حيثما ذهبت لا اترك حجراً على حجر ... ان اعمالك صائرة الى الدمار . القِ بي خارجاً ، اقول لك !

فأجبت :

ـ انك تعجبني . لا تطلب أكثر من ذلك .

ـ الا تفهم اذن ، ايها الرئيس ، انه ليس لمخي ثقل ! لعل عندي أكثر ، او اقل ، لكن ليس الثقل اللازم ، يقيناً لا ! اسمع ، ستفهم : ها قد مرت ايام وليالٍ منذ ان تركتني الأرملة بدون راحة . ليس من اجلي ، كلا ، اقسم لك . انا ، تلك قضية مضمونة ، لن اتعرض لها . انها ليست من اجل منقاري ، ليأخذها الشيطان ! لكنني لا أريد أن يفقدها جميع الناس . لا أريد أن تنام لوحدها . سيكون ذلك أمراً يدعو للأسف ، ايها الرئيس ، انني لا استطيع تحمله . اذن ، فانني اتسكع ليلا حول حديقتها . أتعرف لماذا ؟ لأرى اذا كان ثمة شخص سينام معها ، فأستطيع الاطمئنان !

واخذت أضحك .

ـ لا تضحك ، ايها الرئيس ! اذا نامت امرأة لوحدها ، فهذه خطيئتنا ، نحن الرجال . سنقدّم جميعاً الحساب يوم الدينونة الاخير . ان الله يغفر جميع الخطايا ، كما يقال ، ففي يده الاسفنجة ، لكن هذه الخطيئة ، لن يغفرها . يا لشقاء الرجل الذي كان يستطيع ان ينام مع امرأة ولم يفعل ! ايها الرئيس . ويا لشقاء المرأة التي كانت تستطيع أن تنام مع رجل ولم تفعل ! تذكر ما قالته العجوز التركية .

وصمت قليلا ثم سأل فجأة :

ـ عندما يموت الانسان ، هل يستطيع ان يعود الى الأرض بشكل آخر ؟

ـ لا اعتقد ذلك ، يا زوربا .

ـ ولا أنا . لكن لو كان يستطيع ، فان هؤلاء البشر الذين احدثك عنهم ، الذين رفضوا ان يخدموا ، ولنقل هربوا من الحب ، سيعودون الى الأرض ، أتعرف كيف ؟ مثل البغال !

وصمت من جديد وغرق في التفكير . وفجأة شعَّت عيناه وقال ، وقد أثاره اكتشافه :

ـ من يعرف ، فلعل جميع البغال التي نراها اليوم في العالم ، هي هؤلاء الناس ، الغليظون ، الذين كانوا اثناء حياتهم رجـــالا ونساء دون ان يكونوا كذلك حقاً ، ولهذا انقلبوا الى بغال · ولهذا يرفسون دوماً · مـــا رأيك في ذلك ، ايها الرئيس ؟

فأجبت ضاحكاً :

ـ اظن ان عقلك يزن بالتأكيد اقل من اللازم · قم ، وتناول السانتوري ·

ـ لا يوجد سانتوري هذا المساء ، ايهـــا الرئيس ، يجب الاّ تغضب · انني اتحدث ، واتحدث ، وأقول الحماقات ، أتدري لماذا ؟ لأن في رأسي هموماً عظيمة · ازعاجات كبيرة · ان النفق الجديد سيحـدث لنـــا متاعب · وانت تتحدث عن السانتوري ···

وعلى اثر ذلك ، اخرج بعض الكستناء من الرماد ، وقدّم لي قبضة منها ، وملأ كأسينا بالعرق · وقلت وانا اقرع كأسي بكأسه :

ـ ليكن الله في عوننا !

فكرّر زوربا :

ـ ليكن الله في عوننا ، اذا شئت ··· لكن ، حتى الآن ، لم يأتِ هـذا بفائدة ···

وجرع السائل الحار دفعة واحدة وتمدّد على فراشه · وقال :

ـ غداً ، سأحتاج الى قوة كبيرة · فعليّ ان اقاتل ضد الف شيطان · ليلة سعيدة !

في اليوم التالي ، عند الفجر ، نزل زوربا الى المنجم · كانوا قد حفروا نفقاً طويلا في العرق الطيب ، وراح الماء يرشح من السقف ، والعمال يغوصون في الوحل الأسود ·

وكان زوربا ، منذ أول أمس ، قد جاء بالخشب ليدعم النفق · لكنه كان قلقاً · فجذوع الأشجار لم تكن ضخمة كما يجب ، وبغريزته العميقـة ، التي تجعله يحسّ بالذي يجري في تلك المتاهة الأرضية كما يحس بمـــا يجري في جسده بالذات ، كان يعلم ان التدعيم بالخشب ليس مضموناً ، ويسمع صريراً خافتاً ، لم يستطع الآخرون بعد ان يميّزوه، وكان دعامات السقف تئن تحت الثقـل ·

وثمة شيء آخر كان يزيد في قلق زوربا ، ذلك المساء ، ففي اللحظة التي كان يستعدّ فيها للنزول الى النفق ، مرّ كاهن القرية ، الاب اسطفان ، على بغله ، وهو متجه بسرعة كبيرة نحو الدير المجاور ، ليمنح الاسرار الى راهبة

تحتضر • ولحسن الحظ تمكن زوربا ان يبصق ثلاث مرات على الأرض ، قبل ان يوجه اليه الكاهن الكلام •

ورد ، بطرف أسنانه ، على تحية الكاهن :

ـ صباح الخير ، ايها الكاهن !

وبصوت أخفض تمتم :

ـ لتحلَّ لعنتك علي !

ومع ذلك احس ان هـــذه الرقية ليست كافية ، ونزل ، بعصبية ، الى النفق الجديد •

كانت تفوح رائحة ثقيلة من اللينيت وغاز الاستصباح • بينما كان العمال قد بدأوا بتعزيز العضادات وتدعيم النفق ، فتمنى لهم زوربا صبـاح الخير ، وبجفاء ، وعبوس ، شمرّ عن ساعديه وبدأ يعمل •

كان اثنا عشر عاملا يفتتون العرق بضربات المعاول ، ويجمعون الفحم عند اقدامهم ، فينقله عمال آخرون بالرفش الى عجلات يدوية صغيرة ، ويحملونه خارجاً •

وتوقف زوربا فجأة وأشار الى العمال أن يفعلوا مثله واصـاخ سمعه • وكما يتحد الفارس بحصانه ويشكل معه كلا واحداً مثل القبطـان وسفينته ، كذلك كان حال زوربا مع المنجم ، فيحسّ بالنفق وهو يتشـعب كالأوردة في جسده ، وما لم تكن كتل الفحم السوداء تستطيع أن تحس به ، كان زوربــا يحس به بصفاء بشري واعٍ •

وراح يتنصت ، وقد مد أذنه الكبيرة المليئة بالشعر • وفي تلك اللحظـة وصلت • وكنت قد استيقظت قافزاً ، وكأن نذيراً ما ، كأن يـــداً دفعتني • ولبست بسرعة ووثبت خارجاً ، دون ان أدري لمَ أنا مستعجل هكذا ولا الى اين اذهب ، لكن جسدي أخذ ، دون تردد ، طريق المنجم • ووصلت في اللحظة التي كان زوربا يرهف فيها أذنه ، قلقاً ، لينصت •

وقال بعد لحظة :

ـ لا شيء ••• خيل الي ••• الى العمل ، ايها الأولاد !

والتفت ، ورآني ، وزمّ شفتيه :

ـ ما الذي تفعله هنا ، باكراً جداً ، ايها الرئيس ؟

واقترب مني وهمس :

ألا تصعد لاستنشاق الهواء ، ايها الرئيس ؟ عد في يوم آخر الى هنـــا لتقوم بنزهتك القصيرة •

ـ ما الذي يجري ، زوربا ؟

ـ لا شيء ٠٠٠ لقد تخيلت أشياء ٠ رأيت كاهناً في الصباح الباكـر ٠ اذهب !

ـ اذا كان هناك خطر ، أفليس من العار أن اذهب ؟

فأجاب زوربا :

ـ نعم ٠

ـ أكنت ذهبت ، أنت ؟

ـ كـلا ٠

ـ اذن ؟

فقال بعصبية :

ـ ان التدابير التي آخذها من أجل زوربا ، ليست نفسها مـن أجل الآخرين ٠ لكن ما دمت قد فهمت ان من العار ان تذهب ، فـلا تذهب اذن ٠ ابقَ ٠ على رسلك !

وأخذ مطرقته ، وانتصب على اطراف قدميه وراح يثبت بمسامير ضخمة خشب السقف ٠ وتناولت من فوق احدى العضادات مصباحاً بغاز الاستصباح ، ورحت اذهب واجيء في الوحل ، وانا انظر الى العرق الاسمر القاتم اللامع ٠ لقد دفنت هنا غابـات شاسعة ، وانقضت آلاف السنين ، ومضغت الأرض ، وهضمت ، وحولت اطفالها ٠ واصبحت الاشجار لينيتاً ، والليينيت فحمـاً ، وجاء زوربا ٠٠٠

اعدت المصباح الى مكانه ونظرت الى زوربا وهو يعمل ٠ كان منصرفـاً بكليته الى الشغل ، وذهنه خلو من شيء آخر ، وهو متحد بالأرض والمعـول والفحم ٠ لقد انقلب هو والمطرقة والمسامير الى جسد واحد ، ليناضل ضـد الخشب ٠ وكان يتألم مع سقف النفق الذي يتكور ٠ كان يناضل ضد الجبل كله ليمسك الفحم بالحيلة ، بالعنف ٠ ان زوربا يشم المادة بثقة لا تخطيء ، ويضربها دون ان يخطيء ، في مواطن الضعف التي يمكن ان تقهر منها ٠ وبدا لي ، كما رأيته في تلك اللحظة ، متسخاً ، مليئاً بالغبار ، لم يبقَ فيه موضـع ابيض سوى عينيه ، وكأنه تنكرّ بالفحم ، واصبح فحماً ، كي يستطيع بسهولة أكبر ان يقترب من الخصم ويدخل الى تحصيناته ٠

وصحت ، وقد امتلكني اعجاب ساذج :

ـ هيا ، يا زوربا الشجاع !

لكنه لم يلتفت ٠ كيف يمكنه ان يتحدث في هذه اللحظة مع فأر قارض

للورق ، يمسك في يده ، بدلا من المعول ، طرف قلم صغير ؟ كان مشغولا ، لا يتنازل للحديث • لقد قال لي ذات مساء : « لا تحدثني عندما اشتغل ، فقد اطق • ـ تطق ، لماذا يا زوربا ؟ ـ ها قد عدت الى « لماذا » • مثل غلام • كيف اشرح لك ؟ انني غارق في العمل بكليتي ، اكون متوتراً ، متصلباً ، من اصابع قدمي حتى رأسه ، ملتصقاً بالصخر أو بالفحم ، أو بالسانتوري • فاذا ما لمستني فجأة ، اذا ما حدثتني والتفت ، فانني قد اطق • هكذا » •

ونظرت الى ساعتي : انها العاشرة • فقلت :

ـ حان وقت الافطار • لقد تأخرتم عن الموعد •

وسرعان ما القى العمال بأدواتهم في زاوية ، وجففوا العرق عن وجوههم ، واستعدوا للخروج من النفق • لكن زوربا لم يسمع شيئاً ، لأنه كان غارقاً في العمل • ولو سمع ، لما تحرك • واصاخ سمعه من جديد ، قلقاً • وقلت للعمال :

ـ انتظروا ، هاكم سيجارة !

وبحثت في جيوبي ، وكان العمال حولي ينتظرون •

وفجأة وثب زوربا • والصق اذنه بجدار النفق • وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت فمه المفتوح متشنجاً • وصرخت :

ـ ماذا بك ، زوربا ؟

لكن ، في تلك اللحظة ، خيل الينا ان سقف النفق كله قد رجف فوقنا • وصرخ زوربا بصوت مبحوح :

ـ اهربوا ! اهربوا !

واسرعنا نحو المخرج ، لكن ما ان بلغنا العضادة الأولى حتى سمعنا ، فوق رؤوسنا ، طقطقة أخرى اقوى • وكان زوربا ، في تلك الاثناء ، يرفع جذع شجرة ضخمة ليدعم به العضادة التي أخذت تتخاذل • واذا استطاع ان يفعل ذلك بسرعة ، فلعله سيسند السقف ، بضع ثوانٍ ، ويمنحنا الوقت الكافي لنهرب •

وصرخ زوربا ثانية بصوت اصم ، هذه المرة ، وكأنه خارج من احشاء الأرض :

ـ اهربوا !

واسرعنا جميعاً ، بذلك الجبن الذي يتملك الرجال غالباً في اللحظات الحرجة الى الخارج ، دون ان نهتم بزوربا • لكن بعد بضع لحظات استطعت ان اهدىء روعي وانطلقت نحوه ، وصرخت :

ـ زوربا ! زوربا !

لقد خيّل الي انني صرخت ، لكنني فهمت بعد ذلك ان الصرخة لم تخرج من حنجرتي • لقد خنق الرعب صوتي •

وتملكني الخجل • وتراجعت خطوة الى الوراء ومددت ذراعي • كان زوربا قد انتهى من تدعيم العضادة الضخمة ، ثم زحف في الوحل ، وقفز نحو المخرج، شبه المظلم • وسقط علي ، بسبب اندفاعه • وعلى دون ارادة منا ، سقط كلانا بين ذراعي الآخر •

وصاح بصوت مخنوق :

ـ لنهرب ! لنهرب !

ورحنا نركض ووصلنا الى الضوء • وكان العمال المتجمعون عند المدخل يترقبون ، شاحبين ، دون كلام •

وسمعنا طقطقة ثالثة ، اقوى ، كطقطقة شجرة حطّمتها العاصفة • وفجأة انفجر هدير قوي ، وتعالى مزمجراً كالرعد ، وهزّ الجبل ، وانهار النفق •

وتمتم العمّال وهم يرسمون اشارة الصليب :

ـ ياللرحمة الالهية !

وصرخ زوربا غاضباً :

ـ أتركتم معاولكم ، في الداخل ؟

فصمت العمال • فصرخ من جديد ، مغيظاً :

ـ لماذا لم تأخذوها ؟ لقد فعلتموها في سراويلكم ، أيها الشـــجعان ! يا حسرتي على الادوات !

فقلت متدخلا :

ـ أهذا هو الوقت لنهتم بالمعاول ، يا زوربا ! لنفرح لأن احداً لم يصب بأذى ! اننا مدينون لك بشمعة كبيرة ، يا زوربا ، فبفضلك انت نحن لا نزال احيـــاء •

فقـال زوربـا :

ـ انني جائع • لقد هدّني الحادث •

وأخذ كيسه الذي فيه افطاره ، ووضعه على صخرة ، وفتحه ، واخـــرج خبزاً ، وزيتوناً ، وبصلا ، وبطاطة مسلوقة ، وكوز خمر صغيراً •

وقـال ، وفمه ممتلىء :

ـ هيا ، افطروا ، أيها الرفاق !

كان يبلع بشراهة ، بسرعة ، كأنه فقد فجأة كثيراً من القوى فهو يريد ان

يعوّض عنها ٠

وأكل بصمت ، محني الظهر ، وأخذ الكوز ، والقى برأسه الى الوراء وصبّ الخمر في حلقومه اليابس ٠

وتشجّع العمال أيضاً ، وفتحوا زواداتهم وبدأوا يأكلون ٠ كانوا جميعاً قد جلسوا ، متربعين حول زوربا ، يأكلون وهم ينظرون اليه ٠ لقد ودوا لو يلقون بأنفسهم على قدميه ، ويقبلون يديه ، لكنهم كانوا يعلمون انه سريع الغضب ، غريب المزاج ، ولم يجرؤ أي واحد منهم على البدء بذلك ٠

في النهاية ، حزم ميشيليس أمره ، وهو أكبرهم سناً ، وله شاربان رماديان ، وتكلم قائلا :

ـ لو لم تكن موجوداً ، أيها المعلم الكسيس ، لكان اطفالنا قد اصبحوا ايتاماً الآن ٠

فقال زوربا وفمه مليء :

ـ اطبق فمك !

ولم يجرؤ احد على التفوه بكلمة واحدة ٠

- ١٠ -

« من الذي خلق اذن تلك المتاهة من الشك ، ذلك المعبد مـن الخيلاء ، ذلك الدن من الخطايا ، ذلك الحقل المزروع بألف خدعة ، ذلك الباب المؤدي الى جهنم ، تلك السلة الطافحة بالأكاذيب ، ذلك السم الذي يشبه العسل ، تلك السلسلة التي تربط الأنام بالأرض : المرأة ! » ٠

كنت انسخ ، ببطء ، بصمت ، هذا النشيد البوذي ، وانـا جالس على الأرض ، قرب الموقد المشتعل ، ورحت اجهد ، آخذاً برقية تلو رقية ، لطـرد جسد مبلل بالمطر من ذهني ، كان يتبختر ، ويمر ويمر ، طيلـة ليالي الشتاء تلك ، امامي في الهواء الرطب ٠ ولسـت ادري ، على اثر انهيـار النفق ، اذ كادت روحي تنتهي ، كيف انبجست الأرملـة في دمي ، وراحـت تنـاديني ، كحيوان مفترس ، بلهجة آمرة ، مليئة بالتأنيب ٠ كانت تصرخ :

ــ تعالَ ، تعالَ ! ليست الحياة الا كالبرق ، سريعة الزوال ٠ تعـال مسرعاً ، تعالَ ، تعالَ ، قبل ان يفوت الأوان !

كنت اعلم جيداً ان هذا هو « مارا » ، روح الشر ، يتستر في جسد امرأة، قوية الردفين ٠ وكنت أقاوم ٠ ورحت اكتب « بوذا » ، كما كان المتوحشون يرسمون في مغاورهم بحجر مدبب أو يصورون بالاحمر والابيض الحيوانات المفترسة التي تجول حولهم جائعة ٠ كانوا يحاولون ، هم ايضاً ، ان يثبتوها ، برسمها وتصويرها ، على الصخرة ، ولو لم يفعلوا ذلك لانقضَّت عليهم ٠

منذ اليوم الذي كدت أُسحق فيه ، والارملة تمر في فضاء وحدتي الملتهب، وتشير اليّ وهي تهزّ كشحيها بتلذذ ٠ في النهار ، اكون قوياً ، متيقظ الذهن ، فأستطيع طردها ٠ واكتب كيف تمثَّل المجرب لبـــوذا ، وكيف تسترّ في ثياب امرأة ، وكيف اسـند ثدييه المشرئبين الى ركبتي الناسـك ، واخيراً ،

كيف رأى بوذا الخطر ، فاستنفر كل كيانه واضطر ابليساً الى الهرب ٠ واتمكن ، انا أيضاً ، من اضطرارها الى الهرب ٠

كانت الطمأنينة تعود اليّ ، عند كل كلمة اكتبها ، واتشجّع ، واشعر بابليس وهو ينسحب ، مطروداً بقوة الرقية الفائقة : الكلمة ٠ كنت اناضل ، نهاراً ، بكل قواي ، لكن عقلي ، يضع سلاحه ، ليلا ، وتنفتح الابواب الداخلية وتدخل الارملة ٠

واستيقظ ، صباحاً ، منهكاً ، مقهوراً ، وتبدأ الحرب من جديد ٠ أحياناً ارفع رأسي ، فأرى النهار قد أوشك على الغروب ، والنور يتراجع مطارداً ، وتنهار الظلمة فوقي فجأة ٠ كان النهار يتقاصر باستمرار ٠ واقترب عيد الميلاد ، واندفعت في المعركة وانا اقول في نفسي : « انني لست بمفردي ٠ ان قوة كبيرة ، النور ، تحارب ، هي أيضاً ، فتارة تنتصر وطوراً تغلب ، لكنها لا تيأس ٠ وانا أحارب وآمل معها ! » ٠

وخيّل اليّ ، وقد شجعني ذلك ، انني اخضع لنغم كوني كبير بنضالي ضد الارملة ٠ وكنت اقول في نفسي : « هذا هو الجسد الذي اختارته المادة المخاتلة لتقهر بهدوء الشعلة الحرّة التي تتصاعد فيّ ولتطفئها » ٠ واقول ايضاً : « الهية هي القوة التي لا تفنى ، والتي تحول المادة الى روح ٠ ان في كل انسان جزءاً من هذه الدوامة الالهية ، ولهذا فهو ينجح في تحويل الخبز والماء واللحم الى فكر وعمل ٠ ان زوربا على حق : قل لي ماذا تفعل بما تأكله ، اقل لك من انت ! » ٠

رحت اذن اجهد ، بمشقة ، في تحويل رغبة الجسد العنيفة هذه الى « بوذا » ٠ وقال لي زوربا ، ذات مساء عشية الميلاد ، وكان يشك في الشيطان الذي احارب ضده :

ـ فيمَ تفكر ؟ انك لا تبدو على ما يرام ، ايها الرئيس ٠

وتظاهرت بأنني لم اسمع ٠ لكن زوربا ما كان ليستسلم بسهولة ، فقال :

ـ انك شاب ، ايها الرئيس ٠

وفجأة ، رنّ صوته مريراً غاضباً :

ـ انك شاب ، قوي ، تأكل جيداً ، تشرب جيداً ، تتنشق هواء البحر المنعش ، تكدّس قواك ، وماذا تفعل بكل ذلك ؟ انك تنام لوحدك ٠ هذا يدعو للأسف ! هيا ، هذا المساء بالذات ، لا تضع الوقت ، كل شيء في العالم

بسيط ، ايها الرئيس · كم مرة يجب ان اكرّر عليك ذلك ؟ فلا تعقّد اذن كل شيء !

كان مخطوط « بوذا » مفتوحاً امامي ، ورحت اقلبه ، مصيغاً الى كلمات زوربا ، وانا عالم انها تفتح درباً اميناً · ومعها ، كانت ايضاً روح مارا ، الوسيط المخاتل ، تنادي ·

واصغيت له ، دون ان افوه بكلمة ، عازماً على المقاومة ، وانا اقلّب ببطء المخطوط ، وأصفر كي اخفي اضطرابي · لكن زوربا ، وقد رآني صامتاً ، انفجر :

ــ انها ليلة الميلاد ، هذا المساء ، يا صديقي ، اسرع ، واذهب لتجدها قبل ان تذهب الى الكنيسة · في هذا المساء يولد المسيح ، فقم بمعجزتك ، أيها الرئيس ، انت أيضاً !

ونهضت ، متضايقاً ، وقلت :

ــ هذا يكفي ، يا زوربا · ان كل انسان يتبع طريقه الخاص · ان الانسان ، اعلم ذلك ، شبيه بالشجرة · هل سعيت ذات مرة الى خصام شجرة تين لأنها لا تحمل كرزاً ؟ اذن ، اصمت ! ان الساعة تقارب منتصف الليل ، فهيا الى الكنيسة ، لنرى ، نحن أيضاً ، ولادة المسيح ·

ووضع زوربا على رأسه قبعته الشتوية الضخمة ، وقال سئماً :

ــ حسناً ! هيا! لكنني اصرّ على ان اعلمك ان الله سيسر أكثر لو ذهبت هذا المساء الى الارملة ، مثل الملاك جبريل · ولو سار الله في نفس الطريق الذي سرت فيه ، أيها الرئيس ، لما ذهب ابداً الى مريم ولما ولد المسيح · ولو سألتني في أي طريق سار الله ، لقلت لك : في الطريق الذي يؤدي الى مريم · ومريم ، هي الارملة ·

وسكت منتظراً الجواب ، لكن عبثاً · وفتح الباب بقوة ، وخرجنا · وأخذ يضرب ، بطرف عصاه ، الحصى ، بنفاد صبر · وكرّر بعناد :

ــ نعم ، نعم ، ان مريم هي الارملة !

فقلت :

ــ هيا ، سر ! لا تصرخ !

ومشينا ، بخطى سريعة ، في الليلة المشتية · كانت السماء صافية الى حد مدهش ، والنجوم تلمع ، ضخمة ، واطئة ، مثل كرات نارية معلقة في الفضاء · وكان الليل يزداد هديراً ، كلما تقدمنا على طول الشاطىء ، مثل حيوان اسود كبير ممدد على ساحل البحر ·

وقلت في نفسي : « بدءاً من هذا المساء ، سيأخذ النور الذي زحمه الشتاء ، في التغلب · وكأنه يولد في هذه الليلة مع الطفل الاله » ·

كان القرويون جميعاً قد تجمعوا في خلية الكنيسة الدافئة العبقة · الرجال في المقدمة ، وفي الخلف النساء ، وقد صلبن اذرعهن · وكان الكاهن اسطفان ، الطويل ، وقد احنقه صومه أربعين يوماً ، يجري ، هنا ، وهناك ، مرتدياً حلته الذهبية الثقيلة ، بخطى عريضة ، يحرك المبخرة ، يغني بأعلى صوته ، مستعجلا رؤية ولادة المسيح والعودة الى بيته ليرتمي على الحساء الدسم ، والنقانق واللحوم المدخنة ···

لو قالوا : « اليوم يولد النور » ، لما هزّ ذلك قلب الانسان ، ولما اصبحت الفكرة اسطورة ولما غزت العالم · انها ما كانت لتعبر الا عن ظاهرة فيزيائية عادية ولما أثارت مخيلتنا ، اقصد روحنا · لكن النور الذي يولد في قلب الشتاء اصبح طفلا ، واصبح الطفل الهاً ، وها قد انقضى عشرون قرناً وروحنا تحتفظ به في صدرها وترضعه ···

بعد منتصف الليل بقليل ، انتهى الاحتفال الصوفي · لقد ولد المسيح · واسرع القرويون الى منازلهم ، جائعين ، فرحين ، ليصفوا الموائد ويحسوا حتى اعمق بطونهم بسر التجسد · ان البطن هي الاساس المتين ، فالخبز والخمر واللحم قبل كل شيء ، ولا يمكن الا بالخبز والخمر واللحم خلق الله ·

كانت النجوم تلمع ، كبيرة كالملائكة ، فوق قبة الكنيسة البيضاء · وكان درب المجرة ، مثل نهر ، يجري من طرف السماء الى طرفها الآخر · وتلألأت نجمة خضراء ، فوقنا كأنها زمردة · وتنهدت ، قلقاً ·

والتفت زوربا نحوي :

ـ أتؤمن بذلك ، أيها الرئيس ، اتؤمن بأن الله قد أصبح انساناً وولد في اصطبل ؟ أتؤمن بذلك ام انك تسخر من الناس ؟

فقلت :

ـ من الصعب اجابتك ، يا زوربا · لا استطيع ان اقول لك انني اؤمن بذلك ولا انني لا اؤمن · وانت ؟

ـ بالحق ، انني ، أنا أيضاً ، لست ادري · عندما كنت غلاماً ، لم اكن اؤمن مطلقاً بقصص الجنيات التي ترويها جدتي ، ومع ذلك ، كنت ارتعد من الانفعال ، واضحك ، وابكي ، وكأنني اؤمن بها · وعندما نبتت لي لحية في ذقني ، اهملت كل تلك القصص ، بل سخرت منها أيضاً · لكن ، ها انا الآن ،

أيها الرئيس ، في أيامي الأخيرة ، ألين وأؤمن بها من جديد ··· يا للانسان من آلة غريبة !

وسرنا في الطريق المؤدي الى منزل السيدة هورتانس ، وحثثنا الخطا ، كأننا حصانان جائعان استنشقا رائحة الاصطبل · وقال زوربا :

ـ انهم في غاية الخبث ، آباء الكنيسة أولئك ! انهم يأخذونك من بطنك ، فكيف تستطيع ان تفلت منهم ؟ انهم يقولون ان عليك الا تأكل لحماً ، ولا تشرب خمراً ، خلال أربعين يوماً : انه الصوم · لماذا ؟ كي تشتهي اللحم والخمر · آه ! يا لهم من خنازير سمينة ، تعرف كل الحيل !

وحثّ خطاه وقال :

ـ اسرع ، ايها الرئيس ، فلا بد ان الدجاجة الهندية قد نضجت !

عندما دخلنا الى غرفة سيدتنا الطيبة الصغيرة ، بسريرها الكبير المغري ، كانت المائدة مغطاة بسماط أبيض ، والدخان يتصاعد من الدجاجة ، وقد امتدت اطرافها الى الاعلى متباعدة ، ومن الموقد المشتعل تأتي حرارة بالغة العذوبة ·

كانت السيدة هورتانس قد عقدت شعرها خصلا وارتدت روب ديشامبر طويلا له وردة قديمة وكمان عريضان وتخاريم منسلة · وكان يحيط بعنقها المجعدة ، في ذلك المساء ، شريط عرضه أصبعان ، لونه أصفر كناري ، وقد ضمّخت ابطيها بماء زهر البرتقال ·

وقلت في نفسي : « ما اشد انسجام كل شيء فوق هذه الأرض ! ما اشد انسجام الأرض مع القلب البشري ! هي ذي هذه المغنية العجوز تسقط الآن ، بعد ان طافت في كل مكان ، فوق هذا الساحل المنعزل ، فتجمع في هذه الغرفة الحقيرة كل اعتناء المرأة المقدّس وحرارتها » ·

الطعام الغزير المعتنى به ، والموقد المشتعل ، والجسد المزين ، المتبرج ، وعطر ازهار البرتقال ··· كيف تتبدل كل هذه المتع الجسدية البالغة الانسانية ، وبأية بساطة وسرعة ، الى فرحة للروح عارمة ·

وفجأة ، امتلأت عيناي بالدموع · وشعرت بأنني لم أكن ، في هذه الليلة الحافلة ، وحيداً ، هنا ، على ساحل البحر المقفر · كان ثمة مخلوق انثوي يتقدم نحوي ، مليئاً بالاخلاص ، وبالحنان والصبر : انها الام ، الاخت ، المرأة · وأحسست فجأة ، أنا الذي كان يظن انه لا يحتاج الى شيء ، انني محتاج الى كل شيء ·

ولا بد ان زوربا ، بدوره ، قد احس بهذا الانفعال العذب ، لأننا ما كدنا

ندخل ، حتى اندفع واخذ بين ذراعيه المغنية المتبرجة • وهتف :
ـ لقد ولد المسيح ! السلام لك ، ايتها المرأة !
والتفت نحوي ضاحكاً :
ـ انظر قليلا الى المخلوق المحتال الذي هو المرأة ! لقد تمكنت من اغراء الله بالذات !
وجلسنا الى المائدة ، وارتمينا على الصحاف ، وشربنا من الخمر ، واحس جسدنا بأنه قد شبع ، وارتعدت روحنا من الغبطة • ومن جديد ، اشتعل زوربا ، وراح يصرخ بي كل لحظة :
ـ كل واشرب ، كل واشرب ، ايها الرئيس ، وامرح • غنِّ ، انت ايضاً ، يا رفيقي ، غنِ كالرعاة : « المجد لله في العلى ! ••• » • لقد ولد المسيح ، وليس هذا بالشأن القليل • اطلق اغنيتك ، كي يسمعك الرب ويتهلل !
لقد عاد اليه حبوره وانطلق :
ـ لقد ولد المسيح ، يا كاتبي ، يا عالِمي الكبير • لا تصدع رأسك : أولد أم لم يولد ؟ لقد ولد ، يا صديقي ، فلا تتحامق ! اذا اخذت عدسة مكبرة لتنظر الى الماء الذي تشربه ــ لقد قال لي ذلك مهندس ــ فسترى ان الماء مليء بالديدان ، الصغيرة جداً ، التي لا ترى بالعين المجردة • سترى الديدان ولن تشرب • لن تشرب وستفطس من العطش • حطم العدسة ، ايها الرئيس ، حطمها حتى تختفي الديدان الصغيرة فوراً فتستطيع ان تشرب وترتوي !
والتفت نحو رفيقتنا المزججة ، وقال وهو يرفع كأسه :
ـ انني سأشرب هذه الكأس ، يا بوبولينا العزيزة جداً ، يا رفيقتي القديمة في المعركة ، في صحتك ! لقد رأيت ، في حياتي ، عدداً لا بأس به من وجوه مقدمات السفن ، انها تسمر في مقدمة المركب ، ممسكة بأثدائها ، وخدودها وشفاهها مطلية بالأحمر الناري • لقد طافت في كل البحار ، ودخلت الى جميع المرافىء ، وعندما يبلى المركب ، تهبط الى الأرض المتينة وتظل مستندة حتى نهاية ايامهابجدار حانة للبحارة يأتي اليها القباطنة ليشربوا •
« يا بوبولينتي ، انك في هذا المساء الذي أراك فيه ، على هذا الشاطىء ، بعد أن أكلت جيداً ، وشربت جيداً ، وتفتحت عيناي ، تبدين لي كوجه مقدمة سفينة كبيرة • وانا مرفئك الأخير ، يا دجاجتي ، انا الحانة التي يأتي اليها القباطنة ليشربوا • تعالي ، واستندي الي ، وهلمي بأشرعتك ! انني أشرب هذه الكأس من الخمر ، يا جنيتي ، في صحتك !
وأخذت السيدة هورتانس تبكي ، منفعلة ، مضطربة ، واستندت الى كتف زوربا • وهمس زوربا في أذني :

ـ سترى كيف ستحصل لي ازعاجات ، بسبب خطابي الجميل · انها لن تتركني هذا المساء ، العاهرة ! لكن ماذا تريد : انني أشفق عليهن ، المسكينات ، نعم ، انني اشفق عليهن !

وصرخ بملء قوته بجنيّته :

ـ لقد ولد المسيح ! في صحتنا !

وأمرّ ذراعه تحت ذراع السيدة الطيبة ، وافرغ الاثنان كأسيهما بجرعة واحدة ، متعانقين ، وهما يتبادلان النظرات بنشوة ·

لم يكن الفجر بعيداً عندما تركت بمفردي الغرفة الصغيرة الدافئة بسريرها الكبير وسرت في درب العودة · لقد احتفلت كل القرية ، وها هي الآن تنام ، والأبواب والنوافذ مغلقة ، تحت نجوم الشتاء الضخمة ·

كان الطقس بارداً ، والبحر يهدر ، ونجمة الزهرة معلقة عند الشرق ، تتراقص ، عنيدة · ومشيت على طول الشاطىء ، ألاعب الامواج : كانت تنقضّ علي لتبللني ، فأفلت منها ، كنت سعيداً اقول لنفسي :

« تلك هي السعادة الحقيقية : الاّ يكون لي اي مطمح ، وان اشتغل كعبد ، وكأن عندي كل المطامح · ان اعيش بعيداً عن البشر ، الاّ احتاج اليهم وأحبهم · ان اكون في عيد الميلاد ، وبعد أن أشرب هنيئاً وآكل مريئاً ، اهرب بنفسي بعيداً عن كل فخ ، وفوقي النجوم ، والأرض عن يساري ، والبحر عن يميني ، وفجأة أتبين ان الحياة قد أتمت في قلبي معجزتها النهائية : انها قد أصبحت قصة من قصص الجنيات » ·

وتمضي الايام · كنت اتظاهر بالقوة والشجاعة ، لكنني كنت احس في اعمق أعماق قلبي بأنني حزين · طيلة اسبوع الاعياد هذا ، صعدت الذكريات ، مالئة صدري بموسيقى بعيدة وبمخلوقات حبيبة · ومرة اخرى بدت لي عدالة الاسطورة القديمة : ان قلب الانسان عبارة عن حفرة مليئة بالدم ، وعلى اطراف هذه الحفرة يرتمي الأموات الاحباء على بطنهم ليلعقوا الدم وتعود الحياة اليهم ، وكلما كانوا عزيزين عليك اكثر ، شربوا من الدم اكثر ·

وفي ليلة رأس السنة ، جاءت عصابة من غلمان القرية ، يحملون مركباً كبيراً من الورق ، حتى كوخنا ، وبدأوا ، بأصواتهم الحادة والمرحة ، ينشدون أغنية « الكالاندا (١) » : لقد وصل القديس باسيل من مسقط رأسه ، من مدينة قيصرية ، ووقف هنا ، امام هذا الشاطىء الكريتي الصغير بلونه الازرق النيلي ، ثم اتكأ على عكازه ، وسرعان ما امتلأ العكاز بالأوراق، والازهار، وتعالت

---

١ ـ اغنية شعبية يونانية عن رأس السنة · (م·ه)

انشودة رأس السنة : « ليمتليء مسكنك ، ايها المعلم ، بالقمح ، بزيت الزيتون والخمر ، ولتدعم امرأتك ، كعمود من رخام ، سقف بيتك ، ولتتزوج ابنتك وتلد تسعة صبيان وفتاة ، وليحرّر ابناؤك القسطنطينية ، مدينة ملوكنا ! سنة طيبة ، ايها المسيحيون ! » ٠

كان زوربا يصغي ، مفتوناً ، ثم أمسك بطبل الاطفال الصغير ، وراح يقرعه مسعوراً ٠

كنت انظر ، واصغي ، دون ان اقول شيئاً ٠ واحسست بقلبي تنفصل عنه ورقة اخرى ، سنة أخرى ٠ وتقدّمت خطوة اخرى نحو الحفرة السوداء ٠

وسأل زوربا الذي كان يغني بأعلى صوته مع الصبيان ، ويضرب على الطبل :

ـ ماذا بك ، ايها الرئيس ؟ ماذا بك ، ايها الرفيق ؟ ان لونك بلون الارض ،، لقد شخت ، ايها الرئيس ٠ انني ، في مثل هذه الايام ، اعود من جديد صبياً صغيراً ، انني اولد ثانية ، كالمسيح ٠ الا يولد ، هو ، في كل السنين ؟ وانا كذلك ٠

وتمدّدت على سريري واغلقت عيني ٠ لقد كان قلبي مستوحشاً هذا المساء ، لا أريد التكلم ٠

ولم استطع النوم ٠ ومرّت كل حياتي امام عيني من جديد ، سريعة ، غير منسجمة ، مترددة ، كحلم ورحت انظر اليها يائساً ، وكأن عليّ ان أؤدي الحساب ، هذا المساء ، عن كل اعمالي ٠ ومثل غيمة زغباء ، تسفعها رياح الاعالي ، راحت حياتي يتبدل شكلها ، تنحل ، وتتركب من جديد ٠ كانت تمسخ ـ بجعاً ، كلباً ، شيطاناً ، عقرباً ، قرداً ـ وراحت الغيمة تتمزّق ، وتتفرّق بلا انقطاع ، مليئة بقوس قزح بالريح ٠

وطلع النهار ٠ لم افتح عيني ، بل حاولت ان اركز رغبتي الآسرة ، في تحطيم قشرة المخ والدخول الى القناة المظلمة الخطرة حيث تختلط كل نقطة بشرية بالمحيط الكبير ٠ كنت اود لو يتمزق هذا الحجاب بسرعة لأرى ما تحمله لي السنة الجديدة ٠٠٠

ـ صباح الخير ، ايها الرئيس ، سنة طيبة !

وألقاني صوت زوربا بوحشية فوق الارض المتينة من جديد ٠ وفتحت عيني ، ولمحت زوربا وهو يلقي على عتبة الكوخ برمانة كبيرة ٠ وتطايرت الياقوتات الطازجة حتى سريري ، فجمعت بعضها ، وأكلتها ، وترطّب حلقي ٠ وصرخ زوربا بمرح :

ـ انني اتمنى لنا ان نربح كثيراً وان تخطفنا فتيات جميلات !

ونهض ، وحلق ، وارتدى أجمل ثيابه ــ سروالا من الجوخ الاخضر ، وسترة من الصوف الخشن الاسمر ، وصدرة مصنوعة من وبر الماعز نصف منجردة • ووضع ايضاً قبعته الصوفية الروسية ، ورفع شاربه وقال :

ــ سأظهر ، أيها الرئيس ، في الكنيسة ، كممثل للشركة • ليس من مصلحة المنجم ان يقال عنا اننا ماسونيان • لن أخسر شيئاً ، أليس كذلك ! ثم انني سأمضي الوقت •

وحنى رأسه وغمز بعينه متمتماً :

ــ ولعلني سأرى ايضاً الارملة •

ان الله ، ومصالح الشركة ، والارملة الجميلة ، تشكل خليطاً منسجماً في ذهن زوربا • وسمعت خطاه الخفيفة تبتعد ، ووثبت قائماً • لقد زال السحر ، وعادت روحي من جديد الى سجن الجسد •

* * *

ارتديت ملابسي وسرت على شاطيء البحر • كنت أمشي بسرعة ، فرحاً ، كأنني أفلت من خطر او اثم • وبدت لي فجأة رغبتي المكشوفة عند الصباح في التجسس على المستقبل والامساك به قبل ان يولد ، كأنها انتهاك للقدسيات •

انني أذكر صباح يوم اكتشفت فيه شرنقة في قشرة شجرة ، في اللحظة التي كانت فيها الفراشة تحطّم الغلاف وتتهيأ للخروج • وانتظرت فترة طويلة، لكنها تأخرت ، وكنت مستعجلا • وبعصبية ، انحنيت واخذت ادفئها بأنفاسي • كنت ادفئها ، بنفاد صبر ، وبدأت المعجزة تتم أمامي ، بأسرع مما تتم عادة • وانفتح الغلاف ، وخرجت الفراشة تجرّ نفسها جراً ، ولن انسى مطلقاً الشناعة التي شعرت بها عندئذ ، فجناحاها لم يكونا قد تفتّحا بعد ، وراحت تحاول بكل جسدها الصغير المرتعد ان تنشرهما • واخذت اساعدها بأنفاسي ، وانا منحنٍ فوقها • لكن عبثاً • كان لا بد لها من نضج بطيء ، ولا بد للأجنحة من ان تنمو ببطء تحت الشمس ، اما الآن فقد فات الأوان • لقد اجبرت انفاسي الفراشة على الظهور ، مثخنة ، قبل موعدها وارتجفت يائسة ، وبعد عدة ثوانٍ ماتت في راحة يدي •

هذه الجثة الصغيرة هي اشد ما يثقل على ضميري ، على ما اعتقد • لأن اغتصاب القوانين الكبرى ، وانا افهم الآن ذلك جيداً ، خطيئة مميتة • يجب الاّ نستعجل ، الاّ نفقد الصبر ، وان نتبع بثقة النسق الابدي •

وجلست على صخرة لأتمثل بهدوء فكرة رأس السنة هذه • آه ! لو تستطيع هذه الفراشة الصغيرة ان تطير أمامي من جديد وتهديني الى الطريق !

- ١١ -

استيقظت فرحاً وكأنني امسك بهدايا العيد • وكانت الريـح بـاردة ، والسماء صافية والبحر يلمع •

وسرت في درب القرية • لا بد ان القداس قد انتهى • وبينما أنا اتقدم ، تساءلت في نفسي بقلق لا مبرر لـه عمن سيكون الشخص الأول ـ أيجلب الحظ ؟ ام الشؤم ؟ ـ الذي سأراه في بداية هذه السنة • وقلت في نفسي : لو يكون طفلا صغيراً ، يحمل لعب رأس السنة بين ذراعيه ، أو شيخاً صلبـاً يرتدي قميصاً أبيض عريض الكمين ، مطرزهما ، مغتبطاً وفخوراً لأنـه ادى واجبه على الأرض بشجاعة ! وكلما تقدمت واقتربت من القرية ، كان هـذا القلق الذي لا مبرر له يزداد •

وفجأة تخاذلت ركبتاي ، فعلى طريق القرية ، تحت اشجار الزيتون ، ظهرت الارملة ، وهي تسير بخطا متوازنة ، عاقدة منديلها الاسود على رأسها ، وقد احمر جلدها ، رشيقة مندفعة •

كانت مشيتها المتهادية تشبه عن حق مشية نمرة سوداء ، وخيّل الي ان رائحة مسك حادة تعبق في الجو • لو استطيع الهرب ! قلت ذلك في نفسي • وشعرت ان هذا الحيوان الحانق لا يرحم وان النصر الوحيد الممكن تجاهه هو الهرب • لكن كيف اهرب ؟ كانت الارملة تقترب • وخيّل اليّ ان الحصباء تصرّ وكأن جيشاً يمر فوقها • ولمحتني ، وهزّت برأسها ، وانزلق منديلها ، وظهر شعرها ، لامعاً ، بلون الفحم • ورمقتني بنظرة ذابلة وابتسمت • كـان في عينيها عذوبة وحشية • وبسرعة كبيرة اصلحت من وضع منديلها ، وكأنها خجلت من أنها تركت سر المرأة العميق يظهر : شعرها •

وددت لو احدثها ، واتمنى لها « سنة طيبة » ، لكن حنجرتي كانت جافة ، جفافها يوم انهار النفق وتعرضت حياتي للخطر ، واضطرب القصب الـذي

يتشكل منه سياج حديقتها • وسقطت شمس الشتاء على الليمـــون الذهبي والبرتقال ذي الاوراق الكامدة اللون • وتلألأت الحديقة كلها كأنها فردوس •

توقفت الأرملة ، ومدّت ذراعها ، ودفعت الباب بعنف وفتحتــه • وفي تلك اللحظة مررت امامها • والتفتت ، وتركت نظرتهــا تنساب علي ، وهي تلاعب حاجبيها •

وتركت الباب مفتوحاً ، ورأيتها تختفي ، وهي تتمايــل على الجنبين ، وراء اشجار البرتقال •

عليّ ان اعبر العتبة ، واغلق الباب بالمزلاج ، واركض وراءها وآخذهــا من خصرها ، ودون ان أنبس ببنت شفة اجرّها نحو سريرها الكبير ، فهذا ما يدعونه ان تتصرف كرجل ! وهذا ما كان يفعله جدي ، واتمنى لو يفعل حفيدي مثل ذلك • اما انا ، فلبثت واقفاً هنا ، ازن الأمر وافكر •••

وتمتمت وانا ابتسم بمرارة : « في حياة أخرى، في حياة أخرى سأتصرف على نحو افضل ! » •

وابتعدت في الوادي المشجّر ، وأنا احس بثقــل على قلبي ، وكأنني ارتكبت خطيئة مميتة • وتسكعت هنا وهناك ، وكان الطقس بــارداً ، وانا ارتجف • وحاولت ان اطرد من فكري اهتزاز الارملة ، وابتسامتها وعينيها ، وصدرها ، لكنها كانت تعود بلا انقطاع ، وانقبض صدري •

لم تكن أوراق الاشجار قد نبتت بعد ، لكن البراعم كانت قد انتفخت ، وتفتقت ، مليئة بالنسغ • وكان كل برعم يعد بأنوار ، بأزهار ، بثمار قادمة ، لا تزال خبيئة متجمعة ، مستعدة للانطلاق نحو النور • كانت معجزة الربيــع الكبرى تنمو ، تحت القشر اليابس ، دون صوت ، خلسة في قلب الشتاء •

وفجأة اطلقت صرخة فرحة • فأمامي ، في حفرة محمية من الريح ، كانت شجرة لوز جريئة قد ازهرت في قلب الشتاء ، ممهدة الطريــق لكل الاشجار بقدوم الربيع •

وشعرت بهدوء كبير • وتنشّقت عميقاً الرائحة الخفيفــة اللاذعـــة ، وتنكبت عن الطريق واستلقيت تحت الاغصان المزهرة •

لبثت هناك ملياً ، دون أن أفكر بشيء ، دون أي شاغل ، مغتبطاً • كنت جالساً في الابدية ، تحت شجرة من أشجار الفردوس •

وفجأة ، القاني ارضاً صوت غليظ وحشي :

ـ ماذا تفعل في هذه الحفرة ، ايها الرئيس ؟ منذ زمن وانا ابحث عنك •

لقد قاربت الساعة الظهر ، هيا !

ـ الى اين ؟

ـ الى اين ؟ وتسألني ؟ الى منزل ام الخنزير الوليد • ألست جائعاً ؟ لقد خرج الخنزير الوليد من الفرن ؟ ان له رائحة ، يا صديقي ••• حتى ان فمك ليمتلىء باللعاب • هيا !

ونهضت ، وداعبت جذع شجرة اللـــوز القاسي ، المليء بالسر الـــذي استطاع ان ينتج هذه المعجزة المزهرة • وسار زوربا في المقدمـــة ، رشيقاً ، مندفعاً ، متلمظاً • ان حاجات الانسان الاساسية ـ الطعام ، والشراب ، والمرأة ، والرقص ـ لا تزال غير مستهلكة ، غضة ، في جسده الظمىء والقوي •

كان يمسك بيده شيئاً معلقاً بورق وردي ، مربوطاً بخيط ذهبي • وسألته مبتسماً :

ـ أهدية ؟

فأخذ زوربا يضحك ، محاولا اخفاء انفعاله ، وقال دون ان يلتفت :

ـ نعم • لتتدلل قليلا ، المسكينة ! انها ستتذكرهـــا بالأيـــام الماضية الجميلة ••• انها امرأة ، فهي اذن ، وقد سبق وقلت ذلك ، مخلـــوق يشتكي دومـــاً •

ـ أهي صور ؟

ـ سترى ••• سترى ، لا تستعجل الأمور • لقد صنعتهـــا بنفسي • لنسرع •

كانت شمس الظهيرة تدفىء العظام ، والبحر يتدفأ بالشمس ، سعيداً • وبعيداً ، كانت الجزيرة الصغيرة الجرداء ، المحاطة بضباب خفيف ، تبـــدو وكأنها ارتفعت خارج البحر وعامت •

واقتربنا من القرية • وجاء زوربا من خلفي ، وقال خافضاً صوته :

ـ أتعرف ، ايهـــا الرئيس ، ان الشخص الذي تحدثنـــا عنـــه كان في الكنيسة • كنت اقف في المقدمة ، قرب المرتّل ، عندما رأيت فجأة الايقونات المقدسة تتلألأ • المسيح ، والعذراء القديسة ، والاثنا عشر رسولا ، كلها تتألق• وقلت في نفسي وانـــا ارسم اشـــارة الصليب : « مـــا هذا ؟ الشمس ؟ » • والتفت ، فاذا هي الارملة •

فقلت وانا احث الخطا :

ـ لقد تحدثت كثيراً ، يا زوربا ، هذا يكفي !

لكن زوربا ركض ورائي :

ـ رأيتها عن قرب ، ايها الرئيس ، ان لها خالا على خدها ! انها لتأخذ بلبك ! انه لسر آخر ، الخال الذي على خدود النساء !

وجحظ عينيه ، مذهولا ٠

ـ ايه ، أرأيت ذلك ، ايها الرئيس ؟ يكون الجلد أملس ، وفجأة تجد عليه لطخة سوداء ٠ حسناً ، هذا يكفي ليأخذ بلبك ! أتفهم شيئاً من هذا ، ايها الرئيس ؟ ما الذي تقوله كتبك ؟

ـ الى الشيطان ، بكتبي !

واخذ زوربا يضحك ، مسروراً ٠ وقال :

ـ هكذا اذن ، لقد بدأت تفهم ٠

ومررنا بسرعة امام المقهى ، دون ان نتوقف ٠

كانت سيدتنا الطيبة قد طبخت في الفن خنزيراً وليداً ، ووقفت تنتظرنا على العتبة ٠

لقد احاطت عنقها من جديد بنفس الشريط الاصفر البسيط ، وطلت وجنتيها بمسحوق كثيف ، ودهنت شفتيها بطبقة قرمزية سميكة ، وكانت تبدو والهة ٠ وما ان رأتنا ، حتى أخذ جسدها يتحرك ، مغتبطاً ، وتراقصت عيناها بلذة وتشبثتا بشاربي زوربا المفتولين ٠

وما ان أغلق زوربا باب الباحة ، حتى اخذها من خصرها ، وقال لها :

ـ سنة طيبة يا بوبولينتي ، أنظري ما أحمله اليك !

وقبّلها من رقبتها السمينة المتجعدة ٠

وتملكت الجنية العجوز رعدة مدغدغة ، لكنها لم تضل طريقها ٠ كان نظرها متجهاً الى الهدية ، فتناولتها ، وفكّت الخيط الذهبي ، ونظرت ، واطلقت صرخة ٠

وانحنيت لأرى : كان زوربا الخبيث قد رسم على قطعة كبيرة من الورق المقوى بأربعة ألوان ـ الاصهب ، والكستنائي ، والرمادي ، والاسود ـ أربع مدمرات كبيرة مزينة في بحر نيلي اللون ٠ وأمام المدمرات ، تسبح ، ممددة على الامواج ، بيضاء ، عارية ، محلولة الشعر ، ناهدة الصدر ، لها ذيل سمكة لولبي الشكل ، وشريط أصفر صغير حول عنقها ، جنية ، هي السيدة هورتانس ٠ وكانت تمسك بأربعة خيطان وتسحب المدمرات الاربع الرافعة للأعلام الانجليزية ، والروسية ، والفرنسية ، والايطالية ، وعند كل زاوية من اللوحة ، تتدلى لحية ، واحدة شقراء ، وواحدة كستنائية ، وواحدة رمادية ، وواحدة سوداء ٠

وفهمت المغنية العجوز فوراً ، وقالت وهي تشير الى الجنية باعتزاز :
ـ أنـا !

وتنهدت • وقالت :

ـ آه ! انا ايضاً كنت دولة كبيرة ، في الماضي •

ونزعت مرآة صغيرة مستديرة كانت فوق سريرها ، قرب قفص الببغاء ، وعلّقت لوحة زوربا • ولا بد ان وجنتيها قد شحبتا ، تحت الطلاء الكثيف •

وكان زوربا ، في تلك الاثناء ، قد دلف الى الحجرة ، فهو جائع • وعاد بطبق الخنزير الوليد ، ووضع امامه زجاجة خمر ، وملأ الكؤوس الثلاث •

وصاح مصفقاً بيديه :

ـ هيا ، الى المائدة ! لنبدأ بما هو رئيسي ، بالمعدة • وبعد ذلك ، يـا طيبتي ، سننزل الى أسفل !

لكن الجو كان مضطرباً بسبب تنهدات جنيتنا العجوز • ان لهـا ، هي الأخرى ، في مطلع كل سنة ، يوم دينونتها الصغيرة الاخير ، فتزن حياتهـا وتجدها مضاعة • ان المدن الكبيرة ، والبشر ، واثـواب الحرير ، وزجاجـات الشمبانيا ، واللحى المعطرة ، تنبعث ، في الايام الحافلة ، في رأس هذه المرأة الذي تساقط شعره ، خارج قلبها وتصرخ •

وتمتمت بلهجة غنجة :

ـ انني لست جائعة مطلقاً • لست جائعة •• مطلقاً •• مطلقاً •

وركعت امام الموقد وحركت الجذى ، وانعكس على وجنتيها الواهنتين ضوء النار الشاحب • وانسابت خصلة فوق جبينهـا ، ومست الشعلة ، وانتشرت في الغرفة رائحة الشعر المحترق الكريهة • وتمتمت من جديد ، وقد رأت اننا لم نهتم بها :

ـ لا اريد ان آكل •••

وشدّ زوربا على قبضته بقوة • وظل لحظة متردداً • انه يستطيـع ان يتركها تتذمر ما شاءت ، بينما نظل نحن نلتهم الخنزير الصغير المحمّر • وهو يستطيع أيضاً ان يركع امامها ، ويأخذها بين ذراعيه ، وبكلمة طيبة ، يعيـد اليها الرضى • وتطلعت اليه ورأيت الموجات المتناقضة في انفعالات وجهـه الدبغي المتتالية •

وفجأة ، جمد وجهه • لقد اتخذ قراراً • فركع ، وقـال بصوت متمزق وهو يمسك بركبتي الجنية :

ـ اذا لم تأكلي ، يا دجاجتي ، فستكون نهاية العالم • كوني اذن رحيمة ،

يا طيبتي ، وكلي فخذ الخنزير الصغيرة هذه ·

ودسّ في فمها الفخذ القضيم التي تسيل منه الزبدة · واخذهـا بين ذراعيه ورفعها ، واجلسها بهدوء على مقعدها ، بيننا نحن الاثنين · وقال :

ـ كلي ، كلي ، يا كنزي ، كي يدخل القديس باسيل الى قريتنا ! والا ، وانت تعرفين ذلك ، فلن يدخل اليها ، ويعود الى وطنـه ، في قيصريـة ، ويستعيد الورق والدواة ، وكعكات الملوك ، والهدايا ، ولعب الاطفال ، بل وهذا الخنزير الصغير ، ثم ، ينطلق ! اذن افتحي ، يا دجاجتي ، فمك الصغير وكلي!

ومدّ اصبعين من اصابعه ودغدغها تحت ابطها · وهدلت الجنية العجوز ، ومسحت عينيها الصغيرتين المحمرتين وراحت تمضغ ببطء الفخذ المحمرة ···

وفي تلك اللحظة ، أخذ قطـان عاشقـان يموءان على السـطح ، فوق رؤوسنا ، يعويان بحقد لا يوصف ، ويعلو صوتاهمـا ، وينخفضان ، مليئين بالتهديد · وفجأة سمعناهما يتدحرجان معاً ويمزقان احدهما الآخر · وقال زوربا وهو يغمز الجنية العجوز بعينه :

ـ مياو ·· مياو ···

فابتسمت وضغطت على يده خفية تحت الطاولـة · وارتخى بلعومهـا وبدأت تأكل ، بمرح ·

وانخفضت الشمس ، ودلفت من النافذة الصغيرة ، وحطّت على قدمي سيدتنا الطيبة · كانت الزجاجة قد فرغت · واقترب زوربا ، وهو يداعـب شاربيه المنتصبين انتصاب شاربي هرّ متوحش ، مـن السيدة هورتانس · واحست هذه ، وهي متقوقعة على نفسها ، مرتجفة ، وقد دخـل رأسها بين كتفيها ، بأنفاسه الحارة التي تفوح منها رائحة الخمر · والتفت زوربا قائلا :

ـ ما هذا السر ايضاً ، ايها الرئيس ؟ كل شيء يسير بالمقلوب ، بالنسبة لي · عندما كنت طفلا ، كان يبدو علي انني عجوز قصير ، اذ كنت ثقيلا ، لا اتكلم كثيراً ، وصوتي غليظاً كصوت رجل عجوز · وكانوا يقولون انني إشبه جدي ! لكنني كنت كلما تقدّمت في العمر ، ازددت طيشاً · وفي العشريـن اخذت ارتكب حماقات ، لكن ليس بكثرة ، حماقات كالتي يرتكبها جميع الناس في تلك السن · وفي الأربعين بدأت أحس انني قد بلغت سن الشباب الحق ، واندفعت عند ذاك في الحماقات الـكبيرة والآن ، في الستين ـ في الخامسة والستين ، ايها الرئيس ، لكن هذا بيننا ـ الآن وقد دخلت في الستين ، اصبح العالم ، اقسم لك ، صغيراً بالنسبة لي ! كيف تفسر هذا ، ايها الرئيس ؟

ورفع كأسه ، والتفت بوقار نحو سيدته ، وقال بصوت مهيب :

ـ صحتك ، يا بوبولينتي · انني لأتمنى ، في هذه السـنة ، ان ينبت لك اسنان ، وحاجبان جميلان رفيعان ، وان يعود اليك جلدك غضاً مثل جلد الدراق ! وعندئذ ، ستلقين في الهواء بهذه الشرائط الصغيرة القذرة ! وانني لأتمنى لك ايضاً ثورة أخرى في كريت ، وان تعود الدول الأربع الكبرى ، يـا بوبولينتي العزيزة ، بأساطيلها ، وان يكون لكل اسطول اميرالـه ، ولكـل اميرال لحيته المجعدة المعطرة · وانت يا جنيتي ، ستنبعثين من الأمـواج مرة أخرى وانت تنشدين أغنيتك العذبة ·

وعلى اثر ذلك ، وضع يده الضخمة فوق ثديي السيدة الطيبة المتدليين الرخوين ·

ومن جديد ، اشتعل زوربا ، وبحّ صوته من الشهوة · واخذت أضحك · لقد رأيت ، ذات مرة ، في السينما ، باشا تركياً يمرح في حانـة باريسية · كان على ركبتيه فتاة عاملة شقراء ، وعندما اشتعلت النار في عروقه ، اخذت طرة طربوشه بالارتفاع على مهل ، حتى استوت أفقيـاً ، ثم اندفعت فجـأة وانتصبت عمودياً في الهواء · وسألني زوربا :

ـ لمَ تضحك ، ايها الرئيس ؟

لكن السيدة الطيبة كانت لا تزال اسيرة كلمات زوربا · فقالت :

ـ آه ! هل هذا ممكن ، يا زوربا ؟ ان الشباب يذهب ··· دون عودة ·

واقترب زوربا أكثر ، وتلامس المقعدان · وقال وهو يحاول ان يفك الزر الثالث ، وهو الزر الحاسم في قميص السيدة هورتانس :

ـ استمعي اليّ ، يا دجاجتي ، استمعي الى الهدية الكبيرة التي سأقدمها لك : يوجد الآن طبيب يصنع المعجزات · انه يعطي دواء ، سائلا او مسحوقاً ، لست ادري ، ويعود الانسان الى العشرين ، او الى الخامسة والعشرين عـلى الاكثر · لا تبكي ، يا طيبتي ، سآتي لك منه من اوروبا ···

وانتفضت جنيتنا العجوز ، ولمع جلد جمجمتهـا الصقيل الاحمـر بين الشعر المتفرق ، والقت بذراعيها الكبيرتين المكتنزتين حـول عنق زوربـا · ودمدمت وهي تحكّ نفسها بجسد زوربا مثل قطة :

ـ اذا كان سائلا ، يا عزيزي ، اذا كان سائلا فستجلب لي منه دمجانة · واذا كان مسحوقاً ···

فقال ، زوربا ، وقد فكّ الزر الثالث :

ـ كيساً كبيراً ·

وعاد القطّان ، اللذان صمتا لحظة ، الى العواء • كان أحـــد الصوتين يتباكى ويتضرع ، والآخر حانقاً ، يهدّد •••

وتثاءبت سيدتنا الطيبة وذبلت عيناهـــا • وهمست وهي تجلس على ركبتي زوربا :

ـ أتسمع هذه الحيوانات القذرة ؟ انها لا تخجل •••

وتمدّدت عليه وتنهدت • لقد شربت اكثر من اللازم قليـــلا ، وكبت عيناها • وقال زوربا وهو يأخذ بثدييها في كفيه :

ـ بمَ تفكرين ، يا قطتي ؟

فتمتمت الجنية المسافرة متباكية :

ـ الاسكندرية ••• الاسكندريــة ••• بيروت ••• القسطنطينة ••• اتراك ، وعرب ، ومشروبات واحذية مذهبة ، وطرابيش حمر •••

وتنهدت من جديد :

ـ عندما كان علي بك يبيت معي ـ ويا لشاربيه ، وحاجبيه ، وذراعيه !ـ كان يستدعي عازفي الطبل والزمـــر ، ويلقي اليهم بالدراهم مـــن النافذة ، فيعزفون في باحتي حتى الفجر • وتموت الجارات حسداً ، ويقلن : « ان علي بك في هذه الليلة ايضاً مع السيدة ••• »

« وبعد ذلك ، في القسطنطينة ، لم يكن سليمان باشا ليتركني أخـرج للتنزه يوم الجمعة • كان يخشى ان يراني السلطان وهو ذاهب الى الجامع ، فيسحره جمالي ، ويأمر بخطفي • وكان عندما يخرج صباحاً من عندي ، يضع ثلاثة عبيد على بابي كي لا يقترب اي ذكر ••• آه ! يا صغيري سليمان ! »•

وأخرجت من تحت قميصها منديلا كبيراً ذا مربعات وعضّت عليه وهي تتنهّد وكأنها سلحفاة ماء •

وتملص زوربا منها بأن اجلسها على المقعد المجاور ، ونهض ، حانقاً • وذرع الغرفة مرتين او ثلاثاً ، وهو يتنهّد ايضاً ، وبدت له الغرفة فجأة ضيقة جداً ، فأمسك بهراوته ، واندفع الى الباحة ، واسند السلم الى الحائـــط ، ورأيته يصعد الدرجات اثنتين اثنتين ، في غضب • فصرخت :

ـ من ستضرب ، يا زوربا ؟ سليمان باشا ؟

فزمجر :

ـ القطان القذران ، انهما لا يريدان ان يدعانا في سلام !

وبقفزة واحدة ، وثب الى السطح •

كانت الآن السيدة هورتانس ، قد اغمضت ، وهي ســكرى ، شعثـاء

الشعر ، عينيها اللتين قبلتنا عشرات المرات · لقد رفعها النوم وحملها الى مدن الشرق الكبيرة ، الى الحدائق المسورة ، ودور الحريم المظلمة ، في منازل الباشوات العشاق · وجعلها تعبر البحر ، ورأت نفسها وهي تصيد · لقد رمت أربعة خيوط وأوقعت بأربع مدمرات ·

وراحت الجنية العجوز ، وقد غسلها ماء البحر وأعاد اليها النضارة ، تبتسم في نومها ، سعيدة ·

ودخل زوربا ، وهو يهزّ هراوته · فقال بعد ان رآها هكذا :

ـ أتنام ؟ أتنام ، العاهرة ؟

فأجبت :

ـ نعم ، لقد خطفها فونوروف الذي يعيد الشباب الى الشيوخ ، يا زوربا باشا ، خطفها النوم · وهي الآن في العشرين ، تتنزه في الاسكندرية ، وبيروت ···

فدمدم زوربا ، باصقاً على الأرض :

ـ لتذهب الى الشيطان ، هذه القذارة العجوز ! انظر اليها كيف تبتسم ! هيا بنا ، ايها الرئيس !

ووضع قبعته وفتح الباب · وقلت :

ـ أنأ كل كالخنازير ، ثم نذهب بعد ذلك ونتركها وحيدة ! هذا لا يجوز !

فصاح زوربا :

ـ انها ليست وحيدة ، انها مع سليمان باشا ، ألا تراها ؟ انها في السماء السابعة ، هذه الانثى القذرة ! هيا ، لنذهب !

وخرجنا الى الهواء البارد · كان القمر يتهادى في السماء الهادئة · وقال زوربا باشمئزاز :

ـ آه ! يا للنساء ! افٍ لهن ! لكنها ليست خطيئتهن ، بل خطيئتنا ، نحن المجانين ، الأغبياء ، وكل الذين على شاكلتنا ، انا وسليمان !

وبعد لحظة ، اضاف حانقاً :

ـ بل انها ليست خطيئتنا ، بل شخص واحد ، خطيئة المجنون الكبير ، الغبي ، سليمان باشا الكبير ··· انت تعرف منا !

فقلت : اذا كان موجوداً ، لكن اذا لم يكن موجوداً ؟

ـ اذن ، فقد هلكنا !

وسرنا مدة طويلة بخطا عريضة ، دون ان نقول شيئاً · لا بد ان زوربا كان يجترّ أفكاراً متوحشة ، لأنه راح يضرب ، في كل لحظة ، الحصى بعصاه

ويبصق . وفجأة ، التفت نحوي وقال :

ـ لقد كان جدي ـ ليرقد في سلام ! ـ خبيراً بالنساء . كـان يحبهن كثيراً ، الشقي ، وقد أرينه من الثمار ما كان أخضر وغير ناضج . وكان يقول لي : « ياصغيري ألكسيس ، سأمنحك ، مع بركتي ، نصيحة : لا تثق بالنساء . عندما اراد الاله الرحيم ان يخلق المرأة من ضلع آدم ، تحـوّل الشيطان الى ثعبان ، وفي اللحظة المناسبة ، وثب وسرق الضلع . وأسرع الاله الرحيم ، لكن الشيطان تملَّص من بين أصابعه ولم يترك له الا قرونه . وقال الاله الرحيم في نفسه : « ان ربة البيت الصالحة ، اذا لم تجد مغزلا غزلت بالملعقة . وكذلك انا ، سأخلق المرأة من قرون الشيطان ! » . وخلقها من أجل شقائنا ، يا صغيري الكسيس ! اذن ، فنحن عندما نلمس امرأة ، في أي موضع كان من جسدهـا ، فاننا انما نمس قرون الشيطان ! احذرهن ، يا بني ! انهـا المرأة ايضاً التي سرقت تفاح الفردوس ، وخبأته في صدرها . وهي الآن تتبختر به متباهية . انها الطاعون ! ولو أكلت من تلك التفاحات ، ايها الشقي ، لهلكت . واذا لم تأكل ، فانك هالك أيضاً . اية نصيحة تريد ان اعطيكها ، يا صغيري ؟ افعل ما يعجبك ! » . هذا ما قاله لي جدي المرحوم ، لكنني لم أزدد عقلا بسبب ذلك . لقدسرت في الدرب نفسه الذي سار فيه ووصلت الى هنا !

واجتزنا القرية بسرعة . كان ضوء القمر مقلقاً . تصوّر انك ، بعد ان سكرت ، خرجت لتستنشق الهواء ، فوجدت العالم قد تبدل فجأة . كانـت الطرق قد أصبحت أنهاراً من اللبن ، والحفر تطفح بالكلس ، والجبال مغطاة بالثلج . وترى يديك ووجهك وعنقك تشع بالفوسفور مثل بطن الحباحب . والقمر ، مثل ميدالية مستديرة ، غريبة ، معلق على صدرك .

كنا نسير بخطأ حذرة ، في صمت . ولم نكن لنحس ، وقـد انتشينا بضوء القمر وانتشينا بالخمر ، بأقدامنا تمسّ الأرض . وكانت الكلاب قـد صعدت ، في القرية النائمة ، وراءنا الى الاسطحة ، وراحت تنبـح بأسى ، وعيونها مثبتة بالقمر . وتملكتنا الرغبة ، بدون سبب ، في ان نمد عنقنا ونبدأ نحن أيضاً بالعواء . . .

ومررنا امام حديقة الأرملة . وتوقف زوربا . لقد أدار الخمر والطعـام الطيب والقمر ، رأسه . ومدّ عنقه ، وبصوته الغليظ الأشبه بصوت حمـار اخذ ينهق بهذين البيتين من الشعر ، اللذين ارتجلهما ، في لحظة النشوة هذه :

كم أحب جسدك الجميل ، من خصرك حتى الأسفل !
انه يتلقى الحنكليس الحي ويفقده الحركة بضربة واحدة !

وصاح :

– وهذه ايضاً قرن من قرون الشيطان ! هيا بنا ، ايها الرئيس !

كان النهار على وشك الطلوع عندما وصلنا الى الكوخ · وألقيت بنفسي على سريري ، منهكاً · واغتسل زوربا ، وأشعل النار في الكانون وأعد القهوة· وجلس على الارض أمام الباب ، وأشعل سيجارة واخذ يدخن بهدوء ، مستقيم الجسد ، ساكناً ، ينظر الى البحر · كان وجهه رصيناً ومركزاً ، يشبه لوحة يابانية أحبها تمثل ناسكاً جالساً وساقاه متصالبتان ، ووجهه يلمع وكأنه منحوت من الخشب بدقة فائقة ، قد سودته الأمطار ، وهو ينظر ، مستقيم العنق ، باسماً ، بدون خوف ، الى البحر المظلم أمامه ···

كنت أنظر الى زوربا على ضوء القمر الشاحب ، واعجب بتلك الكبرياء وبتلك البساطة اللتين يتلاءم بهما مع العالم ، وبجسده وروحه كيف يشكلان كلا واحداً منسجماً ، وبكل الاشياء ، النساء ، والخبز ، والماء ، واللحم ، والنوم ، كيف تتحد بفرح مع جسده وتتحول الى زوربا · انني لم أر في حياتي مثل هذا التفاهم بين الانسان والكون ·

واخذ القمر الآن ، وقد استدار كله ، بلونه الأخضر الشاحب ، يأفل نحو المغيب · وانتشرت عذوبة لا توصف على البحر ·

وألقى زوربا سيجارته ، ومد ذراعيه ، وبحثت أصابعه في سلة ، واخرج خيوطاً ، ومكبات ، وقطعاً صغيرة من الخشب ، واشعل مصباح الزيت ، وأخذ ، مرة أخرى ، يقوم بتجاربه بشأن المصعد · وغرق ، وهو محني على لعبته البدائية ، في الحسابات ، الصعبة ولا شك ، لأنه كان ، في كل لحظة ، يحك رأسه ويشتم ·

وفجأة ، سئم من العملية ، فضرب برجليه وانهار المصعد ·

- ١٢ -

أخذني النعاس · وعندما استقيظت ، كان زوربا قـــد ذهب · الطقس بارد ، وليست لي اية رغبة في النهوض · ومددت ذراعي نحـــو رف صغير فوقي ، وأخذت كتاباً احبه كنت قد حملته معي ، وهو قصائد مالارميه · وقرأت ببطء ، دون تعيين ، واغلقت الكتاب ، وفتحته من جديد ، ثم القيت به · لقـد بدا لي كل هذا ، في ذلك اليوم ، للمرة الأولى ، فقيراً بالدم ، منعدم الرائحة ، والطعم ، والجوهر الانساني · مجرد كلمات زرق فقدت لونها ، فارغة ، معلقة في الهواء · مجرد ماء مقطر صافٍ تماماً ، بدون جراثيم ، لكن أيضاً بدون مواد مغذية · بدون حياة ·

ان هذا الشعر اشبه بالآلهة ، في الاديان الفاقدة لنفحتها الخلاقة ، التي تنتهي الى مجرد دوافع شعرية أو مجرد زينة تصلح لتنميق العزلة الانسانية · ان التطلع الحاد للقلب المليء بالأرض والبذور قد أصبح لعبة ذهنية معصومة عن الخطأ ، هندسية هوائية ، عالمة ومعقدة ·

واعدت فتح الكتاب ورحت اقرأ · لماذا امسكت بي ، طوال تلك السنين العديدة ، هذه الاشعار ؟ الشعر الصافي ! الحياة التي أصبحت لعبة ذكيـة ، شفافة ، ليست مثقلة حتى بنقطة دم واحدة · ان العنصر البشري ثقيل بالرغبة، كدر ، دنس ـ الحب ، والجسد ، والصرخة ـ فكيف يتصعـد اذن الى فكـرة مجردة ، وكيف يفقد ماديته في فرن الفكر العالي ، ويتبدد !

كم تبدو لي كل تلك الاشياء ، التي جذبتني كثيراً في الماضي ، مجـــرد بهلوانيات مشعوذة رفيعة ، في هذا الصباح ! هكذا ينتهي دوماً ، قلق الانسان، عند افول كل حضارة ، الى العاب مشعوذة ، متقنة تماماً : الشعـر الصافي ، والموسيقى الصافية ، والفكر الصافي · ان الانسان الاخير ـ الذي تخلص من كل ايمان ومن كل وهم ، والذي لم يعد ينتظر شيئاً ، ولا يخشى شيئاً ـ يرى

الطين الذي هو مصنوع منه ، قد استحال الى فكر ، وليس للفكر مكان يلقي فيه جذوره ليمتص ويتغذى · لقد تجوف الانسان الأخير ، فلم يعد فيه زرع ، ولا قذر ولا دم · ان كل الاشياء قد اصبحت كلمات ، وكل الكلمات شعوذات موسيقية · ان الانسان الأخير سيذهب أبعد من ذلك : انه سيجلس عند طرف وحدته ويحلل الموسيقى الى معادلات رياضية صامتة ·

وانتفضت · وهتفت : «ان بوذا هو الانسان الاخير · ذلك هــو معناه السري والرهيب · ان بوذا هو الروح « الصافية » التي تجوفت ، ان فيه العدم، وانه العدم · انه يصرخ : افرغوا احشاءكم ، افرغوا روحكم ، افرغوا قلبكم ! وأنّى وضع قدمه ، امتنع الماء عن الانبجاس ، والعشب عن النبت ، والطفل عن الولادة » ·

وقلت في نفسي : « يجب حصاره ، بتعبئة الكلمات الراقية ، والاستنجاد بالايقاع السحري ، ورميه بسحر ، لاخراجه من احشائي ! يجب ان أرميـــه بشبكة الصور ، لأمسك به واتخلص منه ! » ·

ان كتابة « بوذا »قد كفت ، في النهاية ، عن ان تكون لعبة ادبية ، بـل انها الآن نضال حتى الموت ضد قوة تدمير عظمى كامنة فيّ ، صراع مع الـ «لا» الكبرى التي تنهش قلبي ، وبنتيجة هذا الصراع يتعلق سلام روحي ·

واخذت المخطوط ، بفرح ، وعزم · لقد وجدت المرمى ، وانا اعرف الآن أين أوجه ضرباتي ! ان بوذا هو الانسان الأخير · اما نحن ، فلسنا بعد الا في البداية ، اننا لم نأكل ، ولم نشرب ، ولم نحب بما فيه الكفاية ، اننا لم نحي بعد · لقد جاءنا قبل الاوان بكثير ، هذا العجوز النحيف اللاهث · فليرحـل بأسرع ما يمكن !

وأخذت اكتب بغبطة · كلا ، لم اكن اكتب · انها لم تكن كتابة ، بـــل حرباً حقيقية ، مطاردة عديمة الشفقة ، حصاراً وفخاً ، لاخراج الحيوان مــن حجره · ان الفن ليس في الحقيقة إلا استخداماً سحرياً للكلمــات · ان فـــي احشائنا قوى مظلمة سفاكة ، دوافع مشؤومة الى القتل ، والهدم ، والـكره ، وتلويث الشرف · وعندئذ يظهر الفن ، بشبابته العذبة ، ليخلصنا ·

وكتبت ، بحثت ، وناضلت طوال اليوم · وعند المســاء كنت منهكـاً ، لكنني شعرت انني تقدمت ، وانني سيطرت على عدة مواقع امامية للعـــدو · انني اتعجل الآن رؤية زوربا لآكل ، وانام ، واتزود بقوى جديدة ، واعود الى المعركة منذ الفجر ·

كان الليل قد أرخى سدوله عندما عاد زوربا · كان وجهه يتألق · وقلت

في نفسي : « لقد وجد ، هو أيضاً ، لقد وجد ! » وانتظرت ٠

قبل بضعة ايام ، قلت له في غضب ، وقد بدأت تتضح لي الأمور :

ـ ان المال يتضاءل ، يا زوربا ٠ افعل ما يجب فعله بسرعة ! لنبدأ بتنفيذ المصعد ، واذا لم ينجح الفحم ، فلنتشبث بالخشب ٠ والا فاننا لهالكون ٠

وحك زوربا رأسه وسأل :

ـ المال يتناقص ، أيها الرئيس ؟ هذا سيء !

ـ لقد انتهى الامر ، فقد انفقنا كل شيء ، يا زوربا ٠ تدبَّر أمرك ! كيف حال تجارب المصعد ؟ لا شيء بعد ؟

وحنى زوربا رأسه دون ان يجيب ٠ لقد احس بالعار في ذلك المساء ٠ فدمدم : « سأحصل عليك ، أيها المصعد اللعين ! » ٠ وفي هذا المساء ، عاد يتألق ٠ وصرخ من بعيد :

ـ لقد وجدت ، أيها الرئيس ! لقد وجدت الميل المطلوب ٠ كان ينساب من يدي ، لا يريد ان يقع في الكمين ، ذلك القذر ، لكنني قبضت عليه !

ـ اذن ، اسرع بوضع النار في البارود ، يا زوربا ! ماذا تحتاج ؟

ـ غداً ، يجب ان اذهب باكراً جداً الى المدينة لأشتري المواد اللازمة : حبالا غليظة من الفولاذ ، وبكرات ، وآلات ، ومسامير ، وكلابات ٠٠٠ وسأعود قبل ان تراني اذهب !

واشعل النار بسرعة ، وأعدّ العشاء ، وأكلنا وشربنا مقبلات ممتازة ٠ لقد اشتغل كلانا جيداً ، في هذا المساء ٠

في صباح اليوم التالي ، رافقت زوربا حتى القرية ٠ واصطدم زوربا ، ونحن نهبط منحدراً ، بحجر راح يتدحرج ٠ وتوقف ، وقد تملكه الذهول ، وكأنه يرى للمرة الأولى في حياته مثل هذا المشهد المدهش ٠ والتفت نحوي ، ونظر الي ، ولمحت في نظرته خوفاً بسيطاً ٠ وأخيراً قال لي :

ـ هل لاحظت ذلك ، أيها الرئيس ؟ ان الحجارة تصبح حية في المنحدرات٠

لم اقل شيئاً ، لكن فرحي كان كبيراً ، وقلت في نفسي : « هكذا كان كبار المتنبئين ، وكبار الشعراء يرون كل شيء للمرة الأولى كل صباح ، يرون امامهم عالماً جديداً يخلقونه بأنفسهم » ٠

لقد كان الكون بالنسبة لزوربا ، كما كان بالنسبة لأوائل البشر ، رؤية ثقيلة وكثيفة : فالنجوم تنساب عليه ، والبحر يتكسر على صدغيه ، وهو يعيش ، دون تدخل العقل المشوه ، الارض ، والماء ، والحيوانات ، والله ٠

كان النبأ قد بلغ السيدة هورتانس ، فانتظرتنا على عتبة بابها ،

مصبوغة ، مدهونة بالمساحيق ، قلقة • لقد تزينت كأنها ذاهبة الى حفلة شعبية مساء السبت • وكانت البغلة امام الباب ، فقفز زوربا على ظهرها وأمسك بالعنان •

واقتربت جنيتنا العجوز بخجل وأسندت يدها الصغيرة السمينة الى لبانه ، كأنها تريد منع حبيبها من الذهاب • وقالت هي تنتصب على أطراف أصابعها :

ـ زوربا ••• زوربا •••

فأدار زوربا رأسه الى الجهة الأخرى ، اذ كان لا يستمرىء الهذر الغزلي في وسط الشارع • ورأت السيدة المسكينة نظرة زوربا وارتعدت • لكن يدها ظلت مستندة ، مليئة بصلاة حارة ، الى لبان البغلة • فقال زوربا منزعجاً :

ـ ماذا تريدين ؟

فتمتمت ضارعة :

ـ زوربا ، كن حكيماً ••• لا تنسني ، يا زوربا ، كن حكيماً •••

وهز زوربا العنان ، دون ان يجيب • وبدأت البغلة تسير • وصحت :

ـ رحلة موفقة ، يا زوربا ! ثلاثة أيام ، أتسمع ؟ ليس أكثر !

والتفت ، وحرك يده الضخمة • كانت الجنية العجوز تبكي ودموعها تحفر أخاديد في المساحيق • وصرخ زوربا :

ـ لك كلمتي ، أيها الرئيس ، هذا يكفي ! الى اللقاء !

واختفى تحت أشجار الزيتون • كانت السيدة هورتانس تبكي وتنظر الى الغطاء الأحمر الفاتح الذي وضعته المسكينة ليجلس حبيبها عليه مستريحاً ، وهو يتألق وينطفىء من بعيد الى بعيد ، عبر الاوراق اللجينية • وبعد فترة ، اختفى الغطاء بدوره • ونظرت السيدة هورتانس حولها : لقد تجوّف العالم •

***

لم أعد نحو الشاطىء ، بل اتجهت نحو الجبل • وفي اللحظة التي بلغت فيها الدرب الصاعد ، سمعت بوقاً • ان ساعي البريد الريفي يعلن عن مقدمه الى القرية • وصاح وهو يحرك يده •

ـ أيها الرئيس !

واقترب وأعطاني رزمة من الصحف ، ومجلات ادبية ورسالتين • وسرعان ما أخفيت احداهما في جيبي لأقرأها مساء في الساعة التي ينتهي فيها النهار ويهدأ الفكر • كنت أعلم من كتب اليّ ، وأريد ان أؤجل فرحتي ، كي تدوم اكثر •

أما الرسالة الأخرى ، فقد عرفتها من خطها الخشن القاطع وطوابعها

الغريبة • انها قادمة من افريقيا ، من جبل مقفر قرب تانغانيكا ، أرسلهـا لي احد رفاقي القدامى في الدراسة : كارايانيس • انه لشـاب غريب ، عنيف ، أسمر ، له أسنان ساطعة البياض • واحدى أنيابه تبرز مثل ناب خنزير بري لم يكن ليتحدث مطلقاً ، بل يصرخ • ولم يكن ليناقش ، بل يخـاصم • ترك وطنه ، كريت ، حيث كان يدرس اللاهوت الكهنوتي ، وهو لا يزال شاباً بعد • كان يغازل احدى تلميذاته ، ففاجأوهما ذات يوم في الحقل متعانقين ، وراحـوا يصرخون بهما هازئين • وفي اليوم نفسه ، رمى المعلم الشاب ثوب رهبانيته ، واستقل المركب • وجاء الى افريقيا ، وأقام عند احد أعمامه ، وانهمك فـي العمل كلياً ، وفتح مصنعاً لحبال المراكب وربح مالا كثيراً • ومـن حيـن الى حين ، كان يكتب اليّ ويدعوني للاقامة عنده ستة أشهر ، وكنت أحس وانـا افتح كل رسالة من رسائله ، حتى قبل ان أقرأها ، بصفحـات غزيرة دوما مدروزة بالخيطان تنشر قلوعها ، وبريح هوجاء تطير شعري • وكنت أعـزم دوماً على الذهاب الى افريقيا ، ولا أذهب •

وابتعدت عن الدرب ، وجلست على صخرة ، وفتحت الرسالة وبـدأت اقـرأ :

« متى اذن ستعزم ، أيها المحار الملتصق بالصخرة اليونانـية ، عـلى القدوم ! أنت ايضاً ، أصبحت ، كجميع اليونانيين ، من رواد الحانات • انك تتمرغ في المقاهي كما في كتبك ، وعاداتك ، وعقائدك المشهورة • اليوم احد ، وليس عندي ثمة نقطة مطر • هنا ، عندما يهطل المطر ، في نيسان ، وايـار ، وحزيران ، فانهيكون طوفاناً حقيقياً •

« انني وحيد واحب ذلك • ثمة عدد لا بأس به هنـا من اليونانيين ، لكنني لا أود رؤيتهم • انهم يثيرون اشمئزازي ، لأنكم أيها المواطنون الاعزاء ــ ليأخذكم الشيطان ــ قد أرسلتم لنا ، حتى الى هنـا ، جذامكم ، أهواءكـم السياسية • ان السياسة هي التي تضيع اليونان • ويوجد أيضاً ورق اللعب ، ثم النقص في التعليم ، والجنس •

« انني أكره الاوروبيين ، فلهذا أتسكع هنا ، في جبال فاسامبا • انني أكره الاوروبيين ، لكنني اكره اليونانيين وكل ما هو يوناني ، اكثر مـن أي شيء آخر • انني لن أضع قدمي ثانية مطلقاً في يونانكم • سأموت هاهنا ، وقد أعددت ضريحي منذ الآن ، أمام كوخي ، على الجبل المقفر • بل لقد وضعـت أيضاً الشاهدة وحفرت عليها بنفسي بأحرف كبيرة :

هنا يرقد يوناني يكره اليونانيين • .

« انني لأنفجر ضاحكاً ، وابصق ، واشتم ، وابكي ، عندما أفكر باليونان •

لقد هجرت وطني كي لا أرى اليونانيين وكل ما هو يوناني · لقــد جئت الى هنا ، وأتيت بقدري ــ ليس قدري هو الذي اتى بي ، فالانسان يفعل ما يشاء · اتيت بقدري الى هنا ، واشتغلت ، وانني لأشتغل مثل عبد · لقد صببت ، ولا أزال اصب ، سيولا من العرق · انني أحارب الارض ، والريـــح ، والمطـــر ، والعمال السود والحمر ·

« ليس لي أي فرح · بلى ، عندي فرح واحد : العمل · أعمل بجسدي وفكري ، لكن بجسدي على الاخص · انني أحب ان اتعب ، وان ينضـــح مني العرق ، وان اسمع عظامي تطقطق · انني أرمي بنصف مالي ، وأبذره ، حيثما وكيفما بدا لي · انني لست عبداً للمال ، بل المال عبدي · انني عبد للعمل ، وانني لافخر بذلك · انني أقطع أشجاراً ، وعندي عقد مع الانجليز · انني أصنع الحبال ، والآن أزرع ايضاً القطن · البارحة مســـاء ، اشتبكت قبليتان مـــن عمالي السود ــ الغاياي والغانغيوني ــ بالايدي من أجل امرأة : من أجل بغي · الكبرياء ، أترى · كل شيء هنا كما هو عندكم ، أيها اليونانيون · شـــتائم ، ونزاع ، وضرب بالهراوات ، ودم يسيل · وأسرعت النساء في حلكة الليـــل وأيقظنني وهن يصرخن لأذهب وأحكم بينهم · وغضبت ، وأرسلت بهم جميعاً الى الشيطان ، ثم الى البوليس الانجليزي · لكنهم ظلوا طوال الليل أمام بابي ينبحون · وعند الفجر ، خرجت ، وحكمت بينهم ·

« غداً ، الاثنين في الصباح الباكر ، سأتسلق جبال فاسامبا حيث الغابات الملتفة ، والمياه الباردة ، والخضرة الابدية · حسناً ، ايها اليوناني ، متى ستهجر بابل الحديثة هذه ، تلك « البغي الجالسة فوق المياه الكبيرة ، التي زنى معها كل ملوك الارض » : اوروبا ؟ متى ستأتي لنتسلق معاً هذه الجبـــال المقفـــرة الصافية ؟

« عندي طفل من زنجية : انه بنت · لقد طردت امها ، فقد كانت تخونني علانية ، في هجيرة الظهر ، تحت كل شجرة خضراء · عندئذ سئمت منها وألقيت بها على الباب · لكنني احتفظت بالصغيرة ، ولها الآن سنتان في العمر · انهـــا تمشي ، وقد بدأت تتكلم ، وانني أعلمها اليونانية ، وأول جملة علمتها اياهـــا هي : « انني ابصق عليك ، اينتها اليونان القذرة ! ·

« انها تشبهني ، الخبيثة · وليس لها من امها سوى انفهـــا العريض ، المسطح · أحبها ، لكن كما يحب الانسان كلبه او هره · تعالَ ، انت ايضاً · ستنجب صبياً من احدى نساء فاسامبا ، ثم ، نزوجهما ذات يوم » ·

تركت الرسالة مفتوحة على ركبتي · ومن جديد انفجرت في نفسي الرغبة الحارة في الذهاب · ليس لحاجتي الى الذهاب ، فالأمور على ما يرام فوق هذا

الساحل الكريتي ، وانني مرتاح ، سعيد ، حر • لا شيء ينقصني • لكن ثمة رغبة حارة قد تأكلتني دوماً : ان أرى وألمس ، اكثر ما يمكن ، الأرض والبحر قبل ان أموت •

ونهضت ، وبدلت رأيي • وبدلا من ان اتسلق الجبل ، نزلت بخطى سريعة نحو الشاطىء • كنت احس في جيب سترتي الاعلى بالرسالة الثانية ، ولم أعد أطيق صبراً • وقلت في نفسي : « لقد دام طويلا هذا التمهيد للفرح ، العذب جداً والمقلق جداً » •

ووصلت الى الكوخ ، وأشعلت النار ، واعددت الشاي ، وأكلت خبزاً مع الزبدة والعسل وبرتقالات وخلعت ثيابي ، وتمددت على سريري وفتحت الرسالة :

« السلام ، يا معلمي وتلميذي الجديد ! »

« لقد قمت بعمل ضخم وصعب ، ليتبارك « الله » – انني اضع الكلمة الخطرة بين هلالين مزدوجين (مثل حيوان مفترس بين القضبان) ، كي لا يتملكك النزق بعد ان تفتح الرسالة • لقد قمت بعمل صعب ، ليتبارك «الله» ! ان نصف مليون من اليونانيين يواجهون الخطر في روسيا الجنوبية والقوقاز • كثيرون منهم لا يتكلمون الا التركية او الروسية ، لكن قلبهم يتكلم اليونانية بتعصب • انهم من دمنا • يكفي ان تراهم : الطريقة التي تلمع بها اعينهم الناقبة والشرهة ، الطريقة التي تبتسم بها شفاههم بخبث وتلذذ ، والطريقة التي نجحوا بها في ان يصبحوا سادة هنا ، على هذه الأرض الروسية الشاسعة ، وفي ان يستخدموا فلاحين روسيين ، يكفي ان ترى ذلك حتى تفهم انهم احفاد حقيقيون لمحبوبك « أوليس » • وعندئذ ستحبهم ولا تتركهم يهلكون •

« لأنهم يواجهون خطر الهلاك • لقد فقدوا كل ما لديهم ، فهم جائعون ، عراة • وهم مطاردون من قبل البلاشفة من جهة ، ومن قبل الأكراد من جهة ثانية • من كل مكان ، جاء اللاجئون ليتكوموا في بضع مدن من جورجيا وأرمينيا • وليس عندهم طعام ، ولا ثياب ، ولا أدوية • انهم يتجمعون في الموانىء ، ويتفحصون الأفق بقلق ليتبينوا ما اذا كانت المراكب اليونانية قد جاءت لاعادتهم نحو امهم ، اليونان • أن جزءاً من عرقنا ، جزءاً من روحنا ، يعيش طريد الذعر •

« اذا تركناهم لمصيرهم ، فانهم هالكون • لا بد من كثير من الحب والتفهم ، والحماسة والروح العملية – وهما الصفتان اللتان تحب ان تراهما مجتمعتين – كي نتمكن من انقاذهم ونقلهم الى ترابنا الحر ، هناك حيث سيقدمون اعظم الفائدة لعرقنا – هناك عالياً عند حدود ماسيدونيا ، وابعد من

ذلك ، عند حدود تراسيا • هكذا فقط سينقذ مئات الألوف مـن اليونانيين ، وننقذ انفسنا معهم • لأنني ، منذ الدقيقة التي وصلت فيها الى هنا ، رسمت دائرة ، حسب تعليماتك ، وسميت هذه الدائرة : « واجبي » • وقلت : « اذا انقذت هذه الدائرة كلها ، فانني اكون قد انقذت نفسي ، اما اذا لم انقذهـا ، فانني لهالك » • والخمسمئة الف يوناني انما هم موجودون في تلك الدائرة •

« انني اجتاز المدن والقرى ، واجمع اليونانيين ، واحرر تقارير وبرقيات ، واجاهد لأجعل حكامنا في اثينا يقررون ارسال مراكب ، واغذية ، وثيـــاب ، وادوية ، ولأعمل على نقل تلك المخلوقات الى اليونان • اذا كان النضال الحاد العنيد سعادة ، فانني لسعيد • لست ادري اذا كنت ، كما تقول ، قد «فصّلت» سعادتي على قدي، واذا صحّ ذلك ، تكون قامتي،وحمداً للسماء، طويلة•انني أفضل على كل حال ان أمد قامتي حتى أبعد حدود اليونان التي هي في الوقت نفسه حدود سعادتي • لكن ، لنعلن الهدنة مع النظريات ! انك الآن ممدد على ساحلك الكريتي ، تصغي الى البحر والسانتوري ، ولديك الوقت ، أما أنا فلا • ان النشاط ليلتهمني ، واني لمسرور لذلك • فالعمل هو الطمأنينة الوحيدة •

« ان موضوع تأملاتي الان بسيط جدا ، انني أقول لنفسي دفعة واحدة : « ان سكان « البونت » و « القوقـاز » هؤلاء ، وفلاحي « كارس » ، وتجـــار « تفليس » و « باتوم » و « نوفوروسيسك »، و « روستوف »،و « أوديسا » ، و « كريمة » انما هم منا ، من دمنا ، وعاصمة اليونان بالنسبة لهم ، كمـا هي بالنسبة لنا ، القسطنطينية • ان قائدنا جميعاً واحد • انت تدعوه « اوليس » وآخرون «قسطنطين الباليولوجي(١)» ليس ذاك الذي قتل تحت أسوار بيزنطة، بل الآخر ، بطل الاسطورة ، الذي تحول الى رخام ، والذي ينتظر ، واقفـاً ، ملاك الحرية • اما انا ، فانني أدعو قائد عرقنا ، بعد اذنك ، اكريتاس (٢) • ان هذه الكلمة تعجبني أكثر من غيرها ، فهي اشد صلابة وحربية • انني ما ان اسمعها ، حتى ينتصب امامي ، شاكي السلاح ، الهيليني الخالد ، الذي يقاتل بلا هدنة ولا نصب ، في الثغور ، وعند الحدود • يقاتل عند مختلف الحدود : القومية ، والفكرية ، والروحية • واذا ما أضفنا ايضا « ديجينيس » ، فاننـا نكون قد عبرنا بشكل اعمق عن عرقنا ، الذي هو تركيب رائع للشرق والغرب •

« انني موجود الآن في « كارس » ، حيث جئت لأجمع يونانيي جميع قرى الضواحي • وفي يوم وصولي بالذات ، أخذ الاكراد ، عند ضواحي كـارس ،

---

١ ـ آخر الاباطرة البيزنطيين قتل في دفاعه عن القسطنطينية ضد محمد الفاتح (هـ•م)

٢ ـ ديجينيس اكريتاس : بطل اسطوري لملحمة يونانية • اكريتاس كلمة تعني امير ثغر • وديجينيس : من العرقين اليوناني والشرقي • (هـ•م)

قساً ومعلماً يونانيين ، وسمروا اقدامهما بنعال من حديد كالبغال • والتجأ الاعيان هلعين ، الى المنزل الذي نزلت فيه • اننا نسمع مدافع الاكراد وهي تقترب وقد ثبت الجميع اعينهم علي ، وكأنني انا الوحيد القادر على انقاذهم •

« كنت عازماً على الذهاب غداً الى تفليس ، لكنني اشعر بالخجل من الابتعاد الآن امام الخطر • انني باقٍ اذن • لا اقول انني لست خائفاً ، انني خائف ، خجل • أما كان « محارب رامبراندت » ، « محاربي » ، ليفعل الشيء ذاته ؟ لو كان محلي لبقي ، انني باقٍ اذن ، انا الآخر • اذا دخل الاكراد المدينة، فمن الطبيعي والعدل ان اكون أول من يسمرونه • انك لم تكن لتتوقع بالتأكيد، يا معلمي ، ان ينتهي تلميذك نهاية البغال هذه •

« لقد قررنا ، بعد مناقشة طويلة جداً كما هي عادة اليونانيين، ان يجتمع الجميع هذا المساء ، مع بغالهم ، واحصنتهم ، وابقارهم ، وخرافهم ، ونسائهم ، واطفالهم ، وان نبدأ سيرنا معاً ، عند الفجر ، نحو الشمال • وسأسير في الطليعة كالكبش يقود القطيع •

« يا للهجرة الرعوية لشعب ، عبر سلاسل الجبال والسهول ذات الاسماء الاسطورية ! وانا سأكون ، اشبه بموسى وهو يقود الشعب المختار نحو الارض الموعودة ، كما يدعو هؤلاء السذج أرض اليونان • وقد كان لا بد بالتأكيد ، كي اكون بمستوى مهمتيالموسوية ، وكي لا اسبب لك العار ، ان اخلع حذائي الجلدي الانيق ، الذي كان موضع سخريتك ، وان الف ساقي بعصائب من جلد الخراف • وان تكون لي أيضا لحية متموجة دسمة ، واهم من ذلك كله ، ان يكون لي قرنان • لكن اعذرني ، فلن احقق لك هذه المسرة • انه لمن الاسهل علي ان ابدل روحي من ان ابدل ثيابي • انني انتعل جزمة جلدية ، وانني لحليق مثل لب الملفوف ، ولست متزوجاً •

« أيها المعلم العزيز ، ارجو ان تستلم هذه الرسالة التي قد تكون الاخيرة • لا أحد يدري • انني لا اثق بالقوى السرية التي تحمي البشر ، كما يقولون • انني اؤمن بالقوى العمياء التي تضرب يميناً ويساراً ، دون خبث ، دون هدف ، وتقتل كل من تصيبه • اذا تركت (اقول « تركت » كي لا اخيفك واخيف نفسي باستعمال الكلمة المضبوطة) ، اذا تركت الارض ، فعش في صحة جيدة ، سعيداً ، أيها المعلم العزيز ! انني خجل من ان اقول لك ذلك ، لكن هذا واجب فاعذرني : أنا أيضاً قد احببتك كثيراً » •

وفي اسفل الصفحة ، كتب بالقلم هذه الملاحظة السريعة : « ملاحظة : ان الاتفاق الذي عقدناه على المركب ، يوم رحيلي ، لن انساه • اذا كان علي ان « اترك » الارض ، فانني سأعلمك ، حيثما كنت ، فلا تخشَ شيئاً » •

- ١٣ -

مضت ايام ثلاثة ، واربعة ، وخمسة ، ولم يعد زوربا ·

وفي اليوم السادس ، تلقيت من « كادي » رسالة في عدة صفحات ، ذات نفس واحد ، كتبت على ورق وردي معطر ، وفي زاويتها العليا قلب يخترقه سهـم ·

وحفظتها بعناية واعدت كتابتها محتفظاً بالتعابير المدروسة المتناثرة هنا وهناك · ولم أقم سوى باصلاح اخطائه الاملائية الساحرة · ان زوربا ليمسك بالريشة كما يمسك بالمعول ، ويضرب بقوة ، ولهذا كانت الورقة مثقوبة وملطخة بالحبر ، في عدة امكنة ·

« انني اتناول الريشة لأسأل اذا كانت صحتك جيدة أولا ، ولأقول لك ثانياً اننا ، نحن ايضاً ، في صحة جيدة ، وليتبارك الله !

« اما بالنسبة لي فقد لاحظت منذ زمن بعيد انني لم آتِ الى العـالم حصاناً أو ثوراً · ان الحيوانات هي وحدها التي تعيش لتأكل · وانني أخلق لنفسي أعمالا كثيرة ليل نهار ، كي افلت من التهمة المذكورة اعلاه ، واغـامر بخبزي من أجل فكرة ، واقلب الامثال وأقول : « ان دجاجة تسبح في المـاء أفضل من دوري في قفص » ·

« ان الكثيرين وطنيون ، لكن هذا لا يكلفهم شيئاً · اما أنا فلست وطنياً · ولو سبب لي ذلك الأذى · ان الكثيرين يؤمنون بالفردوس وموقنـون بأنهـم سيدخلون حميرهم الى تلك المراعي الغنية · اما انا ، فليس عندي حمار ، انني حر ، لست اخاف الجحيم ، حيث قد يفطس حماري ، ولست أرجو الفردوس حيث سيعلف بالفصة · انني لست متعلماً ، ولا احسـن التعبير ، لكنك تفهمني ايها الرئيس ·

« لقد خاف الكثيرون من بطلان الاشياء ، اما انا فلسـت بحـاجة الى

التفكير • انني لا أسر للخير ، ولا أحزن للشر ، واذا علمت ان اليونانيين قد اخذوا القسطنطينية ، فهذا سيان عندي كما لو ان الاتراك اخذوا اثينا •

« واذا رأيت ، بعد ان تقرأ ما اكتبه لك هنا ، ان ذكائي قد ضعف ، فاكتب لي بذلك • انني أذهب الى مخازن « كاري » لشراء حبال المصعد ، وأضحك •

« انهم يسألونني « لمَ تضحك ، ايها الصديق ؟ » • لكن كيف اشرح لهم ؟ انني اضحك لانني ، في اللحظة التي امد فيها يدي لأرى اذا كانت الحبال الحديدية جيدة ، افكر فجأة في ماهية الانسان ، وفي السبب الذي جاء من اجله الى العالم ، وفي الفائدة المرتجاة منه ••• وفي رأيي انه لا يفيد شيئاً • ان كل الاشياء متشابهة ، وسيان أكانت لي امرأة أم لم تكن،وسيان أكنت شريفاً أم غير شريف ، أم كنت باشا أو حمالا • الخلاف الوحيد هو ان يكون حياً أو ميتاً • فاذا ما استدعاني الشيطان أو الله ـ ماذا تريد ، انهما لشيء واحد بالنسبة لي ـ فانني سأفطس ، واصبح جثة منتنة وافسد الهواء على الناس ، فيضطرون الى دفني على عمق أربعة أقدام تحت الأرض كي لا يختنقوا •

« وبالمناسبة ، ايها الرئيس ، فانني سأطلب منك شيئاً يخيفني ـ الوحيد الذي يخيفني ـ ولا يترك لي راحة لا ليلا ولا نهاراً • انني اخاف الشيخوخة ، ايها الرئيس ، فلتقِنا السماء منها ! ان الموت لا شيء ، مجرد بف ! وتنطفىء الشمعة • لكن الشيخوخة عار •

« انني لأعتبر عاراً كبيراً جداً ان اعترف انني شيخ ، واقوم بكل ما في طاقتي كي لا يتبين أي انسان انني قد شخت : انني اقفز ، وأرقص ، ويؤلمني ظهري، لكنني ارقص ، انني اشرب، فاشعر بالدوار ، ويختلط كل شيء حولي، ولكنني لا اكبو ، واتصرف وكأنه ليس بي شيء • انني اعرق ، فأغطس في البحر ، فأصاب بالبرد ، وأرغب في السعال ، احم ، احم ! كي اعيد الهدوء الى صدري ، لكنني اخجل ، ايها الرئيس ، فأكبت السعال بالقوة ـ هل سمعتني بعض المرات أسعل ؟ ابداً ! وليس امام الناس فحسب ، كما يمكن ان تظن ، لكن عندما أكون بمفردي أيضاً • انني اخجل امام زوربا ، ايها الرئيس • انني اخجل امامه !

« ذات يوم ، في جبل آتوس ـ لقد ذهبت الى هناك ايضاً ، واولى بي لو كسرت رجلي ولم اذهب ـ تعرفت على راهب ، الاب لافرنتيو ، وأصله من « شيو » • وكان هذا الانسان المسكين يعتقد ان فيه شيطاناً ، بل لقد اعطاه اسماً ، فيدعوه : « الخوجا » • وكان لافرنتيو المسكين يصيح على عتبة الكنيسة وهو يضرب رأسه : « الخوجا يريد أن يأكل لحماً يوم الجمعة المقدس • الخوجا

يريد أن ينام مع امرأة ، الخوجا يريد ان يقتل رئيس الدير • انه الخوجا ، الخوجا ، وليس انا ! » • ويضرب جبينه بالصخر •

« انا ايضاً ايها الرئيس ، فيَّ مثله شيطان وانني لأدعوه زوربا • ان زوربا الذي في داخلي لا يريد ان يشيخ ، وهو لم يشخ ، ولن يشيخ ابداً • انه غول شعره أسود كالغراب ، وله اثنتان وثلاثون سناً ، وقرنفلة حمراء وراء اذنه • لكن زوربا الذي في الخارج ، قد شاخ ، الشيطان المسكين ، ونبت له شعر أبيض ، وامتلأ جلده غضوناً وتقلص ، واخذت أسنانه تسقط ، ووخط رأسه الكبير شيب الشيخوخة الأبيض ، وامتلأ بشعر الحمار الطويل •

« ما العمل ، ايها الرئيس ؟ الامَّ سيختصم هذان الزوربايان ؟ من منهما سينتصر في النهاية ؟ اذا مت سريعاً ، فهذا حسن ، ولن اقلق • لكن اذا عمرت أيضاً طويلا ، فانني هالك • انني هالك ، ايها الرئيس ، فسيأتي يوم أُذل فيه • سأفقد حريتي ، وتأمرني حماتي وابنتي بأن أراقب طفلا صغيراً ، وحشاً مريعاً ، سليلهما ، كي لا يحرق نفسه ، ولا يقع ولا يتسخ • واذا ما وسخ نفسه ، فانهما ستضطرانني الى تنظيفه ! افٍ !

« انت ، ستتعرض للعار نفسه ، ايها الرئيس • وعلى الرغم من انك شاب ، كن على حذر ! اصغِ الى ما اقوله لك ، واتبع الطريق نفسه الذي اتبعته انا • ليس ثمة سلام آخر ، فلندلف الى الجبال ، ولنستخرج منها الفحم ، والنحاس ، والحديد والتوتياء ، ولنربح المال كي يحترمنا الاقارب ، ويلعق الاصدقاء أحذيتنا ، ويرفع البورجوازيون قبعاتهم لنا • واذا لم ننجح ، ايها الرئيس ، فمن الافضل ان نموت ، وان تقتلنا الذئاب والدببة ، أو أي حيوان كاسر آخر يجدنا امامه • وانما لهذا السبب أرسل الله الحيوانات المفترسة الى الارض ، لكي تلتهم بعضاً من أفراد جنسنا ، حتى لا يذلوا » •

وهنا كان زوربا قد رسم ، بالاقلام الملوَّنة ، رجلا طويلا ، نحيفاً ، يجري تحت أشجار خضر ، وفي اثره سبعة ذئاب حمر ، وتحت هذا الرسم ، كتب ، بأحرف كبيرة : « زوربا والخطايا السبع الرئيسية » •

ويتابع رسالته :

« بعد ان تقرأ رسالتي ، ستتبين اي انسان تعيس انا • وانني لا أرجو اي أمل في الخلاص من سوداويتي الا عندما احدثك • لأنك ، انت ايضاً ، مثلي ، لكنك لا تعرف ذلك • انت ايضاً فيك شيطان ، لكنك لا تعرف بعد ماذا يُدعى ، وانك لتختنق بسبب ذلك • عمِّده ، ايها الرئيس ، واعد الطمأنينة الى نفسك !

« كنت أقول اذن كم كنت تعيساً ٠ انني أرى بوضوح ان كل ذكائي ليس الا حماقة ولا شيء آخر ٠ ومع ذلك ٠ يحدث لي ان أمر بأيام أفكر فيها تفكير انسان كبير ، ولو كنت استطيع عند ذاك ان أحقق كل ما هو عليه الآن !

« ولما لم يكن بيني وبين حياتي عقد محدّد ، فانني أرخي العنان عندما أصل الى أخطر المنحدرات ٠ أن حياة الانسان طريق لها مرتفعاتها ووهادها ٠ وذوو العقول يتقدّمون وايديهم على العنان ٠ اما انا ايها الرئيس ، وهنا تكمن قيمتي ، فقد القيت بالعنان منذ زمن بعيد ، لان الصدمات لا تخيفني ٠ اننا ندعو ، نحن العمال ، الخروج عن الخط الحديدي اصطداماً ٠ ولتعلق مشنقتي اذا كنت أعير الصدمات التي أقوم بها انتباهاً ٠ ان لي في كل عرس قرصاً ، وأنا أفعل ما يحلو لي ، ولا أبالي ان متّ ٠ ما الذي أخشى عليه من الضياع ؟ لا شيء ٠ وعلى كل حال ، حتى ولو عشت طويلا ، فانني سأموت في النهاية ! هذا أكيد ! اذن ، فلنحرق المراحل !

« يقيناً انك لتضحك الآن أيها الرئيس بسببي ، لكنني اكتب لك عن خمولي ، او ، اذا كنت تفعل ذلك ، عن تفكيري أو ضعفي ــ وما الفرق بين الثلاثة ، انني ، والحق ، لا أرى فرقاً ــ انني اكتب لك ، فاضحك انت اذن اذا شئت ٠ انا ايضاً أضحك لمعرفتي بأنك تضحك ، وهكذا فان الضحك لن ينتهي على الارض ٠ أن لكل انسان حماقاته ، لكن الحماقة الكبرى في رأيي هي ألاّ يكون للانسان حماقات ٠

« اذن فأنا ايضاً هنا في « كاندي » ، ادرس جنوني ، واكتب لك عن كل شيء بالتفصيل ، لانني أريد ، كما ترى ، ان اسألك نصحاً ٠ انك لا تزال شاباً ، ايها الرئيس ، هذا صحيح ٠ لكنك قرأت الحكماء الأسبقين واصبحت ــ أرجو ــ هرماً قليلا ، وانا بحاجة الى نصحك ٠

« اذن ، فانني اعتقد ان لكل انسان رائحته الخاصة به ، ونحن لا نميِّزها لان الروائح تختلط فلا نعرف ايها الخاصة بك ، وايها الخاصة بي ٠٠٠ اننا نفهم فقط ان تفوح رائحة العفونة من ذلك ، وهذا ما ندعوه « الانسانية » ، اعني العفونة الانسانية ٠ وثمة من يستروحها وكأنها رائحة الخزامى ٠ اما انا فتدفعني الى القيء ٠ لكن دعنا من ذلك ، فتلك قصة أخرى ٠

« كنت اريد بالاحرى ان اقول ، وسأطلق العنان مرة أخرى ، أن اولئك السافلات ، النساء ، أنوفهن رطبة دوماً ، كالكلبات ، وهن يستروحن فوراً رائحة الرجل الذي يشتهيهن والذي لا يشتهيهن ٠ ولهذا فقد كان هناك دوماً ، في كل مدينة أحطّ فيها قدمي ، وعلى الرغم من انني قد اصبحت الآن مسناً

وقبيحاً كقرد لا اعتني بثيابي ، امرأتان أو ثلاث ليجرين ورائي · انهن يتتبعن اثري كما ترى ، اولئك الكلبات · ليباركهن الله !

« اذن ، في اليوم الاول من وصولي سالماً الى كاندي ، كان الوقت مساء ، عند افول النهار · واسرعت فوراً الى المخـازن ، لكـن كل شيء كان مغلقاً · وذهبت الى فندق ، وقدّمت علفاً لبغلتي ، وأكلت انا ايضاً ، واغتسلت · واشعلت سيجارة وخرجت لأقوم بجولة · لم اكن اعرف اي انسان في المدينة ولا احد يعرفني · كنت حراً · كان بامكاني ان اصفّر في الشارع ، واضحك ، واتكلم بمفردي · واشتريت قليلا من بزر اليقطين المقلي ، ورحت اتسـلى به وابصق ، واتنزّه · كانت مصابيح الشوارع قد اُشعلت · ومضى الرجـال لتناول بعض المشروب ، وعادت النساء الى منازلهن ، وكان الجو عبقاً برائحة المساحيق والصابون وشرائح اللحم المقلي والعرق · ورحت اقول في نفسي : « قل اذن ، ايها العجوز زوربا ، الى متى ستظل حياً يختلج منخراك ؟ لم يبقَ أمامك وقت طويل لاستنشاق الهواء ، يا عجوزي المسكين ، هيَّا واستنشق حتى الاعماق ! »

« هذا ما كنت اقوله لنفسي وانا اسير عرضاً وطولا في السـاحة التي تعرفها · وفجأة ، سمعت صياحاً ، ورقصاً ، وقرع طبول وأغاني · وارهفت اذني واخذت اركض نحو الجهة التي تأتي منها الضجة · كان المكان عبارة عن مقهى وملهى · لم اكن اطلب غير ذلك ، فدخلت · وجلست الى مائدة صغيرة ، في المقدمة · وما الذي اخشى ؟ فكما قلت لك ، لم يكن ثمة انسان يعرفني · حرية كاملة !

« كانت هناك امرأة طويلة ترقص فوق المنصة ، ترفع بذلتها وترخيها ، لكنني لم أعرها انتباهاً · وطلبت زجاجة جعة ، وجاءت فرخة صغيرة لتجلس الى جانبي · فتـاة لطيفة ، شديدة السمرة ، على وجهها طبقة كثيفة مـن الاصبـاغ ·

« وقالت لي وهي تضحك : أتسمح أيها الجدّ ؟ وصعد الدم الى رأسي · وتملكتني رغبة قوية في ان ادق عنقها ، تلك البلهاء ! لكنني تمالكت نفسي ، مشفقاً عليها ، وناديت النادل :

« ــ شمبانيا !

« (يجب ان تعذرني ، ايها الرئيس ! فقد انفقت كل مالك ، لكن كان لا بد من مواجهة الموقف ، من انقاذ شرفنا ، شرفي وشرفك ، كان يجب ان اجعلها تركع امامنا ، تلك البلهاء ! كان لا بد من ذلك · انني أعلم جيداً انك ما كنت

لتتركني هكذا ، دون دفاع ، في تلك اللحظة الصعبة ٠ اذن : شمبانيا ، أيها النادل !) ٠

« وجاءت الشمبانيا ، وطلبت ايضاً حلوى ، ثم شمبانيا من جديد ٠ ومرَّ رجل معه ياسمين ، فاشتريت السَّلة كلها ، وافرغتها على ركبتي تلك الجبانة التي تجرأت على اهانتنا ٠

« ورحنا نشرب ، ونشرب ، لكنني اقسم لك ايها الرئيس انني لم امسها٠ انني اعرف شغلي ٠ عندما كنت شاباً ، كان أول ما افعله هو المداعبة ٠ اما الآن وقد أصبحت عجوزاً ، فان اول ما افعله هو ان انفق واتظاهر بالظرف ، وارمي بالمال يميناً وشمالا ٠ ان النساء يغرمن بمثل هذه الحركات ، انهن يغرمن بها ، العاهرات ، ويمكنك ان تكون أحدب ، يمكنك ان تكون حطاماً قديماً ، قبيحاً كقملة ، الاّ انهن يتناسين كل شيء ٠ انهن لا يرين شيئاً ، السافلات ، لا شيء سوى اليد التي تجعل المال ينساب وكأنها سلة مثقوبة ٠ كنت أقول اذن انني انفقت كثيراً وأكثر من الكثير ، لتكن مباركاً وليعوضك الرحمن عنه مئة ضعف ، ايها الرئيس ، وما كانت الفتاة لتنصرف ٠ واخذت تقترب بهدوء ، وتضغط بركبتها الصغيرة على ساقيَّ الطويلتين ٠

« لكنني ، كنت كالجليد ، اما في داخلي فقد كنت اتحرَّق ٠ ذاك هو ما يجعل النساء يفقدن العقل ، يجب ان تعرف ذلك في حالة سنوح مثل هذه الفرصة لك : ان تحس بأنك تحترق في الداخل لكنك مع ذلك لا تلمسهن حتى مجرد لمس ٠

« باختصار ، جاء منتصف الليل وانقضى ٠ وانطفأت الانوار شيئاً فشيئاً ، وبدأ المقهى يغلق ابوابه ٠ واخرجت رزمة من اوراق الالف ودفعت تاركاً للنادل مبلغاً سخياً ٠ وتعلَّقت الصغيرة بي ٠ وسألتني بصوت متخاذل :

ــ ما اسمك ؟

فأجبت غاضباً :

ــ الجدّ !

وقرصتني الصغيرة بقوة وقالت بصوت منخفض : :

ــ تعالَ ٠٠٠ تعالَ ٠٠٠

واخذت يدها الصغيرة ، وضغطت عليها موافقاً ، وأجبت بصوت مبحوح :

ــ هيا يا صغيرتي ٠٠٠

« اما الباقي ، فلا بد انك تعرفه ٠ ثم اخذنا النعاس ٠ عندما استيقظت ، كان الوقت ظهراً ٠ ونظرت حولي فماذا وجدت ؟ غرفة صغيرة ظريفة ،

وأرائك ، ومغسلة ، وصابونـــاً ، وزجاجات صغيرة وكبيرة ، واثواباً زاهية معلّقة على الجدار ومجموعة ضخمة مـن الصور : صور بحّارة ، وضبـاط ، وقوّاد ، ودرك ، وراقصات ، ونساء ليس عليهـن من الثيـاب سوى نعلين صغيرين · والى جانبي ، في الفراش ، الفتاة ، مشعثة الشعر ، حارة ، يفوح منها العطر ·

« وقلت في نفسي وانا اغمض عيني من جديد : آه ! يا زوربا ، لقـد دخلت الجنة حياً · المكان جيد ، فلا تتحرّك من هنا ! »

« لقد قلت ذلك سابقاً ، أيها الرئيس ، ان لكلٍ فردوسه الخاص : ان فردوسك ، سيكون محشواً بالكتـب ودمجانات الحبر الكبيرة · وبالنسبة لانسان آخر سيكون محشواً ببراميل الخمر والروم والكونياك · وبالنسبـة لآخر ، بأنضاد الجنيهات الاسترلينية · اما فردوسي انا فهو هذا : غرفـة صغيرة عبقة فيها اثواب زاهية ، وصابون ، وسرير عريض ذو نوابض ، والى جانبي امرأة ·

« ان الخطيئة التي تعترف بها يغفر لك نصفها · انني لم اخرج طـوال النهار · فالى أين اذهب ؟ وماذا افعل ؟ تصوّر ! كنت مرتاحاً هنا · وطلبـت طعاماً من افضل فندق ، فجاؤونا بطبق كبير ، ليس فيه الا كل ما هو مقوٍ : كافيار اسود ، وشرائح لحم ، وسمك ، وليمون معصور ، وقطايف · وقمنـا بالحب مرة أخرى ثم عدنا الى النوم · واستيقظنا حوالي المساء ، وارتدينا ثيابنا وذهبنا واذرعنا متشابكة الى المقهى حيث تعمل ·

« كي اوضّح لك الامور بكلمات قليلة ، ولا اصدع رأسـك بالكلام ، فانني اقول لك ان هذا البرنامج لا يزال مستمراً · لكن لا تغضب ، فانني اهتم أيضاً بقضايانا · من حين لحين اذهب لالقـاء نظرة على المخازن · سأشتري الحبال وكل ما هو لازم ، كن مطمئناً · قبل يوم ، أو بعد اسبوع ، أو حتى شهر ، فماذا يعني هذا ؟ وكما يقول المثل : ان القطة ، في عجلتها ، تضـع أولادها خلسة · اذن لا تتعجل كثيراً · انني انتظر من اجل مصلحتك ، ان تتفتح اذناي ، ويتوقد ذهني ، كي لا يغشني احد · يجب ان تكون الحبال من النوع الاول ، والا فقد اضعنا كل شيء · اذن اصبر قليلا ، أيها الرئيس ، وثق فيّ ·

(على الاخص ، لا تقلق على صحتي · ان المغامرات تفيدني · في بضعة ايام ، عدت من جديد شاباً في العشرين · انني احس بقوة ، اؤكد لك ، الى حد ان اسناناً جديدة ستنبت لي · كان ظهري يؤلمني قليلا ، لكنني اتمتع بصحة

قوية الآن • كل صباح انظر الى نفسي في المرآة ، فأدهش لكون شعري لم يصبح بعد اسود كالطلاء •

« لكنك ستتساءل لماذا اكتب لك كل هذا • لانك بالنسبة لي اشبه بمعرّف ولست اخجل من ان اعترف لك بخطاياي • أو تعرف لماذا ؟ لانك تهتم ، على ما يبدو لي بكل ما افعله ، سواء أكان خيراً أم شراً ، كما يهتم المقامر باللعب • انت أيضا تمسك باسفنجة ندية كالاله : فلاب ! فلوب ! انك تمحو كل شيء ، أخيراً كان أم شراً • هذا ما يشجعني على الاعتراف لك بكل شيء • اذن ، اصغ !

« لقد بدأت الامور تختلط علي ، وانني اكاد افقد رشدي • أنني ارجوك ، في اللحظة التي تستلم فيها هذه الرسالة ، أن تأخذ ريشتك وتكتب الي • والى ان اتلقى رداً ، فانني سأظل على أحرِ من الجمر • انني اعتقد انني منذ سنوات ليست بالقليلة لم اعد مسجلا في سجلات الرحمن • ولا في سجلات ابليس أيضاً • انني لست مسجّلا الا في سجلك ، اذن فليس امامي انسان اتوّجه اليه الا سيادتك ، اذن اعر اذنك لما سأقوله لك • هذا ما يجري :

« البارحة ، كان يوم عيد في قرية قريبة من كاندي • وليأخذني الشيطان اذا كنت اعرف عيد أي قديس • وقالت لي لولا ــ هذا صحيح ، لقد نسيت ان اقدّمها لك : انها تُدعى لولا ــ :

« أيها الجدْ (انها تدعوني من جديد بالجد ، لكن على سبيل المداعبة الآن) أيها الجد ، انني أود الذهاب الى العيد •

فقلت لها :

ــ اذهبي ، ايتها الجدّة ، اذهبي •

ــ لكنني اريد ان أذهب معك •

ــ انني لن أذهب • لدي عمل هنا • اذهبي بمفردك •

ــ اذن ، فلن اذهب أنا أيضاً •

وجحظت عيني :

ــ لن تذهبي ، لماذا ؟

ــ اذا جئت معي ، فسأذهب • واذا لم تجيء ، فلن اذهب •

ــ لكن لماذا ؟ ألست اذن شخصاً حراً ؟

ــ لا ، انني لست حرة •

ــ ألا تريدين ان تكوني حرّة ؟

ــ كلا !

وايم الحق ، لقد احسست بأنني أصبحت معتوها • وصرخت :

– ألا تريدين ان تكوني حرة ؟

– لا ، لا أريد ! لا أريد ! لا أريد !

« أيها الرئيس ، انني اكتب لك من غرفة لولا ، على ورق لولا • وحباً بالله ، أنتبه ، ارجوك • انا اعتقد ان الذي يريد ان يكون حراً هو وحده مخلوق انساني • المرأة لا تريد ان تكون حرة • اذن ، فهل المرأة مخلوق انساني ؟

« اغثني ، واكتب لي فوراً • انني اقبلك من كل قلبي ، يا رئيسي الطيب •

« انا ، ألكسيس زوربا » •

عندما انهيت قراءة رسالة زوربا ، بقيت متردداً ملياً ، لم أكن ادري أعليَّ ان أغضب ، أو أضحك أو أعجب بهذا الانسان البدائي الذي يبلغ الجوهر عن طريق تحطيم المنطق والاخلاق والصدق التي هي قشرة الحياة • انه يفتقر الى جميع الفضائل الصغيرة ، مهما كانت مفيدة • لم يبق لديه الا فضيلة واحدة عسيرة ، صعبة ، خطرة تدفعه بشكل لا يقاوم نحو الحد الاقصى ، نحو الهاوية •

ان هذا العامل الجاهل ليحطم ، في فورته اللجوج ، الريشة عندما يكتب • انه كأولئك الرجال الذين كانوا أول من نزعوا عن أجسادهم جلد القرود ، أو كالفلاسفة الكبار ، تسيطر عليه المشاكل الاساسية • فهو يراها وكأنها ضرورات فورية وعاجلة • انه شبيه بالطفل ، يرى الاشياء دوماً لاول مرة • انه يندهش باستمرار ويسأل • كل شيء يبدو له معجزاً ، وكل صباح ، عندما يفتح عينيه ويرى الاشجار والبحر والصخور ، وطائراً ما يقف فاغر الفم •

انه يصيح : « ما هذه المعجزة ؟ ما هذه الاسرار التي تُدعى : شجرة : بحر ، صخرة ، طائر ؟ » •

انني اذكر ذات يوم ، وكنا نسير الى القرية ، اننا صادفنا عجوزاً ضئيلا يمتطي بغلا • وجحظ زوربا عينيه المستديرتين وهو ينظر الى الدابّة • ولا شك ان نظرته كانت ملتهبة ونافذة جداً الى حد أن الفلاح صاح مذعوراً :

– حباً بالله ، لا ترمِه بعين حسود !

ورسم اشارة الصليب •

والتفتُّ الى زوربا وسألته :

– ما الذي فعلت للعجوز حتى صاح هكذا ؟

– انا ؟ لم افعل له شيئاً ! لقد نظرت الى البغل عجباً ! أهذا لا يدهشك ،

انت أيها الرئيس ؟

ـ ماذا ؟

ـ ان توجد بغال على الارض ٠

وفي يوم آخر ، بينما كنت أقرأ مستلقيــاً على الشـاطىء ، جاء زوربا وجلس بمواجهتي ، ووضع السانتوري على ركبتيه وراح يعزف ٠ ورفعت عيني ونظرت اليه ٠ وتبدّل وجهه شيئاً فشيئاً ، وتملّكه فرح وحشي وهزّ رقبته الطويلة المصقولة وبدأ يغني ٠

ألحان ماسيدونية ، وأغانٍ كليفتية ، وصرخات وحشية ٠ ان الحنجـرة البشرية تعود الى عصور سابقة للتاريخ كانت الصرخة فيها تركيباً عالياً لكل ما نسميه اليوم : موسيقى وشعراً وفكراً ٠ وصرخ زوربا من اعماق احشائه : « آخ ! آخ ! » ، وذابت كل القشرة الرقيقة التي نسميها حضارة ، وافسحت الطريق للوحش الخالد ، للاله المشعر ، للغوريلا المرعبة ٠

واختفى كل شيء : اللينيت والخسائر والأرباح ، والسيدة هورتـانس ومشاريع المستقبل ٠ لقد حملت الصرخة كل شيء ، ولم نعد بحاجة الى شيء ٠ كنا نحمل ، ونحن واقفان بلا حراك فوق ارض كريت المنعزلة هذه ، كل مرارة الحياة وعذوبتها ، بل ان المرارة والعذوبة لم تعودا موجودتين ، ثـم مـالت الشمس ، وجاء الليل وراح الدب الكبير يرقص حول محور السماء الثابـت ، وصعد القمر وراح ينظر مذعوراً الى حيوانين صغيرين ينشدان فوق الرمال ، لا يخشيان احداً ٠

وقال زوربا فجأة وقد انتشى بسبب الغناء :

ـ حسناً ، يا عجوزي ، ان الانسان حيوان مفترس ، دع كتبـك ، ألا تخجل ؟ ان الانسان حيوان مفترس ، والحيوانات المفترسة لا وجود لهـا في الكتب ٠

وصمت لحظة ثم أخذ يضحك وقال :

ـ أتعرف كيف خلق الاله الانسان ؟ أتعرف ما الكلمات الاولى التي وجهها هذا الانسان الحيوان الى الله ؟

ـ كلا ، كيف تريد ان اعرف ؟ انني لم اكن حاضراً لحظتها ٠

فصرخ زوربا وقد تطايرت عيناه شرراً :

ـ اما انا فقد كنت حاضراً !

ـ اذن ، قل لي !

وراح يخترع ، نصف منتشٍ ، نصف هازيء ، حـكاية خلق الانســان

الاسطورية :

ـ حسناً ، اصغ ، ايها الرئيس ! ذات صباح ، استيقظ الاله الرحيم حزيناً : « اي نوع من الآلهة انا ؟ ليس عندي حتى بشر يحرقون لي البخور او يقسمون باسمي ، فأجد فيهم تمضية للوقت ! لقد ضجرت من العيش وحيداً وكأنني بومة عجوز ! » • وبصق في يديه ، وشمّر عن أكمامه ، ووضع نظارتيه، وأخذ جبلة من التراب ، وبصق عليها ، وأحالها الى طين ، وعجنها جيداً كما يجب ، وصنع انساناً صغيراً ووضعه في الشمس •

« وبعد سبعة أيام ، سحبه • لقد نضج • ونظر اليه الاله الرحيم وأخذ يضحك ، وقال :

ـ ليأخذني الشيطان ! لكن هذا أشبه بخنزير ينتصب على قدميه الخلفيتين ! انه أبعد ما يكون عما أردت ان يكونه !

وأخذه من جلد رقبته ورفسه برجله :

ـ اذهب ، هيا ! اغرب من هنا ! ليس عليك الا أن تصنع خنازير صغيرة الآن ، ان الأرض لك • اغرب ! واحد ، اثنان ، الى الامام ، سر !

«لكنه ، يا صديقي ، لم يكن خنزيراً البتة • كان يرتدي قبعة رخوة ، وسترة ملقية بلامبالاة على كتفيه ، وسروالا له ثنية ، ونعلين مزدانين بأوراد حمر • ثم أنه كان يحمل في حزامه ـ ولا شك في ان ابليساً هو الذي اعطاه اياه ـ خنجراً مشحوذاً مكتوباً عليه : « سأقتلك ! » •

« كان ذاك هو الانسان • ومدّ الاله الرحيم يده كي يقبلها الآخر ، لكن الانسان فتل شاربه وقال :

ـ « هيا ايها العجوز ، ابعد من هنا كي أمرّ ! »

وتوقف زوربا وقد رآني أتثنى من الضحك ، فعبس ، وقال لي :

ـ لا تضحك ، فالامر قد جرى هكذا !

ـ لكن كيف تعرف ذلك ؟

ـ هكذا أحسّ به ، وهكذا كنت سأفعل ، انا ايضاً ، مكان آدم • انني اراهن برأسي على ان آدم لم يتصرف بطريقة أخرى • لا تثق بكل ما ترويه الكتب ، بل عليك ان تصدقني انا !

ومدّ يده الضخمة دون ان ينتظر جواباً وعاد الى العزف على السانتوري •

* * *

وكنت ما ازال امسك برسالة زوربا المعطرة المرسوم عليها قلب قد نفذ فيه سهم ، وعشت من جديد كل تلك الايام ، الغنية بالجوهر الانساني ،

التي أمضيتها قربه ١٠ ن الزمن الى جانبه قد أصبح له طعم جديد ٠ انه لم يعد مجرد تتابع رياضي للأحداث ، ولم يعد بالنسبة لي مشكلة فلسفية لا حـل لها ٠ بل كان عبارة عن رمل حار ، مصفى بدقة ، وكنت أحس به ينساب من بين أصابعي بحنان ٠

وتمتمت : ليكن زوربا مباركاً ! لقد أعطى جسداً حبيباً وحاراً للمفاهيم المجرّدة التي كانت ترتعد في داخلي ٠ وانني لأعود الى الارتعاد عندما لا يكون هنـا ٠

وأخذت ورقة ، وناديت عاملاً ، وأرسلت برقية عاجلة :

« عد حالاً » ٠

- ١٤ -

يوم السبت ، الأول من آذار ، بعد الظهر • كنت مستنداً الى صخرة تجاه البحر ، وأنا اكتب • في ذلك اليوم رأيت أول سنونو ، كنت فرحاً ، وكانت عملية طرد بوذا تجري بلا عقبات على الورق• لقد تعدل نضالي ضده• انني لم أعد مستعجلاً وصرت واثقاً من الخلاص •

وفجأة سمعت وقع خطا على الحصى • ورفعت رأسي ورأيت جنيتنا العجوز وهي تسعى على طول الشاطيء ، متبرجة كمركب حربي ، لاهثة ، مندفعة • كانت تبدو قلقة •

وصرخت بقلق :

ـ أهناك رسالة ؟

فأجبت ضاحكاً ، وأنا انهض لأستقبلها :

ـ نعم ! انه يقول لك اشياء كثيرة ، انه يفكر بك ليل نهار ، ويقول انه لا يستطيع طعاماً ولا نوماً وانه لا يطيق الفراق •

فأجابت المسكينة لاهثة •

ـ أهذا كل ما يقوله ؟

واشفقت عليها • أخرجت الرسالة من جيبي وتظاهرت بقراءتها • وفتحت الجنية العجوز فمها الذي تساقطت اسنانه ، والتمعت عيناها الصغيرتان ، وراحت تصغي ، متلاحقة الانفاس •

وتظاهرت بالقراءة ، وكنت عندما يشرد ذهني أتظاهر بأنني أستصعب فهم بعض الكلمات : « ذهبت البارحة أيها الرئيس لتناول الغداء عند بائع لحم مشوي • كنت جائعاً • ورأيت صبية جميلة جداً ، شبيهة بالهة حقيقية ، تدخل • يا للرحمن ! كم تشبه بوبولينتي ! وسرعان ما راحت عيناي تجريان

كالينبوع ، وانقبض زلعومي ، ولم اعد استطيع البلع ! ونهضت ودفعت وانسحبت واستولى علي شوق شديد ، واسرعت ، انا الذي لا يفكر بالقديسين الا مرة كل سنة ، اسرعت الى كنيسة القديس ميناس لأشعل له شمعة . وقلت في صلاتي : « أيها القديس ميناس ، اجعلني اتلقى اخباراً طيبة عن الملاك الذي احبه ، اجعل اجنحتنا تتحد في اقرب فرصة ! » .

وصرخت السيدة هورتانس التي تألق وجهها من الفرح :

ـ هيْ ! هي ! هي !

فسألتها وأنا اتوقف لأستعيد أنفاسي وأختلق أكاذيب جديدة :

ـ لماذا تضحكين ، يا سيدتي ؟ لماذا تضحكين ؟ ان هذا الكلام يدفع بي الى البكاء ، أنا .

فهدلت منفجرة :

ـ لو كنت تعلم ... لو كنت تعلم ...

ـ ماذا ؟

ـ الاجنحة ... هكذا يسمي الأرجل ، السافل ! هكذا يسميها عندما نكون منفردين . انه يتمنى ان تتحد اجنحتنا ...

هيْ ! هي ! هي !

ـ لكن اسمعي الباقي ، يا سيدتي ، انك ستذهلين ...

وقلبت الصفحة وتظاهرت من جديد بالقراءة :

« مررت اليوم أيضاً امام دكان حلاّق . وفي تلك اللحظة بالذات كان الحلاق يفرغ خارج دكانه طسته المليء بماء الصابون . وعبق الشارع كله . وفكّرت من جديد ببوبولينتي ، وأخذت أبكي . انني لا استطيع البقاء بعيداً عنها ، أيّها الرئيس . سأجنّ . تصوّر ، انني أخذت اقرض الشعر أيضاً . لم استطع النوم أول أمس ، فنظمت لها قصيدة صغيرة . أرجوك أن تقرأها لها كي ترى الى أي حد أتألم :

« آه ! لو كنا نستطيع ان نلتقي انت وانا ، في درب ما .

« في درب فسيحة تتسع لألمنا !

« انني حتى ولو قطّعت ارباً ومزّقوا جسدي بالفأس !

« فان حطام عظامي ستظل تسعى نحوك ! »

كانت السيدة هورتانس تصغي بكل سمعها ، سعيدة ، وعيناها ذابلتان نصف مغلقتين . بل انها حلّت عن عنقها الشريط الذي كان يخنقها، وأعادت للغضون حريتها . كانت تقف صامتة مبتسمة . وكانت روحها تطوف فرحة،

سعيدة ، بعيداً جداً ، على غير هدى ٠

آذار ، والعشب النضر ، والازاهير الحمر ، والصفر ، والليلكية ،والمياه الصافية حيث تجتمع عصائب من البجع السود والبيض وهي تغني ٠ اناثها بيضاء ، وذكورها سود ، مناقيرها ارجوانية مفتوحة ٠ وراحت اسماك الجري الزرق تخرج من الماء لامعة ، وتتحد بالثعابين الصفر الكبيرة ٠ وعادت السيدة هورتانس من جديد الى سن الرابعة عشرة ، والى الرقص على سجادات شرقية في الاسكندرية ، وبيروت ، وازمير ، والقسطنطينية ، ثم في كريت على سطوح السفن المطلية ٠٠٠ انها لم تعد تتذكر جيداً ٠ كل شيء اختلط عليها ، وانتصب صدرها ، وطقطقت الشطآن ٠

وفجأة بينما كانت ترقص ، امتلأ البحر بسفن مطلية من الأمام بالذهب، وفي مؤخرتها خيام متعددة الألوان ، وراياتها من الحرير ٠ سفن يخرج منها باشاوات تتدلى من طرابيشهم الحمر طرر ذهبية ، وبكوات اغنياء جاؤوا للحج ، وايديهم مثقلة بالهدايا الثمينة ، وابناء بكوات مرت في وجوههم كآبة ٠ سفن يخرج منها أميراليون بقبعاتهم المثلثة اللامعة ، وبحارة بياقاتهم المتألقة البياض وسراويلهم العريضة الخافقة ٠ سفن يخرج منها شبان كريتيون بثيابهم الزرق الفاتحة المنتفخة ، واحذيتهم الصفر ، وقد عقدوا مناديل سوداً حول رؤوسهم ٠ سفن يخرج منها ايضاً زوربا ، لا متناهياً ، قد أهزله الحب ، في اصبعه خاتم خطوبة ضخم ، وعلى شعره الرمادي اكليل من ازهار البرتقال ٠٠٠

من بين جميع الرجال الذين عرفتهم في حياتها المغامرة ، لم يغب أي منهم ، حتى ولا البحار العجوز ، الأحدب الذي تساقطت اسنانه ، والذي اخذها ذات مساء لتتنزه في مياه القسطنطينية ٠ كان الليل قد ارخى سدوله، ولم يعد يلمحهم احد ٠ وخرجوا جميعاً ، بينما كانت اسماك الجري والثعابين والبجع تتزاوج وراءهم ٠

خرجوا وانضموا اليها ، مجتمعين ، كالثعابين العاشقة التي تتلاصق في الربيع حزماً حزماً ، بشكل مستقيم ، وهي تصفّر ٠ وفي وسط المجموعة ، كانت سيدة عمرها اربعة عشر ، وعشرون ، وثلاثون ، وأربعون ، وستون عاماً ، السيدة هورتانس ، تصفر ، بيضاء اللون ، عارية ، يبللها العرق ، وشفتاها تنفرجان عن أسنانها الصغيرة الحادة ، بلا حراك ، لا ترتوي ٠

لم يضع اي شيء ، ولم يمت أي عاشق ٠ انهم يبعثون جميعاً ، في صدرها الذابل ، شكاة السلاح ٠ فكأن السيدة هورتانس سفينة حربية

عظيمة لها ثلاث صوار ، وكأن جميع عشاقها ـ وهي لا تزال تعمل منذ خمسة واربعين عاماً ـ يتسلقونها ، ويحتلّون مخازنها وسطحها وحبالها ، بينما تتابع هي سيرها، بعد أن ثقبت اكثر من ألف مرة ورمّمت أكثر من ألف مرة، نحو المرفأ الأخير الذي كانت تتمناه بحرارة منذ زمن طويل : الزواج ٠ ويتخذ زوربا ألف وجه : اتراك ، وغربيون ، وارمن ، وعرب ، ويونانيون ، فتعانق السيدة هورتانس بمعانقتها له كل ذلك الموكب المقدس اللامتناهي ٠٠

وتبينت الجنية العجوز فجأة انني قد توقفت ، واختفت رؤياها دفعة واحدة ، ورفعت جفونها المثقلة وتمتمت بصوت مؤنب ، وهي تلعق شفتيها بشره :

ـ ألا يقول شيئاً آخر ؟

ـ ماذا تريدين اكثر من ذلك ، يا سيدتي هورتانس ؟ ألا ترين ؟ ان الرسالة كلها لا تتحدّث الا عنك ٠ انظري ، اربع ورقات ٠ وهناك ايضاً قلب، أنظري ، هنا ، في الزاوية ٠ زوربا يقول انه رسمه بنفسه ٠ انظري ، ان الحب يخترقه من الطرف الى الطرف ٠ وتحته ، أنظري ، حمامتان تتعانقان ، وعلى اجنحتهما ،كتب بأحرف صغيرة غير مقروءة بالحبر الأحمر اسمان متعانقان : هورتانس ـ زوربا ٠

لم يكن هناك حمامتان، ولا كتابة ، لكن عيني الجنية العجوز انتفختا بالدموع ، واصبحتا تريان كل ما تودّان رؤيته ٠

وسألت من جديد دون ان ترتوي :

ـ ألا شيء آخر ؟ ألا شيء آخر ؟

كل ذلك ـ الأجنحة ، ومياه الحلاق الصابونية ، والحمام الصغير ـ لم يكن الا مجرد كلمات ، لا شيء ٠ لكن عقلها العملي كامرأة كان يطلب شيئاً محسوسا اكثر من ذلك ، وموثوقاً اكثر ٠ الكلمات الطيبة ، كم مرة سمعتها في حياتها !؟ ما الذي افادته منها ؟ انها الآن ، بعد سنين كثيرة من العمل القاسي ، وحيدة ،لاتملك شيئاً ٠

وتمتمت من جديد مؤنبة :

ـ ألا شيء آخر ؟ ألا شيء آخر ؟

وحدّقت في عينيّ وكأنها ظبي مطارد ٠ فأشفقت عليها ، وقلت :

ـ انه يقول ايضاً شيئاً هاماً ، هاماً جداً ، يا سيدتي هورتانس ٠ ولهذا أبقيت عليه الى النهاية ٠

فقالت وقد فقدت السيطرة على نفسها تماما :

ـ هــاتِ ٠٠٠

ـ انه يكتب انه سيلقي بنفسه على قدميك ، عندما يعود ، ليرجوك ، والدموع في عينيه ، ان تتزوجيه ٠ انه لم يعد يطيق ٠ انه يريد ان يجعــل منك امرأته الصغيرة ، السيدة هورتانس زوربا ، كي لا تفترقا ابداً ٠

وفي هذه المرة اخذت العينان المغرورقتان تبكيان عن حق ٠ كان ذاك هو، الفرح الأكبر ، المرفأ الذي طالما اشتهته ، كان ذاك هو الأسف على حياتهـــا كلها ! انها ستجد الطمأنينة ، وتتمدّد على فراش شريف ، ولا شيء أكثر من ذلــك !

وغطت عينيها ٠ وقالت بتنازل سيدة كبيرة : حسناً ، انني أقبل ٠ لكن اكتب له ، من فضلك ، انه ليس في القرية أكاليل من ازهار البرتقال ٠ عليه ان يأتي بها من كاندي ٠ وليأتِ ايضاً بشمعتين بيضاوين مزدانتين بشرائط حريرية وردية ، وبملبس صنع من اللوز الطيب ٠ ثم ليشترِ لي ثوب زفاف ابيض ، وكلسات حريرية ، وخفين من الأطلس ٠ واكتب له ألا يأتي بأغطية للسرير ، لأن عندنا منها ٠ وعندنا ايضاً سرير ٠

ونظمت قائمة طلباتها ، اذ هي قد اصبحت ترى مــن الآن في زوجهـــا رسولا يلبي حاجاتها ٠ ونهضت ، واتخذت فجأة مظهر امرأة متزوجة ، وقالت :

ـ لديّ شيء اقترحه عليك ، شيء هام جداً ٠٠٠ (وتوقفت منفعلة ٠)

ـ قولي ، يا سيدتيهورتانس ، انني تحت اوامرك ٠

ـ اننا نميل اليك ، زوربا وانا ٠ انك كريم ولا تشعرنا بالخجل ٠ هل تريد ان تكون شاهدنا ؟

وارتعدت ٠ كان لأهلي في الماضي خادم عجوز ، تدعى ديامانديولا ، قد تجاوزت الستين ، عانس عجوز نصف مجنونة بسبب العذرية ، عصــبية ، متغضنة الجلد ، بدون صدر ، ولها شارب ٠ فوقعت في غرام ميتسو ، اجير عطار الحي ، وهو فلاح بخيل ، بدين ، أمرد ٠

وكانت تسأله كل يوم أحد :

ـ متى ستتزوجني ؟ تزوجني ! كيف تستطيع ان تقاوم ، انت ! انا لا استطيــع !

فيجيب العطار الخبيث الذي كان يداريها ليؤمن على زبائنه :

ـ ولا انا ، يا طيبتي ديامانديولا ، لكن اصبري أيضاً قليلاً ٠ اصبري قليلاً ايضاً الى ان ينبت شاربي ، انا ايضاً ٠٠٠

ومضت السنوات هكذا وديامانديولا العجوز تصبر ٠ هدأت اعصابها ،

وتناقصت أوجاع رأسها ، وأخذت شفتها المريرة التي تجهل القبل تبتسم ٠ وصارت تعتني اكثر بغسل الثياب ، وتكسر عدداً أقل من الصحاف ، وتحرص على ألا يحترق الطعام ٠

وسألتني ذات يوم خلسة :

ــ هل تريد ان تكون شاهدنا ، ايها الرئيس الصغير ؟

فأجبت بينما انقبضت حنجرتي من المرارة :

ــ انني أريد من كل قلبي ، يا ديامادولا ٠

لقد سببت لي تلك القصة ألماً شديداً ، لهذا لما سمعت السيدة هورتانس تعيد الجملة نفسها ، ارتعدت ٠ واجبت :

ــ اريد من كل قلبي ٠ انه لشرف لي ، يا سيدتي هورتانس ٠

فنهضت ، وسوّت خصل شعرها التي كانت تنساب من تحت قبعتها الصغيرة ، ولعقت شفتيها ٠ وقالت :

ــ ليلة سعيدة ، يا صديقي ٠ ليلة سعيدة ، وليعد الينا بسرعة !

ونظرت اليها وهي تبتعد ، متمايلة ، تثني قامتها العجوز كما تفعل الصبايا ٠ لقد منحها الفرح اجنحة ، وراح نعلاها العتيقان المعقوفان يخلفان في الرمل ثقوبا صغيرة عميقة ٠

وما كادت تغادر الشاطىء حتى تعالت منه صرخات حادة وصوت بكاء ٠

فنهضت ورحت اركض ٠ هناك ، في الجانب المقابل من الشاطىء ،كانت ثمة نساء يعولن ، وكأنهن ينشدن رثاء يائساً ٠ وصعدت الى صخرة واخذت أراقب ٠ كان الرجال والنساء يقبلون من القرية ، والكلاب وراءهم تنبح ٠ وكان هناك فارسان او ثلاثة في المقدمة ، يثيرون وراءهم غيمة كثيفة من الغبار ٠

وقلت في نفسي : « هناك مصيبة » ، ونزلت بسرعة نحو الشاطىء ٠

كانت الضجة تزداد ٠ وثمة غيمتان او ثلاث من غيوم الربيع، ورديتان، ساكنتان في السماء حيث تغرب الشمس ٠ وكانت تينة الآنسة قد امتلأت بأوراق خضراء فتية ٠

وعادت السيدة هورتانس ادراجها، شعثاء الشعر ، لاهثة، وقد اضاعت أحد نعليها ٠ وكانت تمسك به في يدها وهي تركض باكية ٠ وصرخت بي .

ــ يا الهي ٠٠ يا الهي ٠٠

وتعثرت وكادت تسقط فوقي ، فأمسكت بها :

ــ لم تبكين ؟ ماذا هناك ؟

وساعدتها على ارتداء نعلها المتثني ٠
ـ انني خائفة ٠٠٠ خائفة ٠٠٠
ـ ممّ ؟
ـ من الموت ٠
لقد استروحت في الجو رائحة الموت ، وسيطر الرعب عليها ٠
واخذتُ ذراعها المترهلة ، لكن الجسد العجوز ظل يقاوم ويرتجف وصرخت :
ـ لا أريد ٠٠٠ لا أريد ٠٠٠
كانت المسكينة تخاف من الاقتراب من منطقة ظهر فيها الموت ٠ يجب الا يراها « كارون (١) » فيتذكرها ٠٠٠ انها كسائر العجائز ، تجهد نفسها في الاختفاء بين عشب الارض والتلوّن بلونه الاخضر ، في الاختفاء في الارض والتلون بلونها الأسمر القاتم ، كي لا يستطيع « كارون » تمييزها ٠ كانت ترتجف ، وقد أدخلت رأسها بين كتفيها البدينتين المحدودبتين ٠
وجرّت نفسها الى قرب شجرة زيتون ، ومدّت معطفها المرقع ٠ وقالت :
ـ دثّرني ، دثرني ، واذهب لترى ما هناك ٠
ـ أتشعرين بالبرد ؟
ـ انني أشعر بالبرد ، دثرني ،
ودثرتها ، بأمهر ما يمكن ، بحيث انها امتزجت بالأرض ، وذهبت ٠
اقتربتُ من الشاطيء الصخري ، وصرت اميّز الاناشيد الجنائزية ٠ ومرّ « ميميتو » امامي وهو يركض ٠ فصحت :
ـ ما هناك ، يا ميميتو ؟
فأجابني دون ان يتوقف :
ـ لقد أغرق نفسه ! لقد أغرق نفسه !
ـ من ؟
ـ بافلي ، ابن مافراندوني ٠
ـ لماذا ؟
ـ الأرملة ٠٠٠
وتجمدت الكلمة في الهواء ٠ وانبجس جسد الأرملة الخطر واللدن من الظلمة ٠

---

١ ـ كارون : رسول الموت في الاساطير (هـ٠م)

كنت قد بلغت الصخور التي اجتمعت عندها كل القرية • كان الرجال صامتين ، عاري الرؤوس ، والنساء يشددن شعورهن ويطلقن صرخات حادة ، وقد ألقين بمناديلهن على أكتافهن • وكان ثمة جسد شاحب ومنتفخ ممـدد على الحصى • والعجوز مافراندوني يقف فوقه ، بلا حراك ، يتـأمله • كان يستند بيده اليمنى على عصاه ، وبيده اليسرى يقبض على لحيته الرماديـة المجعدة •

وتعالى فجأة صوت ثاقب :

ـ عليكِ اللعنة ، ايتها المجرمة ! سيجازيك الله على هذا !

ووثبت امرأة والتفتت الى الرجال :

ـ اذن ، ألا يوجد بينكم رجل ليذبحها على ركبته مثل خروف ؟ افٍ ! يا لجبنكم !

وبصقت على الرجال الذين كانوا ينظرون اليها دون ان ينبسوا ببنت شفة •

ورد عليها كوندو مانوليو ، صاحب المقهى ، صائحاً :

ـ يجب ألا تذلينا ، يا ديليكاتيرينـا ، لا يجب ، يوجد شجعـان في قريتنا ، وسترين !

ولم أعد استطيع تمالك نفسي فصحت :

ـ هذا مخجل ، أيها الاصدقاء ! ما جرم تلك المرأة ؟ لقد كـان ذلـك مكتوباً • ألا تخشون الله اذن ؟

لكن لم يجب أحد •

وحنى « مانولاكاس » ، ابن عم الغريق ، جسده الضخم ، ورفع الجثـة بين ذراعيه وشق ، قبل الجميع ، طريقه الى القرية •

كانت النساء يعولن ويخدشن وجوههن ويشددن شعورهن • وعندمـا رأين الجسد يُحمل ، اسرعن ليتشبثن به • لكن العجوز مافراندوني ، رفـع عصاه وابعدهن ، وأخذ مكانه على رأس الموكب • فتبعنه عند ذاك وهن ينشدن المراثي النادبة ، وفي المؤخرة ، سار الرجال صامتين

واختفوا في عتمة الغسق • وعاد البحر من جديد الى تنفسه الهادىء • ونظرت حولي • لم يبقَ غيري • وقلت في نفسي : « سأعود • انه يوم آخر نال حصته من المرارة ! » •

وسرت في الدرب مفكراً • انني لمعجب بهؤلاء الناس ، الممتزجين بقوة وحرارة في الآلام البشرية : السيدة هورتانس ، وزوربا ، والارملة ، والمسكين

بافلي الذي القى بنفسه بشجاعة في البحر ليطفيء ألمه • وديليكاتيرينا التي كانت تصرخ بذبح الارملة كخروف ، ومافراندوني الذي كان يرفض ان يبكي أو حتى ان يصرخ أمام الآخرين • أنا الوحيد الذي كان عاجزاً ومنطقياً ، ولم يغل دمي ، ولم احب ولم احقد بقوة • انني أرغب الآن أيضاً في ان اسوي الأمور بالقاء مسؤولية كل شيء ، بجبن ، على عاتق القدر •

ولمحت ، في الظلمة الشفافة ، العم انانيوستي الذي ما يزال هناك ، جالساً على صخرة • كان يسند ذقنه الى عصاه الطويلة وينظر الى البحر • وناديته ، فلم يسمع • فاقتربت ، فرآني وهزّ رأسه وتمتم :

ــ يا للانسانية البائسة ! يا للشباب الضائع ! لكن المسكين لم يكن ليتحمل حزنه ، فألقى بنفسه في الماء ، وغرق • وهكذا انقذ نفسه •

ــ انقذ نفسه ؟

ــ انقذ نفسه ، يا بني ، انقذ نفسه • ما الذي كان يستطيع ان يفعل بحياته ؟ لو تزوج الارملة ، لما تأخر الخصام ، بل والعار أيضاً • انها كفرس تماماً ، الفاجرة • فعندما يقترب منها رجل تأخذ بالصهيل • ولو لم يتزوجها ، لقضى حياته في عذاب ، ولتصور انه اضاع سعادة كبرى ! الهاوية من الامام ، والجرف من الوراء •

ــ لا تتكلم هكذا ، أيها العم انانيوستي ، ان من يسمعك لتتخاذل ركبتاه•

ــ دعك من هذا ! لا تخف • ليس ثمة انسان يسمعني • ولو سمعوني لما صدقوني • انظر ، هل وجد انسان محظوظ مثلي ؟ كانت لي حقول ، وكروم ، وبساتين زيتون ومنزل بطابقين ، كنت غنياً • ووقعت في حب امرأة طيبة وطيعة لم تكن لتتقدم لي الا الذكور • لم أرها في حياتي ترفع عينيها لتنظر في وجهي ، وأولادي جميعاً أرباب اسر صالحون • انني لا اشكو من شيء ، ولي أيضاً احفاد • انني لا اطلب شيئاً آخر • لقد رميت بجذور عميقة• ومع ذلك ، فلو كان علي ان ابدأ من جديد ، لوضعت صخرة في عنقي مثل بافلي والقيت بنفسي في البحر • ان الحياة قاسية ، حتى بالنسبة للمحظوظين، انها قاسية ، العاهرة !

ــلكن ما الذي ينقصك ، أيها العم انانيوستي ؟ممَّ تشكو ؟

ــ لقد قلت لك : لا ينقصني شيء ! لكن حاول ان تسأل قلب الانسان !

وصمت لحظة ، ونظر من جديد الى البحر الذي راح الظلام يخيم عليه ، وصاح وهو يرفع عصاه :

ــ ايه ، يا بافلي ، لقد فعلت حسناً ! دع النساء يصرخن ، فهن نساء لا

عقول لهن · ها أنت انقذت نفسك ، يا بافلي ، وابوك يعرف ذلـــك جيداً ، ولهذا فهو لم يقل افٍ ·

وطاف نظره بالسماء والجبال التي اخذت تتلفع بالظلمة · وقال :

ـ هوذا الليل ، فلنعد ·

وتوقف فجأة ، وبدا عليه انه أسف لكل الكلمات التي أفلتت منـــه ، وكأنه فضح سراً كبيرا يحاول الآن ان يمسك به من جديد ·

ووضع يده المعروقة على كتفي ، وقال لي وهو يبتسم :

ـ انت شاب ، فلا تصغ للشيوخ · لو استمع العالم للشيوخ لأسرع الى الدمار · اذا مرت ارملة في طريقك ، فالقِ بنفسك عليها ! تزوج ، وانجــب اطفالا ، لا تتردد · ان الازعاجات انما خلقت للشباب !

* * *

وصلت الى شاطئي ، واشعلت النار ، وهيأت شاي المساء · كنت متعباً ، جائعاً ، فأخذت آكل بشره ، مستسلماً بكليتي لهذه السعادة الحيوانية ·

وفجأة مد ميميتو رأسه الصغير المسطح من الكوة ، ونظر اليّ وانـــا آكل ، جاثياً قرب النار ، وابتسم بخبث ·

ـ ما الذي جئت تسعى اليه ، يا ميميتو ؟

ـ ايها الرئيس ، انني احمل لك شيئا من قبل الأرملة ·· سلة برتقال · لقد قالت انها آخر ما انتجه بستانها ·

فقلت مضطرباً :

ـ من قبل الأرملة ؟ ولمَ تبعث لي بها ؟

ـ لقد قالت انها من اجل كلمتك الطيبة التي قلتها هـــذا المساء لأهالي القريـــة ·

ـ أية كلمة طيبة ؟

ـ لست ادري ! انني اكرر ما قالته ، هذا كل شيء !

وافرغ سلة البرتقال على السرير · وعبق الكوخ كله ·

ـ ستقول لها انني اشكرها على هديتها ، لتكن على حذر ! لتكن على حذر ، ولا تظهر في القرية ، أسمعت ؟ لتبقَ في منزلها بعض الوقت ، الى ان تنسى المصيبة · أفهمت ، يا ميميتو ؟

ـ هذا كل شيء ، أيها الرئيس ؟

ـ هذا كل شيء ، اذهب ·

وغمز ميميتو بعينه :

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ أغرب !

وذهب . قشرت تفاحة ، ناضجة ، مليئة ، حلوة كالعسل . وتمددت ، ونمت . وطوال الليل ، تنزهت تحت أشجار البرتقال . وكانت ثمة ريح حارة تصفر ، وانتفخ صدري العاري ملء رئتيه ، ووضعت خلف اذني غصن ريحان صغير . كنت فلاحاً في العشرين ، اذهب واجيء في حديقة البرتقال ، وانتظر وانا اصفر . من الذي كنت انتظره ، لست ادري ، لكن قلبي كان على وشك الانفجار من الفرح . وفتلت شاربي ، ورحت اصغي ، طوال الليـــل ، وراء اشجار البرتقال ، الى البحر وهو يتنهد كامرأة .

- ١٥ -

كانت تهبّ في ذلك اليوم ريح جنوبية شديدة ، محرقة ، قادمة من وراء البحر ، من رمال افريقيا · وكانت غيوم من الرمل الناعم تحوم في الجـــو ، وتتسرب الى الحنجرة والرئتين · والاسنان تصرف ، والعيون تحترق ، وكان لا بد من اغلاق الابواب والنوافذ حتى يمكن أكل قطعـــة خبز دون ان تتغبر بالرمل ·

كان الطقس ثقيلا · انني انا أيضاً أصبح عرضة ، في تلك الأيام المبهظة التي يتصاعد فيها النسغ ، لقلق الربيع · تعب ، وانفعال في الصدر ، وتنمُّل في الجسد كله والرغبة ، ــ الرغبة أو الذكرى ؟ ــ في سعادة كبرى وبسيطة ·

وسرت في الدرب الجبلية الكثيرة الحصى · لقد تملكتني الرغبة فجأة في أن أذهب حتى المدينة المينوسية الصغيرة التي انبجست من الأرض بعـد ثلاثة او أربعة آلاف عام ، لتتدفأ من جديد تحت شمس كريت الحبيبـــة · وقلت في نفسي : لعل التعب ، بعد مسير ثلاث أو أربع ساعات ، سيهدىء هذا القلق الربيعي ·

صخور رمادية جرداء ، وعري وضيء ، والجبل الوعر المقفر كما أحبه · كانت بومة ، أعماها النور الشديد ، تجثم ، بعينيها الصغيرتين المستديرتين ، فوق احدى الصخور ، وقد بدت مهيبة ، ساحرة ، مليئة بالاسرار · ومشيت بخفة ، لكنها ذعرت وطارت دونما صوت بين الصخور واختفت ·

كان الجو عبقاً برائحة الصعتر · واولى أزهـار شجـــر الرتم الصفراء الحانية اخذت تتفتح بين الأشواك ·

عندما وصلت الى المدينة الصغيرة الخربة ، وقفت مرتعشاً · لا بد ان الوقت كان ظهراً · فالنور يسقط عمودياً ويغرق الانقاض · انها لساعة خطرة في المدن القديمة الخربة ، يكون الجو فيها مليئاً بالصرخات والأرواح · فما ان

ينكسر غصن ، او ينساب ضب ، او تمر غيمة معها ظلهـا ، حتى يتملكك الرعب • ان كل بوصة من الأرض تطؤها ان هي الا قبر ، والأموات يتنهدون •

وشيئاً فشيئاً تعتاد العين النور الباهر • انني المح الآن بين هـذه الصخور يد الانسان : شارعان عريضان مفروشـان ببلاط لامـع • والى اليمين واليسار أزقة ضيقة متعرجة • وفي الوسط سـاحة مستـديرة ، والى جانبها ، يقع ، بتنازل ديموقراطي تام ، قصر الملك ، بأعمدته المزدوجـة ، وأدراجه الصخرية العريضة وملحقاته العديدة •

في قلب المدينة ، حيث وطئت احجار الشارع اقدام الناس اكثر من أي مكان آخر ، ينتصب المعبد ، وكانت الآلهة الكبيرة هناك بثدييها النـاهدين المتباعدين ، وذراعيها اللتين تلتف حولهما الثعابين •

وفي كل مكان حوانيت ومخازن صغيرة : معاصر زيت ، ومحلات حدادة ، ونجارة ، وورشات لصنع الآنية الفخارية • انها عبارة عن خلية نمل ، صنعت بمهارة ، في مخبأ أمين ، وأديرت شؤونها بمهارة ، ثم غادرها النمل منذ آلاف السنين • في أحد المخازن ، كان ثمة صانع ينحت اناء من الصخر المعرق ، لكن الوقت لم يتح له لاتمامه ، فقد سقط الأزميل من يديه ، ثم وجدوه ، بعد آلاف السنين ، قرب الاناء الذي لم ينته •

الاسئلة الابدية ، اللامجدية ، الحمقاء : لماذا ؟ لماذا ؟ تعود من جديد مرة أخرى لتسمّم القلب • ان هذا الاناء غير المنتهي الذي تحطّمت عليـه حميـة الصانع في أوج انطلاقها الفرح الواثق من نفسه ، قد روى ظمئي من المرارة •

وفجأة انتصب أمامي ، على صخرة الى جانب القصر المنهـار ، راع قصير القامة ، لوحته الشمس ، اسود الركبتين ، شعره المجعد محاط بمنديل قذر ، وصاح :

– ايه ! ايها الصديق !

كنت أريد ان ابقى بمفردي • وتظاهرت بأنني لم اسمع • لكن الراعي القصير أخذ يضحك ساخراً •

– ايه ! انك لتصم اذنيك ! ايه ! ايها الصديق ! ألديك سجائر ؟ اعطني واحدة ، انني هنا ، في هذه الصحراء ، متضايق •

ومطّ الكلمة الاخيرة بشكل مؤثر جداً الى حد انني اشفقت عليه •

لم يكن معي سجائر ، فأردت ان اقـدم له مالا ، لكن الراعي القصير غضب ، وصاح :

– الى ابليس بالمال ! ماذا أفعل ؟ قلت لـك انني متضايـق ، اعطني

ونهض ، وأخذه من ذراعه ، وجره الى الداخل واغلق الباب · واخرج من كيسه زجاجة روم وملأ قدحاً صغيراً · وقال له :

ـ اشرب ، أيها الشيخ ، فهذا سيقوي من عزيمتك ·

وافرغ الشيخ الضئيل الكأس ، وعاد الى نفسه · وجلس على سريري ، واستند الى الحائط · وقلت :

ـ أيها الأب الفائق الاحترام ، ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟

ـ لست ادري ، يا بني ··· قد اشتغلت حتى منتصف الليل ، ثم ذهبت لأنام عندما سمعت ، الى جواري ، في غرفة الأب ديميتيوس ···

فقهقه زوربا قائلا :

ـ آه ! آه ! لقد كنت محقاً جداً ، يا زكريا !

وخفض الاسقف رأسه · وتمتم :

ـ لا بد انه لص ·

كانت الجلبة في الممر قد انقطعت ، وغرق الدير في الصمت من جديد · ونظر الي الاسقف ، بعينيه الطيبتين المذعورتين ، ضارعاً ، وسألني :

ـ أناعسٌ أنت ، يا بني ؟

وشعرت بأنه لا يريد الانصراف والعودة الى غرفته بمفرده · كان خائفاً · فأجبت :

ـ كلا ، لست ناعساً ، ابق ·

ورحنا نتحدث · ولف زوربا ، وهو مستند الى وسادته ، سيجارة · وقال لي الضئيل :

ـ يبدو عليك انك فتى مثقف · انني لا اجد هنا انساناً اتحدث اليه · وعندي ثلاث نظريات تلطّف من حياتي · وددت لو اطلعتك عليها ، يا ولدي ·

ولم ينتظر جوابي ، بل بدأ يقول :

ـ نظريتي الأولى هي هذه : ان اشكال الزهور تؤثر على ألوانها ، وألوانها تؤثر على خواصها · وهكذا فان لكل زهرة تأثيرها المختلف على جسم الانسان ، وبالتالي على روحه · لهذا فعلينا ان نأخذ حذرنا تماماً عندما نعبر حقلا مزهراً ·

وصمت كأنه ينتظر رأيي · ولمحت الشيخ الضئيل يتسكع في الحقل المزهر ، ينظر الى الأرض ، برعدة سرية ، حيث الازهار واشكالها وألوانها · ولا بد ان الشيخ المسكين كان يرتعد من خوف صوفي ، فالحقل ، في الربيع ، يمتليء بالملائكة والشياطين المتعددي الألوان ·

سيجارة !

فقلت يائساً :

ـ ليس معي ، ليس معي !

فصرخ الراعي القصير ، وقد فقد السيطرة على أعصابه ، وهو يضرب الأرض بعصاه بعنف :

ـ ليس معك ! ليس معك ! اذن فماذا يوجد في جيوبك ؟ انها منتفخة ٠

فأجبت وأنا أسحب كل الاشياء الموجودة في جيبي ، الواحد تلو الآخر :

ـ كتاب ، ومنديل ، وورق ، وقلم ، وموسى ٠ أتريد الموسى ؟

ـ لدي واحدة ٠ عندي من كل شيء : خبز ، وجبن ، وزيتون ، وسكين ، ومخرز ، وجلد لأحذيتي ، وماء ، عندي من كل شيء ، كل شيء ! لكن ليس عندي سجائر ، فكأنه اذن ليس عندي شيء ! وما الذي تبحث عنه ، انت ، بين الأنقاض ؟

ـ انني أتأمل الآثار القديمة ٠

ـ وما الذي تفهمه منها ؟

ـ لا شيء !

ـ لا شيء ٠ وانا ايضاً ٠ انها ميتة ، اما نحن فأحياء ٠ هيـا ، اذهب !

وخيّل اليّ كأن روح المكان هي التي تطردني ، فقلت طائعاً :

ـ انني ذاهب ٠

وعدت بسرعة الى الدرب ، وانا عرضة لقلق خفيف ٠

من حين لحين كانت تمر فوقي نفحات حارة وروائح عبقـة آتية مـن الحدائق القريبة ، كانت الارض تعبق ، والبحر يضحك ، والسماء زرقـاء ، تلمع كالفولاذ ٠

ان الشتاء يقبض الجسد والروح ، لكن ها هي الحـرارة التي تشرح الصدر قادمة ٠ وبينما كنت أتقدم ، سمعت فجأة نعيقاً مبحوحاً في الجو٠رفعت رأسي ورأيت المشهد الرائع الذي أثارني دوماً منذ طفولتي : كانت طيـور الكراكي تقف ، مصطفة كجيش على اهبة الحرب ، بعد ان عادت من البـلاد الحارة ، وكما تريد الاسطورة ، حاملة طيور السنونو على أجنحتهـا وفي أجواف جسدها المتعظم العميقة ٠

ان ايقاع السنة الذي لا يتبدل ، ودولاب العالم الدائر ، وأوجه الأرض الأربعة ، التي تضيئها الشمس الواحد تلو الآخر ، والحياة التي تمضي ، كل ذلك ملأ قلبي من جديد باضطراب ثقيل ٠ ومن جديد تردد ، في داخلي ، مع

صراخ الكراكي ، الانذار الرهيب بأنه ليس للانسان غير هذه الحياة ، وانه لن تكون هناك حياة أخرى ، وان كل ما يمكن ان نتمتع به ، فانما سنتمتع به هنا • ولن نمنح في الأبدية أية فرحة أخرى •

ان الروح التي تسمع هذا التحذير القاسي – والمليء في الوقت نفسه بالشفقة – لتعزم على ان تقهر صغائرها وضعفها ، ان تقهر الكسل ، والآمال الكبيرة الباطلة ، وعلى ان تتشبث ، بكليتها ، بكل لحظة من اللحظات التي تمضي الى غير رجعة •

وتتصاعد الى الذاكرة أمثال عظيمة ، ويتضح لنا بجلاء اننا لسنا سوى بشر ضائعين ، وان الحياة تستهلك في المسرات الصغيرة ، وفي الآلام الصغيرة، وفي لحظات تافهة • ونرغب في ان نهتف : « يا للعار » ونحن نعض على شفاهنا •

وعبرت الكراكي السماء ، واختفت نحو الشمال ، لكنها ظلت تصرخ بصوتها المبحوح وتطير دون توقف اينما أدرت رأسي •

وصلت الى البحر • ومشيت بحذاء الماء بخطى سريعة • كم هو محزن ان تسير بمفردك على ساحل البحر ! كل موجة ، كل طائر في السماء يدعوك ويذكرك بواجبك • عندما يسير الانسان بصحبة رفاقه ، فانه يضحك ، ويتحادث ، وهذه الضجة تحول بينه وبين ان يسمع ما تقوله الأمواج والطيور• ولعلها بالأصل لا تقول شيئاً • انها تنظر اليك وانت تمر ، وكلك ثرثرة ، وتصمت • وتمددت على الحصى وأغمضت عينيّ • وقلت في نفسي : « ما الروح اذن ، وأية علاقة خفية بينها وبين البحر ، والغيوم ، والعطور ؟ لكأن الروح نفسها هي أيضاً بحر وغيم وعطر ••• » •

ونهضت ، وتابعت المسير ، وكأنني اتخذت قراراً • أي قرار ؟ كنت أجهل ذلك •

وفجأة سمعت صوتاً ورائي :

– الى أين ذاهب ، أيها الرئيس ؟ الى الدير ؟

واستدرت • كان ثمة شيخ قوي ، قصير ، دون عصا ، يعصب شعره الابيض بمنديل . يحرّك يده نحوي وهو يبتسم • ووراءه تسير امرأة عجوز ، ووراءها ابنتهما ، وهي فتاة سمراء وحشية العينين ، على رأسها منديل أبيض •

وسأل العجوز ثانية : « الى الدير ؟ » •

وتبينت فجأة انني اتخذت قراراً بالذهاب في تلك الجهة • منذ شهور ،

وانا اريد الذهاب الى دير الراهبات الصغير المبني قرب البحـــر ، دون ان استطيع العزم على ذلك · ولقد اتخذ جسدي هذا القرار فجأة ، هذا المساء ، واجبت :

ـ نعم · انني ذاهب الى الدير لأسمع اناشيد العذراء ·

ـ لتكن نعمتها في عونك !

وحثَّ خطاه ، حتى وصل الي :

ـ أأنت هو ، كما يقال ، شركة الفحم ؟

ـ نعم ·

ـ حسناً لتأتيك العذراء القديسة بربح وفير ! انك تفيد القرية ، تقدم لآباء الاسر الفقراء ما يطعمون به اسرهم · ليباركك الله !

وبعد فترة ، اضاف الشيخ الخبيث ، الذي كان ولا بد يعرف ان الامور على غير ما يرام ، هذه الكلمات المعزية :

ـ وحتى لو لم يأتك هذا بشيء ، يا بني ، فلا تأبه لذلـــك ، تابـع ! ستخرج على كل حال رابحاً · ستذهب روحك مباشرة الى الجنة ···

ـ هذا ما أتمناه أيضاً ، أيها الجد ·

ـ انني لست مثقفاً كثيراً ، لكنني سمعت ذات مرة في الكنيسة شيئاً قاله المسيح · ولقد بقي ذلك محفوراً في رأسي ولن انساه · لقد قال : « بع ، بع كل ما تملكه لتشتري اللؤلؤة الكبيرة » · وهذه اللؤلؤة الكبيرة ، هي سلام النفس ، يا بني · وأنت ، أيها الرئيس ، تسير في الطريق الذي يؤدي الـى اللؤلؤة الكبيرة · '

اللؤلؤة الكبيرة ! كم مرة تألقت في نفسي ، وسط الظلمات ، وكأنهـا دمعة ضخمة !

وتابعنا السير ، أنا والشيخ في المقدمة ، والمرأتان خلفنا ، وايديهمـا متصالبة ، ومن حين لحين كنا نلقي بعبارة : « هل ستستطيع أزهار الزيتون ان تثبت ؟ هل ستمطر حتى ينضج القمح ؟ » · ولا شك اننا كنا جائعين نحن الاثنين ، لأننا وجهنا الحديث الى الطعام ولم نشأ ان نبدل الموضوع ·

ـ ما طعامك المفضل ، أيها الجد ؟

ـ كل الاطعمة ، كلها ، يا بني · انها لخطيئة كبيرة ان تقول : هــذا طيب ، وهذا سيء !

لماذا ؟ ألا نستطيع ان نختار ؟

ـ لا ، بالتأكيد ، لا نستطيع ·

ـ لماذا ؟
لأن هناك اناساً جائعين ٠
وصمت ، خجلا ٠ ان قلبي لم يبلغ قط مثل هذا النبل والتعاطف ٠
وقرع جرس الدير الصغير ، بمرح ، وهزل ، مثل ضحكة امرأة ٠
ورسم العجوز اشارة الصليب ٠ وتمتم :

ـ لتكن الذبيحة المقدسة جداً في عوننا ! ان عنقها مصابة بضربة سكين ، والدم يجري منها ، في ايام القراصنة ٠٠٠

وبدأ الشيخ يتحدَّث عن آلام العذراء ، وكأنه يتحدث عن امرأة حقيقية ، عن صبية لاجئة مضطهدة ، مزَّقها الكفار بطعنات خناجرهم ، فجاءت الى الشرق مع طفلها وهي تبكي ـ وتابع الشيخ :

ـ ومرة في السنة ، يسيل من جرحها دم حار حقيقي ٠ انني اذكر ذات مرة ، يوم عيدها ، في تلك الأيام التي لم يكن شاربي فيها قد نبت بعد ، اننا نزلنا جميعاً من القرية لنسجد أمام نعمتها ٠ كان ذلك في ١٥ آب ٠ ورقدنا ، نحن الرجال ، في الباحة لننام ٠ ورقدت النساء في الداخل ٠ واثناء نومي سمعت العذراء تصيح ٠ فنهضت بسرعة ، واسرعت الى ايقونتها ، ووضعت يدي على عنقها ، وماذا رأيت ؟ كانت اصابعي مليئة بالدم ٠٠٠

ورسم العجوز اشارة الصليب ، والتفت ، ونظر الى المرأتين ، وصاح :
ـ هيا ، تشجعا ، لقد وصلنا !
وخفض صوته ٠

ـ لم اكن متزوجاً بعد ٠ ورميت بنفسي على الأرض ، وسجدت أمام نعمتها ، وقررت ان اهجر عالم الكذب هذا ، وان اصبح راهباً ٠٠٠
وأخذ يضحك ٠
ـ لمَ تضحك ، أيها الجد ؟

ـ لأن هناك ما يدعو للضحك ، يا بني ! ففي ذلك اليوم بالذات ، اثناء العيد تنكر الشيطان في ثياب امرأة وتوقف امامي ٠ وكانت هي !

وبدون ان يلتفت ، اشار بابهامه الى الوراء ، الى العجوز التي كانت تتبعنا في صمت ٠ وقال :

ـ لا تنظر اليها الآن وقد أصبحت تثير الاشمئزاز ٠ لقد كانت في ذلك الوقت صبية شابة تقفز كالسمكة ٠ كانوا يدعونها : « الحسناء ذات الحواجب الطويلة » وكانت تستحق لقبها هذا ، الخبيثة ! والآن ، ايه ! يا لتعاستنا ! أين هما حاجباها ؟ لقد تساقطا !

وفي تلك اللحظة اطلقت العجوز ، خلفنا ، دمدمة مكبوتة مثـــل كلب شرس تقيده سلسلته • لكنها لم تفه بحرف • وقال الشيخ وهو يمد ذراعه :

ـ هناك ، هوذا الدير !

كان الدير الصغير يتألق بياضاً ، عند شاطىء البحر ، وهو محصور بين صخرتين ضخمتين • وفي الوسط ، كانت تنتصب قبة الكنيسة التي اعيد تبييضها حديثاً ، فتبدو صغيرة ومستديرة كثدي امرأة • وحول الكنيسة ، خمس أو ستّ حجرات ذات أبواب زرق ، وفي الباحة ثلاث اشجار سرو ، وعلى طول السياج اشجار تين بري ضخمة مزهرة •

وحثثنا الخطا • وتسربت الينا من نافذة المعبد المفتوحة تراتيل متماوجة، وعبق الهواء المالح برائحة اللبان • كان الباب الخارجي المقوّس مفتوحــاً على مصراعيه على الباحة النظيفة ، العبقة ، المليئة بالحصى الاسود والابيض• والى اليمين واليسار ، على طول الجدران ، صفوف من اصص العبوثران ، والحبق ، والريحان •

يا للهدوء ! ان الشمس آخذة الآن بالافول ، والجدران المبيضة بالكلس قد اتخذت لوناً وردياً •

كانت رائحة الشمع تفوح من الكنيسة الصغيرة ، الدافئة ، الخافتـــة الاضاءة • وثمة رجال ونساء يتحركون بين دخان البخور ، وخمس أو ست من الراهبات ينشدن ، وقد تدثرن في اثوابهن السوداء الضيقـــة ، بأصوات عذبة نحيفة ، نشيد « سيد جميع القوى » • وفي كل لحظـــة كن يركضن ، فيُسمع لثيابهن حفيف شبيه برفرفة الاجنحة •

انني لم اسمع ، منذ سنين عديدة ، تسابيح العذراء • كنت أمرّ ، اثناء تمرد الشباب الأول ، امام الكنائس وكلي احتقـار وغضب • ومـــع الزمن هدأت • بل صرت اذهب بين وقت وآخر الى الاعياد الحافلـــة : الميـلاد ، والبيرمون ، والبعث ،وافرح برؤية الطفل الكامن في داخلي ينبعث من جديد • ان رعدة الامس الصوفية قد تحوّلت الى متعـــة جمـــالية • ان المتوحشين يعتقدون انه عندما لا تعود احـــدى الآلات الموسيقية تستخــــدم في الطقوس الدينية ، تفقد قوتها الالهية وترسل عند ذاك أصواتاً متناغمة • كذلك انحط الدين في داخلي ، وتحوّل الى فن •

ووقفت في احدى الزوايا ، واستندت الى كرسي لامع صقلته ايـــدي المؤمنين حتى أصبح كالعـــاج • ورحت أصغي ، مسحـــوراً ، الى الترانيم البيزنطية وهي تتصاعد من أعماق الزمن « السلام ! ايها العلو الذي لا تطاله

الافكار البشرية . السلام ! ايها العمق الذي لا تراه حتى أعين الملائكة ... السلام ! ايتها الزوجة التي لم يتزوجها أحد ، يا وردة لم تذبل قط ... » . وتخرّ الراهبات مرة أخرى ساجدات أرضاً ، ورؤوسهن الى الامام ، ويتصاعد حفيف الأثواب من جديد كحفيف الاجنحة .

وراحت الدقائق تمضي ، شبيهة بملائكة لها اجنحة تعبق باللبان ، وتمسك بزنابق لم تتفتح بعد ، وتتغنى بجمال مريم . وغربت الشمس ، وجاء الغسق ، ازغب أزرق . انني لا اذكر كيف وجدنا أنفسنا في الباحة ، حيث بقيت بمفردي مع الأم الرئيسة العجوز ، وراهبتين شابتين ، تحت اكبر شجرات السرو . وجاءت راهبة مبتدئة لتقدم لي ملعقة المربى والماء البارد والقهوة ، وبدأت المحادثة الهادئة .

وتحدثنا عن معجزات العذراء ، والليمون ، والدجاجات التي تبدأ الآن ، في الربيع بالبيض ، والاخت « اودكسي » التي أصيبت بالشر الأعلى . لقد سقطت على بلاط الكنيسة وراحت ترتعد كسمكة ، وتزبد ، وتجدف وتمزق ثيابها . واضافت الرئيسة وهي تتنهد .

ـ انها في الخامسة والثلاثين ، عمر ملعون ، وساعات صعبة ! لتساعدها قداستها ، سيدتنا الذبيحة ، وستشفى . ستشفى خلال عشرة او خمسة عشر عاماً ...

فتمتمت بخوف :

ـ عشرة أو خمسة عشر عاماً ...

فقالت الرئيسة بقسوة :

ـ ما قيمة عشرة أو خمسة عشر عاماً . فكر بالأبدية !

ولم أجب بشيء . كنت أعلم ان الأبدية هي كل دقيقة من الدقائق التي تمر . وقبّلت يد الرئيسة ، يداً بيضاء وبدينة ، تعبق بالبخور ، وانصرفت .

كان الليل قد أرخى سدوله . وثمة غرابان او ثلاثة تعود ، مسرعة ، الى أعشاشها ، وخرجت البوم من الأشجار الجوف لتأكل ، وخرج الحلزون ، والفراش ، والدود ، والجرذان ، من الأرض لتقدم نفسها طعاماً للبوم .

وأطبق عليّ الثعبان الغامض الذي يعض ذنبه ولفّني : ان الأرض تلد وتلتهم أبناءها ، ثم تضع غيرهم لتلتهمهم من جديد .

نظرت حولي . كانت الظلمة قد أطبقت . وانصرف آخر القرويين ، وسادت وحدة تامة ، ولم يعد يراني أحد . وخلعت حذائي ، وغطست قدمي في البحر ، وتدحرجت على الرمل . لقد شعرت بالحاجة لأن ألمس ، بجسدي

العاري الأحجار ، والماء ، والهواء · لقد أغضبتني كلمة الرئيسة « الأبدية » ، وأحسست بها تسقط فوقي مثل حبل الفارس الذي يطبق على الخيل المتوحشة · ووثبت لأفلت منها · لقد شعرت بالحاجة لأن ألمس ، صدراً الى صدر ، الارض والبحر ، ولأن أحس احساساً أكيداً ان هذه الاشياء المؤقتة والحبيبة موجودة ·

وهتفت في داخلي : « أنت وحدك موجودة ، يا أرض ! وانا لست الا وليدك الأخير · انني أرضع ثديك ولا أتركه · انك لا تتركينني اعيش الا دقيقة واحدة ، لكن الدقيقة تصبح ثدياً ، فأرضع » ·

وارتعدت · وكأنني خاطرت في ان أهوي في تلك الكلمة التي تتغذى بلحم البشر : « الأبدية » · انني لأذكر كم كنت أنحني في الماضي ـ متى ؟ العام الماضي لا أكثر ! ـ بحرارة عليها ، مغلق العينين مفتوح الذراعين ، تتأكلني الرغبة في أن أهوي فيها ·

عندما كنت في الصف الأول ، في مدرسة القرية ، كان القسم الثاني من كتاب الأبجدية يحتوي على قصة من قصص الجن للقراءة :

سقط طفل صغير في بئر · وهناك وجد مدينة رائعة فيها حدائق مزهرة، وبحيرة من العسل ، وجبل من الأرز الحليبي ، ودمى متعددة الألوان · وكنت كلما أكثرت من التهجي ، شدني كل مقطع أكثر فأكثر الى أعماق الحكاية · وذات يوم ، وانا عائد من المدرسة ظهراً ، دخلت المنزل ركضاً ، وأسرعت الى حافة بئر الباحة ، تحت العريشة ، وأخذت أنظر ، مأسوراً ، الى صفحة الماء الصقيلة السوداء · وسرعان ما خيّل الي انني أرى المدينة الرائعة ، وبيوتاً وشوارع ، وأولاداً وعريشة مثقلة بالعنب · ولم أعد اطيق صبراً · فأحنيت رأسي ، ومددت ذراعي ، وانا أضرب الأرض بقدمي كي اثب واسقط · لكن أمي ، في تلك اللحظة رأتني · فأطلقت صرخة ، وأسرعت ، ووصلت في الوقت المناسب لتمسكني من حزامي ···

لقد كدت أسقط ، وانا طفل ، في البئر · ولما كبرت كدت اسقط في كلمة « الأبدية » ، وكذلك في عدد لا بأس به من الكلمات : « حب » ، « امل » ، « وطن » ، « الله » · وكنت ما ان انعتق من كلمة ، حتى أشعر وكأنني افلتُّ من خطر · وتقدمت خطوة · لكن لا · كنت أغيّر فقط الاسماء ، وهذا ما كنت أدعوه بالخلاص · وها انا معلق منذ سنتين فوق كلمة « بوذا » ·

لكن بوذا ، انني أحس بذلك جيداً ، بفضل زوربا ، سيكون البئر

الاخيرة ، الكلمة ـ الهاوية الاخيرة ، وسأنقذ نهائياً · نهائياً ؟ هذا ما نقوله في كل مرة ·

ونهضت بقفزة واحدة · كنت سعيداً من أخمص قدمي الى قمة رأسي · ونزعت ثيابي وارتميت في البحر · وعندما خرجت في النهاية من الماء تعباً ، جففت نفسي بهواء الليل ، ثم أخذت درب العودة من جديد بخطا طويلة خفيفة وانا أحس بأنني افلت من خطر كبير وانني تشبثت بقوة اكثر من أية مــرة سابقة بثدي الارض ·

- ١٦ -

ما ان لمحت ساحل الليغنيت ، حتى توقفت فجأة ، فقد كان هناك نور في الكوخ • وقلت في نفسي فرحاً : « لا بد ان زوربا قد عاد ! » •

وهممت بالجري ، لكنني تمالكت نفسي • وقلت : « يجـــب ان أخفي فرحي • يجب ان يبدو علي انني غاضب وان ابدأ بمهاجمته • لقد أرسلته الى هناك لمسائل عاجلة ، لكنه القى بالمال من النافذة وارتمى في احضان المغنيات ، وعاد متأخراً اثني عشر يوماً • يجب أن يبدو علي انني غاضب ، يجب ذلك ••»

وتابعت السير بخطا وئيدة ، كي أتيح الوقت للغضب كي يتملكني • واجهدت نفسي في محاولة الغضب ، فقطبت حاجبي ، وشددت على أصابعي ، وقمت بكل الحركات التي يقوم بها انسان غاضـــب ، لكنني لم استطع ان أغضب حقاً • بل على النقيض من ذلك • كان فرحي يزداد ، كلما تناقصت المسافـة •

واقتربت على رؤوس أصابعي ونظرت من النافذة الصغيرة المضـاءة • كان زوربا راكعاً على الأرض ، وقد أشعل الموقد ، وراح يعد القهوة • وذاب قلبي وصحت : ـ زوربا !

وانفتح الباب بضربة واحدة • واندفع زوربا خارجاً ، عاري القدمين ، دون قميص • ومد رقبته في الظلمة ، ولمحني ، وفتح ذراعيه ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وأسبلهما •

وقال بصوت متردد ، وهو يقف أمامي بلا حراك ، متألق الوجه :

ـ سعيد لرؤيتك من جديد ، ايها الرئيس !

وحاولت ان اجعل صوتي غليظاً ، وقلت ساخراً :

ـ سعيد لأن تكون تحملت مشقة العودة • لا تقترب ، فرائحة الصابون المعطر تفوح منك •

فتمتم :
ـ آه ! لو تدري كم اغتسلت ، ايها الرئيس . لقد فركت ، واي فرك ، جلدي اللعين قبل أن أمثل أمامك ! لقد ظللت اغسل نفسي ساعة كاملة . لكن هذه الرائحة الشيطانية ... ومع ذلك فما الذي يمكن ان تفعله ؟ انها ليست المرة الاولى ، ويجب ان تختفي أشاءت ام أبت .

وقلت وانا أكاد انفجر ضاحكاً :
ـ لندخل .

ودخلنا . كان الكوخ يعبق برائحة العطر والمساحيق ، والصابون ، والمرأة .

ـ قل ، وهذه الحاجات ، ما شأنها ؟

هتفت بذلك وأنا أرى حقائب يدوية ، وقطع صابون ، وجوارب ، ومظلّة حمراء صغيرة وحقّاً دقيقاً من العطر ، وكلها مصفوفة على أحد المقاعد .

فتمتم زوربا ، وقد خفض رأسه :
ـ هدايا ...

فقلت وانا أحاول ان اتخذ لهجة عنيفة :
ـ هدايا ؟ هدايا ؟
ـ هدايا ، ايها الرئيس ، لا تغضب من اجل بوبولينا المسكينة . ان عيد الفصح يقترب ، والمسكينة ...

فقلت :
ـ انك لم تأتها بأهم الاشياء ...
ـ ماذا ؟
ـ لماذا تتجاهل ؟ أكاليل الزواج !

ورويت له القصة التي لفقتها على مسامع الجنية العاشقة .
وحك زوربا رأسه ، وفكر لحظة ، وأخيراً قال :
ـ انك لم تفعل حسناً ، ايها الرئيس ، لم تفعل حسناً ، ارجو عفوك . مزاح كهذا ، ايها الرئيس ... ان المرأة مخلوق ضعيف ، هش ، كم مرة يجب ان أقول لك ذلك ؟ ان اناء من الخزف الصيني يجب أن يدارى بحذر .

وشعرت بالخجل . لقد ندمت انا ايضاً ، لكن فات الاوان . وغيرت موضوع الحديث ، وسألته :
ـ والحبال ؟ والأدوات ؟
ـ لقد جئت بكل شيء ، كل شيء ، لا تغضب ! « الطعام كامل والكلب

شبعان » . المصعد ، ولولا ، وبوبولينا ، كل شيء على اتم ما يرام ، ايهــا الرئيس !

ورفع الابريق عن النار ، وملأ فنجاني ، وقدم لي كعكا بسمسم اتى به معه وحلوى معسولة كان يعرف انني أحبها . وقال لي بحنان :

ـ لقد جئتك بعلبة كبيرة من الحلوى ، كهدية ! انني لم أنسك . انظر ، ولقد اخذت ايضاً كيساً صغيرا من فستق العبيد للببغاء . انني لم أنسَ أحداً . فرأسي ، كما ترى ، في مكانه تماماً ، ايها الرئيس !

وأكلت الكعك ، وبعض الحلوى ، وشربـت القهوة وجلســت ارضاً . واحتسى زوربا أيضاً قهوته ، ودخن ، وراح ينظر اليّ ، وجذبتني عيناه مثل عيني ثعبان . وسألته محاولا ان يكون صوتي لطيفاً :

ـ هل حللت المشكلة التي كانت تقلقك ، أيها الخبيث ؟

ـ اية مشكلة ، ايها الرئيس ؟

ـ ما اذا كانت المرأة مخلوقاً بشرياً أم لا .

فأجاب زوربا وهو يهزّ يده الضخمة :

ـ دعك من هذا ! لقد انتهت المشكلة ! انها كائن بشري ، هي الاخرى ، كائن بشري مثلنا تماماً ـ بل وأسوأ ! عندما ترى حافظة نقودك ، تصــاب بالدوار ، وتلتصق بك ، وتفقد حريتها وتسر لفقدانها ، لان وراءها ، كما ترى ، حافظة النقود التي تلمع . لكن سرعان ... آه ! دعك من هذا ، أيها الرئيس !

ونهض ورمى سيجارته من النافذة ، وقال :

ـ والآن لنتكلم كرجال . ها هو « الاسبوع المقدس » قادم ، ولدينا الآن الحبال ، وقد آن أن نصعد الى الدير لنتحدث مع أولئك الخبثاء الاثرياء ونوقّع الاوراق من اجل الغابة ... قبل ان يروا المصعـد ، فيشمخوا برؤوسهـم ، أتفهم ؟ ان الوقت يمضي ، أيها الرئيس ، ولا يجدي فتيلا ان نبقى هنـــا ، ونتكاسل ، يجب ان نجني شيئاً ما الآن ، يجب ان تأتي المراكـب لتحمـل ، وتغطي النفقات ... لقد كلف السفر الى « كاندي » كثيراً . لعن الله الشيطان ، أترى ...

وصمت . وأشفقت عليه . فقد كان كطفل ارتكب حماقات ولا يـدري كيف يصلحها ، يرتعد بكل قلبه الصغير .

وهتفت في نفسي : « يا للعار ! هل يمكن ان نسمـح لنفس كهـذه ان ترتعد من الخوف ؟ انهض ، فأين يمكنك ان تجد زوربا آخر ؟ انهض ، وخـذ الاسفنجة ، وامحُ كل شيء ! » .

وصحت :

ـ زوربا ، دع الشيطان ، فلسنا بحاجة اليه ! ان هي الا أمور قد مضت ونسيت • خذ السانتوري !

وفتح ذراعيه وكأنه يريد من جديد ان يطوقني • لكنه اعاد اغلاقهما ، وهو لا يزال متردداً •

وبخطوة واحدة ، وصل الى الجدار • وانتصب على اطراف اصابعه ، وانزل السانتوري • وفي اللحظة التي اقترب فيها من نور مصباح الزيت ، لمحت شعره : كان أسود كالدهان • فصحت :

ـ قل ، ايها الخبيث ، ما هذا الشعر ؟ من اين جئت به ؟

وطفق زوربا يضحك :

ـ لقد صبغته ، ايها الرئيس ، لا تندهش ، لقد صبغته ، الخائن •••

ـ لماذا ؟

ـ بسبب الكبرياء ، وحق ابليس ! كنت أتنزه ذات يوم مع لولا وانا امسك بذراعها • اعني ••• انظر ، هكذا ، بطرف أصابعي فقط ! واذا بصبي أزعر لعين ، لا يصل الى فخذي ، راح يزعجنا • وأخذ ابن العاهرة يصرخ : « ايه ! ايها العجوز ، ايه ! الى اين تأخذها ايها العجوز ، حفيدتك ؟ » •

وخجلت لولا ، وخجلت انا ايضاً ، كما ترى • وذهبت في ذلك المساء بالذات ، كي لا تشعر لولا بالخجل بسببي ، الى الحلاق لأعيد الى شعري سواده •

واخذت اضحك • ونظر اليّ زوربا بجدية :

ـ هذا يبدو لك مضحكاً ، ايها الرئيس ؟ ومع ذلك ، انظر الى حقيقتنا كبشر • لقد أصبحت منذ ذلك اليوم رجلا آخر • ان من يراني يعتقد ، وانا اعتقد ذلك ايضاً ، ان شعري أسود حقاً ـ اننا ننسى بسهولة كما ترى ما لا يلائمنا ـ وانني لأقسم لك ان قواي قد ازدادت • ولقد تبينت لولا ايضاً ذلك • والالم الذي كان في ظهري ، أتذكر ؟ لقد زال ! انت لا تصدقني • ان هذه الاشياء ، كما ترى ، لا تكتبها كتبك •••

وضحك بسخرية ، لكنه سرعان ما أسف لذلك ، وقال :

ـ أعذرني ، ايها الرئيس • ان الكتاب الوحيد الذي قرأته في حياتي هو « السندباد البحري » ، اما الفائدة التي استخلصتها منه •••

وانزل السانتوري ، ونزع الغطاء عنه بحنان وبطء ، وقال :

ـ هيا الى الخارج • ان السانتوري هنا ، بين هذه الجدران الاربعة ، غير

مرتاح . انه حيوان متوحش ، وهو بحاجة الى مدى شاسع .

وخرجنا . كانت النجوم تقدح شررا . ودرب المجرة تسيل من طرف السماء الى طرفها الآخر . والبحر يغلي .

وجلسنا على الحصى . وراحت الامواج تلعق باطن أقدامنا . وقال زوربا :

ـ عندما تتملكنا الكآبة ، فعلينا ان نمنح انفسنا وقتاً طيباً . هل تتصور ، هي ، اننا سنستسلم ؟ تعالَ هنا ، ايها السانتوري !

وقلت :

ـ اعزف لحناً ماسيدونياً ، من بلدك ، يا زوربا .

فقال زوربا :

ـ بل لحناً كريتياً من بلدك أنت ! سأنشدك مقطوعة تعلمتها في «كاندي» ولقد تغيرت حياتي منذ ان عرفتها .

وفكر لحظة ، وقال :

ـ لا ، لم تتغير ، لكنني افهم الآن انني كنت محقاً .

ووضع اصابعه الضخمة على السانتوري ومد عنقه . وارتفع صوته المتوحش ، المبحوح ، المتألم :

عندما تتخذ قراراً ، لا تخف ، والى الامام !

ارخِ الحبل لشبابك ، ولا تقيّده !

وتفرقت الهموم ، وهربت المتاعب الوضيعة ، وبلغت النفس قمتها الخاصة . وأصبحت لولا ، والليجنيت ، والمصعد ، و « الابدية » ، والمتاعب الصغيرة والكبيرة ، كل ذلك اصبح دخاناً ازرق تبدد في الاجواء ولم يبق الا عصفور فولاذي ، النفس الانسانية التي تنشد .

وهتفت عندما انتهت الاغنية المتكبرة :

ـ انني اهديك كل شيء ، يا زوربا ! انني اهديك كل ما فعلته المغنية ، وشعرك المصبوغ ، والمال الذي انفقته ، كل شيء ، كل شيء ! انشدني مزيداً !

ورفع من جديد عنقه المعروقة :

أيها الشجاع ، يا اسم الاسماء ، تقدّم ، وليحصل ما يحصل !

فاما ان تخطىء ضربتك ، واما ان تربح !

وسمع حوالي عشرة من العمال كانوا يرقدون قرب المنجم الاغاني . فنهضوا ، ونزلوا بسرعة ، وتجمعوا حولنا . كانوا يصغون الى لحنهم المفضل ، ويشعرون بالتنمّل في سيقانهم .

وفجأة ، برزوا من العتمة ، نصف عراة ، مشعثي الشعور ، بقمصانهم الفضفاضة ، بعد ان اصبحوا عاجزين عن تمالك أنفسهم أكثر من ذلك ، وشكلوا دائرة حول زوربا والسانتوري وأخذوا يرقصون فوق الحصى الضخم ·

ورحت انظر اليهم منفعلا ، بصمت ، وقلت في نفسي : « هوذا العرق الحقيقي الذي كنت ابحث عنه · انني لا اريد غيره » ·

***

في اليوم التالي ، قبل طلوع النهار ، كانت الانفاق ترن بضربات المعاول وصراخ زوربا · والعمال يشتغلون بحمية · ان زوربا هو الوحيد الذي يستطيع السيطرة عليهم هكذا · ان العمل معه يصبح خمراً ، وغناء ، وحباً ، وهم ينتشون · أن الحياة لتحيا في يديه · والصخور ، والفحم ، والخشب ، والعمال ، يسيرون على ايقاعه ، وتنشب حرب في الانفاق ، تحت ضوء غاز الاستصباح الابيض ، وزوربا يسير في الطليعة ويناضل جسداً لجسد · انه يعطي اسماً لكل نفق ولكل عرق ، يعطي وجهاً للقوى التي لا وجه لها ، وعندئذ يصبح من الصعب عليها ان تفلت منه ·

كان يقول : « عندما اعرف ان هذا النفق هو نفق كانافارو (هكذا عمّد النفق الاول) فانني اطمئن · انني اعرفه باسمه ، فلا يجرؤ على عمل مقلب لي · وكذلك لا « الام الرئيسة » ولا « المعوجة الساقين » ولا « المبولة » · انني اعرفها جميعها ، اؤكد لك ، وكلاً باسمه » ·

كنت قد نزلت في ذلك اليوم الى النفق دون ان يلمحني زوربا · كان يصرخ بالعمال حسب عادته عندما تتملكه الحمية :

ـ هيا ! هيا ! الى الامام ! سنتغلب على الجبل ، أيها الرفاق ! اننا رجال ، أليس كذلك ! وحوش مفترسة ، والاله الطيب يرانا ويقشعر بدنه · انتم ، الكريتيين ، وانا ، الماسيدوني ، سنتغلب على الجبل ، وليس هو الذي سيتغلب علينا ! لقد تغلبنا على تركيا ، أليس كذلك ، اذن فهل يخيفنا هذا الجبل الذي لا قيمة له ؟ الى الامام !

وجاء احدهم راكضاً نحو زوربا · وعلى ضوء غاز الاستصباح لمحت انف ميميتو الضيق · وقال بصوته الذي يأكل نصف الحروف :

ـ زوربا ··· زوربا ···

والتفت هذا ورأى ميميتو ، وفهم · ورفع يده الضخمة ، وصاح :

ـ اغرب عني ! أيها الأبله !

لكن العبيط بدأ يقول :

ـ انني قادم من طرف السيدة ٠٠٠

ـ اغرب عني ، اقول لك ! لدينا عمل ٠

وجرى ميميتو مهرولا ٠ وبصق زوربا ، ثائراً ، وقال :

ـ لقد ُخلق النهار للعمل ٠ النهار رجل ٠ وخلق الليل للاحتفالات : الليل امرأة ٠ يجب ألا تخلط الامور !

وفي تلك اللحظة ، تقدمت ، وقلت :

ـ أيها الاصدقاء ، لقد انتصف النهار ، وحان ان توقفوا العمل من أجل الطعام ٠

والتفت زوربا ، ورآني وقطّب وجهه ، وقال :

ـ مع اذنك ، أيها الرئيس ، دعنا ، اذهب لتناول الغداء ، أنت ٠ لقد اضعنا اثني عشر يوماً ، فيجب ان نعوض عنها ٠ ارجو لك شهية طيبة !

وخرجت من النفق ونزلت نحو البحر ٠ وفتحت الكتاب الذي كنت امسك به ٠ كنت جائعاً ، ونسيت جوعي ٠ وقلت في نفسي : « ان التأمل ايضاً منجم ٠٠٠ هيا ! » ٠ وغرقت في انفاق العقل الكبيرة ٠

كتاب مقلق عن جبال التيبت المغطاة بالثلوج ، والأديرة الغامضة ، والرهبان الصامتين بأثوابهم الصفراء ، الذين يرغمون الاثير ، بتركيز ارادتهم ، على ان يأخذ شكل رغائبهم ٠

من اعلى القمم ، هواء مسكون بالارواح ٠ وطنين العالم الباطل لا يصل الى هناك ٠ الناسك الكبير يأخذ تلاميذه ، وهم صبيان بين السادسة عشرة والثامنة عشرة ، ويقودهم في منتصف الليل الى بحيرة جليدية في الجبل ٠ فيخلعون ثيابهم ، ويحطمون الجليد ، ويغطسون ثيابهم في الماء المتجمد ، ويعيدون ارتداءها ويتركونها تجف على اجسادهم ٠ ثم يعيدون غطسها ، ويجففونها من جديد ، وهكذا ، سبع مرات ٠ وبعد ذلك يعودون الى الدير ليؤدوا فرض الصباح ٠

انهم يصعدون الى قمة ، على ارتفاع خمسة او ستة آلاف متر ٠ ويجلسون بهدوء ، ويستنشقون بعمق ، وانتظام ، عراة الصدر ، لا يبردون ٠ ويمسكون بكأس ماء متجمد بين راحاتهم ، وينظرون اليها ، ويركزون أنفسهم ، ويرمون بقوتهم على الماء المتجمد فيغلي الماء ٠ ثم يعدّون شايهم ٠

ويجمع الناسك الكبير تلاميذه حوله ويقول لهم : « شقيٌ من ليس في داخله منبع السعادة ! »

« شقي من يريد ان يعجب الآخرين !

« شقي من لا يحس أن هذه الحياة والحياة الاخرى ان هما الا حيـــاة واحدة ! » ٠

***

كان الليل قد أرخى سدوله ، ولم أعد أرى جيداً حتى استطيع متـابعة القراءة ٠ اغلقت الكتاب ونظرت الى البحر ٠ قلت في نفسي : « يجب ، يجب ان اتخلص من كل هذه الاشباح ٠٠٠ وهتفت : شقي من لا يستطيع الخلاص من البوذاوات ، والآلهة ، والاوطان ، والافكار ! » ٠

كان البحر قد أصبح أسود فجـــأة ٠ وراح القمر الفتي يتدحرج نحو مغربه ٠ ومن بعيد ، كانت كلاب ، في البســاتين ، تعوي بحزن والوادي كله ينبح ٠

وظهر زوربا ، ملوثاً ، موحلا ، وقميصه يتدلى مزقاً ٠

ورقد قربي ، وقال راضياً :

ـ لقد سارت الامور اليوم جيداً ، وقمنا بعمل طيب ٠

كنت اسمع كلمات زوربا دون ان اتمكن من فهم معناها ٠ كانت روحي ما تزال بعد فوق صخور عالية بعيدة وغامضة ٠

ـ بمَ تفكر ، ايها الرئيس ؟ انك في مكان آخر ٠

وعدت بنفسي والتفت ٠ ونظرت الى صديقي ، وهززت رأسي ٠ واجبت :

ـ انك تتصور ، يا زوربا ، انك سندباد بحري رائع ، وانت تعيد البحث فيما لديك لانك عشت حياة رحلة ومغامرة في كل العـــالم ٠ لكنك ، لم ترَ شيئاً قط ، أيها الشقي ! ولا انا ايضا ٠ ان العالم أوسع بكثير مما نعتقد ٠ اننا نسافر ، ونطوف في البر والبحر ، ومع ذلك فاننا لا نكون قد تجاوزنا عتبة بيتنـــا ٠

وثنى زوربا شفتيه ، لكنه لم يقل شيئاً ٠ لقد دمدم فقط مثـل كلب أمين عندما يضرب ٠ وتابعت :

ـ توجد جبال ، عالية جداً ، لا حدود لها ، مليئة بالأديرة ٠ وفي تلك الاديرة يعيش رهبان بأثوابهم الصفراء ٠ انهم يظلون جالسيـــن ، وارجلهـــم متصالبة ، شهراً ، وشهرين ، وستة اشهر ، ولا يفكرون الا بشيء واحـــد وحيد ٠ واحد فقط ، أتسمع ؟ لا أثنين ، بل واحد ! انهم لا يفكرون ، مثلنا ، بالمرأة والليينيت او بالكتب والليينيت : انهم يركزون نفوسهم على شيء واحد لا غير ، ويقومون بالمعجزات ٠ وهكذا تحدث المعجزات ٠ هل رأيت يا زوربا ، عندما تضع زجاجة مكبرة تحت الشمس وتجمع كل الاشعة على نقطة واحدة ؟

ان هذه النقطة سرعان ما تشتعل ٠ لماذا ؟ لان قوة الشمس لم تتوزع ، لقد اجتمعت كلها على هذه النقطة الواحدة ٠ وكذلك روح الانسان ٠ اننا نقوم بالمعجزات بتركيز روحنا على شيء واحد لا غير ٠ أتفهم ، يا زوربا ؟

كان زوربا يلهث ٠ وانتفض للحظة كأنه يريد الهرب ٠ لكنه تمالك نفسه ٠ ودمدم بصوت مخنوق :

ـ تابع ٠

لكنه سرعان ما انتصب باستقامة ، قافزاً ٠ وصرخ :

ـ اصمت ! اصمت ! لمَ تقول لي هذا ، ايها الرئيس ؟ لمَ تسمم قلبي ؟ لقد كنت مرتاحاً هنا ، فلماذا تدفعني ؟ كنت جائعاً ، فألقى لي الرحمن أو الشيطان بعظمة فأخذت ألعقها ٠ وأهزّ ذنبي وانا اصيح : « شكراً ! شكراً ! » ٠ اما الآن ٠٠٠

ضرب الارض برجله ، وأدار ظهره ، وقام بحركة وكأنه يبادر بالذهاب نحو الكوخ ، لكنه كان ما يزال يغلي ، فتوقف ٠ وزمجر :

ـ بف ! ٠٠٠ ! العظمة الجميلة ٠٠٠ مغنية عجوز قذرة ! سفينة عجوز قذرة !

وتناول قبضة من الحصى رماها الى البحر ٠ وصرخ :

ـ لكن من هو ، من هو الذي يلقي لنا بالعظام ؟

وانتظر لحظة ، واذ لم يسمع اي جواب يأتي ، توترت اعصابه ، وصرخ:

ـ ألا تقول شيئاً ، ايها الرئيس ؟ اذا كنت تعلم ، فقل لي ، حتى اعرف اسمه ، انا ايضاً ، ولا تغضب ، فسأجازيه كما يجب ! لكن هكذا ، على غير هدى ، دون ان أدري في أي اتجاه يجب ان أسير ؟ انني سأحطم رأسي ٠

فقلت :

ـ الجوع ٠ اهتم بالطبخ ٠ سنأكل أولا !

ـ ألا يمكننا ان نظل ولو مساء واحداً بلا طعام ، ايها الرئيس ؟ كان لي عم راهب وكان لا يأكل ايام الاسبوع الا الماء والملح ٠ وفي ايام الآحاد والاعياد كان يضيف قليلا من النخالة ٠ ومع ذلك فقد عاش مئة وعشرين عاماً ٠

ـ لقد عاش مئة وعشرين عاماً ، يا زوربا ، لأنه كان يؤمن ٠ لقد وجد الهه ، ولم يعد يشغله همّ ٠ لكننا ، نحن يا زوربا ، ليس لنا اله يغذينا ، اذن اشعل النار ، فلدينا بضع سمكات ٠ اصنع حساء حاراً ، ثقيلا ، مع كثير من البصل والفلفل ، كما نحبه ٠ ثم سنرى ٠

فقال زوربا غاضباً :

ـ ما الذي سنرى ؟ فعندما تمتلىء بطوننا ، سننسى كل ذلك ٠

ـ هذا ما اريده بالضبط!فتلك هي قيمة الطعام ، يا زوربا ۰ هيا ، اصنع لنا حساء من السمك ، يا عجوزي ، والا سينفجر رأسنا !

لكن زوربا لم يحرك ساكناً ۰ كان يقف ، جامداً ، يحدّق فيّ ۰ وقال :

ـ اصغ ايها الرئيس ۰ انني اعرف مشاريعك ۰ فمنذ لحظة ، عندما كنت تحدثني ، عبرت ذهني ومضة ، ورأيت !

فسألته بتشوق :

ـ وما مشاريعي ، يا زوربا ؟

ـ انك تريد ان تبني ديراً ، هوذا الامر ! ديراً تضع فيه ، بدلا من الرهبان ، بعض الكتّاب من نوع سيادتك يمضون وقتهم في التحبير ليل نهار ۰ ثم يخرج من فمك ، مثل القديسين الذين نراهم على الصور ، شرائط مطبوعة ۰ قل ، ألم احزر ؟

خفضت رأسي محزوناً ۰ أحلام الشباب القديمة ، وأجنحة عريضة فقدت ريشها ، ورغبات ساذجة ، سخية ، نبيلة ۰۰۰ ان نبني مجتمعاً روحياً، ونسجن أنفسنا فيه مع عشرة من الرفاق ـ موسيقيين ورسامين وشعراء ـ ونعمل طوال النهار ، ولا نلتقي الا في المساء ، ونأكل ونغني معاً ، ونقرأ ، ونطرح الاسئلة الكبرى ، ونهدم الاجوبة القديمة ۰ وكنت قد حررت دستور المجتمع ۰ بل لقد وجدت ايضاً البناء ، في منطقة « القديس يوحنا الصياد » ، في أحد ممرات جبل الهيميت ۰۰۰

وقال زوربا وكله سرور ، وهو يراني صامتاً :

ـ لقد حزرت ، اذن فسوف اطلب منك خدمة ، يا رئيس الدير القديس: ستأخذني ، في ذلك الدير ، كبواب ، كي اقوم بقطع الطريق وأسمح من حين لحين بمرور بعض الاشياء الغريبة : النساء ، والقيثارات ، ودنان العرق ، والخنازير الصغيرة المحمرة ۰۰۰ كل هذا كي لا تبدد حياتك في التفاهات وحدها !

وضحك وتوجه بحمية نحو الكوخ ۰ وجريت وراءه ۰ ونظف السمكات دون ان يفتح فمه ۰ وجئت انا بالخشب ، وأشعلت النار ۰ وعندما نضج الحساء ، أخذنا ملاعقنا ورحنا نأكل من القدر نفسها ۰

لم يفه أحدنا ببنت شفة ۰ اننا لم نأكل شيئاً طوال النهار ۰ فرحنا نلتهم الحساء بوحشية ۰ وشربنا خمراً ، وعاد الينا مرحنا ۰ وفتح زوربا فاه :

ـ انه لأمر مسلٍ ، ايها الرئيس ، ان تأتي الآن السيدة بوبولينا ! لا ينقصنا شيء الا هي ۰ ومع ذلك ، أتريد ان اقول لك ، ايها الرئيس ؟ لقد

سئمت منها ، بحق ابليس !

ـ ألا تسأل الآن من الذي يلقي اليك بهذه العظمة ؟

ـ وما يهمك من الامر ، ايها الرئيس ؟ انها قملة بين كومة من التبن ٠ خذ العظمة ولا تهتم باليد التي تلقي بها اليك ٠ ألها طعم مستساغ ؟ أعليها شيء من اللحم ؟ تلك هي المسألة ٠ اما الباقي ٠٠٠

فقلت وأنا أربّت على كتف زوربا :

ـ لقد أتم الطعام معجزته ! لقد هدأ الجسد الجائع ! اذن فقد هدأت ايضاً النفس التي تسأل ٠ جيء بالسانتوري !

لكن في اللحظة التي نهض فيها زوربا ، سمعنا وقع خطا صغيرة مستعجلة وثقيلة على الحصى ٠ وارتعد منخرا زوربا المشعران ، وقال بصوت خافت وهو يربت على فخذيه :

ـ « اذكر الديب وحضّر القضيب ! » ٠ ها هي ! لقد استنشقت الكلبة رائحة زوربا في الهواء فجاءت ٠

ـ انني ذاهب ٠ لقد سئمت من الامر ٠ سأقوم بجولة ٠ تدّبر امرك !

ـ ليلة سعيدة ، ايها الرئيس !

ـ ولا تنس ، يا زوربا ! لقد وعدتها بالزواج ، فلا تكذّبني ٠

وتنهّد زوربا :

ـ أأتزوج مرة اخرى ، ايها الرئيس ؟ لقد سئمت !

واقتربت رائحة الصابون المعطر ٠

ـ تشجّع ، يا زوربا !

وخرجت بسرعة ٠ وسمعت لهاث الجنّية العجوز ٠

- ١٦ -

في اليوم التالي ايقظني صوت زوربا ، عند الفجر ·

ـ ما بك في مثل هذه الساعة المبكرة ؟ لماذا تصرخ ؟

فقال وهو يملأ كيس طعامه :

ـ ليس الأمر خطيراً ، ايها الرئيس · لقد جئت ببغلتين ، انهض ، فسنذهب الى الدير لنوقّع الاوراق ثم نبدأ بتنفيذ المصعد · ليس هناك غير شيء واحد يخيف الاسيد ، وهو القملة · ان القمل سيأكلنا ، ايها الرئيس !

فقلت وانا اضحك :

ـ لماذا تعامل بوبولينا المسكينة كقملة ؟

لكن زوربا تظاهر بأنه لم يسمع ، وقال :

ـ هيّا ، قبل ان ترتفع الشمس عالياً ·

كنت راغباً ، اشد الرغبة ، في التنزه عبر الجبل ، وتنشق رائحة الصنوبر · وامتطينا الدابتين ، وبدأنا بالصعود · وتوقفنا قليلا عند المنجم حيث ابلغ زوربا توصياته للعمال : أن يعمّقوا « الأم الرئيسة » ، ويحفروا مجرى للماء في « المبولة » ، وينظفوا « كانافارو » ·

كان النهار يتألق مثل ماسة بالغة النقاء · وكلما ارتفعنا ، ارتفعت الروح ، وتطهرت · وشعرت ، مرة أخرى ، بتأثير الهواء النقي والتنفس الخفيف والافق الشاسع ، على الروح · وكأن الروح ، هي ايضاً ، حيوان له رئتان ومنخران ، فهي بحاجة الى كثير من الأوكسجين ، وتختنق في الغبار وبين الانفاس الخانقة الكثيرة ·

كانت الشمس قد اصبحت عالية عندما دخلنا غابة الصنوبر · كان الهواء يعبق برائحة العسل ، والريح تهبُّ فوقنا ، هادرة كالبحر ·

كان زوربا ، خلال الرحلة ، يتأمل انحدار الجبل · وكان يتخيل انه قد

غرس الاوتاد كل عدة امتار ، فيرفع عينيه ويرى الحبل يلمع تحت الشمس ويهبط مستقيماً حتى الشاطىء · وجذوع الاشجار المقطوعة تنساب ، وهي مربوطة بالحبل ، تئز كالنبال :

وراح يفرك يديه ويقول :

ـ عمل طيب ! عمل من ذهب · سنجمع المال بالرفش وسنفعل ما قلناه·

ونظرت اليه مدهوشاً ·

ـ ايه ، انك تتصرف وكأنك نسيت ! قبل ان نبني الدير ، سنذهب الى الجبل الكبير · كيف تدعوه ؟ طيبة ؟

ـ التيبت ، يا زوربا ، التيبت ··· لكن فقط نحن الاثنان · ان ذلك المكان لا يتحمل النساء ·

ـ ومن الذي يحدثك عن النساء ؟ ثم انهن ، بعد كل شيء ، مفيدات ، المسكينات ، لا تتحدث بشر عنهن · انهن مفيدات عندما لا يكون امام الرجل عمل رجولي عليه ان يقوم به ، كأن يستخرج الفحم ، ويغزو المدن ، ويتحدث عن الرحمن · وما الذي يبقى امامه في هذه الحالة حتى لا يفطس ؟ انه يشرب الخمر ، ويقامر ، ويداعب النساء · وينتظر ··· ينتظر ان تأتي ساعته ـ اذا كانت ستأتي ·

وصمت لحظة · ثم عاد يقول مغضباً :

ـ اذا كانت ستأتي ! لأنه من الجائز جدا الا تأتي ابداً !

وبعد لحظة اضاف :

ـ ان الحال لا يمكن ان تستمر هكذا ، ايها الرئيس ، فاما ان تصغر الارض ، واما ان اكبر انا · والا فانني هالك !

وظهر راهب بين اشجار الصنوبر ، أحمر الشعر ، مصفرّ البشرة مشمراً عن أكمامه ، وعلى رأسه قبعة مستديرة من الصوف البني · وكان يمسك بقضيب من الحديد ، ويضرب الأرض به ، ويمشي بخطا عريضة · وعندما رآنا توقف ، ورفع عصاه ، وسألنا :

ـ الى اين تذهبان ، ايها الشجاعان ؟

فأجاب زوربا :

ـ الى الدير ، لنؤدي واجباتنا ·

فصرخ الراهب وعيناه الزرقاوان الباهتتان تحمرّان :

ـ عودا من حيث جئتما ، ايها المسيحيان ! عودا من حيث جئتما ، من اجل الخير الذي اريده لكما ! ان هذا الدير ليس حديقة « العذراء » ، بل

بستان ابليس • الفقر ، والطاعة والعفة ••• اكليل الراهب كما يقولون ! هيْ ! هيْ ! هيْ ! اذهبا ، أقول لكما • المال ، والكبرياء ، والغلمان ! هـذا هو ثالوثهم الأقدس •

وهمس زوربا في أذني مسروراً :

ـ انه لظريف ايها الرئيس •

ومال نحوه وسأله :

ـ كيف تدعى ، ايها الأخ الراهب ؟ وأي رياح اتت بك ؟

ـ انني أدعى زكريا • لقد حزمت امتيعتي ، وهأنذا ذاهب • انني ذاهب، ذاهب ، لم اعد استطع التحمل ! انعم علي بالتعرف الى اسمك ، ايها المواطن •

ـ كانافارو •

ـ ان الحال لا تحتمل ، ايها الاخ كانافارو • ان المسـيح ليئنّ طوال الليل ويمنعني من النوم • فأئنُ انا معه ، وعندئذ دعـاني رئيس الـدير ـ لتشوه ألسنة الجحيم ! ـ باكر هذا اليوم وقال لي :

ـ حسناً ، ايها الاخ زكريا ، الا تدع اخوتك ينامون ؟ سأطردك •

فقلت له :

ـ أنا الذي لا يدعهم ينامون ؟ أأنا ام المسيح ؟ انه هو الذي يئن !

عند ذاك رفع عصاه ، عدو المسيح ، انظر انظرا ! وخلـع قلنسوتـه وكشف عن بقعة من الدم المتخثر فوق شعره •

ـ عندئذ نفضت الغبار عن حذائي ومضيت •

فقال زوربا :

ـ عد معنا الى الدين ، وسأصالحك مع الرئيس • تعال ، ستكون رفيقنا وتدلنا على الطريق • ان السماءهي التي ارسلتك •

ففكر الراهب لحظة • والتمعت عيناه ، وقال :

ـ ماذا تريد ؟

ـ كيلو من السمك المملح وزجاجة كونياك •

وانحنى زوربا ونظر اليه وقال :

ـ بالمناسبة ، الا يسكن في داخلك ابليس ، ايها الاخ زكريا ؟

فانتفض الراهب ، وسأله مذهولا :

ـ كيف حزرت ؟

فأجاب زوربا :

ـ انني قادم من جبل آتوس ، وانا أعرف عن مثل هذا الموضوع !

وخفض الراهب رأسه . وخفت صوته الى حد انه لم يعد يسمع ، واجاب :

ـ نعم ، في داخلي ابليس .

ـ وهو يريد السمك والكونياك ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، عليه اللعنة ثلاث مرات !

ـ حسناً ، اتفقنا ! وهو يدخن ايضاً ؟

ورمى اليه زوربا بسيجارة تلقفها بشراهة . وقال :

ـ انه يدخن ، انه يدخن ، ليلتهمه الطاعون !

واخرج من جيبه حجر صوان وفتيلة ، واشعل السيجارة واستنشق من كل رئتيه . وقال :

ـ باسم المسيح !

ورفع عصاه ، واستدار على عقبيه ، وبدأ السير .

وسأله زوربا وهو يغمزني بعينه :

ـ وكيف يدعى ، شيطانك ؟

فأجاب الراهب دون ان يلتفت :

ـ يوسف !

ان رفقة هذا الراهب نصف المجنون لم تكن لتعجبني . ان عقلا عاجزاً ، مثل الجسد العاجز ، يثير فيّ الشفقة والاشمئزاز معاً . لكنني لم أقل شيئاً . وتركت زوربا يفعل ما يحلو له .

وفتح الهواء النقي شهيتنا . فجلسنا تحت شجرة صنوبر عظيمة وفتحنا كيس الطعام . وانحنى الراهب بشراهة ، يبحث بعينيه عما يحويه . وصاح زوربا :

ـ أيْ ! أيْ ! لا تلعق شفتيك سلفاً ، يا زكريا ! اليوم هو الاثنين المقدس . اننا لكفرة نحن ، لهذا فسنأكل قليلا من اللحم ، ودجاجة ، وليسامحني الله ! لكن لدينا أيضاً حلوى وزيتون من اجل قداستك ، خذ !

وداعب الراهب لحيته الدسمة وقال بندم ظاهر :

ـ أنا ، أنا زكريا ، انني اصوم ، وسآكل زيتونا وخبزا وسأشرب ماء بارداً ... لكن يوسف ، باعتباره شيطاناً ، سيأكل قليلا من اللحم ، يا اخويّ ، انه يحب الدجاج كثيراً وسيشرب الخمر من ابريقكما ، اللعين !

ورسم اشارة الصليب ، وابتلع بشراهة خبزاً ، وزيتونا ، وحلوى ، ومسح فمه بظهر يده ، وشرب ماء ثم رسم اشارة صليب ثانية وكأنه انهى

طعامه . وقال :

ـ والآن حان دور يوسف ، عليه اللعنة ثلاث مرات ...

والقى بنفسه على الدجاجة . وراح يتمتم بحنق ، وهو يتلقف لقمـاً كبيرة .

ـ كل ، أيها اللعين ! كل !

وقال وزربا بحماسة :

ـ مرحى ، أيها الراهب ! ان في قوسك أكثر من وتر واحد (١) ، على ما أرى .

والتفت نحوي :

ـ كيف وجدته أيها الرئيس ؟

فأجبت ضاحكاً :

ـ انه يشبهك .

وقدم زوربا للكاهن ابريق الخمر :

ـ يوسف ، اشرب جرعة !

فقال الراهب وهو يمسك بالابريق ، ويثبته على فمه :

ـ اشرب ، أيها اللعين !

كانت الشمس قد اصبحت قاسية ، فابتعدنا قليلا نحو الظـل . كان الراهب تفوح منه رائحة العرق اللاذع والبخور ، والعرق ينسال منـه تحت الشمس وكأنه يذوب . وقاده زوربا نحو الظل حتى لا تفوح منه روائـح كثيرة . وسأله بعد ان أكل جيداً وأحس بالحاجة الى الثرثرة :

ـ كيف اصبحت راهباً ؟

فقهقه الراهب :

ـ لعلك تعتقد ان ذلك بسبب القداسـة ؟ كم انت مخطىء ! بسبب الفقر ، يا أخي ، بسبب الفقر . لما لم يكن عندي شيء آكله قلت في نفسي : ليس عليك الا ان تدخل الدير كي لا تفطس من الجوع !

ـ وهل انت مسرور ؟

ـ ليتمجد اسم الرب ! انني غالبـاً ما اتألم لكن لا تهتم بذلك . انني لا اتألم للأرض ، عليها اللعنة ... كل يوم ألعنها ... لكنني اتألم للسماء . انني اروي نكتاً ، واتظاهر بالمرونة ، ويضحك الرهبان عندما يرونني . انهم

---

١ تعبير يقال لمن لديه اكثر من وسيلة واحدة لانجاح مشروع ما . «هـ.م» .

يقولون انني ممسوس ، ويشتمونني • لكنني اقول لنفسي : « هـــذا ليس ممكناً ، بل من المؤكد ان الاله الطيب يحب المزاح • ادخل يا مهرجي ، ادخل، يا صغيري ! هكذا سيقول لي ذات يوم • تعال لتضحكني ! » • وهـــكذا ، كما ترى ، فانني سأدخل الى الجنة كمهرج •

فقال زوربا وهو ينهض :

ـ اعتقد ، يا صديقي ، ان رأسك على كتفيك حقاً ! هيا ، قبـــل ان يفاجئنا الليل !

ومن جديد ، سار الراهب في المقدمة • وبدا لي وانا اصعد الجـبل ، انني اتسلق في داخلي مشاهد روحية ، وانني امر من هموم وضيعة الى هموم أكثر سموا ، ومن حقائق السهل البسيطة الى نظريات وعرة •

وفجأة توقف الراهب ، وقال وهو يرينا كنيسة صغيرة تعلوها قبـــة مستديرة مهيبة :

ـ سيدة الانتقام !

وسجد ورسم اشارة الصليب •

ونزلت عن البغل ، ودخلت الى صحن الكنيسة الرطب • ولمحـت في احدى الزوايا ، ايقونة قديمة سودها الدخان ، مثقلة بالنذور : قطع رقيقة من الفضة حفر عليها بدون اتقان صور ارجل ، وايـــدٍ ، واعين ، وقلوب ••• وكان ثمة قنديل من الفضة يشتعل أمام الايقونة ، لا ينطفىء أبداً •

واقتربت بصمت : كان ثمة تمثال مستوحش للعذراء المحاربة ، بعنقها المشدودة ، ونظرتها القاسية القلقة العذرية ، وهي تمسك ، ليس بالطفـــل الالهي ، بل بحربة طويلة مستقيمة • وقال الراهب بخوف :

ـ شقي من يمس الدير بسوء ؟ انها تنب عليه وتبقره بحربتها • لقد جاء الأمر ، في الماضي ، واحرقوا الدير • لكن انتظر ، سترى ما كلفهم هذا الأمر ، الكفرة : ففي اللحظة التي مروا فيها امام هـــذه الكنيسة ، اندفعت العذراء القديسة من الايقونة واسرعت الى الخارج • وهيا ، فها هي تأخـــذ حربتها وتضرب ، وتضرب هنا ، وتضرب هناك ، وقتلتهم جميعاً • ان جدي لا يزال يذكر عظامهم وقد ملأت الغابة كلها • ومنذ ذلك الحين ، سموها «سيدة الانتقام » • وكانوا قبل ذلك يسمونها « **سيدة الرحمة** » •

فسأل زوربا :

ـ ولماذا لم تقم بمعجزتها قبل ان يحرقوا الدير ، ايها الأب زكريا ؟

فأجاب الراهب وهو يرسم اشارة الصليب ثلاث مرات :

ـ انها ارادة القدير جداً !

فتمتم زوربا وهو يمتطي ظهر البغل من جديد :

ـ يا للقدير جداً : الى الامام !

وبعد فترة قصيرة ، ظهر دير العذراء ، فوق هضبة ، محاطاً بالصخور والصنوبر • وبدا لي هذا الدير ، الهادىء ، المبتسم ، المنعزل عن العالم ، في حضن هذه القمة الخضراء العالية ، المنسجم بعمق مع سمو الذرى وعذوبة السهل ، كملجأ أحسن اختياره للتأمل البشري •

وقلت في نفسي : « ان نفساً صابرة وعذبة تستطيع ، هنا ، ان ترفع قمة الانسان الى الوجه الديني • انها ليست قمة وعرة فوق القدرة البشرية ، ولا سهلا كسولا مريحاً ، بل كل ما يلزم كي ترتفع النفس دون ان تفقد عذوبتها الانسانية • ان مثل هذا المكان لا يصنع لا ابطالا ولا خنازير • انه يصنع بشراً » •

ان هذا المكان يصلح ليكون اطاراً رائعاً لمعبد مهيب من اليونان القديمة او لجامع اسلامي مرح • ولا بد ان ينزل الله هنا بثيابه البشرية البحتة • لا بد ان يمشي عاري القدمين على العشب الربيعي ، ويتحادث بألفة واطمئنان مع البشر •

وتمتمت :

ـ يا للروعة ، يا للعزلة ، يا للغبطة !

ونزلنا عن الدابتين ، وعبرنا الباب المقوس الشكل ، وصعدنا الى قاعة الاستقبال حيث قدمت لنا الوجبة التقليدية ، مع العرق والمربى والقهوة • وجاء الأب المضيف ، وأحاطنا الرهبان ، وبدأ الحديث • عيون خبيثة ، وشفاه لا ترتوي ، ولحى ، وشوارب ، وآباط تفوح منها رائحة الخراف • وسألنا راهب قلق :

ـ ألم تأتيا بجريدة ؟

فقلت مندهشاً :

ـ جريدة ؟ وما حاجتكم اليها هنا ؟

فهتف راهبان او ثلاثة باستنكار :

ـ جريدة لنرى ، ايها الأخ ، ماذا يجري للعالم !

كانوا واقفين ، متشبثين بقضبان الشرفة ، ينعقون كغربان ، ويتحدثون بحماسة عن انكلترا ، وروسيا ، وفينزيلوس ، والملك • لقد نفاهم العالم ، لكنهم ، هم ، لم ينفوا العالم • كانت اعينهم مليئة بمدن

كبيرة ، ودكاكين ، ونساء ، وصحف ٠٠٠

ونهض راهب بدين ، كث الشعر ، وقال لي وهو يشهق :

ــ لدي شيء أريد ان اريكه ، وستقول لي رأيك فيه ، انت ايضاً ٠ سأذهب لآتي به ٠

وذهب ، ويداه المشعرتان القصيرتان فوق بطنه ، وهو يجر نعليه المصنوعين من الجوخ ، واختفى وراء الباب ٠

وقهقه الرهبان بخبث ، وقال الاب المضيف :

ــ لقد ذهب الأب ديميتيوس ، ليأتي من جديد بتمثال الراهبة الغضاري ٠ لقد طمرها الشيطان في الارض لمأرب في نفسه ، وذات يوم بينما كان ديميتيوس يجتاز الحديقة ، وجدها ، وجاء بها الى صومعته ، ومنذ ذلك الحين ، فقد المسكين القدرة على النوم ٠ ولن يتأخر به الحال عن فقدان عقله ايضاً ٠

ونهض زوربا ٠ فقد يكاد يختنق ، وقال :

ــ لقد جئنا لنرى قداسة رئيس الدير ، ولنوقع الأوراق ٠

فأجاب الاب المضيف :

ــ ان قداسة رئيس الدير ليس موجوداً ، لقد ذهب هذا الصباح الى القرية ٠ عليك بالصبر ٠

وظهر الاب ديميتيوس من جديد . كانت يداه ممدودتين ومضمومتين، وكأنه يحمل الكأس المقدسة ٠ وقال وهو يفتح يديه بحذر :

ــ ها هي !

اقتربت ، ورأيت تمثالا صغيراً جداً من صنع « تاناغرا » يبتسم ، نصف عارٍ ، بظرف ، بين راحتي الراهب البدينتين٠ وكانت الراهبة تمسك بيدها الوحيدة الباقية رأسها ٠ وقال ديميتيوس :

ــ حتى تشير الى رأسها ، فلا بد ان فيه حجراً كريماً ، من الجائز ماسة ، او لؤلؤة ٠ ما رأيك ؟

فقاطعه أحد الرهبان بسخرية مرة :

ــ انا اعتقد ان رأسها يوجعها ٠

لكن ديميتيوس البدين ظلّ ينظر اليّ ، وشفتاه متدليتان كشفتي تيس ، وينظر بالتياع شديد ٠ وقال :

ــ من رأيي ان نكسرها لنرى ٠٠ ٠ان النوم لم يعد يطرق جفوني ٠٠٠ ماذا لو كان فيها ماسة ؟

ونظرت الى الفتاة الشابة الجليلة بثدييها الصغيرين الناهدين ، المنفية هنا بين روائح البخور والآلهة المصلوبين الذين يلعنون الجسد والضحك والقبلة ٠

آه ! لو كنت استطيع انقاذها !

وتناول زوربا تمثال الغضار ، وجسَّ جسد المرأة النحيف ، وتوقفت أصابعه مرتجة فوق الثديين المدببين الناهدين ٠ وقال :

ـ لكن ألا ترى ، ايها الراهب الطيب ، انها الشيطان ؟ انه هو بشخصه ، وليس هناك مجال للخطأ ٠ لا تهتم ، فأنا اعرفه جيداً ، هذا اللعين ٠ انظر الى صدرها ، ايها الاب ديميتيوس ، مستديراً ، ناهداً ، لدناً٠ هكذا هو صدر الشيطان ، انني اعرفشيئاً عن ذلك !

وظهر راهب شاب عند العتبة ٠ وأضاءت الشمس شعره الذهبي ووجهه المستدير المزغب ٠

وغمز الراهب ذو لسان الأفعى بعينه الأب المضيف ٠ وابتسم كلاهما ابتسامة خبيثة ٠ وقالا :

ـ ايها الأب ديميتيوس ، هوذا تلميذك ، غابرييل ٠

وامسك الراهب بالمرأة الصغيرة الغضارية واتجه نحو الباب ، وهو يتدحرج كبرميل ٠ وكان التلميذ الجميل يسير في المقدمة ، بصمت ، بخطا متوازنة ٠ واختفى الاثنان في الرواق الطويل شبه المتهدم ٠

وأشرت لزوربا وخرجنا ٠ كانت الحرارة عذبة ، وفي وسط الباحة تعبق شجرة برتقال مزهرة ، وبالقرب منها يتدفق الماء هادراً من فم كبش من الرخام القديم ٠ ووضعت رأسي تحت الفم ، وشعرت بنفسي قد عادت اليَّ الرطوبة ٠ وقال زوربا باشمئزاز :

ـ قل اذن ، ما لهؤلاء الناس ؟ انهم ليسوا رجالا ، ولا نساء ، انما بغال ٠ افٍ ! احرى بهم ان يشنقوا انفسهم !

وغطس رأسه ايضاً في الماء البارد واخذ يضحك ، وكرر :

ـ أفٍ ! احرى بهم ان يشنقوا انفسهم ! ان الشيطان يسكنهم جميعاً ٠ أحدهم يريد امرأة ، والآخر سمكاً ، والآخر مالا ، والآخر صحفاً ٠٠٠ مجموعة من الحمّيات ! لماذا لا ينزلون الى العالم ، ليشبعوا من كل ذلك ، ويطهروا عقولهم ؟ !

وأشعل سيجارة وجلس على مقعد تحت شجرة البرتقال المزهرة ٠ وقال :

ـ انا ، عندما ارغب في شيء ما ، أتعرف ماذا أفعل ؟ انني آكل منه

حتى التقزز كي اتخلص منه ولا افكر به مطلقاً • او افكر بـــه باشمئزاز •
عندما كنت طفلا ، كنت مجنوناً • لم يكن لدي مال كثيـر ، لهــذا كنت لا
اشتري كثيراً منه دفعة واحدة ، وبعد ان آكل ما اشتريه ، تظل بي شهوةالى
المزيد منه • كنت لا افكر ليل نهار الا بالكرز ، ويسيل له لعابي ، وأتألـــم
حقاً ! لكنني ذات يوم غضبت بشدة ، او بالاحرى خجلت ، لست أدري على
الضبط ! لقد أحسست بأن الكرز يفعل بي ما يشاء وبـأن هــذا يجعلني
مضحكاً ، اذن ، فما الذي فعلت ؟ نهضت في الليل خلسة ، وبحثت في جيوب
أبي ، ووجدت « مجيدية » من الفضة ، فأخذتها ، وفي الصباح الباكر ذهبت
الى بقال • واشتريت سلة من الكرز ، وجلست في حفرة ، وأخذت بالأكل •
وأكلت ، وأكلت ، حتى انتفخت بطني • وبعد فترة اخــذت بطني توجعني
وتقيأت • وتقيأت ، وتقيأت ايها الرئيس ، ومنذ ذلـك الحين انتهت قصة
الكرز • بل انني لم اعد أستطيع حتى ان أتصوره • لقـد تخلصت • صرت
انظر اليه واقول : لست بحاجة اليك • وفعلت الشيء نفسه فيما بعد مـــع
الخمر والتبغ • انني لا أزال أدخن ، واشرب • لكن عندما اريد ان أكـف ،
أكف • ان الرغبة لم تعد مسيطرة علي • والشيء نفسه ، بالنسبة للوطن
لقد رغبت فيه ، فأكلت منه حتى الشبع ، وتقيأت ، وتخلصت منه •

فسألته :

ـ والنساء ؟

ـ ان دورهن سيأتي أيضاً ، العاهرات ، سيأتي ! لكن عندمـا ابلـــغ
السبعين •

وفكر لحظة ، وبدا له ان ما قاله قليل ، فقال :

ـ بل الثمانين • ان هذا يضحكك ايها الرئيس ، لكن هيــا ، فأنت
تستطيع ان تضحك كثيراً ! ان الانسان يتحرر هكذا ، اصغ جيداً الى مـــا
أقول لك ، انه يتحرر هكذا ، بأن يشبع من كل شيء يخطر له ، لا بأن يزهد
فيه • كيف تستطيع ، يا صديقي ، أن تتخلص من الشيطان ، اذا لم تصبح
انت بنفسك شيطاناً ونصف شيطان ؟

وظهر ديميتيوس في الباحة دهشاً ، يتبعه الراهـب الشـاب الاشقر •
فتمتم زوربا ، وهو يتأمل وحشيته ومهابة شبابه :

ـ انه لأشبه بملاك غاضب !

واقتربا من الدرج الحجري الذي يقود الى الصومعات العالية • والتفت
ديميتيوس ، ونظر الى الراهب الصغير وقال له شيئاً ما • وهـــز الراهب
الصغير برأسه ، وكأنه يرفض • لكنه سرعان ما انحنى بخضوع • وأحاط

خصر الراهب الهرم بذراعه وصعدا الدرج ببطء ٠

وسألني زوربا :

ـ أترى ؟ أترى ؟ سادوم وعامورة !

ومد راهبان رأسيهما ٠ وتغامزا بالعين ، وهمسا شيئاً ما ، وأخذا يضحكان ٠ ودمدم زوربا :

ـ يا للخبث ! ان الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً ، أما الرهبان ، فبلى ! انظر اليهم وهم يتعاضون ، الواحدة تعض الاخرى ٠

فقلت ضاحكاً :

ـ الواحد يعض الآخر ٠

ـ لكن الشيء واحد ، هنا ، يا صديقي ، لا تتعب رأسك ! انني اقول لك ، انهم بغال ، ايها الرئيس ! تستطيع ان تقول ، حسب مزاجك ، غابرييل أو غابرييلا ، ديميتيوس او ديميتيا ٠ هيا بنا ، ايها الرئيس ، لنوقع الاوراق بسرعة ، ولنذهب ٠ ان الامر سينتهي بنا هنا ، بشرفي ، الى ان نقرف من الرجال والنساء معاً ٠

وخفض صوته وقال :

ـ لدي ايضاً مشروع ٠٠٠

ـ أعمل جنوني آخر ، يا زوربا ؟ ألا ترى انك فعلت ما فيه الكفاية ؟ هيا ، قل لي مشروعك !

فرفع زوربا كتفيه وقال :

ـ كيف اقوله لك ، ايها الرئيس ٠ انك ، استمحيك عفواً ، رجل شجاع ، انسان يهتم بأصغر هموم الآخرين ٠ انك اذا وجدت قملة ألى جانب لحافك ، أيام الشتاء ، فانك تضعها تحته كي لا يصيبها برد ٠ كيف تستطيع أن تفهم لصاً هرماً ، مثلي ؟ انني لو وجدت قملة لسحقتها ٠ ولو وجدت خروفاً لحززت عنقه ، ووضعته على السفود ، وتلذذت بأكله مع الرفاق ٠ قد تقول لي : ان هذا الخروف ليس لك ٠ انني اعترف بذلك ٠ لكن دعنا ، ايها الأخ ، لنأكله في البدء ، وبعد ذلك نتحدث ونتناقش بكل هدوء عما هو « ملكك » وعما هو « ملكي » ٠ انك تستطيع أن تتكلم قدر ما تشاء بينما أكون انا منهمكاً في تنظيف اسناني بعود ثقاب ٠

ورنت الباحة بقهقهته ٠ وظهر زكريا ، مرتبعاً ٠ ووضع اصبعاً على شفتيه واقترب على أطراف أصابعه ٠ وقال :

ـ صمتاً ! لا تضحكا ! انظرا ، هناك في الاعلى ، وراء النافذة المفتوحة ،

ان الاسقف يعمل · انها المكتبة · وهو يكتب · انه يكتب طوال اليوم ، هـذا الرجل القديس ، لا تصرخا !

فقال زوربا وهو يجر الراهب من ذراعه :

ـ ها أنت ، انني أود محادثتك ، ايها الأب يوسف ! هيا الى غرفتك ، لنتحدث قليلا ·

وأضاف وهو يستدير نحوي :

ـ اذهب ، أنت ، اثناء ذلك ، لزيارة الكنيسة وتأمل الأيقونات القديمة · اما أنا فسأنتظر رئيس الدير ، انه لن يتأخر · وعلى الاخص لا تتدخل في أية قضية لأنك ستضر بنا ! دعني اعمل ، فلدي خطتي ·

ومال على اذني :

ـ سنحصل على الغابة بنصف الثمن ··· لا تقل شيئاً ·

ومضى بسرعة ، وذراعه في ذراع الراهب المجنون ·

- ١٨ -

عبرت عتبة الكنيسة وغرقت في عتمتها الشفافة الرطبة العبقة ·

كانت الكنيسة مقفرة · شمعدنات البرونز ترسل نوراً شاحباً ، والهيكل المشغول بدقة يحتل آخر الكنيسة ، أشبه بدالية ذهبية محملة بالعناقيد · وكانت الجدران مغطاة ، من أعلاها الى أسفلها ، بزخارف نصف ممحوة تمثل نساكاً مخيفين أشبه بالهياكل العظمية ، وآبار الكنيسة ، ودرب آلام المسيح الطويل ، وملائكة أقوياء وغاضبين ، تحيط بشعورهم شرائط عديمة اللون ·

وفي الأعلى ، على القبة ، تقف « العذراء » ، ممدودة الذراعين ، ضارعة · وكان ثمة نور راجف ينبعث من قنديل ثقيل من الفضة يشتعل أمامها ، ويلعق ويداعب بكسل وجهها الطويل المعذب · انني لن أنسى أبداً عينيها المتألمتين ، وفمها المزموم المستدير ، وذقنها العنيدة · وقلت في نفسي : هي ذي «الأم» راضية تماماً ، سعيدة تماماً ، حتى في أصعب لحظاتها ألماً ، لأنها تحس بأنه قد خرج من أحشائها الفانية شيء ما خالد ·

عندما تجاوزت عتبة الكنيسة من جديد ، كانت الشمس آخذة بالغروب· فجلست تحت شجرة البرتقال ، سعيداً · كانت قبة السماء تتورد ، وكأن الفجر يشرق · ومضى الرهبان الى غرفهم ليستريحوا · انهم بحاجة الى هذه الراحة ، لأنهم لن يناموا الليل · فالمسيح سيبدأ ، هذا المساء ، بتسلق الجلجلة ، وعليهم ان يصعدوا معه · وكان ثمة خنزيرتان سوداوان ، أثداؤهما وردية ، تتناومان ، وهما مستلقتيان تحت شجرة خرنوب · والحمامات فوق الأسطحة ، تتزاوج ·

وقلت في نفسي : الى متى سأظل حياً ، قادراً على الاحساس بعذوبة الأرض ، والهواء ، والصمت ، ورائحة شجرة البرتقال المزهرة ؟ كان قلبي قد طفح بالسعادة عندما تأملت في الكنيسة أيقونة للقديس باخوس · وتجلى

أمامي من جديد كل ما يثير انفعالي بعمق : الاتحاد في الرغبة ، والاستمرار في الجهد . لتتبارك تلك الأيقونة الصغيرة الرائعة التي تمثل الفتى المسيحي بشعره المجعد المتساقط على جبهته كعناقيد سوداء . ان ديونيزوس اله الخمر والنشوة الجميل والقديس باخوس ، يمتزجان فيّ ، ويأخذان الوجه نفسه . تحت أوراق العنب وتحت ثوب الراهب ، كان يختلج نفس الراجف الذي حرقته الشمس : اليونان .

وعاد زوربا . وقال لي فوراً :

ـ لقد وصل رئيس الدير ، وتحدثنا قليلا ، لكنه أصم أذنيه ، فهو لا يريد أن يتخلى عن الغابة من أجل قطعة خبز ، كما قال ، ان المحتال يطلب اكثر من ذلك ، لكنني سأتغلب عليه .

ـ لماذا أصم أذنيه ؟ ألم نكن متفقين ؟

فقال زوربا ضارعاً :

ـ لا تتدخل في الأمر ، أيها الرئيس ، أرجوك . ستهدم كل شيء . وها أنت تتحدث عن الاتفاق القديم . لقد دفنّاه !لا تقطب حاجبيك ، انني أقول لك : لقد دفناه ! سنحصل على الغابة بنصف الثمن .

ـ لكن ما الذي تهيئه ايضاً ، يا زوربا ؟

ـ لا تهتم بذلك . انه شغلي . سأضع زيتاً على البكرة ، وستأخذ بالدوران ، أتفهم ؟

ـ لكن لماذا ؟ انني لا أفهم .

ـ لأنني انفقت أكثر مما يجب في كاندي . لأن لولا قد اكلت مالي ، اعني انها اكلت كمية لا بأس بها من مالك . أتتصور أنني نسيت ؟ ان لي كبريائي ، فما الذي تظن ؟ لا أريد أن تلطخ سمعتي ! لقد انفقت ، وسأدفع . لقد قمت بالحساب : لقد كلفت لولا سبعة آلاف درهم ، وسأعوض عن المبلغ من الغابة . ان رئيس الدير ، والدير ، والقديسة العذراء ، هم الذين سيدفعون بدلا من لولا . هذه هي خطتي ، أتعجبك ؟

ـ مطلقاً . ما مسؤولية العذراء القديسة عن هباتك السخية ؟

ـ انها مسؤولة بل وأكثر من مسؤولة . انها ولدت ابنها . وابنها هو الله . ولقد خلقني الله ، أنا ، زوربا ، وأعطاني الأدوات التي تعرفها . وهذه الآلات اللعينة تفقدني رشدي وتفتح كيس نقودي ما ان أصادف الجنس الانثوي . أتفهم ؟ اذن ، فقداستها مسؤولة واكثر من مسؤولة . عليها أن تدفع .

ـ انني لا أحب هذا ، يا زوربا ·
ـ تلك هي مسألة أخرى ، ايها الرئيس · لننقذ اولا السبعة آلاف ليرة . ثم نتناقش بعد ذلك · « قبلني ، يا صغيري ، ثم أرجع من جديد عمتك ···» · أتعرف الاغنية ؟

وظهر الأب المضيف البدين وقال بلهجة رجال الكهنوت المرائية :
ـ تفضلا بالدخول ، فقد أعدّ العشاء ·

ونزلنا الى قاعة الطعام ، وهي عبارة عن غرفة كبيرة فيها مقاعد وموائد طويلة ضيقة · كان الجو يعبق برائحة الزيت الدهنية الحادة · وفي آخــر القاعة زخرفة قديمة تمثل « العشاء الأخير » · التلاميذ المخلصون الاحد عشر ، متجمعون كالخراف حول المسيح ، وفي مواجهتهم يقف يهوذا ، النعجة الجرباء، الأحمر الشعر ، المحدوب الجبهة ، الأقنى الانف ، بمفرده ، مديراً ظهره · ولم يكن المسيح ينظر الا اليه ·

وجلس الأب المضيف ، انا الى يمينه ، وزوربا الى شماله · وقال :

ـ اننا صائمون ، ستعذروننا : لا زيت ولا خمر على الرغم من أنكمـــا مسافران · اهلا بكما !

ورسمنا اشارة الصليب ، ورحنا نأكل بصمت زيتوناً وبصــلا أخضر ، وفولا طازجاً وحلوى · كنا ثلاثتنا نمضغ ببطء كأرانب · وقال المضيف :

ـ هذه هي الحياة هنا : صلب وصوم · لكن صبراً ، يا اخوتي ، صبراً ، فها هو البعث قادم مع الحمل ، وها هو ملكوت السماوات آتٍ ·

وسعلت · وداس زوربا على قدمي كأنه يقول لي : « اصمت ! » · وقال ليغير الموضوع :
ـ لقد رأيت الأب زكريا ···
فانتفض الاب المضيف وسأل زوربا بقلق :
ـ هل قال ذلك الممسوس شيئاً ؟ ان فيه الشياطين السبعة ، لا تصغِ اليه ! ان روحه ملوثة وهو يرى الدنس في كل مكان ·

وقرع الجرس ، بأسى ، بـــدء الاسبـــوع الحزيـــن · فرســـم الأب المضيف اشارة الصليب ونهض قائلا :

ـ انني ذاهب ، فآلام المسيح قد بدأت · هيا اذن نحمل الصليب معه · تستطيعان ان تستريحا هذا المساء ، فأنتما متعبان بسبب الطريق · لكن غداً في قداس منتصف الليل ···

وما كاد الراهب يخرج حتى دمدم زوربا بين شفتيه :
ـ أشرار ! أشرار ! كذابون ! بغال ! بغال !
ـ ما بك ، يا زوربا ؟ هل قال لك زكريا شيئا ما ؟
ـ دعك من هذا ايهـا الرئيس ، لكن لا تغضب اذا كانوا لا يريـدون التوقيع ، سأريهم عن حق من انا !
وصعدنا الى الغرفة التي أعدت لنا • في احدى زواياها ، كانت هنـاك ايقونة تمثل العذراء وهي تضع خدها على خد ابنها ، وعيناهـا الكبيرتـان مليئتان بالدموع •
وهزّ زوربا رأسه :
ـ أتعرف لماذا تبكي ، ايها الرئيس ؟
ـ كلا •
ـ لأنها ترى • لو كنت ، انا ، رسام ايقونات ، لرسمت العـذراء دون عينين ، دون أذنين ، دون أنف • لأنني أشفق عليها •
وتمددنا على فراشينا القاسيين • كانت تفوح من العوارض رائحـة السرو • ومن النافذة المفتوحة كانت تدخل أنفاس الربيـع المحملة بأريـج الزهور • ومن حين الى حين ، كانت الانغام الجنائزية تأتي من الباحة ، وكأنها نفحات ريح • وراح بلبل يغني قرب النافذة ، وتبعه آخر ، على مسافة أبعد قليلا ، وآخر ايضاً • كان الليل يطفح بالحب •
لم أستطع النوم • وامتزج نشيد بندب المسيح ، وحاولت ، انا ايضا ، ان أتسلق الجلجلة ، بين اشجار البرتقال المزهرة ، مستدلا بقطرات الـدم الكبيرة • ولمحت ، في الليل الربيعي الأزرق ، عرق المسيح البارد يتلألأ على جسده الشاحب المنهك • ورأيت يديه تمتدان راجفتين ، كأنه يتضرع ، كأنه يتسول • وكان اهل الجليل المساكين يسرعون في اثره ويهتفون : « هوسنا ! هوسنا ! » ، وهم يحملون سعف النخيل • ويفرشون معاطفهم تحت قدميه • وكان هو ينظر الى الذين يحبهم ، لكن لم يكن ثمة احد منهم يدرك يأسه • كان هو الوحيد الذي يعرف انه ذاهب الى الموت • وتحت النجوم ، راح يبـكي بصمت ويعزي قلبه البشري المسكين المليء بالهلع : « انت ايضاً يا قلبي عليك، مثل حبة القمح ، ان تثوي تحت التـراب وتمـوت • لا تخف • والا فكيف ستتحول الى سنبلة ؟ كيف ستستطيع ان تغذي البشر الذين يموتون جوعاً ؟»
لكن قلبه المرتعد كان ، على الرغم منه ، يرجف ولا يريد الموت •••
وسرعان ما طفحت الغابة ، حول الدّير ، بأناشيد البلابل التي تتصاعد

من أوراق الشجر الندية ، منسوجة من الحب والرغبة · وكان القلب الانساني المسكين يرجف ويبكي وينتفخ معها ·

وشيئاً فشيئاً ، دون ان اشعر ، دخلت ، مع آلام المسيح ، ومع نشيد البلبل ، في النوم ، كما تدخل النفس الى الجنة ·

* * *

لم يمضِ على نومي ساعة حتى استيقظت واثباً ، هلعاً ، وصحت :

ــ زوربا ، هل سمعت ؟ طلقة مسدس !

لكن زوربا كان جالساً في فراشه يدخن · وقال وهو يجهد في محاولة السيطرة على اعصابه :

ــ لا تهتم ، ايها الرئيس ، دعهم يسووا حساباتهم ·

وسمعنا صراخاً في الممر ، وصوت نعال تجرجر ، وأبواباً تفتح وتغلق ، ومن بعيد أنين رجل جريح ·

وقفزت من فراشي ، وفتحت الباب · وانتصب امامي شيخ معروق · ومد ذراعه كأنه يسد علي الطريق · كان يرتدي قبعة بيضاء مدببة ، وقميصاً أبيض يصل حتى ركبته ·

ــ من انت ؟

فقال بصوت يرتعد :

ــ الاسقف ···

وكدت انفجر ضاحكاً · اسقف ؟ أين هي زينته : حلة القداس المذهبة ، والتاج ، والعكاز ، والجواهر الزائفة الملونة ··· انها المرة الأولى التي أرى فيها اسقفاً في قميص النوم ·

ــ ما طلقة المسدس تلك ، يا مونسينيور ؟

فتمتم وهو يدفعني بلطف الى الغرفة :

ــ لست ادري ، لست ادري ···

وانفجر زوربا ، في فراشه ، ضاحكاً ، وقال :

ــ أأنت خائف ، أيها الأب الصغير ؟ ادخل ، هيا أيها الشيخ المسكين · اننا لسنا رهباناً ، فلا تخف ·

فقلت بصوت خافت :

ــ زوربا ، تحدث باحترام أكبر · انه الاسقف ·

ــ يا صديقي ، الانسان لا يكون اسقفاً ، عندما يكون في قميص النوم ! ادخل ، اقول لك ·

ـ وهذه هي الآن نظريتي الثانية : كل فكرة لها تأثير حقيقي ، لها أيضاً وجود حقيقي · انها هنا · انها لا تجري في الهواء غير مرئية · ان لها جسداً حقيقياً : عينين ، وفماً ، وقدمين ، ومعدة · انها رجل أو امرأة ، وهي تتبع الرجال أو النساء · لهذا فان الانجيل يقول : « لقد تجسدت الكلمة ··· » ·

ونظر الي من جديد بقلق · وقال بسرعة ، وهو لا يتحمل صمتي :

ـ نظريتي الثالثة هي هذه : هناك ابدية ، حتى في حياتنا الفانية ، لكن من الصعوبة علينا بمكان ان نكتشفها بمفردنا · ان الهموم اليومية تبعدنا عنها · ان البعض فقط ، النخبة ، يتوصلون الى ان يعيشوا الابدية ، حتى اثناء حياتهم الفانية · ولما كان الآخرون سيهلكون ، فقد اشفق الله عليهم وارسل اليهم الدين ، وهكذا أصبح بامكان الجماهير ان تعيش الابدية أيضاً ·

لقد انتهى · وكان من الواضح انه ارتاح لأنه تكلم ورفع عينيه الصغيرتين اللتين بلا اهداب ، ونظر الي مبتسماً · وكأنه يقول « خذ ، انني اعطيك كل ما املك ، خذه ! » · وشعرت بنفسي تنفعل ، وانا أرى هذا الشيخ الضئيل يقدم لي هكذا ، بطيبة قلب ، وهو لم يتعرف الي بعد تماماً ، ثمار حياته كلها ·

كانت الدموع قد ملأت عينيه · وسألني وهو يأخذ يدي بين يديه ويحدق فيّ ، وكأن جوابي سيكشف له عما اذا كانت حياته قد اجدت فتيلا ام لم تجد :

ـ ما رأيك في نظرياتي ؟

انني اعرف ان فوق الحقيقة يوجد واجب آخر اهم ، وأكثر انسانية ، لهذا اجبت :

ـ ان هذه النظريات يمكن ان تنقذ كثيراً من النفوس ·

وتألق وجه الأسقف · لقد كان هذا تبريراً لحياته كلها ·

وهمس وهو يشد على يدي بحنان :

ـ شكراً ، يا بني ·

وقفز زوربا من زاويته ، وصاح :

ـ انا عندي نظرية رابعة !

ونظرت اليه بقلق · والتفت الاسقف نحوه :

ـ تكلم ، يا بني ، لتتبارك فكرتك ! أية نظرية ؟

فقال زوربا بجدية :

ـ ان اثنين واثنين يساويان أربعة !

ونظر اليه الاسقف فاغر الفم • وتابع زوربا :

ـ ونظرية خامسة أيضاً ، أيها الشيخ الطيب : ان اثنين واثنين لا يساويان أربعة • اختر التي توافقك !

فتمتم الاسقف وهو يسألني بعينيه :

ـ انني لا افهم •

فقال زوربا وهو ينفجر ضاحكاً :

ـ ولا أنا •

والتفتُّ نحو الشيخ الضئيل المضطرب وغيرت موضوع الحديث بسؤاله :

ـ ما الدراسات التي تكرس نفسك لها ، هنا ، في الدير ؟

ـ انني اعيد نسخ مخطوطات الدير القديمة ، يا بني ! وفي هذه الايام اجمع كل الصفات التي تحدثت فيها كنيستنا عن « العذراء » •

وتنهد قائلا :

ـ انني مسن ، لا استطيع ان أفعل شيئاً آخر • انني اهدىء نفسي بجمع كل ألقاب العذراء ، وأنسى شقاء العالم •

واستند الى الوسادة ، وأغلق عينيه • وأخذ يتمتم ، كأنه يهذي : « الوردة التي لا تفنى ، الأرض الخصبة ، الكرمة ، العين ، النبع الذي ينشر المعجزات ، السلم الذي يصعد الى السماء ، طائر البحر ، مفتاح الجنة ، الفجر ، القنديل الأبدي ، العمود المتأجج ، البرج الثابت ، الحصن المنيع ، العزاء ، الفرح ، نور العمي جميعاً ، أم اليتامى كافة ، المائدة ، الغذاء ، السلام ، الاطمئنان ، العسل واللبن ••• » •

وقال زوربا بصوت خافت :

ـ انه يهذي ، هذا الساذج ••• سأغطيه حتى لا يصاب ببرد •••

ونهض والقى عليه بغطاء ، واصلح وضع الوسادة ، وقال :

ـ هناك سبعة وسبعون نوعاً من الجنون ، على ما سمعت ، لكن هذا هو النوع الثامن والسبعون •

كان النهار يشرق • وسمعنا صوت مزهر • وانحنيت من النافذة الصغيرة • ولمحت ، على نور الفجر الأول ، راهباً نحيفاً ، وعلى رأسه غطاء أسود طويل ، يدور في الباحة ببطء وهو يضرب بمطرقة صغيرة على لوح صغير من الخشب يصدر الحاناً متناغمة رائعة • كان صوت المزهر ينتشر في الجو الصباحي ، مليئاً بالعذوبة والانسجام والنداء • وكان البلبل قد صمت ،

وبدأت العصافير الأولى تغرد ، بين الأشجار ٠

ورحت أصغي ، مسحوراً ، الى لحن المزهر العـذب الموحي ٠ وقلت في نفسي : ان ايقاعاً مرتفعاً لحياة يستطيع ، حتى في لحظة انحطاطه ، ان يحتفظ بشكله الخارجي كله ، آسراً مليئاً بالنبل ! ان الروح تهرب ، لكنهـــا تترك مقامها سليماً ، هو الذي ظلت تشكله طوال قرون ، كالصَّدَفة ، رحباً ، معقداً، لتقيم فيه مرتاحة ٠

ان الكاتدرائيات الرائعة التي نصادفها في المدن الكبيرة الوثنية المليئـــة بالضجيج ، لهي اشبه بصدفات فارغة ٠ مسوخ من زمن ما قبل التاريخ لم يبق منها الا الهيكل العظمي الذي تأكلته الامطار والثلج ٠

وقرع باب غرفتنا ٠ وسمعنا صوت الأب المضيف الذي يتحدث مـــن حلقه :

ـ هيا ، انهضا من أجل قداس الصباح ايها الأخوان !

فقفز زوربا ، وصرخ على الرغم منه :

ـ ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟

وانتظر قليلا ٠ صمت مطبق ٠ ومع ذلك فقد كان الراهب لا يزال وراء الباب ، لأننا كنا نحس بأنفاسه المبهورة ٠ وضرب زوربـــا برجله ٠ وعـــاد يسأل حانقاً :

ـ ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟

وسمعنا خطى تبتعد بسرعة ٠ وبقفزة واحدة وصل زوربا الى البـــاب وفتحه ، وقال وهو يبصق على الراهب الذي كان يهرب بنفسه :

ـ كومة حمقى ! ايها الكهنة ، والرهبان ، والراهبات ، والابرشيون ، والسكرستانيون ، انني ابصق عليكم ٠

قلت :

ـ هيا بنا ، توجد رائحة دم هنا ٠

فدمدم زوربا :

ـ لو كان دماً فقط ! ستذهب انت الى القداس ، اذا كنت راغباً ٠ أمـــا انا فذاهب لأنقب هناك لعلي اكتشف شيئاً ما ٠

فقلت من جديد ، بانقباض :

ـ هيا بنا ٠ وأرجو ، من فضلك ، ألا تدس أنفك فيما لا يعنيك ٠

فضرخ زوربا :

ـ لكنني أريد أن ادسه هنا بالذات ، انفي !

وفكر لحظة ثم ابتسم بخبث قائلا :

ـ ان الشيطان ليقدم لنا خدمة رائعة ! اعتقد انه سيوصل الأمور الى الغاية المطلوبة . أتعرف ، ايها الرئيس ، كم يمكن ان تكلف الدير ، طلقة المسدس تلك ؟ سبعة آلاف ورقة !

ونزلنا الى الباحة . عبق الاشجار المزهرة ، وعذوبة الصباح ، والغبطة السماوية . وكان زكريا ينتظرنا . واسرع الى زوربا وامسك به من ذراعه . وتمتم وهو يرتعد :

ـ ايها الأخ كانافارو ، تعال ، هيا بنا من هنا !

ـ ماذا كانت طلقة المسدس تلك ؟ لقد قتل احد ؟ هيا ، ايها الراهب ، تكلم او اخنقك !

كانت ذقن الراهب ترتعد . ونظر حوله . كانت الباحة خالية ، والغرف مقفلة ، ومن الكنيسة المفتوحة تنساب الألحان متموجة . وتمتم :

ـ اتبعاني . سادوم وعمورة !

واجتزنا الباحة ، ونحن ننساب على طول الجدران ، وخرجنا من البستان . على بعة مئة متر تقريباً من الدير كانت تقع المقبرة . ودخلنا اليها .

وخطونا فوق القبور ، ودفع زكريا باب الكنيسة ودخلنا في اثره . في الوسط ، على بساط ، كان ثمة جسد ممدد ، مغطى بثوب راهب . والى جانب رأسه شمعة مشتعلة ، وعند قدميه شمعة أخرى .

فتمتمت وانا ارتعد :

ـ الراهب الصغير ! راهب الأب ديميتيوس الصغير الاشقر !

عند باب المعبد كان الملاك ميخائيل يقدح شرراً ، وقد فتح جناحيه ، واستل سيفه ، وانتعل نعلين احمرين .

وصرخ الراهب :

ـ ايها الملاك ميخائيل ! ارسل النار واللهيب ، واحرقهم جميعاً ! ايها الملاك ميخائيل ، أرفس رفسة ، واندفع خارج أيقونتك ! ارفع سيفك ، واضرب ! ألم تسمع طلقة المسدس ؟

ـ من الذي قتله ؟ من ؟ ديميتيوس ؟ تكلم ، يا ذا اللحية !

وانفلت الراهب من يدي زوربا وسقط على وجهه عند قدمي الملاك . ولبث فترة ساكناً ، منصوب الرأس ، جاحظ العينين ، فاغر الفم ، وكأنه يرقب شيئاً ما .

وفجأة نهض من جديد فرحاً ، وقال بلهجة حاسمة :
ـ سأحرقهم • لقد تحرك الملاك ، لقد رأيته ، لقد اشار اليّ •
واقترب من الايقونة ، وألصق شفتيه الغليظتين على سيف الملاك ، وقال :
ـ ليتبارك الله ! لقد عاد الاطمئنان اليّ •
وأمسك زوربا بالراهب من تحت ذراعيه من جديد وقال :
ـ تعالَ هنا ، يا زكريا ، هيّا ، ستفعل ما سأقوله لك •
والتفت نحوي :
ـ أعطني المال ، أيها الرئيس ، سأوقع الاوراق بنفسي • ان جميعهم ، هناك في الداخل ، ذئاب ، أما أنت فحمل ، انهم سيلتهمونك • دعني أفعل • لا تغضب ، انهم بين يدي ، أولئك الغلاظ ! سنغادرهم عند الظهر ، والغابة في جيبنا • هيا يا صاحبي زكريا !

وانسابا خلسة نحو الدير • وذهبت أنا لأتنزه تحت شجر الصنوبر •

كانت الشمس قد علت ظهر السماء ، والندى يتلألأ على الاوراق • وطار شحرور أمامي ، وحط على غصن شجرة كمثرى برية ، وحرك ذنبه ، وفتح منقاره ، ونظر اليّ وصفر مرتين او ثلاثاً بسخرية •

كنت ألمح الرهبان ، عبر أشجار الصنوبر ، في الباحة ، وهم يخرجون صفوفاً صفوفاً ، منحنين ، على أكتافهم براقع سود • كان القداس قد انتهى وهم ذاهبون الآن الى قاعة الطعام •

وقلت في نفسي : « يا للخسارة أن يكون مثل هذا التقشف ، ومثل هذا النبل ، دون روح من الآن فصاعداً ! »

كنت متعباً ، لم أنم جيداً ، فتمددت على العشب • كانت ازهار البنفسج البرية ، والوزال ، والعبيشران ، والقويسة تعبق • والحشرات تطن ، جائعة ، وتنقضّ على الأزهار كالقراصنة وتمتص العسل • ومن بعيد كانت الجبال تقدح بالشرر ، شفافة ، هادئة ، مثل كتلة بخار متحركة في نور الشمس المحرق •

وأغلقت عيني ، بخدر • وتملكني فرح خفي ، غامض ، وكأن هذه المعجزة الخضراء التي تحيطني كلها هي الجنة ، وكأن هذه الرطوبة ، وهذه الخفة ، وهذه النشوة المعتدلة ، كلها هي الله • ان الله يبدل وجهه في كل لحظة • وسعيد من يستطيع ان يتعرفه تحت كل اقنعته ! فهو تارة قدح ماء بارد ، وتارة اخرى ابن يثب على ركبتيك ، أو امرأة ساحرة ، أو بكل بساطة نزهة صباحية صغيرة •

وشيئاً فشيئاً ، اصبح كل شيء حولي ، دون ان يبدل شكله ، حلماً ٠ كنت سعيداً ٠ ان الارض والجنة قد اتحدتا فاذا همـا كل واحد ٠ وبدت لي الحياة كزهرة حقل في قلبها قطرة عسل كبيرة ، وروحي كنحلة متوحشـة ترتشف الرحيق ٠

وفجأة خرجت بعنف من هذه الغبطة ، فقد سمعـت خلفي وقع أقـدام وهمسات ٠ وفي اللحظة نفسها تعالى صوت مرح :

ـ أيها الرئيس ، اننا ذاهبون !

ووقف زوربا أمامي ، وعيناه الصغيرتان تتألقان ببريق شيطاني ٠ وقلت باطمئنان :

ـ أذاهبون ؟ هل انتهى كل شيء ؟

فقال زوربا وهو يربت على جيب سترته الاعلى :

ـ كل شيء ! انها هنا ، تلك الغابة ، لتأتينا بالحظ ! وهي ذي السبعة آلاف ورقة التي أخذتها منا لولا !

وأخرج من جيبه الداخلي رزمة اوراق ٠ وقال :

ـ خذها ، انني أدفع ديوني ، ولن اشعر بالخجل امامك بعد الآن ٠ ان فيها ايضاً الجوارب ، والحقائب ، والعطور ومظلة السيدة بوبولينا ٠ وكذلك فستق الببغاء ! وبالاضافة الى ذلك ، الحلوى التي جئت بها اليك !

فقلت :

ـ انني اهديكها ، يا زوربا ، فاذهب واشعل شمعة بطولك للعذراء التي اهنتها ٠

واستدار زوربا ٠ كان الأب زكريا يتقـدم بقلنسوته المخضرة القذرة وحذائيه الباليين ٠ وكان يجر بغلين بالرسن ٠ وأشار زوربا اليه برزمة المال وقال :

ـ سنتقاسمها ، أيها الآب يوسف ، ستشتري مئة كيلو من السمـك المملح وتأكل منها ، يا صاحبي المسكين ، ستأكل منها حتى تنفجر بطنك ٠ حتى تتقيأ وتتخلص ! تعالَ ، افتح يدك ٠

وتلقف الراهب كدسة المال وخبأها في صدره ٠ وقال :

ـ سأشتري بترولا ٠

ـ يجب أن يكون الوقت ليلا ، والجميع نياماً ، والريح ناشطة ٠ ستصب على الجدران من الزوايا الاربع ٠ ليس عليك الا ان تغطس المزق ، والمسّاحات ، وقطع القماش ، وكل ما تجد ، في البترول وتضع فيها النار ٠ أفهمت ؟

كان الراهب يرتعد ٠

ـ لا ترتعد هكذا يا صاحبي ! لقد اصدر اليك الملاك الامر ؟ اذن عليك بالبترول ، كثير من البترول !٠٠٠ ولترافقك العافية !

وامتطينا الدابتين ٠ والقيت نظرة أخيرة على الدير ٠ وسألت :

ـ هل علمت شيئاً ، يا زوربا ؟

ـ بخصوص طلقة المسدس ؟ لا تهتم بالأمر ، ايها الرئيس ٠ ان زكريا على حق : سادوم وعمورة ! لقد قتل ديميتيوس الراهب الصغير الجميل ٠ هذا هو الامر !

ـ ديميتيوس ؟ لماذا ؟

ـ دعك من الامر ، أقول لك ، ايها الرئيس ، انه ليس الا قذارات ونتن ٠

واستدار نحو الدير ٠ كان الرهبان يخرجون من قاعة الطعام ، محنيي الرؤوس ، متصالبي الأيدي ، ذاهبين الى غرفهم ليسجنوا أنفسهم فيها ٠ وصاح :

ـ لعنتكم عليّ ، ايها الآباء المقدسون !

- ١٩ -

كان أول شخص التقينا به ونحن نترجل عن دابتينا ، على شاطئنا ، بعد ان أرخى الليل سدوله ، هو بوبولينا ، وقد انكمشت على نفسها امام الكوخ ٠ وعندما اشعلنا المصباح ورأيت وجهها ، ارتعدت فرائصي ٠

ـ ماذا بك ، أيتها السيدة هورتانس ؟ أأنت مريضة ؟

كانت جنيتنا العجوز قد فقدت كل اغرائها المشبوه الذي لا يمكن تحديده ، منذ اللحظة التي راحت فيها تداعب في صدرها الكبير ، الزواج ٠ فقد راحت تجهد نفسها لمحو كل الماضي ولاطراح الريش الفاقع اللون الذي تزينت به والذي نزعته من الباشاوات ، والبكوات والاميرالية ٠ انها لم تعد تطمح الا في ان تصبح زاغاً جاداً ومستقيماً ٠ امرأة شريفة ٠ انها لم تعد تتخضب ، ولا تتزين ، بل تركت نفسها على ما هي ٠

ولم يفتح زوربا فاه ٠ بل راح يفتل بعصبية شاربه الذي لم يمضِ وقت طويل على صبغه ٠ وانحنى ، واشعل الموقد ، ووضع ماء ليصنع منه قهوة ٠

وقال فجأة صوت المغنية العجوز الأبحّ :

ـ وحش !

ورفع زوربا رأسه ونظر اليها ٠ وعادت عيناه الى عذوبتهما ٠ كان من المستحيل عليه ان يسمع امرأة تخاطبه بصوت ممزق ، دون ان يتبدل تماماً ٠ ان دمعة امرأة يمكن ان تغرقه ٠

لم يقل شيئاً ، بل وضع البن والسكر ، وحرّك الماء ٠ وهدلت الجنية العجوز :

ـ لماذا تتركني انتظر طويلا قبل ان تتزوجني ؟ انني لم اعد أجرؤ على الظهور في القرية ٠ لقد فقدت شرفي ! سأنتحر !

كنتُ قد تمددت ، متعباً ، على سريري ٠ ورحت ، وأنا مستند الى

الوسادة ، اتذوق هذا المشهد المضحك المثير للاعصاب ٠

– لماذا لم تأتِ بأكاليل الزواج ؟

وشعر زوربا بيد بوبولينا البدينة ترتعد على ركبته ٠ لقد كانت هذه الركبة ، آخر مكان ثابت في الارض تتشبث به هذه المخلوقة التي أغرقت ألف مرة ومرة ٠

ولا شك في ان زوربا قد فهم ذلك وان قلبه قد لان ٠ لكنه لم يقل شيئاً هذه المرة ايضاً ٠ وصب القهوة في ثلاثة فناجين ٠ وكررت بصوت راجف :

– لماذا لم تأتِ بالأكاليل ، يا عزيزي ؟

فأجاب زوربا بلهجة جافة :

– لا يوجد في كاندي أكاليل جميلة ٠

وقدم الى كل فنجانه وقبع في زاوية ، وأضاف :

– لقد كتبت الى أثينا ليرسلوا لنا أكاليل جميلة ، وأوصيت أيضاً على شموع بيضاء ، وملبس محشو بالشوكولا واللوز المحمّص ٠

كان كلما اغرق في الكلام ، زاد خياله اشتعالا ٠ وكانت عيناه تقدحان شرراً ٠ وراح زوربا ، وهو اشبه بالشاعر في لحظة الخلق ، يحلق في الاجواء التي تمتزج فيها الرؤية والحقيقة وتصبحان كالأختين ٠ كان قابعاً ، يستريح ويرتشف بصوت مسموع قهوته ، وأشعل سيجارة ثانية : فقد كان اليوم طيباً ، والغابة الآن في جيبه ، وقد دفع دينه ، فهو مسرور ٠

وانطلق قائلا :

– يجب ان يثير زواجنا ضجة ، يا بوبولينتي الصغيرة ٠ سترين اي قبعة للعرس أوصيت لك بها ! ولهذا السبب بقيت طويلا في كاندي ! يا حبّي ٠ لقد استقدمت خياطتين من اثينا وقلت لهما : « ان المرأة التي سأتزوجها لا مثيل لها لا في الشرق ولا في الغرب ! لقد كانت ملكة الدول الاربع ! لكنها اليوم ارملة ، اذ ان الدول قد ماتت ، لذا فهي تقبلني زوجاً ٠ اذن اريد ان يكون ثوب عرسها لا مثيل له ، وهي ايضاً تريده هكذا : كله من حرير ، مزيناً باللآلىء وبالنجيمات الذهبية ! » ٠ فأطلقت الخياطتان صيحات عالية : « لكنه سيكون جميلا جداً ! ستبهر عيون جميع المدعوين ! » ٠ فقلت : « ليصبهم ما يصيبهم ٠ فما شأني بهم ؟ بشرط ان تكون محبوبتي مسرورة ! » ٠

كانت السيدة هورتانس تصغي ، مستندة الى الحائط ٠ وكان ثمة ابتسامة كثيفة ، مليئة ، قد ربضت على وجهها الصغير الجاف المتجعد ، وشريط عنقها الوردي يكاد ينقطع ٠ وهمست وهي ترمي زوربا بنظرة اتعبها

الانفعال :

ـ أريد أن اقول لك شيئاً في اذنك ·

وغمزني زوربا بعينيه وانحنى · واسرّت له العروس القادمة وهي تدس لسانها الصغير في الاذن الكبيرة المليئة بالشعر :

ـ لقد جئتك ، هذا المساء ، بشيء ما ·

واخرجت من صدرها منديلا معقودة احدى زواياه وقدمته الى زوربا ·

وتناول زوربا باصبعه المنديل الصغير ، ووضعه على ركبته اليمنى ، ثم استدار نحو الباب ، ونظر الى البحر · وقالت :

ـ ألا تحل العقدة ، يا زوربا ؟ ارى انك لست مستعجلا !

فأجاب :

ـ دعيني اولا اشرب قهوتي وادخن سيجارتي · لقد حللتها وانا أعرف ما فيها ·

فتضرعت الجنية :

ـ حُلّ العقدة ، حل العقدة !

ـ سأدخن أولا سيجارتي ، لقد قلت ذلك !

ورماني بنظرة مثقلة بالتأنيب وكأنه يقول لي : « كل ذلـك ، بسبب غلطتك ! » ·

كان يدخن السيجارة ببطء وينفث الدخـان من منخريه وهو ينظر الى البحر · وقال :

ـ ستهبّ غداً ريح السموم · لقد تبدل الطقس · ستنتفخ الاشجـار ، وكذلك اثداء الصبايا ، ولن تحتمل بعد الآن مشدات الصدور · ايها الربيع الخبيث ، اذهب ، فابليس هو الذي اخترعك !

وصمت · وبعد مضي ثوانٍ قليلة :

ـ ان كل ما هو جميل في هذا العالم قد اخترعه الشيطان : النســاء الجميلات ، والربيع ، والخنزير المحمَّر ، والخمر ، كل هذا ، انما الشيطان هو الذي اوجده · اما الاله الطيب فقد أوجد الرهبان ، والصوم ، ونقيع البابونج ، والنساء القبيحات ، اُفٍ !

والقى ، وهو يقول ذلك ، نظرة حادة على السيدة هورتانس المسكينـة التي كانت تصغي اليه ، قابعة في احدى الزوايا · وكانت تتضرع اليه في كل لحظة :

ـ زوربا ! زوربا !

لكنه اشعل سيجارة جديدة وعاد يتأمل البحر من جديد • وقال :

ـ في الربيع ، انما يسود الشيطان • فترخى الاحزمة ، وتفكّ ازرار القمصان ، وتتنهد العجائز ••• ايه ، ايتها السيدة هورتانس ، ارفعي يديك •

فتضرعت المرأة المسكينة من جديد :

ـ زوربا ! زوربا !

وانحنت ، وأخذت المنديل الصغير ، ودسّته في يد زوربا ، الذي رمى سيجارته ، وتلقف العقدة وفكهـا • ان راحة يده مفتوحة الآن ، وهو يحدق فيها • ثم قال باشمئزاز :

ـ ما هذا ، ايتها السيدة بوبولينا ؟

فتمتمت الجنية العجوز وهي ترتعد :

ـ خاتمان ، خاتمان صغيران ، يا كنزي • خاتما الخطبة • ان الشـاهد هنا ، والليل جميل ، والاله الطيب ينظر الينا ••• فلنخطب •• يا زوربا !

كان زوربا ينظر الي تارة ، وتارة الى السيدة هورتانس ، وتارة ثالثة الى الخاتمين • كانت جمهرة من الشياطين تصطرع في داخله ، ولم يكن احدها ليتغلب على الاخرى • وكانت التعيسة تنظر اليه بذعر ، وتهدل :

ـ زوربا ! زوربا !•••

كنت قد انتصبت فوق فراشي ، ورحت انتظر • ترى اي طريق سيختار زوربا من جميع الطرق المفتوحة امامه ؟

وفجأة هز رأسه • لقد اتخذ قراره • واضاء وجهه • وصفق بيـــديه وانتصب قافزاً • وصاح :

ـ لنخرج ! لنذهب تحت النجوم ، كي يرانا الله ! ايها الرئيس ، خـذ الخاتمين • هل تعرف كيف تنشد ؟

فأجبت لاهياً :

ـ كلا • لكن لا بأس !

وقفزت من سريري ، وساعدت السيدة الطيبة على النهوض •

ـ انني اعرف ، انا • لقد نسيت ان أقول لك انني كنت من صبيـان الخورص • كنت اتبع الكاهن في حفلات العرس ، والعماد ، والدفن ، وتعلمت اناشيد الكنيسة عن ظهر قلب • تعالي ، يا بوبولينتي ، تعالي ، يا دجاجتي ، تعالي ، يا سفينتي الفرنسية • قفي الى يميني !

ان الشيطان الذي انتصر ، على كل شياطين زوربا ، كان ايضاً الشيطان المازح ذا القلب الطيب • لقد اشفق زوربا على المغنية العجوز ، وتمزق قلبه

عندما رأى نظرتها الذابلة تحدق فيه بقلق شديد ٠
وتمتم وهو يعزم :
ـ الى الشيطان ٠ انني لا أزال استطيع ان ادخل الفرح على قلب الجنس الانثوي ، هيا بنا !
واندفع على الشاطىء ، واخذ ذراع السيدة هورتانس ، واعطاني الخاتمين ، واستدار نحو البحر وبدأ ينشد : «ليتبارك سيدنا الى دهر الدهور ، آمين ! » ٠
والتفت نحوي :
ـ انتبه ، ايها الرئيس ٠ عندما اصيح : « هو هي ! هو هي ! » تلبسنا الخاتمين ٠
وأخذ ينشد بصوته الغليظ الشبيه بنهيق حمار :
« من اجل عبدالله ، الكسيس ، ومن أجل أمة الله ، هورتانس ، المخطوبين احدهما للآخر ، ومن أجل سلامهما ، نتضرع الى السيد ! » ٠
وترنمت وانا اجهد في السيطرة على ضحكي ودموعي :
ـ كيرياليسون ! كيرياليسون (١) !
وقال زوربا :
ـ هناك ايضاً آيات أخرى ، لكن لتنصب مشنقتي اذا كنت اذكرها ! على كل ، لندخل في لب القضية !
وقفز في الهواء على شكل دائرة ، وصاح ، وهو يمدّ الي يده الضخمة :
ـ هو هي ! هو هي !
وقال لخطيبته
ـ مدّي يدك ، أنت ايضاً ، يا سيدة قلبي ٠
وامتدت اليه اليد البدينة ، التي خددتها كثرة الغسيل ، راجفة ٠
وألبستهما الخاتمين ، بينما كان زوربا ، يصرخ ، خارجاً عن نفسه ، مثل الدراويش :
ـ عبدالله ، الكسيس ، قد خطب الى امة الله ، هورتانس ، باسم الآب والابن والروح القدس ، آمين ! امة الله ، هورتانس ، قد خطبت الى عبدالله ، الكسيس ٠٠٠
ـ لقد تم الامر وانتهى ! تعالي هنا ، يا دجاجتي ، كي اقبلك اول قبلة شريفة في حياتك !

---

١ ـ تعني باليونانية « يا رب ، ارحم » ٠ « هـ٠م »

لكن السيدة هورتانس كانت قد انهارت ارضاً • وامسكت بساقي زوربا ، وراحت تبكي • وهز زوربا رأسه بشفقة ، وتمتم :

ــ يا للنساء المسكينات !

ونهضت السيدة هورتانس ، وسوّت بذلتها ، وفتحت ذراعيها • وهتف زوربا :

ــ هي ! هي ! انه الثلاثاء المقدس ، كوني عاقلة ! انه الصوم !

فتمتمت بانفعال :

ــ زوربا •••

ــ صبرا ، يا طيبتي ، انتظري حتى الفصح ، فنأكل اللحم • ونكسر البيض الاحمر • اما الآن فقد حان ان تعودي الى البيت • ما الذي سيقوله الناس لو رأوك تتسكعين خارجاً في مثل هذه الساعة ؟

وتضرعت اليه بوبولينا بعينيها • لكن زوربا قال :

ــ لا ! لا ! حتى الفصح ! تعالَ معنا ، ايها الرئيس •

ومال على اذني ، وقال هامساً :

ــ لا تتركنا بمفردنا ، اكراماً لحب الله ! انني لست مستعداً مطلقاً •

وسرنا في طريق القرية • كانت السماء تقدح شرراً ، وغمرتنا رائحة البحر ، بينما كانت طيور الليل تتنادى • وتركت الجنية العجوز زوربا ، المتشبثة بذراعه ، يجرها ، سعيدة وكئيبة •

لقد دخلت أخيراً المرفأ الذي طالما تمنته • لقد غنت طوال حياتها ، وتعهرت ، وسخرت من النساء الشريفات ، لكنها لم تكن سعيدة قط • عندما كانت تمر ، معطرة ، مخضبة الوجه ، مرتدية ثياباً صارخة ، في شوارع الاسكندرية ، وبيروت ، والقسطنطينية ، وترى النساء يرضعن اطفالهن ، كان صدرها يتنمل ، وينتفخ ، وتنتصب حلمتاها ، تسألان ، هما أيضاً ، فماً طفولياً صغيراً • كانت تفكر طوال حياتها وهي تتنهد : « ان اتزوج ، اتزوج ، وان يكون لي طفل ••• » • لكنها لم تبح قط بآلامها الى أي انسان حي • والآن ، تبارك الله ! لقد فات الآوان قليلا ، لكن هذا افضل من ان يفوت نهائياً : وها هي تدخل ، مخلعة ، قد صفعتها الامواج ، الى المرفأ الذي طالما تمنته •

كانت ترفع عينيها من حين لحين وتنظر مواربة الى ذلك الرجل المارد الضخم الذي يسير الى جانبها • وتفكر في نفسها : « انه ليس باشا غنياً ، يلبس طربوشاً ذا طرة ذهبية ، انه ليس ابناً جميلا لأحد البكوات ، لكنه افضل من لا شيء ، ليتبارك الله ! سيكون زوجي ، زوجي عن حق » •

وكان زوربا يحس بها ترخي ثقلها عليه، فيجرها ، وهو يستعجل الوصول الى القرية والتخلص منها · وكانت المسكينة تتعثر فوق الحجارة ، واظافر قدميها تكاد تنقلع ، ودماملها توجعها ، لكنها لم تكن تقول شيئاً · ولمَ الكلام ؟ لمَ الشكوى ؟ ان كل شيء قد سار على ما يرام في النهاية !

كنا قد تجاوزنا تينة الآنسة وحديقة الارملة · وظهرت أولى بيوت القرية · وتوقفنا · وقالت الجنية العجوز ، بدلال ، وهي تنتصب على اطراف اصابعها لتصل الى فم خطيبها :

ـ ليلة سعيدة ، يا كنزي ·

لكن زوربا لم ينحنِ · فقالت المرأة وهي على اتم استعداد لان تركع أرضاً :

ـ أألقي بنفسي على قدميك لأقبلهما ، يا حبي ؟

فقال زوربا محتجاً ، منفعلا ، وهو يأخذها بين ذراعيه :

ـ كلا ! كلا ! بل انا الذي يجب ان يقبل قدميك ، يا قلبي ، انا ، لكنني متعب · ليلة سعيدة !

وتركناها ، وسرنا بصمت في طريق العودة ، ونحن نستنشق ملء صدرنا الهواء العبق · والتفت زوربا فجأة نحوي :

ـ ما الذي يجب ان أعمله ؟ أأضحك ؟ أأبكي ؟ انصحني ·

لم أجب · كنت ، انا ايضاً ، أحس بضيق في حلقي ، ولا أدري ما سببه : البكاء ؟ القهقهة ؟

وقال زوربا فجأة :

ـ ايها الرئيس ، كيف كان يدعى ذلك الاله القديم الشرير الذي لا يترك امرأة واحدة تتشكى ؟ لقد سمعت شيئاً ما عنه · هو ايضاً ، على ما يبدو ، كان يصبغ لحيته ، ويشم ذراعيه بالقلوب ، والسهام ، والجنيات ، ويتنكر ، ويصبح ثوراً ، أو بجعة ، أو كبشاً ، أو حماراً · قل لي اذن اسمه !

ـ اعتقد انك تتحدث عن زوس · كيف تذكرته ؟

فقال زوربا وهو يرفع ذراعيه الى السماء :

ـ لتكن الارض خفيفة الوطء عليه ! لقد قاسى كثيراً ، ولا شك ! وما الذي كان يستطيع ان يفعله ؟ انه لشهيد كبير ، حقاً ، تستطيع أن تصدقني ايها الرئيس ، فأنا اعرف شيئاً ما حول الموضوع ! انك تبتلع كل ما تقوله كتبك · لكن الذين يكتبونها ادعياء ! وما الذي يعرفونه حقاً عن النساء وعن الذين يجرون وراء النساء ؟ حمقى !

فقلت ساخراً :

ـ لماذا لا تكتب بنفسك ، يا زوربا ، لتشرح لنا أسرار العالم ؟

ـ لماذا ؟ لانني ، انا ، رأيت جميع الاسرار التي تتحدث عنها ، ولأنني لا أملك الوقت لكتابتها • احيانا الحرب ، واحياناً النساء ، واحياناً الخمر ، واحياناً السمانتوري ، فأين اجد الوقت لآخذ تلك الريشة التي لا تخط الا كلاماً لا معنى له ؟ وهكذا ، فان القضية وقعت بين ايدي الكتاب الفارغين • ان جميع الذين يعيشون الاسرار ، كما ترى ، ليس لديهم وقت للكتابة ، وجميع الذين عندهم وقت ، لا يعيشون الاسرار • أتفهم ؟

ـ لنعد الى موضوعنا ! زوس ؟

فتنهد زوربا :

ـ آه ! المسكين ! انا فقط اعرف كم تألم • النساء ، لقد كان يحبهن ، بالتأكيد ، لكن ليس كما تتصورون ، انتم الكتّاب ! مطلقاً ! لقد كان يرثي لهن • ويفهم ألمهن جميعاً ، ويضحي بنفسه من اجلهن • كان ، عندما يرى في بقعة من بقاع الارض عانساً عجوزا على وشك الانطفاء من الرغبة والندم ، أو امرأة صغيرة جميلة ـ بديني • حتى لو لم تكن جميلة ، حتى لو كانت وحشاً ـ لا تجد سبيلا الى النوم لان زوجها غائب ، كان يرسم اشارة الصليب ، ذلك القلب الطيب ، ويبدل ثيابه ، ويأخذ شكل الوجه الموجود في رأس المرأة ، ويدخل الى غرفتها •

« كان مزاجه ، في أغلب الاحيان ، بعيداً عن الاهتمام بقصص الحب الصغيرة • وفي غالب الاحيان كان يفشل ، وهذا مفهوم : فكيف يكفي ذلك التيس المسكين لمثل هذا العدد من النعاج ؟ كان متعباً ، أكثر من مرة ، ليس على استعداد لشيء : هل رأيت تيساً بعد ان روى ظمأ عدة نعاج ؟ اللعاب يسيل من فمه ، وعيناه كدرتان ، متعبتان ، وهو يسعل ، ولا يكاد يستطيع الانتصاب على قدميه • وكان في غالب الاحيان في هذه الحالة التي يرثى لها ، المسكين زوس • وعند الفجر ، يعود الى منزله وهو يقول : « آه ! أيها الرحمن ! متى سأستطيع اخيراً أن أرقد وانام قدر ما اشاء • انني لم أعد أستطيع الوقوف ! » • ولا يتوقف عن مسح لعابه •

« لكن ، ها هوذا يسمع ، فجأة ، نحيباً : في الاسفل ، فوق الارض ، ثمة امرأة قد ألقت أغطية سريرها في الهواء ، وخرجت الى السطح ، شبه عارية ، وأطلقت تنهدة • وسرعان ما تأخذ الشفقة زوس • ويدمدم : « يا لشقائي ، يجب ان أهبط الى الارض من جديد ! ثمة أمرأة تندب نفسها • وسأذهب لأعزيها !

« وهكذا حتى افرغته النساء تماماً • وتحطم صلبه ، واخذ يتقيأ ، وأصبح مشلولا ، ومات • وعند ذاك جاء وريثه ، المسيح • ورأى حالة الهرم التي يرثى لها • فصاح : « احذروا النساء ! » •

وأعجبت بعذوبة روح زوربا ، ورحت أتقلب من الضحك •

ـ تستطيع ان تضحك ، ايها الرئيس ! لكن اذا جعل الاله ـ الشيطان أمورنا تمشي جيداً ـ وهذا يبدو لي مستحيلا ! ـ أتعرف ما الذي سأفتحه كدكان ؟ وكالة زواج ! وعندئذ ستنهال عليه جميع النساء المسكينات اللواتي لم يستطعن أن يوقعن في شباكهن زوجاً : العوانس ، والقبيحات ، والمشوهات الارجل ، والحولاوات ، والعرجاوات ، والحدباوات ، وسأستقبلهن أنا في صالون صغير ، جدرانه مغطاة بصور شبان جميلين ، وسأقول لهن : « اخترن ، يا سيداتي الجميلات ، من يعجبكن ، اخترن ، وسأقوم انا بالخطوات اللازمة ليصبح زوجاً لكنّ » • وعند ذاك سأجد اي شاب يشبهه قليلا ، وسألبسه كما في الصورة ، واقدم له مالا واقول له : « الشارع الفلاني ، الرقم الفلاني ، اسأل عن فلانة ، وقدّم اليها نفسك • ولا تقرف ، فأنا الذي يدفع ، نم معها • قل لها كل العذوبات التي يقولها الرجال للنساء والتي لم تسمعها قط ، المخلوقة المسكينة • أقسم لها انك ستتزوجها • قدم لها قليلا من اللذة ، للتعيسة ، من تلك اللذة التي تعرفها النعاج ، بل حتى السلاحف وعشاريات الأرجل » •

« واذا جاءت أحيانا نعجة عجوز من نوع بوبولينتنا ، لا يرضى أي انسان بأن يعزيها ، حتى لو دفع له ذهب العالم كله ، فانني سأرسم عند ذاك اشارة الصليب ، وسآخذ القضية على عاتقي شخصياً ، انا ، مدير الوكالة • وقد تسمع عندئذ الحمقى يقولون : « أنظروا الى هذا ! يا له من فاسق عجوز ! أليست له عينان ليرى ، ولا انف ليشم ؟ ـ نعم ، يا عصابة الحمير ، عندي عينان ! نعم ، يا من لا قلوب لكم ، عندي أنف ! لكن عندي ايضاً قلب ، وانني لأشفق عليها ! وعندما يكون للانسان قلب ، فقد تكون عنده كل العيون وكل الانوف التي يريد ، لكنه يلقي بها جميعاً أدراج الرياح !

« وعندما أصبح عاجزاً تماماً ، انا أيضاً ، بسبب جنون الشباب ، وألقي بسلاحي ، فان القديس بطرس حامل مفاتيح الجنة سيفتح لي الباب ويقول : « ادخل ، ايها المسكين زوربا ، ادخل ، أيها الشهيد الكبير زوربا ، اذهب لترقد جانب اخيك زوس ! استرح ، ايها الشجاع ، فقد تعبت فوق الارض كثيراً ، اليك بركتي ! » •

كان زوربا يتكلم ، وخياله ينصب أشخاخاً يقع فيها هو نفسه • وأخـذ يؤمن شيئاً فشيئاً بحكاياته ، لاهياً منفعلا • وعندما مررنا أمام تينة الآنسة ، تنهَّد ، وقال وهو يمد ذراعه كأنه يقسم قسماً :

ــ لا تهتمي ، يـــا بوبولينتي ، يا مركبي الهرم المعـــذب ! لا تهتمي ، فسأعزيك ! لقد تخلت عنك الدول الأربع الكبرى ، وتخلى عنك الاله الطيب ، اما انا ! ، زوربا ، فلن اتخلى عنك ! » •

كان منتصف الليل قد مضى عندما وصلنا الى شاطئنا • وهبت الريح • من هناك ، من افريقيا ، تأتي ريح الجنوب الحارة التي تنفخ الاشجار والكروم ، واثداء كريت • ان الجزيرة كلها ، وهي ممدة على البحر ، تتلقى راجفة نفحات الريح الدافئة التي تحرك النســغ • واختلط زوس وزوربا وريــح الجنوب ، ولمحت ، بوضوح كبير ، خلال العتمة ، وجهاً ثقيــلا ، لرجـل أسود اللحية ، أسود الشعر يلمع كالزيت، ينحني بشفتين حمراوين دافئتين على السيــدة هورتانس ، الارض •

- ٢٠ -

ما ان وصلنا حتى استلقينا في فراشينا · وفرك زوربا يديه مسروراً ·

ـ لقد كان حسناً يومنا ، ايها الرئيس ! مليئاً تماماً · فكر قليلا : ففي هذا المصباح كنا عند الشيطان الأخضر ، في الدير ، ولعبنا على رئيسه ، لتحل لعنته علينا ! وبعد ذلك نزلنا من جديد ، ووجدنا السيدة بوبولينا ، وخطبنا · انظر هوذا الخاتم · من الذهب الممتاز · انها تقول انه لا يزال عندها ليرتان انجليزيتان من تلك الليرات التي قدمها لها الأميرال الانجليزي في نهاية القرن الماضي · أنها تحتفظ بهما من أجل دفنها ، لكنها فضلت ان تقدمهما للصائغ كي يصنع منهما خاتمين · ان الانسان للغز غامض حقاً !

قلت :

ـ نم ، يا زوربا ، هدّىء من روعك ! هذا يكفي اليوم · غداً أمامنا احتفال كبير : سنغرس أول وتد من أوتاد المصعد · لقد طلبت من الأب اسطفان ان يأتي ·

ـ حسناً فعلت ، ايها الرئيس ، فهذا مفيد ! ليأتِ الكاهن الذي تشبه لحيته لحية التيس ، وليأتِ ايضاً أعيان القرية ، بل سنوزع ايضاً شموعاً صغيرة وسيشعلونها · ان هذه المظاهر تخلق أثراً طيباً ، سيكون في مصلحة امورنا · يجب ألا ننظر الى ما أفعله أنا، لأن لي الهاً شخصياً وشيطاناً شخصياً لكن الناس ···

وأخذ يضحك · أنه لا يستطيع النوم ، ما دام عقله يغلي · وقال بعد فترة :

ـ هيا، يا جدي الشيخ، لتكن وطأة الارض خفيفة عليه ! لقد كان فاسقاً، هو ايضاً ، مثلي تماماً ، ومع ذلك فان الخبيث الهرم ذهب الى القبر المقدس ، وأصبح حاجاً ، والله يعلم لأي غرض ! وعندما عاد الى القرية ، قال له أحد

شركائه ، وكان انساناً يسرق النعاج ، لم يقم في حياته بأي عمـــل نظيف : « اذن ، أيها الشريك ، ألم تأتِ بقطعة من صليب القبر المقدس ؟ ــ وكيف لا آتي بها ! قل يا شريكي المحتال ، أتريدني أن انساك ، انت ؟ تعال هذا المساء الى المنزل ، وجيء معك بالكاهن ليمنح بركته وسأعطيك القطعة . جيء ايضاً بخنزير صغير محمر ، وبخمر ، اننا سنحتفل .

« وعند المساء ، عاد جدّي الى بيته . وقصّ من بابه ، الذي كان منخورا بالسوس ، قطعة صغيرة من الخشب في حجم حبة أرز ، وغلفها في قطعة مـن القطن ، وصب فوقها نقطة زيت ، وراح ينتظر . وبعد فترة ، جاء الشريك مع الكاهن ، والخنزير الصغير والخمر . وأخرج الكاهن مرشته ومنح بركتـه . وأخذ الشريك قطعة الخشب الثمينة ، ثم ارتموا على الخنزير . حسناً ، قـد تصدقني ، أيها الرئيس ، اذا شئت ! لقد خرّ الشريـك ساجداً أمـــام قطعة الخشب ، ثم علقها في عنقه ، ومنذ ذلك اليوم أصبح انساناً آخر . لقـد تبدل كلية . فمضى الى الجبل ، وانضم الى « الارماتوليين » و « الكلفتيين » ، وأحرق قرى الاتراك . كان يخترق ، ببسالة ، سيل الرصـاص . ولماذا يخاف ؟ ان معه قطعة من الصليب المقدس ، والرصاص لن يستطيع أن يخترقه » .

وانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال :

ــ الفكرة هي كل شيء . أعندك ايمان ؟ اذن فان قطعة من باب قديـــم تصبح رفاتاً مقدساً . ليس لديك ايمان ؟ ان الصليب المقدس كله يصبح بابا قديماً .

انني أعجب بهذا الرجل الذي يعمل عقله بمثل هذا الوثوق وهذه الجرأة ، والذي تقدح نفسه شرراً ، من أي مكان تمس فيه .

ــ هل ذهبت احياناً الى الحرب ، يا زوربا ؟

فأجاب مقطباً :

ــ وهل اعرف ؟ انني لا اذكر . اية حرب ؟

ــ حسناً ، اريد ان اقول هل ذهبت لتقاتل من اجل الوطن ؟

ــ ما رأيك لو تحدثنا عـن امور اخرى ؟ سخـافات ماضية ، سخـافات منسية .

ــ أتدعي ذلك سخافات، يا زوربا؟ ألا تخجل؟ أهكذا تتحدث عن الوطن؟

رفع زوربا رأسه ونظر الي . كنت مستلقياً على فراشي ، ومصباح الزيت يشتعل فوقي . وحدّق فيّ ملياً بقسوة ، ثم قال أخيراً وهو يمسك شـاربيه بكلتا يديه :

ــ على الرغم من احترامي لك ، فانت ساذج ومدعٍ ايها الرئيس ... كل

ما أقوله لك ، تأخذه على سبيل المزاح ٠

فقلت محتجاً :

ـ كيف ؟ انني افهم جيداً ، يا زوربا !

ـ نعم ، انك تفهم برأسك ٠ انك تقول : « هذا عادل ، وهذا غير عادل ٠ هذا هكذا ، أو هذا ليس هكذا ٠ انت محق أو انت مخطىء » ٠ لكن الى أين يؤدي بنا هذا ؟ انني ألاحظ ، عندما تتحدث ، ذراعيك وصدرك ٠ ما الذي تفعله ؟ انها تظل صامتة ٠ انها لا تقول شيئاً ٠ وكأن ليس فيهـــا نقطة دم واحدة ٠ اذن ، فبمَ تريد ان تفهم ؟ برأسك ؟ بف !

فهتفت كي اثيره :

ـهيا ، تكلم بوضوح، يا زوربا، لا تحاول التملـّص! اعتقد انك لا تشغل نفسك كثيراً من أجل الوطن ، أليس كذلك ، أيها الصعلوك !

فغضب ووجه الى الحائط ضربة بقدمه رنت لها صفائح التنك ٠ وقــال بغيظ :

ـ لقد طرزت بشعري ، انا كما تراني ، كنيسة القديسة صوفيا فــوق قطعة قماش ، وحملتها ، معلقة في عنقي ، متدلية على صدري ، كذخيرة ٠ لقد طرزتها ، يا صديقي ، بهاتين اليدين الغليظتين ، وبهذه الشعرات التي كانت هنا سوداء كالفحم ٠ لقد كنت اتجول ، انا الذي يحدثك ، مع بافلو ميلاس (١) في جبال ماسيدونيا ـ وقد كنت مارداً تزيد قامتي على ارتفاع هذا الكوخ ـ بزيي القومي ، وطربوشي الاحمر ، وسلسلة ساعتي الفضية ، وذخائري ، وسيفي ، وحزام رصاصي ، وغداراتي ٠ كنــــت مغطى بالحديد ، والفضــة ، والمسامير ، وعندما امشي كان كل ذلك يحتك ببعضه بعضاً وكأن جيشاً كاملا يمر ! تطلع ، انظر ٠٠٠ انظر ٠

وفتح قميصه وفك بنطاله ، وقال بلهجة آمرة :

ـ جيء بالضوء ٠

فقربت المصباح من الجسد النحيـــف الاسمر : ندوب عميقة ، وآثار رصاص ، وضربات سيف ، لقد كان جسده مصفاة حقيقية ٠

ـ انظر الآن من الجهة الاخرى !

واستدار وأراني ظهره :

ـ أترى ، من الخلف ، حتى ولا خدش ٠ أتفهم ؟ والآن أبعد المصباح ٠

---

١ ـ بافلو ميلاس : ضابط يوناني اشتهر في حربه ضد عصابات البلغار ٠ (هـ٠م)

وزمجر غاضباً :

ـ « سخافات ! عار ! يا صديقي ، متى سيصبح الانسان انساناً حقاً ؟ اننا نرتدي السراويل ، والياقات الانيقة ، والقبعات ، لكننا نظل بغالا ، ذئاباً ، ثعالب ، خنازير . اننا ، على ما يبدو ، على صورة الله ، مـن ؟ نحن ؟ يـــا للنكتة !

كان يتحدث وكأن ذكريات مرعبة تعود الى ذهنه ، فيستشيط غضباً ، ويتمتم من بين اسنانه المهتزة الجوفاء بكلمات غير مفهومة .

ونهض ، وتناول ابريق الماء ، وشرب جرعات كبيرة ، مما ادخل الرطوبة الى جسده ، فهدأ قليلا . وقال :

ـ أنى لمستني ، صرخت . أنني لســت الا جراحاً وحدبات ، وانت ، تحدثني عن النساء ! أنا ، عندما شعرت بأنني رجل عن حق ، كففـت عـــن الالتفات للنظر اليهن . انني ألمسهن لمدة دقيقة ، هكذا ، بشكل عابر ، مثـل ديك ، ثم امضي . انني أقول في نفسي : « يا للمحتالات القذرات ، انهـــن يردن ان يمتصصن كل قوتي ، أفٍ ! الأحرى بهن ان تعلق مشانقهن !

« اذن ، فقد حملت بندقيتي ومضيت ! ودخلت المقاومة كجندي متطوع غير نظامي . وذات يوم ، وصلت ، فجراً ، الى قرية بلغــاريا واختبــأت في اسطبل ، في منزل الكاهن البلغاري بالذات الذي كان ، هو ايضاً ، جنــدياً شرساً من رجال العصابات ، وحشاً دموياً . كان ، في الليل ، يخلع بذلتـه الكهنوتية ، ويرتدي ثياب راعٍ ، ويأخذ سلاحه ويتغلغل في القرى اليونانية . وعند الصباح ، يعود قبل الفجر ، ملوثاً بالوحل والدم ، ثم يقوم بقدّاســه . وكان ، قبل بضعة ايام من وصولي ، قد قتل معلم مدرسة يونانياً في فراشه ، اثناء نومه . اذن ، لقد دخلت الى اسطبل الكاهن ، واستلقيت على ظهري فوق الروث ، وراء بقرتين ورحت انتظر . وعند المساء ، دخل الكاهن ليقدم علفـاً لبقرتيه . فألقيت بنفسي عليه وذبحته كخروف ، وقطعت أذنه ووضعتها في جيبي . فقد كنت أجمع الآذان البلغارية ، كما ترى ، ولهــذا قطعــت أذني الكاهن وانسحبت .

« بعد عدة ايام ، عدت الى القرية نفسها ، في وهج الظهيرة ، متظـاهراً بأنني بائع جوال . كنت قد تركت سلاحي في الجبل ، ونزلت لأشتري خبزاً وملحاً وأحذية للرفاق . وامام احد المنازل ، رأيت خمسة أطفال ، في ثيــاب سود ، عراة الأقدام ، يتمـاسكون بالأيدي ، وهــم يتسولون . ثلاث بنـات وصبيان . لم يكن أكبرهم ليجاوز العــاشرة ، واصغرهم كــان لا يزال طفلا

رضيعاً . وكانت كبرى البنات تحمله بين ذراعيها ، تقبله وتلاطفه كي تمنعه عن البكاء . لست ادري كيف خطر لي ، ولا شك انه كان الهاماً الهياً ، ان اقترب منهم .

وسألتهم بالبلغارية :

ـ أطفال من انتم ، يا صغاري ؟

فرفع أكبر الصبيان رأسه الصغير ، واجابني :

ـ أولاد الكاهن الذي ذبحوه منذ عدة أيام في الاسطبل .

واغرورقت عيناي بالدموع . وأخذت الارض تدور كرحى طاحون . فاستندت الى الجدار وتوقفت عن دورانها . وقلت :

ـ اقتربوا ، يا أطفال ، تعالوا قربي .

واخرجت كيس نقودي من حزامي ، وكان مليئاً بالليرات التركية والمجيديات . وركعت على ركبتي وافرغته على الأرض . وصحت :

ـ هنا ، خذوا ! خذوا ! خذوا !

وارتمى الأطفال على الأرض وأخذوا يجمعون الليرات والمجيديات . وانا اصيح :

ـ انها لكم ، انها لكم ، ! خذوها جميعاً !

ثم تركت لهم سلتي مع كل ما معي من حاجات :

ـ كل هذا ايضاً ، انه لكم ، خذوا !

« وسرعان ما تمالكت نفسي ، وخرجت من القرية ، وفتحت قميصي ، ونزعت القديسة صوفيا التي طرزتها ، ومزقتها ارباً ، والقيت بها في الهواء ومضيت ... « وانا لا أزال اجري ... » .

واستند زوربا الى الحائط والتفت الي ، وقال :

ـ وهكذا تخلصت ...

ـ تخلصت من الوطن ؟

فأجاب بصوت حازم وهادىء :

ـ نعم ، من الوطن .

ثم بعد فترة :

ـ تخلصت من الوطن ، تخلصت من الكاهن ، تخلصت من المال . انني اغربل نفسي . كلما تقدم بي العمر ، غربلت نفسي اكثر . انني اتطهر . كيف اقول لك ؟ انني اتحرر ، انني اصبح انساناً .

كانت عينا زوربا تلمعان ، وفمه العريض يضحك من السرور . وبعد

ان لبث لحظة صامتاً ، عاود الحديث · كان قلبه يطفح ، ولـــم يعـد يملـك السيطرة عليه :

ــ مر وقت كنت اقول فيه : هذا تركي ، وهذا بلغاري ، وهذا يوناني · لقد قمت، انا ، من اجل الوطن ، بأمور يقشعر لها شعر رأسك، ايها الرئيس· لقد ذبحت وسرقت ، واحرقت قرى ، واغتصبت نساء ، وأفنيـــت اسـراً · لماذا ؟ بحجة انهم بلغار ، واتراك · غالباً ما كنت أقول لنفسي وانا اشـتمها : افٍ ! اذهب الى الجحيم ، ايها النذل ! اذهب الى الجحيم ، ايها الأحمق ! اما الآن فانظر الى ما أقوله لنفسي : هذا رجل شجاع ، وذاك شخص قذر · قـد يكون بلغارياً أو تركياً ، انني لا أميز بينهما · هل هو طيب ؟ هل هو سيء ؟ هذا كل ما اطلبه اليوم · وحتى هذا ، الآن بعدما شخت ، اقسم لـك بالخبز الذي آكله ، يبدو لي انني سأبدأ بعدم المطالبة به البتة يا صـــديقي ، سواء أكانوا طيبين أم اشراراً ، فانني ارثي لهم جميعاً · عندما أرى انسـاناً ، حتى ولو تظاهرت بعدم المبالاة ، فان قلبي يحن له · اليك ما اقوله لنفســـي : ان هذا المسكين أيضاً يأكل ، ويشرب ، ويحب ، ويخاف ، وهو أيضاً له إلهـــه وشيطانه ، هو أيضاً سيلقي سلاحه ويرقد ، جثة متصلبـة ، تحـت الأرض ، وسيلتهمه الدود · يا للمسكين ! اننا جميعاً اخوة · كلنا لحم للدود !

« واذا كانت امرأة ، آه ! انني اؤكد لك ، عندئذ ، ان الرغبة في البـكاء لتتملكني · ان سيادتك لتسخر مني كل لحظة معيِّراً اياي بأنني احـــب النساء · كيف تريدني ألا احبهن ، يا صاح ؟ انهن مخلوقـات ضـــعيفة ، لا يعرفن ماذا يفعلن ، ويهبنك انفسهن بدون مقاومة بمجـرد ان تلمسهن مـــن صدورهــن ·

« ذات مرة ، دخلت أيضاً الى قرية بلغارية · فرآني مختارهـــا ، وكان يونانياً ، نذلا ، فوشى بي ، فحاصروا المنزل الذي نزلت فيه · واندفعـت الى السطح ، وانزلقت من سطح الى آخر ، وثباً ، مثل قطة ، مستهدياً بضـــوء القمر · لكنهم لمحوا ظلي ، فتسلقوا الاسطحة واخذوا يطلقون الرصـــاص · عندئذ ، ماذا فعلت ؟ ألقيت بنفسي في باجة · فوجدت فيها بلغارية راقـــدة ، بقميصها ·فرأتني ، وفتحت فمها لتصرخ ، لكنني مددت ذراعـي هامســـاً : الرحمة ! الرحمة ! أصمتي ! » وامسكت صدرها · فشحبت المرأة وخـــارت عزيمتها ، وقالت لي بصوت شديد الخفوت :

ــ ادخل ، ادخل ، حتى لا يرونا ···

« فدخلت ، وشدت على يدي قائلة : « أأنت يوناني ؟ ــ نعم ، يوناني ،

فلاتشي بي » • واخذتها من خصرها ، فلم تقل شيئاً • فنمت معهـــا ، وكان قلبي يرتعش من العذوبة ، وانا اقول لنفسي : « انظر ، انظـــر ، يـا زوربا اللعين ، انها امرأة ، انها مخلوق انساني ! من هي ، هذه ؟ بلغارية ، يونانية، افريقية ؟ لا فرق ، ايها العجوز ! انها مخلوق بشري ، مخلوق بشري له فم ، وثديان ، وهويحب • ألا تخجل من القتل ؟ ايها النذل !

« هذا ما كنت أقوله لنفسي ما دمت معها ، في حرارتها • لكن الوطـن لم يكن ليتركني في سلام • وعند الصباح مضيت بثياب قدمتها لي البلغارية ، التي كانت ارملة • لقد أخرجت من صندوق الأمتعة ثياب زوجها المرحـــوم وقدمتها لي ، وقبلت ركبتي وهي تتضرع بأن اعود •

« نعم ، نعم ،في الليلة التالية ، عدت • كنت وطنياً ، أتفهم ، اي حيواناً متوحشاً ، عدت مع صفيحة بترول واشعلت النار في القرية • ولا بد انهـــا احترقت ، هي ايضاً ، المسكينة • كانت تدعى لودميلا » •

وتنهد زوربا وأشعل سيجارة ، واستنشق نفسين او ثلاثة ، ثم رماها •

ـ انك تقول : الوطن ••• أتصدق الهذر الذي ترويه كتبك ؟ عليك ان تصدقني أنا • ما دامت هناك أوطان ، فان الانسان سيبقى حيواناً ، حيوانـاً مفترساً ••• نعم ، ليتبارك الله ! لقد تخلصت ، وانتهى الأمر ! وانت ؟

لم اجب بشيء • انني احسد هذا الرجل الواقف هنا ، أمامي ، والـذي عاش مع اللحم والدم ــ وهو يحارب ، ويقتل ، ويقبل ــ كل ما كنت أحاول ، انا ، ان اعرفه مع الورق والحبر • ان كل المشاكل التي كنـت أحـــاول ان احلها ، عقدة عقدة ، في عزلتي وانا مسمر على مقعدي ، قد حلها هذا الرجل • وسط الجبال ، في الهواء الطلق ، بسيفه •

واغلقت عيني ، وقد استحال علي ان اجد لنفسي اي عزاء • وسـألني زوربا سئماً :

ـ أتنام ، ايها الرئيس ؟ وانا ، الأحمق ، اقف هنا لأحدثك !

وتمدد وهو يتمتم ، وبعد قليل ، سمعته يشخر •

ولم أستطع ، طوال الليل ، ان أغلق عيني • وملأ عزلتنا بلبل سـمعته للمرة الاولى هذا المساء ، بحزن لا يُحتمل ، وفجأة احسست بدموعي تنساب•

وضاقت أنفاسي • ونهضت ، عند الفجر ، وتأملت ، من الباب ، البحر والأرض • وبدا لي أن العالم قد تبدل خلال ليلة واحـدة • وامـــامي ، على الرمل ، كان ثمة شتلة صغيرة ، بالامس كانت ما تزال حقيرة وكئيبة ، قـد اكتست بزهيرات بيضاء صغيرة • وانتشر في الجو عبق عذب وبعيد لاشجار

الليمون والبرتقال المزهرة • وتقدمت ، وسرت بضع خطوات • ومـــا كنـت لأستطيع ان ارتوي من المعجزة التي تتجدد ابداً •

وفجأة ، سمعت ورائي صيحة فرحة • والتفت • كان زوربا ، قد نهض، نصف عارٍ ، وقفز هو ايضاً الى الباب ، وراح ينظر ، باضطراب ، الى الربيـع الجديد • واندفع يقول مذهولا :

ـ ما هذا ؟ هذه المعجزة ، أيها الرئيس ، هذا الازرق الذي يتحرك هناك، كيف يدعى ؟ البحر ؟ البحر ؟ وهذا الذي يرتـــدي مئزراً اخضــــر مزهراً ؟ الارض ؟ من هو الفنان الذي صنعهما ؟ انني اقسم لك ، ايها الرئيس ، انهـــا المرة الاولى التي أرى فيها هذا •

واغرورقت عيناه • وهتفت :

ـ ايه ! زوربا ! هل جننت ؟

ـ لمَ تضحك ؟ ألا ترى اذن ؟ انه السحر ، ايها الرئيس !

واندفع خارجاً ، وأخذ يرقص ، ويتدحـرج على العشــــب ، مثل مهر ربيعي •

وظهرت الشمس • وبسطت راحتي كي تتدفآ • كانت الاغصان تتبرعم، والصدور تتنفخ ، والنفس تتفتح كشجرة ، والانســـان يحس بأن الـروح والجسد قد عجنا من مادة واحدة •

ونهض زوربا ، وقد امتلأ شعره بالندى والتراب ، وصاح بي :

ـ بسرعة ، ايها الرئيس ! سنلبس ونتزين • اليوم ، موعد البركة • لن يتأخر الكاهن والاعيان في القدوم • فاذا ما رأونا معفرين بالعشب ، فأي عار بالنسبة للشركة ! اذن فلنخرج الياقات الاصطناعية وربطات العنق ! لنخرج الاقنعة الجدية ! لا يهم ألا يكون للانسان رأس ، يكفي أن تكون عنده قبعة • ايها الرئيس ، ان العالم يستحق أن نبصق عليه •

ولبسنا ، وجاء العمال ، وظهر الأعيان •

ـ كن منطقياً ، ايها الرئيس ،تمالك نفسك عن الضحك ، يجب ألا نثير سخريتهم علينا •

كان الكاهن اسطفان ، يسير في المقدمة ، بثوبه المتّسخ ذي الجيـوب العميقة • انه يلقي في هذه الهاويات بكل ما يقدم اليه عندما يمنـح بركته في الدفن ، والزواج ، والعماد ، فتمتلىء بالزبيب ، والحلوى ، وفطائر الجبنة ، والقثاء ، وقطع اللحم ، والملبس ، وعند المساء تضع العجوز باباديا ، زوجته ، نظارتيها على انفها ، وتصنف كل نوع على حدة ، وهي تقضم •

ووراء الكاهن اسطفان ، الاعيان : كوندومانوليو ، صاحب المقهى الـذي

يعرف العالم، لانه ذهب الى مدينة كانيه ورأى الأمير جورج، والعم انانيوستي، بقميصه الابيض الصارخ ، العريض الاكمام ، وبهدوئه وابتسامته · ثم المعلم بعصاه ، ووقاره وجديته ، واخيراً مافراندوني الذي كان يتقـــدم بمشـيته البطيئة الثقيلة · وكان يرتدي قميصاً أسود ، وينتعل حذائـين أســودين ، ويعصب رأسه بمنديل اسود · وسلّم بطرف شفتيه ، بمرارة وعنف ، ووقف جانباً ، مسنداً ظهره الى الحائط ·

وقال زوربا بلهجة احتفالية :

ـ باسم سيدنا يسوع المسيح !

وسار في رأس الموكب وتبعه الجميع في انقياد ديني ·

ان ذكريات سحيقة القدم عن الاحتفالات السحرية تستيقظ في صـدور هؤلاء الفلاحين· ان أعينهم جميعاً تحدّق بالكاهن وكأنها تنتظر ان تراه يواجه قوى خفية ويطردها · لقد مرّ على ذلك آلاف السنين ، عندما كان الساحـر يرفع ذراعيه ، ويرش الهواءبالماء المقدس ويتمتم بكلمات غامضة وفائقة القوة، فتهرب الشياطين الخبيثة ، بينما تسرع الأرواح الطيبة ، وهي تخرج مـن المياه والارض والهواء ، لمساعدة الانسان ·

ووصلنا الى الثقب الذي حفر قرب البحر ليغرس فيه أول وتد من اوتاد المصعد · ورفع العمال جذع صنوبرة ضخمة وغرسوها مستقيمة في الثقب · وارتدى الكاهن اسطفان بطرشيله ، وأخذ مرشته ، وبدأ وهـو ينظـر الى الوتد يترنم بالابتهالات : « ليثبت فوق صخرة متينة ، فلا تستطيع الريـــح والماء ان تزعزعاه ··· آمين ! » ·

ودمدم زوربا وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ آمـــين !

وتمتم الأعيان :

ـ آمـــين !

وقال العمال اخيراً :

ـ آمـــين !

وقال الكاهن اسطفان متمنياً :

ـ ليبارك الله أعمالكم ، ويمنحكم خيرات ابراهيم واسحق !

ودسّ زوربا في يده ورقة مالية · وقال الكاهن مسروراً :

ـ لتحلّ عليك بركتي !

وعدنا الى الكوخ حيث قدّم زوربا خمراً ومقبلات الصـــوم : سـراطين مشوية ، وسبيدجاً مقلياً ، وفولا مغمساً ، وزيتوناً · وبعد ذلك عاد المحتفلون

الى بيوتهم ببطء ، على طول الشاطيء . ان الاحتفال السحري قد انتهى .
وقال زوربا وهو يفرك يديه :
ـ لقد أحسنا التصرّف !
وخلع ثيابه ، وارتدى ملابس العمل ، وأخذ رفشاً ، وصاح بالعمال :
ـ هيا ، ايها الرفاق ! ارسموا اشارة الصليب ، والى الأمام !
وطوال النهار لم يرفع زوربا رأسه . اشتغل بحماسة شديدة . وراح العمال يحفرون ، كل خمسين متراً ، ثقوباً ، ويغرسون فيها الأوتاد ، متقدمين بخط مستقيم نحو قمة الجبل . وكان زوربا يقيس ، ويحسب ، ويصدر الأوامر . لم يأكل ، ولم يدخن ، ولم يفه بحرف واحد طوال النهار . كان منصرفاً بكليته الى العمل .
كان يقول لي أحياناً :
ـ ان الانسان لا يستطيع ان يعبّر الاّ عن نصف أفكاره فقط ، لأنه لا يعمل الا نصف عمله فقط . ان العالم موجود في هذه الحالة اليائسة ، لأن الانسان نصف فاضل ، او نصف شرّير . اذهب حتى النهاية ، ارمِ بعيداً ، ولا تخف، عندئذ تنتصر . ان الاله الطيّب يكره نصف الشيطان مئة مرّة أكثر من كرهه من هو اكثر من شيطان !
ومساءً، عندما عاد من العمل ، استلقى على الرمل منهكاً من التعب، وقال:
ـ هنا سأنام ، وبانتظار ان يطلع النهار ونعود الى العمل ، سأضع فرقاً للعمل ليلا .
ـ لكن لمَ هذه العجلة كلها ، يا زوربا ؟
فتردد قليلا وقال :
ـ لماذا ؟ حسناً ! اريد ان ارى اذا كنت قد وجدت الميل الضروري . لو اخطأت ، ايها الرئيس ، فاننا هالكون . كلما اسرعت في معرفته ، كانت الفائدة أكبر .
وأكل بسرعة ، وشراهة ، وشيئاً فشيئاً ، أخذ الشاطيء يردد صدى شخيره . ولبثت ، انا ، مستيقظاً فترة طويلة ، أتتبّع النجوم في السماء . كنت ارى السماء كلهاتنتقل ببطء مع كل بروجها ، وكانت جمجمتي تنتقل ، هي ايضاً ، وكأنها قبة مراقبة ، في الوقت نفسه الذي تنتقل فيه النجوم . « انظر الى سير الكواكب وكأنك تدور معها ... » . ان هذه الجملة التي قالها « مارك ـ أوريل (١) » قد ملأت قلبي بالألحان المتناغمة .

---

١ ـ مارك أوريل امبراطور روماني حكم بين عامي ١٦١ ـ ١٨٠ . كان يحب الفلسفة والأدب كثيرا . « هـ . م »

- ٢١ -

جاء يوم الفصح ، وتجمَّل زوربا · فارتدى جواربه الصوفية الغليظـــة التي بلون الباذنجان ، والتي حاكتها له ، كما يقول ، احـــدى صديقاتـــه الماسيدونيات · وراح يذهب ويجيء ، قلقاً ، قرب الساحل ، ويضع يده فوق حاجبيه الكثيفين ليمنع عن عينيه الشمس ، ويتطلع بعيداً ، نحو القرية ·

ـ لقد تأخرت ، الفقمة العجوز ، لقد تأخرت ، القذرة ، لقـد تأخرت ، الراية البالية الممزقة ···

وطارت فراشة وليدة ، وارادت ان تحط على شاربي زوربا · لـــكنه تدغدغ ، ونفخ من منخريه ، فطارت الفراشة بهدوء ، وضاعت في النور ·

كنا ننتظر السيدة هورتانس ، في ذلك اليوم ، لنحتفل بالفصح معها · وكنا قد شوينا حملا على السفود ، ومددنا سماطاً أبيض على الرمل ، وصبغنا بيضاً · لقد قررنا ، بشيء من المزاح وبشيء من الانفعال ، ان نعد لهـا ، في ذلك اليوم ، استقبالا حافلا · لقد كان لجنيتنا المترهلة ، المعطرة ، المنتنـــة قليلا ، فوق هذا الشاطيء المنعزل ، جاذبية غريبة علينا · فعندما لا تـــكون معنا ، كان ينقصنا شيء ما : رائحة ماء الكولونيا ، لطخـــة حمراء ، اهتزاز متأرجح ، متبختر ، مثل اهتزاز بطة ، صوت مبحـوح وعينـان حادتـــان مغرورقتـــان ·

لقد قطعنا اذن اغصان الآس والغار ، ونصبنا قوس نصر لتمر تحته · وغرسنا فوق القوس أربعة أعلام ـ انجلترا ، فرنسا ، ايطاليا ، روســـيا ـ وفي الوسط ، فوق كل شيء ، راية بيضاء طويلة لها عصائب زرق · بالطبع لم يكن عندنا مدفع ، لكننا قررنا ان نقف على التل ونطلق البنـــادق التي اعارونا اياها ، ما ان تتهادى فقمتنا بطلعتهـا المتبخترة على الشـــاطيء ، كي تبعث فوق هذا الشاطيء المنعزل امجادها الماضية ، كي تتوهم المسكينة ، هي

أيضاً ، قليلا ، وتتصور انها عادت امرأة شابة ، حمراء الشعر ، ناهدة الصدر ، في نعلين لامعين وجوارب حريرية . وماذا ستكون قيمة بعث المسيح اذا لم تكن اشارة لبعث الشباب والفرح فينا من جديد ؟ لعودة غانية عجوز الى سنيها العشرين ؟

كان زوربا يدمدم كل لحظة وهو يرفع جواربه الباذنجانية اللون التي كانت تتهدل :

ـ لقد تأخرت ، الفقمة العجوز ، لقد تأخرت ، القذرة ، لقد تأخرت الراية البالية الممزقة ..

ـ تعال ، اجلس ، يا زوربا ! تعالَ دخِّن سيجارة تحت ظل شجرة الخرنوب . انها لن تتأخر في المجيء .

والقى نظرة أخيرة مليئة بالانتظار نحو طريق القرية وجاء ليجلس تحت شجرة الخرنوب . واقتربت الظهيرة ، وكان الجو حاراً . ومن بعيد كانت تسمع اجراس الفصح ، فرحة ، قوية . ومن حين لحين ، كانت الريح تحمل الينا الحان القيثارة الكريتية ، والقرية كلها تضج كخلية نحل في الربيع .

وهزّ زوربا رأسه . وقال :

ـ لقد انتهى ذلك الوقت الذي كانت فيه روحي تُبعث في كل عيد فصح مع بعث المسيح ، لقد انتهى . والآن ، ان جسدي هو الذي يبعث فقط ... ثمة من يدفع لحفلة شرب ، ثم يأتي دور غيره ، ويقولون لي خذ هذه اللقمة الصغيرة ، وتلك أيضاً ، وعندئذ املأ نفسي بغذاء اوفر ، وألذ ، لا يتحول كله الى قاذورات . ثمة شيء يبقى ، شيء ينقذ ويصبح مزاجاً طيباً ، ورقصاً ، واغاني ، وخصاماً ، وهذا الشيء هو الذي أدعوه بعثاً .

ونهض ، وراقب الافق ، وقطّب حاجبيه ، وقال :

ـ ثمة غلام قادم راكضاً .

واندفع لملاقاة الرسول .

وانتصب الصبي على اطراف اصابعه ، وهمس بشيء ما في اذن زوربا الذي وثب ، غاضباً وزمجر :

ـ مريضة ؟ مريضة ؟ اغرب عن وجهي أو احطم وجهك !

والتفت نحوي :

ـ أيها الرئيس ، سأثب الى القرية لأرى ما الذي حدث لتلك الفقمة العجوز .. صبراً قليلا . اعطني بيضتين حمراوين ، فسنكسرهما معاً . سأعود !

ووضع البيضتين الحمراوين في جيبه ، ورفع جواربه الباذنجانيـــة ومضى •

نزلت من فوق التل ، وتمددت على الحصى الندي • كان ثمة نسـيم خفيف يهبّ ، والبحر يتجعّد ، وحطّ نورسان على الأمواج الصغيرة وأخذا يتأرجحان ، وقد أمالا عنقيهما ، مستسلمين بلذة لايقاع البحر •

كنت أحسّ ، وأنا أحسدهما ، بغبطة بطنهما ونضارتـه • وكنـت أفكر وانا انظر الى النورسين : « ذلك هو الطريق الواجب اتباعه ، ان تجـد الايقاع الأكبر وان تستسلم له ، بثقة » •

وبعد ساعة ، ظهر زوربا ، وهو يداعب شاربيه مسروراً :

ـ انهامصابة ببرد ، المسكينة • امر غير ذي بال • طوال الايام الاخيرة، اثناء الاسبوع المقدّس كله ، كانت تذهب الى صلوات الليل ، على شرفي كما تقول ، على الرغم من كونها فرنجية • فأصيبت بالبرد • لقد حجمتهـــا ، ودهنت ظهرها بزيت القنديل ، وقدّمت لها قدحـاً صغيراً مـــن الروم ، وستغادر غداً الفراش • يا لها من ضعيفة ، كم هـي مسلّية : لو سمعتهـــا وهي تهدل مثل حمامة عندما كنت أدلك ظهرها ، وكأنني أدغدغها !

وجلسنا الى المائدة وملأ زوربا الأقداح ، وقال بحنان :

ـ في صحتك ! وليتأخر الشيطان ، اكثر ما يمكن ، في أخذها !

وشربنا وأكلنا فترة لا بأس بها دون ان نتكلم • كانت الريح تحمـل الينا ، مثل طنين النحلة ، أصوات القيثارة البعيدة المنفعلة • ان المسيح يبعث على الشرفات ، وحمل الفصح وكعكه يتحولان الى أغاني حب •

وعندما أكل زوربا مريئاً ، وشرب هنيئاً ، ارهف اذنـــه الضخمـــة المليئة بالشعر وتمتم :

ـ القيثارة ••• انهم يرقصون في القرية !

ونهض فجأة • كانت الخمرة قد صعدت الى رأسه ، وصاح :

ـ قل ، ماذا نفعل هنا بمفردنا ، مثل العصافير ؟ هيّا نرقـــص ! ألا تشفق على الحمل ، انت ؟ اذن ، ستتركه يضيع هكذا ؟ هيـا ، تعـــالَ ! ليصبح رقصاً وأغاني ! ان زوربا قد بُعث !

ـ انتظر ، ايها اللعين زوربا ، هل جننت ؟

ـ بشرفي ، ان الامر سيان عندي ، ايها الرئيس ، لكنني اشـفقَ على الحمل ، أشفق على البيض الاحمر ، وعلى كعك الفصح ، وفطائر الجبنـة ! اقسم لك ، لو لم آكل سوى خبز وزيتون ، لقلت : ايه ! هيا الى النوم ،فهل

أنا محتاج لان احتفل ؟ » · انه مجرد زيتون وخبز ، أليس صحيحاً ؟ اذن فما الذي تنتظره منهما ؟ لكن الآن ، انه أمر يدعو للأسف ، أؤكد لك ، ان يضيع مثل هذا الغداء الدسم ! هيّا لنحتفل بالبعث ، أيها الرئيس !

ـ انني لست على ما يرام اليوم · اذهب ، وارقص عني ايضاً !

فأمسكني زوربا من ذراعي وأنهضني :

ـ لقد بعث المسيح ، يا صاح ! آه ! لو كان لي شبابك ! لكنت ألقيت بنفسي في كل مكان ، وعلى رأسي أولا ! في العمل ، والخمر ، والحب ، غير خائف الله أو الشيطان · هذا هو الشباب !

ـ انه الحمل الذي يتكلم في داخلك ، يا زوربا ! لقد اصبح متوحشاً ، لقد تحوّل الى ذئب !

ـ يا صاح ، لقد تحوّل الحمل الى زوربا ، وزوربا هو الذيّ يحدثك ، أؤكد لك ! اصغ اليّ ! وستحكم عليّ فيما بعد · انا ، انني سندباد بحري · ليس ذلك لأنني جبت العالم ، ليس لذلك ، مطلقاً ! لكنني سرقت ، وقتلت ، وكذبت ، ونمت مع مجموعة من النساء ، وانتهكت كل الوصايا · كم وصيّة هناك ؟ عشر ؟ آه ! أودّ لو كان هناك عشرون ، خمسون ، مئة ، كي انتهكها جميعاً ! ومع ذلك ، لو ان الله موجود ، لما خفت مطلقاً ان امثل أمامه ، حين يجيء اليوم الموعود · لست ادري كيف اشرح لك كي تفهم · كل هذا ، اعتقد ان لا أهمية له · هل يتنازل الله ويعير اهتمامه دود الارض ويحاسبه ؟ ويغضب ، ويثور ، لاننا خطونا خطوة خاطئة · ودسنا على أنثى الدود من طرفها ؟ او لاننا أكلنا لقمة لحم ، يوم الجمعة المقدس ؟ أفٍ ! ما ادعاكم الى السخرية ، ايها الكهنة المليئون بالحساء !

فقلت له كي أثيره :

ـ حسناً ، يا وزربا ، حسناً · ان الله لا يسألك ماذا أكلت ، بل ماذا فعلت !

ـ حسناً ، وانا ، أقول لك انه لا يسأل ذلك ابداً ! قد تقول لي : وكيف تعرف ذلك ، ايها الجاهل زوربا ؟ انني اعرفه ، انني متأكد ، لأنه لو كان لديّ ، انا ، ابنان ، أحدهما عاقل ، رصين ، مقتصد ، تقي ، والآخر خبيث ، شره ، زير نساء ، خارج على القانون ، لقبلت بهما كليهما على مائدتي ، بالتأكيد ، لكنني ، لست أدري لماذا ، افضّل الثاني · لعلّ ذلك لأنه سيكون اشبه بي ؟ لكن من قال لك انني لا أشبه الله الرحيم اكثر من الكاهن اسطفان الذي يمضي ايامه ولياليه في الركوع وجمع القروش ؟

« ان الاله الرحيم ، يحتفل بالأعياد ، ثم يرتكب المظالم، ويقوم بالحب، ويشتغل ، ويحب الأشياء المستحيلة ، مثلي تماماً • انه يأكل ما يعجبه ، ويأخذ المرأة التي يريد ، انك ترى امرأة جميلة كالماء النمير ، تمر امامك ، فيهف قلبك ، لكن فجأة تنفتح الارض ، وتختفي• الى اين ذهبت؟ من اخذها؟ اذا كانت عاقلة يقال : لقد اخذها الاله الرحيم • واذا كانت خاطئة ، يقال : لقد اخذها الشيطان • لكنني انا ، ايها الرئيس ، اقول لك واكرر : ان الله والشيطان واحد ! » •

وصمت ، وعضضت على شفتي كأنني اريد ان امنع الكلمات من الخروج • الكلمات وصيحة كبيرة • وماذا كانت هذه الصيحة ستعني ؟ اللعنة ، الفرح ، اليأس ، الخلاص ؟ انني اجهل ذلك •

وتناول زوربا عصاه ، ووضع قبعته معوجة قليلا ، بخيلاء ، ونظر اليه مشفقا ، وتحركت شفتاه لحظة كأنه يريد ان يضيف شيئاً ما • لكنه لم يقل شيئاً واتجه بخطى سريعة ، مرفوع الرأس ، نحو القرية •

كنت ارى ، على ضوء بعد الظهر الآفل ، ظله المارد وهو يتحرك على الحصى ويهز عصاه • وانتعش كل الشاطىء عند مرور زوربا • وارهفت أذني ، ملياً ، اتلقّط وقع خطاه الذي كان يتلاشى شيئاً فشيئا • وفجأة ، ما ان أحسست نفسي بمفردي ، حتى قفزت واثباً • لماذا ؟ كي اذهب الى ايـن ؟ لم اكن ادري • لم يكن عقلي قد قرر شيئاً • بل ان جسدي هو الذي وثب • انه هو ، هو بمفرده ، الذي اتخذ قراراً دون ان يسألني •

وقال بقوة ، وكأنه يصدر امراً :

ــ الى الأمام !

وانطلقت نحو القرية بخطى حازمة سريعة • من حين الى حين ، كنت أتوقف واتنشق الربيع • كانت الارض تعبق بالأقحوان ، وكلما اقتربت من البساتين ، جاءتني نفحات من اريج أشجار الليمون والبرتقال ، والغار ، المزهرة • وفي الغرب ، كانت نجمة المساء قد اخذت ترقص فرحة •

كنت اتمتم على الرغم مني بكلمات زوربا وانا اسير : « البحر ، المرأة، الخمر ، العمل الشاق ! ان تلقي برأسك أولا في العمل ، والخمر ، والحب ، ولا تخاف الله ولا الشيطان ••• هذا هو الشباب ! » • كنت اقول ذلك في نفسي واكرره وكأنني اريد ان اتشجع ، واتابع السير •

وفجأة ، توقفت على حين غرة وكأنني وصلت الى المكان الذي اريد • اين ؟ ونظرت • كنت واقفاً امام حديقة الارملة • وراء سياج القصب والتين

البري ، كان صوت أنثوي عذب يترنم ٠ واقتربت ، وازحت اوراق الشجر ، تحت شجرة برتقال ، كانت تقف امرأة مرتدية السواد ، باستثناء عنقها ، تقطع الأغصان المزهرة وهي تغني ٠ من خلال ظلمة الغسق ، كنت ألمح صدرها نصف المكشوف يتلألأ ٠

وانبهرت انفاسي ٠ وقلت في نفسي : « انها حيوان مفترس ، انها حيوان مفترس ، وهي تعرف ذلك ٠ يا للرجال من مخلوقات مسكينة ، مجنونة ، هاذرة ، بدون مقاومة ، عندما يقفون أمامها ! انها اشبه ببعض الحشرات ـ السرعوفة الراهبة ، او الجرادة ، او العنكبوت ـ النهمة التي لا تشبع ابداً ، والتي تلتهم الذكور عند الفجر ٠

هل أحسَّت الارملة اذن بوجودي ؟ لقد توقفت فجأة عن الغناء والتفتت ٠ وتصالبت نظراتنا ، لمدة لا تتجاوز لمح البرق٠ وأحسست بركبتي تتخاذلان ، وكأنني رأيت ، وراء القصب ، نمرة ٠

وقالت بصوت مخنوق :

ـ من هناك ؟

وسحبت منديلها وغطت صدرها ٠ وغام وجهها ٠

وكدت اذهب ٠ لكن كلمات زوربا ملأت فجأة قلبي ٠ وعادت الي قوتي: « البحر ، المرأة ، الخمر ٠٠٠ » ٠

واجبت :

ـ انني انا ٠ انا ٠ افتحي لي٠!

وما ان لفظتهذه الكلمات ، حتى تملكني الرعب ٠ وكدت من جديد اهرب ، لكنني تمالكت نفسي ، خجلا ٠

ـ من أنت ؟

وخطت خطوة ، وببطء وحذر وصمت ، مدت عنقها ، واغلقت عينيها نصف اغلاقة كي ترى بوضوح أكثر ، وتقدمت خطوة اخرى ، محنية الى الامام ، مترصدة ٠

وفجأة اضاء وجهها ٠ وأخرجت طرف لسانها ولعقت شفتيها ٠

وقالت بصوت أكثر عذوبة :

ـ الرئيس ؟

وتقدمت خطوة أخرى ، متجمعة على نفسها ، مستعدة للقفز ٠

وسألت من جديد بصوت مكتوم :

ـ الرئيس ؟

ـ نعم ٠
ـ تعالَ ٠

* * *

كان النهار قد طلع ٠ وكان زوربا قد عاد ، وجلس يدخن ، أمام الكوخ ، وهو ينظر الى البحر ٠ وكأنه ينتظرني ٠

وما ان ظهرت ، حتى رفع رأسه ورمقني ٠ واختلج منخراه كما يختلج منخرا الارنب البري ٠ ومد عنقه ، وتنشق بقوة ، وكأنه يستروحني ٠ ودفعة واحدة تهلّل وجهه وكأنه استنشق فيَّ رائحة الارملة ٠

ونهض ببطء ، وابتسم بكل جسده ، ومدَّ ذراعيه وقال :
ـ بركتي عليك ٠

واستلقيت ، وأغمضت عيني وسمعت البحـــر يتنفس بهدوء ، بايقاع متناوم ، واحسست بنفسي تصعد وتهبط مثل نورس ٠ وغرقت في النوم وأنا اهتز هكذا ورأيت حلما : لمحت زنجية ماردة جالسة على الارض متربعة ، وخيل الي انها معبد يوناني قديم من الغرانيت الاسود ٠ ورحت ادور حولها قلقاً لأجد المدخل ٠ انني لم اكن أطول من اصبع قدمها الصغيرة ٠ وفجأة ، وبينما انا ادور حول كعبها ، رأيت باباً أسود ، يشبه مغــــارة ٠ وسمعت صوتاً خشناً يقول آمراً : « أدخل ! » ٠ ودخلت ٠

عند الظهر ، استيقظت ٠ كانت الشمس ، التي دخلت من النافذة ، تغرق الاغطية وترسل اشعتها بقوة شديدة على مرآة صغيرة معلقة على الحائط حتى لتكاد تحطمها الى الف قطعة ٠

وعاد حلم الزنجية المارد الى خاطري ، وكان البحر يتمتم ، فأغلقت عيني وخيل الي انني سعيد ٠ كان جسدي خفيفاً مرتوياً ، مثل حيوان يلعق نفسه ، وهو مستلقٍ تحت الشمس ، بعد ان التهم فريسته ٠ وكان فكري ، هو أيضاً مثل جسد ، يستريح شبعاً ٠ وكأنه قد وجد للمسائل الممزقة التي كانت تقلقه حلا بسيطاً للغاية ٠

كان فرح الليلة الماضية كله ينبجس من داخلي ، ويتضاعف ، ويروي بغزارة التراب الذي انا مصنوع منه ٠ وخيل الي ، وانا مستلقٍ هكذا ، مغلق العينين ، ان كياني يطقطق ويتسع في تلك الليلة ، شعرت بوضوح ، للمـــرة الأولى ، ان الروح ، هي أيضا ، جسد ، وقد تكون أكثر حركة ، وأكثر شفافية، وأكثر حرية ، لكنها جسد ٠ وان الجسد هو روح ، متناومة قليلا ، اضنتها طرق طويلة وأنهكها ارث ثقيل ٠

وشعرت بظل يسقط فوقي . ففتحت عيني ولمحت زوربا يقف على العتبة ينظر الي مسروراً .

وقال لي بعذوبة وبحنان والدي :

ـ لا تستيقظ ، يا صغيري ! لا تستيقظ ... اننا لا نزال اليوم أيضاً في عيد ، نم !

فقلت وأنا انهض :

ـ لقد نمت بما فيه الكفاية .

فقال زوربا مبتسماً :

ـ سأعدّ لك بيضة ، تعيد اليك قواك .

ودون ان اجيب ، اسرعت الى الشاطىء ، وغطست في البحر ، وجففت نفسي تحت الشمس . ولكنني كنت لا ازال اشم رائحة عذبة نافذة في منخري، وعلى شفتي ، وفي اطراف اصابعي ، رائحة ماء زهر البرتقال ، أو زيت الغار ، الذي تدهن به نساء كريت شعورهن .

لقد قطعت بالامس حزمة من ازهار البرتقال لتحملها هذا المساء الى المسيح، في اللحظة التي يرقص فيها القرويون في الساحة تحت اشـجار الصفصاف البيضاء والتي تكون فيها الكنيسة مقفرة . وكانت الايقونة ، فوق سريرها ، محملة بأزهار الليمون ، وبين الازهار ، تظهر العذراء حزينة ، بعينيها اللوزيتين الكبيرتين .

وجاء زوربا ليضع قربي الفنجان الذي فقأ فيـه البيضة ، وبرتقالتين كبيرتين ، وقطعة صغيرة من كعك الفصح . وقدمها لي بصمت ، سعيداً ، كما تعتني الأم بولد لها عائد من الحرب . ونظر الي بمداعبة وانصرف .

وقال :

ـ سأغرس بضعة اوتاد .

رحت امضغ بهدوء تحت الشمس ، وشعرت بسعادة مـادية عميقة ، وكأنني اطوف فوق بحر رطب أخضر . لم أكن أسمح لعقلي بأن يسرق هـذه النشوة الجسدية ليعجنها في معجنه ويحيلها الى فكر . لقد تركت جسدي كله يتمتع من قدميه الى رأسه ، مثل حيوان . وكنت أحياناً ، أنظر بوجد ، حولي ، وفي داخلي الى معجزة العالم ، وأقول في نفسي : « ما الذي يجري ؟ كيف أمكن ان يصبح العالم متلائماً الى هذا الحد مع اقدامنا ، وايدينا ، ومعدتنا ؟ » . ومن جديد ، اغلق عيني ، وأصمت .

وفجأة ، نهضت ، ودخلت الى الكوخ ، وأخذت مخطوط « بوذا » وفتحته .

لقد وصلت الى نهايته · لقد رفع بوذا ، وهو مستلقٍ تحت الشجرة المزهرة ، يده وأمر العناصر الخمسة التي تكونها ـ التراب ، والماء ، والنار ، والهواء ، والفكر ـ بأن تنحلَّ ·

انني لم أعد بحاجة الى وجه قلقي هذا · لقد تجاوزته ، وانهيت خدمتي بالقرب من بوذا · ورفعت يدي ، أنا أيضاً ، وأمرت بوذا ان ينحل فيَّ ·

وبسرعة كبيرة ، بمعونة الابتهالات الفائقة القدرة ، بمعـــونة الكلمة ، غزوت جسده ، وروحه ، وفكره · وبدون شفقة ، كتبت الكلمـــات الأخيرة ، واطلقت الصيحة الأخيرة، وخططت اسمي بقلم أحمر كبير · لقد انتهى الأمر ·

وأخذت خيطاً غليظاً وربطت المخطوط بحزم · كنت احس بفرح غريب ، وكأنما يربط يدي ورجلي عدو مخيف ، أو كالمتوحشين عندما يقيدون امواتهم الاعزاء كي لا يستطيعوا الخروج من قبورهم والتحول الى اشباح ·

وجاءت فتاة صغيرة ، عارية القدمين ، راكضـــة · كانت ترتدي ثوباً اصفر، وتمسك بين يديها بقوة، ببيضة حمراء · وتوقفت ونظرت الي خائفة·

فسألتها مبتسماً ، كي أشجعها :

ـ ماذا ؟ أتريدين شيئاً ؟

فشهقت واجابتني بصوت ضعيف لاهث :

ـ ارسلتني السيدة لأقول لك ان تأتي · انها في فراشها · أأنت زوربا ؟

ـ حسناً ، انني قادم ·

ونهضت وبدأت في السير · وراحت جلبة القرية تقترب شيئاً فشيئاً : عذوبة قيثارتها ، وصراخها ، وطلقة بنادقها ، واغانيها المرحـــة · وعندمـا اشرفت على الساحة ، كان الصبيان والفتيات قد تجمعوا تحت أشجار الصفصاف التي جددت أوراقها وراحوا يستعدون للرقص · وكان الشيوخ جالسين حولهم، على المقاعد، مسندين ذقونهم بعصيهم، ينظرون· والعجائز واقفات في المؤخرة· ووسط الراقصين ، كان يتربع عازف القيثارة المشهور ، فانوريو ، وقد وضع وردة من ورود نيسان خلف اذنه · وكان يمسك بيده اليسرى قيثارته منصوبة على ركبته ، وبيده اليمنى يجرب اوتاره الرنانة ·

وصرخت وأنا اعبر :

ـ المسيح قام !

فأجابتني جلبة فرحة :

ـ حقاً قام !

وألقيت نظرة سريعة · صـــبيان أشدَّاء ، نحـــافٌ ، يرتدون قمصـــاناً

فضفاضة ، يعصبون رؤوسهم بمناديل تنسبل اطرافها على جباههم وأصداغهم مثل خصلات مجعَّدة ٠ والصبايا بالاطواق الذهبية حول أعناقهن ، وبمناديلهن البيضاء المطرزة ، وبأعينهن المسبلة ، يختلجن انتظاراً ٠

وسألتني بعض الأصوات :

ـ ألا تتنازل للبقاء معنا ، ايها الرئيس ؟

لكني كنت قدمضيت ٠

كانت السيدة هورتانس مستلقية على سريرها الكبير ، وهو قطعة الأثاث لوحيدة التي بقت لها ٠ وكانت وجنتاها ملتهبتين من الحمى ، وهي تسعل ٠

وما ان رأتني حتى تنهَّدت باكية :

ـ وزوربا ، ايها الشريك ، وزوربا ؟٠٠٠

ـ انه على غير ما يرام ٠ من اليوم الذي مرضت فيه ، مرض هو أيضاً ٠ انه يمسك بصورتك وينظر اليها بتنهُّد ٠

فتمتمت الجنية العجوز وهي تغمض عينيها سعيدة :

ـ تابع ٠٠٠ تابع ٠٠٠

ـ لقد ارسلني أسألك ان كنت ترغبين في شيء ما ٠ وقد قال لي : انــه سيأتي بنفسه هذا المساء ، على الرغم من أنه لا يكاد يستطيع المشي ٠ انه لا يطيق فراقك ٠

ـ تابع ، تابع ، تابع أيضاً ٠٠٠

ـ لقد تلقَّى برقية من أثينا ٠ ان ثياب العرس قد اصبحت جـــاهزة ، وكذلك الأكاليل ، وهي الآن في البحر ، في طريقها الينا ٠٠٠ مع الشموع البيض المحاطة بشرائط ورديَّة ٠٠٠

ـ تابع ، تابع ٠٠٠

كان النعاس قد تمكَّن منها ، وتبدَّل تنفسها ، وأخذت تهذي ٠ وكانت الغرفة تعبق برائحة ماء الكولونيا ، والأمونياك ، والعـــرق ٠ ومن النـــافذة المفتوحة ، كانت تنفذ رائحة الدجاج وأرانب الباحة ، الحادَّة ٠

ونهضت ، وانسللت خارج الغرفة ٠ وعند الباب اصطدمت بميميتو ٠ كان يرتدي ، في هذا اليوم ، قميصاً وحذاء جديدين ٠ وقد وضع خلف أذنه غصن ريحان ٠

وقلت له :

ـ ميميتو ، اسرع الى قرية كالو ، وجيء بالطبيب !

وكان ميميتو قد خاع حذائيه كي لا يمزقهما في الطريق ، وتأبَّطهما تحت

ذراعه ·

ـ اذهب لرؤية الطبيب ، وحيّه من طرفي ، وقل له ان يمتطي بغلته وأن يأتي دون تأخير · ان السيدة مريضة جداً · وقل له هذا · لقد أصيبت بالبرد، المسكينة ، انها محمومة ، انها تموت · قل له هذا · اجرِ !

ـ هوب ! هوب ! انني ذاهب ·

وبصق في يديه ، وصفّق بهما بفرح ، لكنه لم يتحرك · وراح ينظر اليَّ بغبطة ·

ـ اجرِ ، أقول لك !

لكنه ظلَّ ساكناً · وغمزني بعينه ، وابتسم ابتسامة شيطانية · وقال :

ـ أيها الرئيس ، لقد جئتك بزجاجة ماء زهر البرتقال كهدية ·

وتوقف لحظة · كان ينتظر ان اسأله من أرسلها ، لكنني بقيت صامتاً · فقال :

ـ حسناً ، ألا تسأل من أرسلها لك ، ايها الرئيس ؟ انها تقول : انها من أجل ان تضع منها على شعرك كي تطيب رائحته !

ـ اجرِ ، بسرعة ! اصمت !

وضحك ، وبصق من جديد في يديه ، وصاح مرة اخرى :

ـ هوب ! هوب ! لقد بُعث المسيح !

واختفى ·

- ٢٢ -

تحت أشجار الصفصاف كان الرقص الفصحي يبلغ ذروته • يقوده شاب قوي أسمر في العشرين ، وجنتاه المكسوّتان بزغب كثيف تجهلان بعد موسى الحلاقة • وقميصه ينفتح على صدره ، عن بقعة سوداء مليئة بالشعر المجعد • وكان رأسه ملقى الى الخلف ، وقدماه ترفّان على الأرض كجناحين ، ومن حين الى حين يرمي احدى الصبايا بنظرة ، فيتلألأ بياض عينيه ، ساكناً ، قلقاً في سواد وجهه •

وانتشيت مرتعداً • انني عائد من لدن السيدة هورتانس • وكنت قد استدعيت امرأة لتعتني بها ، وها أنا امضي الآن ، مطمئناً لأشاهد الكريتيين يرقصون • واقتربت من العم انانيوستي وجلست قربه على المقعد •

وسألته هامساً في أذنه :

ـ من هو هذا الفتى الذي يقود الرقص ؟

فأخذ العم انانيوستي يضحك ، وقال باعجاب :

ـ انه كالملاك الذي يأخذ النفوس ، هذا الخبيث • حسناً ! انه سيفاكاس، الراعي • طوال العام يحرس قطيعه في الجبال ، وينزل فقــط في عيد الفصح ليرى الناس ويرقص •

وتنهد متمتماً :

ـ آه ! لو كان لي شبابه ! لو كان لي شبابه ، اقسم لك بشرفي ، لكنت قدت الهجوم على القسطنطينية •

وهز الفتى رأسه ، وأطلق صيحة ، وحشية ، غير انسانية ، مثل الكبش عندما يلمح الأنثى ، وصرخ :

ـ اعزف ، يا فانوريو ، اعزف حتى يموت الموت !

كان الموت يموت في كل لحظة ، ويولد من جديد في كل لحظة ، منذ

آلاف السنين ، والشبان والصبايا يرقصون تحت الاشجار ذات الأوراق الحانية ـ الصفصاف ، والصنوبر ، والسنديان ، والدفلى ، والنخيل الرشيق ـ وسيرقصون أيضاً الوف السنين ، والشهوة تتأكل وجوههم · ان الاوجه تتبدل ، وتتغير وتعود الى الارض ، لكن وجوهاً أخرى تخرج منها وتحل مكانها· ليس هناك سوى راقص واحد ، ذي اقنعة لا تحصى ، لا يفنى ، في العشرين من العمر دوماً ·

ورفع الشاب يده ليفتل شاربيه ، لكنه كان امرد · وصرخ من جديد :

ـ اعزف ! اعزف ! يا فانوريو ، يا رفيقي ، والا أنفجرت !

وهز عازف القيثارة ذراعه ، ورنَّت القيثارة ، وحميت الاوتار ، وقفز الفتى ، وصفق برجليه ثلاث مرات في الهواء ، على ارتفاع مترين ، وأمسك بطرف حذائيه المنديل الابيض على رأس جاره ، حارس الغابة مانولاكاس ·

وتعالت الاصوات :

ـ مرحى ، يا سيفاكاس !

وارتعدت الصبايا وغضضن ابصارهن ·

لكن الفتى ، بصمت ، دون ان ينظر الى أحد ، وبحركة وحشية منتظمة ، وضع يده اليسرى مقلوبة على خصره النحيف القوي ، وراح يرقص ، وعيناه تحدقان الى الأرض خجلا ·

وفجأة ، توقف الرقص ، وجاء القواس العجوز ، اندروليو ، راكضاً ، رافعاً ذراعيه الى السماء · وصاح وهو يلهث متدلي اللسان :

ـ الارملة ! ألارملة ! الارملة !

وكان حارس الغابة مانولاكاس أول من اندفع ، مخترقاً حلقة الراقصين· من الساحة كانت تلمح الكنيسة ، في الوادي ، وهي لا تزال مزدانة بالآس والغار · وتوقف الراقصون ، وقد تصاعد الدم الى رؤوسهم ونهض الشيوخ عن مقاعدهم · وأراح فانوريو القيثارة على ركبتيه ، وأخذ من خلف أذنه وردة نيسان واستنشقها ·

وصرخ الجميع ، وهم يغلون غضباً :

ـ أين ، أيها الشيخ اندروليو ؟ أين هي ؟

ـ في الكنيسة ، هناك لقد دخلت اليها اللعينة ، وهي تحمل باقة من زهر الليمون ·

وصاح حارس الغابة وهو يشق الطريق :

ـ هيا ، أيها الرفاق !

وفي تلك اللحظة ، ظهرت الارملة على عتبة الكنيسة ، وقد عقدت رأسها بمنديل أسود • ورسمت اشارة الصليب •

وهتفت أصوات من الساحة :

ـ شقية ! قذرة ! مجرمة ! ان لها الجرأة على الظهور أيضاً ! هي التـــي جلبت العار للقرية !

واسرع البعض نحو الكنيسة في اثر حارس الغـــابة ، وأخذ آخرون يرمونها بالحجارة ، من اعلى • واصابتها احدى القذائف في كتفها • واطلقت صرخة ، ووضعت يديها على وجهها ، واندفعت ، وجسدها منحنٍ الى الامام ، محاولة الهرب • لكن الشبان كانوا قد وصلوا الى باب الكنيسة ، وانتضـى مانولاكاس سكينه •

وتراجعت الارملة ، وهي تطلق صرخات صغيرة حادة ، وثنت جسمها ، وجرت متعثرة لتحتمي في الكنيسة • ولكن ، هناك ، عند العتبة ، كان يقف العجوز مافراندوني ، متصالب الذراعين ، وهو يمسك بمصراعي الباب •

وقفزت الارملة الى اليسار قفزة وتشبثت بشـــجرة السرو الموجودة في الساحة وصفر حجر في الهواء ، وأصابها في وجهها ، وأطاح بمنديلها • وانحل شعرها وانسبل على كتفيها •

وراحت تصرخ وهي تزداد تشبثا بالشجرة :

ـ اكراماً لله ! اكراماً لله !

كانت الصبايا يقفن ، في الأعلى صفاً واحـــداً ، يعضضن على مناديلهن البيضاء ، ويتطلعن بشراهة • والعجائز يصرخن وهن متشبثات بالأسيجة •

ـ اقتلوها ، هيا ! اقتلوها !

وهجم عليها شابان، وأمسكاها، وتمزق قميصها الأسود، وتلألأ صدرها أبيض كالثلج • ان الدم يتدفق الآن من أعلى رأسها على جبينها وخديهـــا وعنقها •

وكانت تصرخ لاهثة :

ـ اكراماً لله ! اكراماً لله !

ان الدم ألذي يتدفق ، والصدر الذي يتلألأ ، قد أهاجا الشبان • وخرجت السكاكين من الأحزمة •

وصاح مانولاكاس :

ـ توقفوا ! انها لي !

ورفع مافراندوني ، الذي كان لا يزال منتصباً على عتبة الكنيسة ، يده •

وتوقف الجميع . وقال بصوت جليل :
ـ مانولاكاس ، ان دم ابن عمك يصرخ . امنحه الراحة !
واندفعت من السياج حيث كنت متسلقاً ، وانقضضت نحو الكنيسة ، لكن رجلي تعثرت بحجر وسقطت على وجهي .
وفي تلك اللحظة ، مر سيفاكاس . فانحنى ، وأمسكني من جلد ظهري كما تلتقط القطط وانهضني على قدمي . وقال :
ـ ما الذي تحاوله ، انت ، ايها الارستقراطي السخيف ؟ اغرب من هنا .
فقلت له :
ـ ألا تشفق عليها ، يا سيفاكوس ؟ ارحمها !
فأخذ الجبلي يضحك بوحشية وقال :
ـ انني لست امرأة حتى تتملكني الشفقة ! انني رجل !
وبقفزة وصل الى باحة الكنيسة حيث تبعته .
كان الجميع يحيطون الآن بالأرملة . صمت ثقيل . لا يسمع فيه الا لهاث انفاس الضحية المخنوقة .
ورسم مانولاكاس اشارة الصليب ، وتقدم خطوة ، ورفع سكينه . كانت العجائز ، هناك في الاعلى ، يصرخن فرحاً . وخفضت الصبايا مناديلهن وغطين وجوههن .
ورفعت الارملة عينيها ، ورأت السكين فوقها ، وأنّت كثور . وانهارت على أسفل الشجرة وأدخلت رأسها بين كتفيها . ولعق شعرها الارض ، ولمعت رقبتها البيضاء الناصعة .
وصاح العجوز مافراندوني وهو يرسم اشارة الصليب :
ـ انني اطلب عدالة الله !
ولكن في تلك اللحظة بالضبط ، تعالى صوت خشن وراءنا :
ـ انزل سكينك ، أيها القاتل !
والتفت الجميع مذهولين . ورفع مانولاكاس رأسه . كان زوربا واقفاً أمامه ، يؤرجح ذراعيه ، غاضباً . وصاح :
ـ قل اذن ، الا تخجل ؟ يا للشجاعة ! قريـــة بأكملها لقتل امـــرأة ! ستجلبون العار لكريت كلها ، احذروا !
فزمجر مافراندوني :
ـ اهتم بقضاياك ، يا زوربا ! ولا تتدخل في امورنا !
واضاف وهو يلتفت الى ابن أخيه :
ـ مانولاكاس ، باسم المسيح والعذراء ، اضرب !

ووثب مانولاكاس · وأمسك بالارملة ، والقاها أرضاً ، وجثا بركبته على بطنها ورفع سكينه · ولكن زوربا أمسك ، في مشـــــل لمح البصر ، بذراع مانولاكاس ، وراح يحاول، بيده التي لفها بمنديل كبير ، ان ينزع السكين ·

وركعت الارملة على ركبتيها ، وبحثت حولها عن سبيل تفر منه ، لكن القرويين كانوا قد سدوا الباب واصطفوا بشـــكل دائري حول الباحة وعلى المقاعد ، وعندما تبينوا انها تحاول الافلات ، تقدموا خطوة وضاقت الدائرة ·

كان زوربا يصارع ، بصمت ، وخفة وحزم وبرودة قلب · ورحت اتتبع المعركة بقلق،وأنا واقف قرب الباب·ان وجه مانولاكاس قد ازرق من الغضب· واقترب سيفاكاس وفتى آخر ضخم الجثة ليساعداه · لكن مانولاكاس حرك عينيه يميناً وشمالا بسرعة ، وصاح :

ـالى الوراء ! الى الوراء ! لا يقترب أي انسان !

وهجم من جديد بغيظ على زوربا ونطحه برأسه كثور ·

وعض زوربا على شفتيه دون ان يقول شيئاً · لكنه ظل يشد بقوة على ذراع حارس الغابة ، ويتلوى يميناً وشمالا كي يتفادى نطح رأسه · واندفع مانولاكاس ، وقد تملكه غضب جنوني ، وعض بأسنانه على اذن زوربا ، وشدها بكل قواه وأخذ الدم ينسال·

وصحت مذعوراً ، وأنا اندفع لانقاذه :

ـ زوربا !

فصاح بي :

ـ ابتعد ، أيها الرئيس ! لا تتدخل في الأمر !

وشد على قبضته ووجه لكمة هائلة الى اسفل معدة مانولاكاس · فتهاوى الحيوان المتوحش دفعة واحدة · وارتخت اسنانه ، وحررت أذن زوربا نصف المقطوعة ، وشحب وجهه المزرق · وبضربة مفاجئة ، أرســـله زوربا أرضاً ، وانتزع منه السكين وكسرها الى نصفين ·

وراح بمنديله يمسح الدم الذي كان ينساب من إذنه ، ثم جفف به وجهه الذي كان يسيل عرقاً ، فتلطخ كله بالدم · وانتصب ، والقى نظرة حوله ، من عينيه اللتين انتفختاواحمرّتا · وصاح بالارملة :

ـ انهضي ، تعالي معي !

واتجه نحو باب الباحة ·

ونهضت الارملة ، وجمعت كل قواها ، واستعدّت لشق طريقها · لكن الوقت لم يتح لها · اذ هجم عليها مافراندوني كما ينقضّ الصقر ، ورماها

أرضاً ، ولف شعرها الاسود الطويل ثلاث مرات حول ذراعه ، وبضربة سكين واحدة ، أطاح برأسها · وصاح :

ـ انني آخذ الخطيئة على حسابي !

ورمى رأس الضحية على عتبة الكنيسة · ثم رسم اشارة الصليب ·

واستدار زوربا · ومن شدة حنقه ، افتلع قبضة من شعر شاربيه · واقتربت وشددت على ذراعه · فانحنى وحدق فيّ · كان ثمة دمعتان كبيرتان معلقتان على حافة أهدابه · وقال لي بصوت مخنوق :

ـ هيا بنا ، أيها الرئيس !

وفي ذلك المساء ، لم يشأ زوربا ان يتناول شيئاً · كان يقول : « انحلقي مخنوق ، لا يمر منه شيء » · وغسل اذنه بالماء البارد ، وبلل قطعة قطن في العرق ، وضمد جرحه · وجلس على فراشه ، وراح يفكر ، ورأسه بين يديه ·

وتمددت على الأرض ، مستنداً الى الحائط ، وأحسست بالدموع تنساب ، بطيئة حارة ، على خدي · لم يكن عقلي يعمل ، ولم أكن افكر بشيء · كنت كمن سيطر عليه حزن طفولي عميق ، وكنت أبكي ·

وفجأة ، رفع زوربا رأسه ، وانفجر · أخذ يصرخ ، متابعاً بصوت عالٍ مونولوجه الداخلي الوحشي :

ـ لقد قلت لك ، أيها الرئيس ، ان كل ما يجري فوق هذه الأرض ، غير عادل ، غير عادل ، غير عادل ! أنا ، دودة الأرض ، زوربا الحلزون ، لا اوافق على ذلك ! لماذا يجب ان يموت الشباب ، وان تبقى الانقاض الهرمة ؟ لماذا يموت الأطفال الصغار ؟ كان لي انا صبي ، صغيري ديمتري ، وفقدته وهو في الثالثة ، وابداً ، أبداً ، أتسمعني ، لن اسامح الله على ذلك ! يوم أموت ، اذا كان يجرؤ على الظهور امامي ، واذا كان الهاً عن حق ، فسوف يخجل ! نعم ، نعم ! سوف يخجل أمامي ، أنا زوربا الحلزون !

وكشر عن اسنانه كأنه اصيب بألم مفاجىء · وعاد الدم ينساب من جرحه وعض على شفتيه كي لا يصرخ ·

وقلت :

ـ انتظر ، يا زوربا ! سأبدل ضمادك ·

وغسلت اذنه من جديد بالعرق ، وأخذت ماء زهر البرتقال الذي ارسلته لي الارملة والذي وجدته على سريري ، وبللت قطعة القطن ·

فقال وزربا وهو يستنشق بشراهة :

ـ ماء زهر البرتقال ؟ ماء زهر البرتقال ؟ ضع منه على شعري ، هكذا ،

حسناً جداً ! وفي يدي ، صبّه ، هيا !

لقد عاد الى الحياة • ونظرت اليه مذهولا • وقال :

– يخيل الي انني ادخل حديقة الارملة •

وعاد الى الندب متمتماً :

– كم من سنوات ، كم من سنوات ، اقتضت الارض حتى تنجح في صنع جسد كذاك ! ان من كان ينظر اليها كان يقول في نفسه : « ان أكـــون في العشرين ، وان أبقى بمفردي معها على الأرض وننجب الأطفال معاً ، لنعمـــر العالم ! لا ، ليس اطفالا ، بل آلهة حقيقيين ! » • في حين ، الآن •••

ووثب على قدميه • وانتفخت عيناه بالدموع ، وقال :

– لا استطيع ، ايها الرئيس • يجب أن اسير ، يجب ان أصعد وأهبط الجبل مرتين او ثلاثا حتى أتعب ، واهدأ قليلا ••• ايتها الأرملة اللعينة ! ان الرغبة لتأخذني في أن انشد قصيدة لك !

واندفع خارجاً ، وسار في اتجاه الجبل ، وضاع في الظلمة •

وتمددت على سريري ، وأطفأت المصباح ، ورحت مرة اخرى ، حسب عادتي الحقيرة اللاانسانية ، أعدل الواقع ، واسحب منه دمـــه ، ولحمه ، وعظامه • واحيله الى فكرة مجردة ، وأربطه بقوانين عامـة حتى أصـــل الى الاستنتاج الفظيع بأن كل ما حدث كان ضرورياً • وتوصلت اخيراً الى هذا العزاء النهائي الكريه : بأن من العدل ان يجري ما جرى •

ودخل ذبح الأرملة الى عقلي ، الى تلك الخلية التي كان كل سمٍّ فيهـا يتحول ، منذ عدة سنوات ، الى عسل ، وأقلقه • لكن سرعان ما امسكت فلسفتي بهذا الانذار الفظيع ، وغلفته بالصور والأحابيل ، وجعلته عاجزاً عن الحركة • هكذا تغلف النحلات بالشمع الدبور الجائع الذي يأتي لسلب عسلها •

بعد عدة ساعات ، كانت الأرملة ترقد في ذاكرتي ، هادئة ، مبتسمة ، قد تحولت الى رمز • لقد كانت أصلا في قلبي مغلفة بالشمع ، لا تستطيع ان تبعث فيّ الرعب وتسلبني عقلي • ان حدثاً فظيعاً جرى ذات يوم ، كان يتسع، ويمتد في الزمان والمكان ، ويتحد بالحضارات الكبيرة الآفلة ، والحضارات تتحد بمصير الأرض ، والارض بمصير الكون ، وهكذا عندما عدت الى الأرملة، وجدتها خاضعة للقوانين الكبرى ، قد تصالحت مع قتلتها ، ساكنة هادئة •

لقد عاد الزمن ووجد فيّ من جديد معناه الحقيقي : لقد ماتت الأرملة قبل آلاف السنين ، في ايام حضارة بحر ايجه ، وماتت صبايا « كنوسوس (١) » ،

---

١ – كنوسوس : عاصمة كريت القديمة ، بلغت أوج ازدهارها في القرن الواحد والعشرين قبل الميلاد •   « هـ • م »

المجعدات الشعر ، هذا الصباح ، على ساحل هذا البحر الضاحك ٠

وتملكني النعاس كما سيتملكني الموت ذات يوم ـ ليس ثمة شيء أكيد أكثر من هذا ـ وغصت في الظلمات على مهل ٠ لم ادر متى عاد زوربا ولا متى دخل عند الصباح ، وجدته على الجبل ، يصرخ ويزمجر بالعمال ٠

لم يعجبه أي شيء مما فعلوه ٠ فطرد ثلاثة عمال عاندوه ، وأخذ المعول بنفسه وبدأ يشق الطريق الذي خططه من أجل الأوتاد وسط الشوك والصخور٠ وتسلق الجبل ، ووجد الحطابين الذين كانوا يقطعون الصنوبر وأخذ يصرخ بهم ٠ فضحك احدهم وتمتم شيئا ما ٠ فهجم زوربا عليه ٠

عند المساء ، عاد منهكاً ، ممزق الثياب ، وجلس قربي على الشاطيء ٠ ووجد صعوبة في أن يفتح فمه ، وعندما تكلم أخيراً ، تكلم عن خشب البناء ، والحبال واللينيت ، مثل مقاول حريص ، يستعجل اجتياح المكان ، واستخلاص اكبر فائدة ممكنة ، ثم الانصراف ٠

وكدت في احدى اللحظات ، وأنا في حالة العزاء التي وصلت اليها ، ان أتحدث عن الأرملة ، لكن زوربا مد يده الغليظة وأغلق فمي ٠ وقال بصوت أصم:

ـ أصمت !

وصمتّ ، خجلا ٠ وقلت في نفسي وأنا أحسد زوربا على ألمه : هذا هو الانسان الحقيقي ٠ انسان حارّة دماؤه ، متينة عظامه ، يترك دموعاً كبيرة حقيقية تنساب حين يتألم ، ولا يضيع فرحه بامراره في غربال الميتافيزيك الدقيق ، حين يكون سعيداً ٠

ومضت ثلاثة أو اربعة أيام على هذه الحال ٠ كان زوربا يعمل ، دون توقف ، دون تنهد ، دون طعام ، ودون شراب ٠ كان يذوب ٠ وذات مساء قلت له ان السيدة بوبولينا لا تزال مريضة ، وان الطبيب لم يأت ، وانها تهذي وهي تلفظ اسمه ٠

فشد على قبضتيه وقال :

ـ هذا حسن ٠

وفي فجر اليوم التالي ، ذهب الى القرية وعاد وشيكاً ٠ فسألته :

ـ أرأيتها ؟ كيف حالها ؟

فقال :

ـ ليس بها شيء ، سوف تموت ٠

وتوجه بخطا كبيرة نحو الجبل ٠

وفي ذلك المساء نفسه أخذ عصاه وخرج دون ان يتناول طعام العشاء ٠

سألته :

ـ الى أين أنت ذاهب ، يا زوربا ؟ ألى القرية ؟

ـ كلا • سأقوم بجولة صغيرة ، ثم أعود •

وسار في اتجاه القرية بخطا عريضة حازمة •

كنت متعباً ، فتمددت • وأخذ فكري من جديد يستعيد صورة الارض كلها ، وصعدت اليه ذكريات ، وعادت احزان ، وحوّم عقلي فوق أبعد الأفكار ، ثم عاد ليحط فوق زوربا •

قلت في نفسي : « لو صادف ، في الطريق ، مانولاكاس ، فان هذا المارد الكريتي المجنون الغاضب سيلقي بنفسه عليه • يبدو انه طيلة هذه الايام قد ظل محبوساً في منزله يئن • انه يخجل من الظهور في القرية ، ولا يكف عن التأكيد بأنه اذا أمسك بزوربا « فسوف يمزقه كسمكة سردين » • بالأمس ايضاً ، ليلا ، رآه أحد العمال يحوم ، حول الكوخ ، مسلحاً • اذا التقيا هذا المساء ، فستكون هناك مجزرة » •

ونهضت واثباً ، وارتديت ثيابي ، وانطلقت بسرعة في طريق القرية • كان الليل العذب ، الرطب ، يعبق برائحة القرنفل البري • وبعد فترة ، لمحت زوربا ، خلال العتمة ، وهو يتقدم ببطء ، كأنه متعب • كان من حين الى حين يتوقف ، ويحدق بالنجوم ، ثم يمضي بسرعة أكبر ، فأسمع وقع عصاه فوق الحجارة •

واقترب من حديقة الارملة • كان الجو يعبق برائحة الليمون وزهر العسل • وفي تلك اللحظة ، انبجس ، من خلال اشجار برتقال الحديقة ، غناء ممزق لبلبل ، كخرير ماء • كان يغني ، ويغني في الظلمات ، وتلهث أنفاس من يسمعه • وتوقف زوربا فجأة ، لاهثاً ، هو ايضاً ، بسبب هذه العذوبة الكثيرة •

وعلى حين غرة تحرك قصب السياج ، وصدر عن اوراقها القاطعة صوت به نصال من الفولاذ •

وقال صوت غليظ وحشي :

ـ ايه ، يا صاح ! ايه ايها الشيخ الخرف وجدتك اخيراً !

وجمدت في مكاني • لقد عرفت الصوت •

وتقدم زوربا خطوة ، ورفع عصاه ، ثم توقف من جديد • وعلى ضوء النجوم الشاحب ، كنت أميز كل حركة من حركاته •

وبقفزة واحدة ، اندفع فتى ضخم الجثة بعيداً عن القصب • وصرخ

زوربا وهو يمد عنقه :
ـ من هناك ؟
ـ انا ، مانولاكاس ٠
ـ تابع طريقك ، اذهب !
ـ لقد لوثت شرفي ، يا زوربا !
ـ لست أنا الذي لوث شرفك ، يا مانولاكاس ، اذهب اقول لك ٠ انك فتى قوي ، لكن الحظ هو الذي شاء الامر هكذا ، انه اعمى ، ألا تدري ذلك ؟
فقال مانولاكاس (وسمعت أسنانه تصر) :
ـ حظ او غير حظ ، اعمى أو لا ، الا انني اصر على ان أغسل عاري هذا المساء بالذات ٠ أمعك سكين ؟
فأجاب زوربا :
ـ كلا ٠ ليس معي الا هراوة ٠
ـ اذهب وجيء بسكينك ٠ انني أنتظرك هنا ٠ هيا !
فلم يتحرك زوربا ٠ وتعالى صوت مانولاكاس هازئاً :
ـ أخائف ؟ هيا ، اقول لك !
فقال زوربا وقد بدأ يغضب :
ـ ماذا أفعل بالسكين ، يا صديقي ؟ ماذا افعل بها ، قل ؟ أتذكر ، في الكنيسة ، انت كان معك سكين ، وأنا لم يكن معي ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك يبدو لي انني تدبرت امري جيداً ٠
فزمجر مانولاكاس :
ـ أوتسخر مني علاوة على ذلك ؟ لقد أخترت وقتك ، لأنني مسلح وانت غير مسلح ٠ جيء بسكينك ايها الماسيدوني القذر ، سنرى من منا أقوى ٠
فأجاب زوربا ، بصوت يرتعد غضباً :
ـ الق سكينك ، وسألقي انا هراوتي ، ثم نرى من هو اقوى ! هيا ، ارمها ، ايها الكريتي القذر !
ورفع زوربا ذراعه ، والقى الهراوة ، وسمعتها تسقط فوق القصب ٠
وصاح زوربا من جديد :
ـ ارم سكينك !
واقتربت على أطراف اصابعي ، بهدوء كبير ٠ وعلى ضوء النجوم ، استطعت أن ألمح بريق السكين عندما سقطت هي ايضاً فوق القصب ٠
وبصق زوربا في يديه ، وصاح وهو يقفز :

ـ تشجّع !

لكن قبل أن يتمكن الاثنان من الالتحام ، اندفعت بينهما • وصرخت :

ـ توقّفا ! تعالَ هنا ، يا مانولاكاس ، وتعالَ ، أنت أيضاً ، يا زوربا • ألا تخجلان ؟

واقترب الخصمان بخطى بطيئة • وامسكت اليد اليمنى لكليهما وقلت :

ـ تصافحا ! انكما ، كلاكما ، فتيان طيبان وشجاعان ، تصالحا •

فقال مانولاكاس وهو يحاول ان يسحب يده :

ـ لقد لطخ شرفي •••

فقلت :

ـ لا يمكن تلطيخ شرفك بمثل هذه السهولة ، يا مانولاكاس ! القرية كلها تعرف بسالتك • لا تلقِ بالا الى ما حدث بالامس في الكنيسة • لقد كانت ساعة مشؤومة • والآن ، لقد انقضى الامر وانتهى ! ثم ، لا تنس ذلك ، ان زوربا غريب ، ماسيدوني ، وانه لعار كبير علينا ، نحن الكريتيين ، ان نرفع اليد على ضيف جاء الى بلادنا ••• هيا ، هات يدك ، فهذه هي البسالة الحقيقية، وهيا بنا الى الكوخ ، سنشرب كأساً من الخمر ونشوي متراً من المقانق ، لنعزز الصداقة ، يا مانولاكاس !

واخذت مانولاكاس من خصره ، وسحبته بعيداً قليلا • وهمست في أذنه :

ـ انه هرم . هذا الرجل المسكين • لا يجوز ان يتحامل عليه فتى شاب وقوي مثلك !

وهدأ مانولاكاس ، وقال :

ـ حسناً ، من اجل مرضاتك !

وتقدم خطوة نحو زوربا ، ومدّ يده الضخمة الثقيلة ، وقال :

ـ هيا ، ايها الصديق زوربا • قضايا قديمة ، قضايا منسية • هات يدك !

فقال زوربا :

ـ لقد قطعت اذني ، خذ ، هذي يدي !

وتصافحا ، طويلا ، وبقوة • وشدا على أيديهما بقوة اكثر فأكثر ، وراحا ينظران الى بعضهما بعضاً • وخشيت ان يتلاحما من جديد •

وقال زوربا :

ـ انك تشد بقوة ، انت فتى متين ، يا مانولاكاس !

ـ وانت ايضاً تشد بقوة • شدّ أكثر حتى نرى ، اذا كنت تستطيع !

فصرخت :

ـ هذا يكفي · هيا بنا لنروي صداقتنا ·

ووقفت بينهما ، زوربا الى يميني ، ومانولاكاس الى يساري ، واستدرنا عائدين الى شاطئنا ·

وقلت كي أبدل موضوع الحديث :

ـ ان الغلال ستكون وفيرة هذه السنة ··· فقد امطرت كثيراً ·

لكن لم يجب أحد على عبارتي هذه · ان الغيظ لا يزال يكظم صدريهما · واملي كله الآن في الخمر · وصلنا الى الكوخ ·

وقلت :

ـ اهلا بك تحت سقفنا ، يا مانولاكاس ! زوربا ، شِ لنا النقانق ، واملأ ثلاث كؤوس ·

وقلت وانا أرفع كأسي :

ـ في صحتكما ! في صحتك ، مانولاكاس ! في صحتك ، زوربا ، اقرعا الكؤوس !

وقرعا الكؤوس · وصبَّ مانولاكاس بضع قطرات من الخمر على الارض ، وقال بلهجة وقور :

ـ ليجرِ دمي مثل هذا الخمر ، ليجرِ دمي مثل هذا الخمر ، اذا رفعت يدي عليك ، يا زوربا ·

ـ ليجرِ دمي انا ايضاً مثل هذا الخمر ، اذا لم أكن نسيت الاذن التي قطعتها لي ، يا مانولاكاس !

- ٢٣ -

عندما طلع الفجر ، جلس زوربا على سريره وايقظني :

ـ الا تزال نائماً ، ايها الرئيس ؟

ـ ما هناك يا زوربا ؟

ـ لقد حلمت حلماً غريباً • اعتقد اننا لن نتأخر عن القيـــام بسفرة • اسمع ، ستضحك • كان هنا ، في المرفأ ، مركب كبير كأنه مدينة • وكـان يصفر ، مستعداً للرحيل • وجئت انا راكضاً من القرية لألحـق به ، وكنـت امسك ببغاء بيدي • ووصلت ، وتسلقت المركب ، لكن القبطان قدم مسرعاً • وصاح بي : « بطاقة ! » فسألته وانا اخرج رزمة من الأوراق المالية من جيبي : « كم ؟ » • قال : « الف درهم » • فقلت له : « قل ، من فضلك ، الا يكفي ثمانمئة ؟ » • فأجاب : « الف ، ولا درهم أقـل ! والا ، فانزل بسرعة ! » عندئذ غضبت وقلت له : « اسمع ، خذ ، من اجل مصلحتك ، الثمانمئة التي اعطيكها ، والا فسوف استيقظ ، يا شيخي المسكين ، وتخسر الكل ! » •

وانفجر زوربا ضاحكاً ، وقال مذهولا :

ـ يا للانسان من آلة مضحكة ! انك تملأها بالخبز ، والخمر ، والسمك ، والفجل ، فيخرج منها تنهدات ، وضحك وأحلام • انه مصنع ! اعتقد ان في رؤوسنا سينما صوتية كتلك الافلام الناطقة •

وفجأة وثب زوربا خارج سريره ، وصاح قلقاً :

ـ لكن لماذا الببغاء ؟ ماذا يعني ان يذهب هذا الببغاء معي ؟ آه ! اخشى ان • • •

ولم يتح له الوقت لينهي عبارته • فقد دخل الكوخ رسول ، قصير أحمر الشعر ، ابليس حقيقي ، وهو يلهث •

ـ اكراماً لله ! ان السيدة المسكينة تصرخ بأن ننذر الطبيب ! انها تقول

انها على وشك الموت ، وستثقل على ضميركما ٠

وشعرت بالخجل ٠ لقد نسينا تماماً ، في هذه الفوصى التي القتنا فيها الارملة ، صديقتنا العجوز ٠

وتابع ذو الشعر الاحمر بكلمات مرحة :

ـ انها مريضة ، انها تسعل بقوة تهز فندقها كله ! نعم ، نعم ، يا صاح ، سعال حمار حقيقي ! جوهْ ! جوهْ ! ان القرية كلها تهتز !

فصحت به :

ـ لا تضحك ، اصمت !

واخذت ورقة وكتبت ٠

ـ اسرع ، خذ هذه الورقة الى الطبيب ولا تعد قبل ان تراه بعينيك يركب بغلته ٠ أتسمع ، اسرع !

وأخذ الرسالة ، ودسّها في حزامه ، واختفى ٠

كان زوربا قد نهض ٠ ولبس ثيابه بسرعة كبيرة ، دون ان يقول شيئا ٠ فقلت له :

ـ انتظر ، سآتي معك ٠

فقال :

ـ انني مستعجل ٠

وانطلق ٠

بعد لحظات ، كنت بدوري اسير نحو القرية ٠ كانت حديقةالأرملة تعبق مقفرة ٠ وكان ميميتو جالساً امامها ، قابعاً ، مستوحشاً ، ككلب منهك ٠ لقد نحف ، وغارت عيناه في محجريهما ، والتهبتا ٠ والتفت ، ورآني ، وتناول حجراً ٠

فسألته وانا أرمي الحديقة بنظرة حزينة :

ـ ماذا تفعل هنا ؟

واجتاحتني ذكرى ذراعين دافئتين قويتين ٠٠٠ وطاف في الجو اريج زهر الليمون وزيت الغار ، ولمحت ، في العتمة ، عيني الارملة الجميلتين السوداوين ، وقد أججتهما الشهوة ، واسنانها الحادة البيضاء اللامعة التي فركتها بورق الجوز ٠

ودمدم ميميتو :

ـ لماذا تسألني هذا ؟ هيا ، انصرف الى أعمالك ٠

ـ أتريد سيجارة ؟

ـ انني لم اعد ادخن ٠ انكم جميعاً انذال ٠ جميعاً ! جميعاً ! جميعاً !

وسكت ، لاهثاً ، وكأنه يبحث عن كلمات لم يجدها ٠٠٠

انذال ٠٠ حقيرون ٠٠ كذبة ٠٠ قتلة ٠٠

وضرب بيديه وكأنه وجد الكلمة التي كان يبحث عنها وبدا عليه الاطمئنان٠ وصاح بصوت حاد :

قتلة ! قتلة ! قتلة !

وأخذ يضحك ٠

وانقبض قلبي ٠ وتمتمت وانا ابتعد بخطى سريعة :

ـ معك حق ، يا ميميتو ، معك حق ٠

عند مدخل القرية رأيت الشيخ انانيوستي ، منحنياً على عصاه ، ينظر بانتباه ، وكله سرور ، الى فراشتين صفراويـن كانتا تتلاحقان في العشـب الربيعي ٠ انه الآن ، وقد اصبح هرماً ، لا يهتم مطلقاً بحقله ، او بامرأته أو بأولاده ، يستطيع ان يجد الوقت لينقل طرفه بلا مبالاة على العالم ٠ ورأى ظلي على الارض ورفع رأسه ، وقال لي :

ـ اية ريح اتت بك في مثل هذه الساعة المبكرة ؟

لكنه رأى وجهي القلق ولا بد ، لانه قال دون ان ينتظر جواباً :

ـ اسرع ، يا بني ٠ لســـت ادري ان كنـــت ستجدها حيّة ٠٠ ايه ، المسكينة !

ان السرير العريض الذي خدم كثيراً ، والذي كان اخلص رفيق للسيدة هورتانس ، قد ازيح الى وسط الغرفة الصغيرة فملأها كلها ٠ وفوقه كان يتدلى الغراب ، المستشار الخاص المخلص ، متأملا قلقاً ، بذراعيه الخضراوين ، وقبعته الصفراء ، وعينيه المستديرتين الخبيثتين ٠ كان ينظر الى سيدته الممددة تحته وهي تئن ، ويحني رأسه شبه الانساني معوجاً قليلا لكي يصغي ٠

لا ، لا ، انها ليست تنهدات فرح الحب التي يعرفها جيداً ، ولا هديل الحمامة الحنون ، ولا الضحكات المدغدغة ٠ العرق الذي يسيل بشكل قطرات باردة فوق وجه سيدته ، والشعر الذي يشبه الصوف المنفوش ، غير المغسول ، غير المشط ، الملتصق بالصدغين ، وهذه التقلبات التشنجية في الفراش ، ان الببغاء ليرى هـذا كله للمرة الاولى ، وقلقـه يزداد ، وقد اراد أن يصيـح كانافارو ! كانافارو ! لكن الصوت لم يخرج من حنقه ٠

كانت سيدته التعيسة تئن وذراعاها الذابلتان النحيفتـان ترتفعـان وتسقطان فوق الاغطية ٠ انها تختنق ٠ ان رائحة العرق الحادة واللحم الذي

بدأ يتفسخ تفوح منها ، ووجها غير مخضب ، وشعرها اشعث • وكان نعلاها الباليان المشوهان يخرجان من تحت السرير ، فينقبض القلب لمرآهما • ان هذين النعلين ليبعثان فيك الحزن أكثر مما تبعثه صاحبتهما بالذات •

كان زوربا جالساً عند رأس المريضة ، ينظر الى الحذائين ، لا يستطيع أن يشيح عنهما الطرف • وكان يشد على شفتيه كي يمسك دموعه • ودخلت ، ووقفت وراءه ، لكنه لم يسمعني •

كانت المسكينة تجد صعوبة في التنفس • انها تختنق • وتناول زوربا قبعة مزينة بوردات من القماش ليروّح عنها • كان يهز يده الضخمة بسرعة كبيرة ، وبشكل اخرق ، وكأنه ينفخ فوق فحم رطب علّه يجعله يشتعل •

وفتحت عينيها ، مذعورة ، ونظرت حولها • كل شيء كان مظلماً ، وما كانت لتميز أي شخص ، حتى زوربا الذي كان يمسك بالقبعة ذات الازهار •

كان كل شيء مقلقاً وقاتماً حولها ، وابخرة زرقاء تتصاعد من الثرى وتبدل شكلها وتصبح افواهاً مقهقهة ، وأقداماً ملتفة ، واجنحة سوداء •

وغرزت اظافرها في الوسادة ، الملطخة بالدموع ، واللعاب ، والعرق ، واطلقت صرخة عالية :

ـ لا اريد ان اموت ! لا اريد !

لكن نوّاحتي القرية كانتا قد سمعتا بحالها ، فجاءتا • وانسابتا الى الغرفة وجلستا على الارض ، مسندتين ظهريهما الى الحائط •

ولمحهما الببغاء بعينه المستديرة ، فغضب ، ومد عنقه ، وصاح : « كاناڤو•• » ،لكن زوربا مد يده الى القفص ، مغضباً ، وعاد الطائر الى هدوئه •

ومن جديد تعالت الصرخة اليائسة :

ـ لا أريد ان اموت ! لا أريد !

ومد شابان أمردان اسمران رأسيهما من الباب ، ونظرا بانتباه الى المريضة ، وتبادلا بينهما اشارة تفاهم ورضى ، واختفيا •

وسرعان ما سمعنا في الباحة نقيقاً مذعوراً وخفق اجنحة : لقد كان هناك من يطارد الدجاج •

والتفتت النواحة الاولى ، العجوز مالاماتينيا ، نحو رفيقتها :

ـ أرأيتهم ، ايتها الخالة لينيو ، أرأيتهم ؟ انهم مستعجلون ، وكأنهم يموتون جوعاً ، وسيدقون أعناق الدجاجات ويلتهمونها • ان كل صعاليك القرية قد تجمعوا في الباحة ولن يتأخروا عن الغزو !

ثم تمتمت ، وقد نفد صبرها ، وهي تلتفت نحو فراش المحتضرة :

ـ موتي ، أيتها العجوز ، اسرعي ، اسرعي حتى يتاح لنا الوقت لأخذ شيء ما ، نحن أيضاً ٠

فقالت الخالة لينيو وهي تزم فمها الصغير الذي تساقطت أسنانه :

« كي أقول لك الحقيقة الحقة ، ايتهـا الام مالاماتينيا ، كي أقول لك الحقيقة الحقة ، فانهم غير مخطئين ٠٠٠ « اذا كنت تريديـن ان تأكلي ، فخذي ، واذا كنت تريدين ان تملكي ، فاسرقي ! » هذا ما كانت تنصحني به امي المرحومة ٠ ليس علينا الا ان نعجل بالندب ، لنلحق بقبضة من الارز ، وقليل من السكر ، وابريق ، ثم نبارك ذكراها ٠ لم يكن لها لا أطفال ولا أهل ، اذن ، فمن الذي سيأكل الدجاج والارانب ؟ من سيشرب خمرها ؟ من سيرث مكباتها كلها ، ، وامشاطها ، وسكاكرهـا ؟ ايه ! اعترف لك ، ايتهـا الام مالاماتينيا ، وليسامحني الله ، انني ارغب كل لحظة في ان آخذ ما أستطيعه !

فقالت الام مالاماتينيا وهي تمسك صديقتها من ذراعها :

ـ انتظري ، يا طيبتي ، لا تستعجلي كثيراً ! انا ايضاً ، اقسم لك ، تراودني الفكرة نفسها ، لكن دعيها تسلم الروح اولا ٠

في تلك الاثناء ، كانت المحتضرة تنقب بعصبية تحت وسادتها ٠ لقد اخرجت من سبتها ، عندما احست بالخطر ، صليباً من العظم الابيض ، اللامع ، واخذته معها الى فراشها ٠ لقد نسيته تماماً ، سنوات طويلة ، بين قمصانها الممزقة وأسمالها المخملية ، في اسفل سبتها ، وكأن المسيح ليس الا دواء لا يؤخذ الا في حالة المرض المخطر ٠ وكأن لا فائدة منه ، ما دام الانسان يعيش حياة طيبة ، يأكل ، ويشرب ، ويحب ٠

ووجدت اخيراً المصلوب ، وهي تتلمسه لمساً وضغطته على صدرها المبلل بالعرق ٠ وراحت تتمتم بشوق وهي تعانق عشيقها الاخير :

ـ يا صغيري يسوع ، يا عزيزي الصغير يسو ٠٠٠

وسمعها الببغاء ٠ وشعر بأن لهجة الصوت قد تبدلت ، وتذكر ليـالي الماضي البيضاء ، وانتصب فرحاً ، وصاح بصوت أبح ، وكأنه ديك ينـادي الشمس :

ـ كانافارو ! كانافارو !

ولم يتحرك زوربا ، هذه المرة ، ليدخل صوته الى حلقه ٠ بل نظر الى المرأة التي كانت تبكي وتقبل الاله المصلوب ، في حيـن انتشرت عذوبة غير متوقعة على وجهها المنهك ٠

وانفتح الباب ، ودخل الشيخ انانيوستي بهدوء كبير ، وقبعته في يده ٠

واقترب من المريضة ، وانحنى ، وركع على ركبتيه ، وقال لها :

ـ سامحيني ، يا سيدتي الطيبة ، وسوف يسامحك الله • سامحيني اذا كنت قد وجهت اليك ، ذات مرة ، كلمة قاسية • اننا لسنا قديسين •

لكن السيدة الطيبة كانت الآن ممدة ، ساكنة ، غارقة في استسلام لا يُقهر ، ولم تسمع الشيخ انانيوستي • ان آلامها كلها قد امحت ، الشيخوخة البائسة ، والمهازيء ، والكلمات القاسية ، والليالي الحزينة التي كانت تجلس فيها على عتبة بابها المقفرة تحيك جوارب للفلاحين ، كأية امرأة عادية طيبة وشريفة ، وهي الباريسية الانيقة ، ملكة الاغراء التي لا تقاوم ، والتي جعلت الدول الاربع الكبرى تثب على ركبتيها ، والتي حيَّتها أربعة اساطيل كبرى !

كان البحر ازرق بلون اللازورد ، والامواج تزبد ، والحصون العائمة ترقص ، والأعلام من مختلف الالوان تخفق فوق نواصيها • وتفوح رائحة الحجلان المشوية والسمك المقلي ، وتُحمل الفواكه المبردة في آنية من البلور المنقوش ، وتطير سدادة الشمبانيا حتى سقف المدمرة الحديدي •

لحى سوداء ، وكستنائية ، ورمادية ، وشقراء ، وعطور من اربعة انواع ، ماء الكولونيا ، والبنفسج ، والمسك ، والعنبر ، وتُغلق أبواب المقصورة المعدنية ، وتسدل الستائر الثقيلة ، وتضاء الانوار • وتغلق السيدة هورتانس عينيها • ان حياتها الغرامية كلها ، وحياتها القلقة كلها ، آه ! ايتها السيدة ! لم تدم سوى ثانية واحدة •••

وتنتقل من ركب الى ركب ، وتضم ذراعيها على ازياء موشاة بالذهب ، وتدس اصابعها في لحى معطرة كثة • اما الاسماء ، فهي لم تعد تذكرها • انها ، كببغائها ، لا تذكر الا اسم كانافارو ، لانه كان أصغرهم ولأن اسمه هو الوحيد الذي استطاع الببغاء ان يلفظه • اما اسماء الآخرين فكانت معقدة ، صعبة ، ولهذا تبخرت •

وتنهدت السيدة هورتانس بعمق وشدت على المصلوب بقوة • واخذت تتمتم ، هاذية ، وهي تضغطه على ثدييها الذابلين :

ـ يا كانافارو ، يا صغيري كانافارو •••

وتمتمت الخالة لينيو :

ـ لقد بدأت تجهل ما تقوله ••• لا بد انها رأت ملاكها الحارس ، فخافت ••• لنرفع منديلنا ، ولنقترب •

فقالت الام مالاماتينيا :

ـ ألا تخشين الله اذن ؟ هل تريدين ان نبدأ بندبها وهي لا تزال على قيد الحياة ؟

فدمدمت الخالة لينيو بصوت أصم :

ـ ايه ! أيتها الام مالاماتينيا ، بدلا من التفكير بصناديقها وثيابها ، وببضاعة الدكان ، وبالدجاج والارانب ، تحدثينني بأنه يجب أن تسلم الروح اولا ! اسرقي ما امكنك !

وما ان قالت ذلك حتى انتصبت ، وتبعتها الاخرى غاضبة · ورفعتا منديليهما السوداوين ، وشعثتا شعرهما القليل الابيض ، وتشبثتا بأطراف السرير · واعطت الخالة لينيو الاشارة وهي تطلق صرخة طويلة حادة ، تبعث الرعدة :

ـ ولي ·· ي ·· ي ·· ي ·· !

وأسرع زوربا ، وأمسك بالعجوزين من شعرهما وألقى بهما الى الوراء ، وصاح :

ـ اصمتا ، ايتها العجوزان المهذارتان ! ألا تريان انها ما تزال على قيد الحياة ؟ فدمدمت الام مالاماتينيا وهي تعيد عقد منديلها :

ـ يا للشيخ الأحمق ! من اين سقط علينا ايضاً ، هذا الشخص المزعج !

وسمعت السيدة هورتانس ، الجنية العجوز التي قاست كثيراً ، الصرخة الحادة ، فتبخرت الرؤية اللذيذة ، وهوت السفينة القائدة ، واختفى اللحم المحمر والشمبانيا واللحى المعطرة ، وسقطت من جديد فوق سريرها الذي تفوح منه رائحة الموت ، وهي في آخر نفس · وأبدت حركة لتنهض ، وكأنها تريد الافلات ، لكنها سقطت ، ومن جديد هتفت ، بهدوء ، بلهجة مؤسية :

ـ لا أريد أن اموت ! لا أريد !

وانحنى زوربا عليها ، ولمس بيده الضخمة المعروقة جبينها الملتهب ، وأزاح شعرها عن وجهها ، وامتلأت عيناه الصغيرتان بالدموع ، وتمتم :

ـ اصمتي ، اصمتي ، يا طيبتي ، أنا هنا ، زوربا ، لا تخافي !

وها هي الرؤية تعود فجأة ، كفراشة كبيرة لونها بلون البحر ، وغطت السرير كله · وأمسكت المحتضرة بيد زوربا الضخمة ، ومدت ببطء ذراعها ، ولفتها حول عنقه المحنية · وتحركت شفتاها :

ـ يا كانافارو ، يا صغيري كانافارو ···

وتدحرج المصلوب من فوق الوسادة ، وسقط على الارض وتحطم · وتعالى صوت رجل من الباحة :

ـ ايه ! ايها الصديق ، ضع الدجاجة ، ان الماء يغلي !

كنت جالساً في زاوية الغرفة ، وكانت عيناي ، من حين الى آخر ،

تغرورقان بالدموع • وقلت في نفسي : هذه هي الحيـــاة ، مشوشة ، غير منسجمة ، لا مبالية ، منحطة • بــلا شفقة • ان هــؤلاء الفلاحين الكريتيين البدائيين يحيطون بالمغنية العجوز التي جاءت من أقصى العـــالم ، وينظرون اليها ، وهي تموت ، بفرح وحشـــي ، وكأنهـــا لم تكن ، هي ايضاً ، مخلوقاً بشرياً • وكأن طائراً كبيراً اسطورياً ، مزخرف الالوان ، قد سقط ، كسيــر الجناحين ، على شاطئهم ، فاجتمعوا حوله ليتأملوه • طاووس هرم ، قطـــة عجوز طويلة الشعر ، فقمة مريضة •••

وازاح زوربا بلطف ذراع السيدة هورتانس عن عنقه • ونهض ، شاحباً• ومسح دموعه بظهر يده • ونظر الى المريضة ، لكنه لم يميز شيئاً • لم يكن يرى • ومسح من جديد عينيه ، ورآهـــا عندئذ تحرك قدميهـــا الرخوتيــن المنتفختين ، وتلوي فمها بذعر • وارتجفت مرة ، واثنتين ، وانسابت الاغطية على الارض ، فبدت ، نصف عارية ، يبللها العرق ، منتفخة ، لونهـــا اصفر مخضر • واطلقت صرخة صغيرة حادة ، ثاقبة ، وكأنها دجاجة تذبح ، ثم رقدت بلا حراك ، عيناها جاحظتان ، مرعوبتان ، مطفأتان •

وقفز الببغاء الى طابق القفص السفلي ، وتشبث بالقضبان ، وتطلع • ورأى زوربا يمد يده الضخمة نحو سيدته ، وبحنان لا نهائي ، يطبق جفنيها •

وهدلت النواحتان وهما تتجهان الى السرير :

هيا ، انتم الآخرين ، ساعدونا قليلا بسرعة ! لقد أسلمت •••

واطلقتا صرخة طويلة ، وهما تهزان رأسيهمـــا من الامام الى الوراء ، وتشدان على قبضاتهما ، وتقرعان صدريهما • وشيئاً فشيئاً ، احدث فيهمـــا هذا الاهتزاز الرتيب الكئيب حالة من حالات الانخطاف الخفيف ، فغزتهمـــا احزان سحيقة القدم كالسم ، وانفجرت قشرة القلب ، وتدفق الندب •

« ليس من اللائق بك ، انت ، ان تمددي تحت التراب ••• » •

وخرج زوربا الى الباحة • كان يريد أن يبكي ، لكنه خجل أمام المرأتين • اذكر انه قال لي ذات يوم : « لست اخجل من البكاء ، كلا ، لكن فقط أمـــام الرجال • لا داعٍ للخجل عندما نكون بين رجال ، أليس صحيحاً ؟ البكاء أمامهم ليس عاراً • لكن أمام النساء ، يجب أن نبدو دوماً شجعاناً•لاننا لو بدأنا نبكي ، نحن ايضاً ، فالام تصير اليه هذه التعيسات ؟ ستكون نهاية العالم » •

وغسلوها بالخمر ، وفتحت المكفنة العجوز السبت ، واخرجت منه ثياباً نظيفة ، وبدلتها ، وصبت عليها زجاجة صغيرة من ماء الكولونيا • وجاء مــن البساتين المجاورة ذباب الموت ووضع بيوضه في منخريها ، وحول عينيهـــا ،

وعند طرفي شفتيها ٠

كان الغسق قد بدأ ينشر ظلمته ، والسماء ، عند المغرب ، قد اكتسبت بعذوبة رائعة ٠ وراحت غيمات صغيرات حمراء متناثرة ، موشاة بالذهب ، تطوف ببطء في بنفسج المساء القاتم ، وتتحول دون انقطاع الى سفن وبجعات ، ووحوش اسطورية مصنوعة من القطن والحرير المزركش ٠ وكان البحر يُرى ، من خلال قصب الباحة ، وهو يقدح الشرر ، هائجاً ٠

وطار غرابان سمينان من فوق شجرة تين وأخذا يذرعان بلاط الباحة ٠ وغضب زوربا ، فأخذ حجراً ، وطردهما ٠

كان صعاليك القرية ، في الزاوية الاخرى من الباحة ، قد بدأوا حفلتهم ، وأخذوا يحطموا كل شيء ٠ لقد اخرجوا مائدة المطبخ الكبيرة ، ونقبوا في كل مكان ، ووجدوا خبزاً ، وصحوناً ، وملاعق ، وجـاءوا من القبو بدن نبيذ ، وطبخوا الدجاجات ، وراحوا ، وقد تملكهم الجوع والمرح ، يأكلون ويشربون ويقرعون كؤوسهم ٠

ـ ليرحمها الله ! وليغفر لها كل ما فعلته !

ـ وليصبح كل عشاقها ، ايها الرفاق ، ملائكة ليحملوا روحها !

وقال مانولاكاس :

ـ انظروا ، ان زوربا الهرم يرمي الغربان بالحجارة ! ها هو الآن ارمل ، لندعه ، لنتناول كأس على ذكرى دجاجته ! ايه ، أيها الرفيق زوربا ، ايه أيها المواطن !

والتفت زوربا ٠ ورأى المائدة قد اُعدَّت ، والدجاج في الصحون تتصاعد منه الابخرة ، والخمر في الكؤوس يتلألأ ، وحول المائدة شبان اقوياء لوحتهم الشمس ، عاصبين بالمناديل رؤوسهم ، وقد بانت عليهم اللامبالاة والشباب ٠ وتمتم :

ـ زوربا ! زوربا ! كن رابط الجأش ٠ فهاهنا انتظرك !

واقترب ، وجرع قدح خمر ، ثم قدحاً ثانياً ، وثالثاً ، دفعة واحـدة ، وأكل فخذ دجاجة ٠ كانوا يحدثونه ، لكنه لم يكن ليجيب ٠ كان يأكل ويشرب بعجلة ، وشراهة ، بلقم كبيرة ، وبجرعات طويلة ، صامتاً ٠ وتطلع نحو الغرفة التي ترقد فيها ، بلا حراك ، صديقته العجوز ، واصغى الى الندب الذي كان يأتي من النافذة المفتوحة ٠ ومن حين الى حين ، كان اللحن الجنائزي يتوقف ، وتُسمع صرخات ، كأنها أصوات قتال ، وأبواب خزائن تفتح وتغلق ، ووقع خطى ثقيلة وسريعة ٠ وكأن ثمة من يتخاصم ٠ ومن جديد يعود الندب ، رتيباً ،

يائساً ، عذباً ، كطنين نحلة ٠

كانت النواحتان تجريان ، هنا ، وهناك ، في غرفة الموت ، تنشـــدان رثاءهما وهما تنقبان بعجلة ٠ وفتحتا خزانــة صغيرة ، ووجدتـا فيها خمس ملاعق أو ستاً ، وقليلا مـــن السكر ، وعلبة قهوة ، وعلبة حلوى ٠ وانقضّت الخالة لينيو ، وأخذت القهوة والحلوى ، وأخذت العجـوز مالاماتينيا السكر والملاعق ٠ وقفزت ، وتلقفت أيضاً قطعتين من الحلوى ، ودستهما في فمها ، وخرج ندبها هذه المرة مخنوقاً ، ذبيحاً ، من خلال المعجنات الحلوة ٠

« لتمطر عليك الازهار ، والتفاح في مئزرك ٠٠٠ »

ودلفت عجوزان الى الغرفة ، واتجهتا نحو السبت ، ومدتا اذرعهمـــا ، وتلقفتا بضعة مناديل صغيرة ، ومنشفتين أو ثلاثاً ، وثلاثة أزواج من الجوارب، ورافعة كلسات ، ودستاها في صدريهما ، واستدارتا نحو الميتة ، ورسمتـــا اشارة الصليب ٠

وشاهدت الام مالاماتينيا العجوزين تنهبان السبت فغضبت ٠ وصرخت بالخالة لينيو :

ـ استمري ، يا عجوزي ، استمري ، انني قادمة !

ودست هي الاخرى رأسها في السبت ٠

أسمال من الاطلس ، وثوب باذنجاني عتيق ، ونعال حمراء صغيرة بالية ، ومروحة مكسورة ، ومظلة قرمزية جديدة ، وفي اسفل السبت قبعـة اميرال مثلثة قديمة ، قدمت لها ذات يوم هدية ، فكانت تضعهـــا ، عنـــدما تكون بمفردها ، وتقف امام المرآة وتتأمل نفسها معجبة برصانة وكآبة ٠

واقترب احدهم من الباب ٠ وانسحبت العجوزان ، وتشبثت الخالة لينيو من جديد بسرير الميتة ، وشرعت تضرب على صدرهـــا صـــارخة : « وازهار القرنفل القرمزية حول عنقك ٠٠٠ » ٠

ودخل زوربا ، ونظر الى الميتة ، الهادئة ، الساكنة ، المصفرة ، المغطـاة بالذباب ، الراقدة متصالبة اليدين ، وحول عنقها شريط المخمـل الصغير ٠ وفكر في نفسه :

« حفنة من التراب ، حفنة من التراب كانت تجوع ، وتضحك ، وتعانق ٠ جبلة من طين كانت تبكي ٠ والآن ؟ أي شيطان يأتي بنـــا الى الارض ، وأي شيطان يأخذنا عنها ! »

وبصق وجلس ٠

في الخارج ، كان الشبان قد تجمعوا في الباحة للرقص ٠ ووصل عازف

القيثارة البارع ، فانوريو ، فأبعدوا الطاولة ، وصفائح البترول ، والبرميل الصغير ، وسلة الغسيل ، وافسحوا مكاناً ، وشرعوا يرقصون •

وظهر الاعيان ، العم انانيوستي بعصاه الطويلة المعقوفة وقميصه الابيض العريض ، وكوندومانوليو البدين المكور ، والمعلم ، وقد وضع محبرة ضخمة من النحاس في حزامه ومساكة ريشة خلف اذنه • ولم يكن الشيخ مافراندوني موجودا • لقد ذهب الى الجبال ، واصبح طريد العدالة •

وقال الاب انانيوستي وهو يرفع يده :

ـ مسرور برؤيتكم ، ايها الاولاد ! مسرور لانكم تلهون ! كلوا واشربوا ، ليبارككم الله ! لكن لا تصرخوا ! يجب الا تفعلوا ذلك • ان الميت يسمع ، يسمع ، أتعلمون !

وشرح كوندومانوليو :

ـ لقد جئنا للكشف عن املاك المرحومة ، لنوزعها على فقراء القرية • لقد أكلتم وشربتم كثيرا ، هذا يكفي ! لا تنهبوا كل شيء ، ايها الاشقياء ، والا ••• انظروا الى هؤلاء !

قال ذلك ، وحرك هراوته مهدداً •

وظهر ، وراء الاعيان الثلاثة ، حوالي عشر نساء ، شعورهن مشعثة ، اقدامهن عارية ، في الاسمال • وكانت كل واحدة منهن تحمل كيساً فارغاً تحت ذراعها وسلة على ظهرها • وكن يقتربن ، خلسة ، خطوة خطوة ، بصمت •

واستدار الاب انانيوستي ، ورآهن ، وانفجر صارخاً :

ـ ايه ! ايتها الهجينات ، الى الوراء ! ماذا ؟ أجئتن للنهب ؟ سوف نسجل هنا جميع الاشياء ، واحداً واحداً ، على ورقة ، ثم سنوزعها بنظام وعدالة بين الفقراء • الى الوراء ! اقول لكن •

واخرج المعلم من حزامه محبرته النحاسية الطويلة ، ونشر ورقة كبيرة ، واتجه نحو الدكان الصغير ليبدأ الكشف •

لكن في تلك اللحظة سمعت ضجة صماء ، وكأن ثمة احداً يقرع على علب من حديد ، وكأن مكبات تتدحرج ، وفناجين تتصادم وتتحطم • وصدرت من المطبخ جلبة صاخبة من الاباريق والصحون والشوكات •

واسرع العجوز كوندومانوليو وهو يهز هراوته • لكن من اين يبدأ ؟ كانت النساء العجائز ، والرجال ، والاطفال ، يمرون من الابواب بلمح البصر ، ويقفزون من النوافذ ، ومن فوق الأسيجة ، ويسقطون على الارض ، وكل يحمل ما استطاع ان يسرقه : مقلايات ، واباريق ، ووسائد ، وارانب ••• وكان البعض

قد جرد الابواب والنوافذ من مصاريعها وحملها على ظهره • بل ان ميميتو بالذات ، قد حمل نعلين من نعال المرحومة ، وربطهما بحبل مرره من عنقه ، حتى لكأن السيدة هورتانس تمتطي كتفيه ، فلا يظهر منها سوى حذائيها ••

وقطب المعلم حاجبيه ، واعاد المحبرة الى حزامه ، وطوى الورقة العذراء ، وبدون ان يفوه بكلمة ، وكأن كرامته قد اهينت ، عبر العتبة ومضى •

كان الاب انانيوستي المسكين يصرخ ، ويتضرع ، ويهز عصاه :

ـ انه لعار ، انه لعار ، كفى ، ان الميتة تسمعكم !

وقال ميميتو :

ـ أيجب ان اذهب لاستدعاء الكاهن ؟

فقال كوندومانوليو غاضباً :

ـ أي كاهن ؟ ايها الاحمق ! انها فرنسية ، ألم ترَ كيف كانت ترسم اشارة الصليب ؟ بأربعة أصابع ، تلك المارقة (١) ! هيا ، لندفنها تحت التراب ، قبل ان تبدأ بالانتان وافساد هواء القرية ! •

وقال ميميتو وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ لقد اخذت جثتها تمتلىء بالدود ، انظروا ، اقسم لكم !

وهز الاب انانيوستي رأسه النحيف الذي يبدو عليه مظهر السيد القروي الكبير •

ـ أهذا يبدو لك غريباً ؟ ايها الابله ! في الحقيقة ، ان الانسان مليء بالديدان منذ ان يولد ، لكننا لا نراها • وعندما تتبين ان الجسد بدأ بالانتان ، تخرج من ثقوبها ، بيضاء تماماً ، بيضاء تماماً كدود الجبنة !

وظهرت النجوم الاولى ، وبقيت معلقة في الجو ، مرتعدة ، كأنها اجراس صغيرة من الفضة • ورن الليل كله •

ونزع زوربا قفص الببغاء من فوق سرير الميتة • كان الطير اليتيم قد قبع في احدى الزوايا ، مذعوراً • وراح ينظر بكلتا عينيه ، لكنه لم يكن يفهم • ووضع رأسه تحت جناحيه وتقوقع على نفسه •

عندما انزل زوربا القفص ، انتصب الببغاء • وأراد ان يتكلم ، لكن زوربا مد يده نحوه • وتمتم بصوت ملاطف :

ـ اصمت ، اصمت ، تعالَ معي •

وانحنى زوربا ونظر الى الميتة • نظر اليها طويلا ، وأنفاسه مخنوقة •

---

١ ـ يقصد انها كاثوليكية • (م•م)

وكاد ينحني ويقبلها ، الا انه تمالك نفسه • وتمتم :

ـ أذهبي ، في رحمة الله !

وأخذ القفص وخرج الى الباحة • ورآني واقترب منـي ، وقال بصوت خافت وهو يأخذني من ذراعي :

ـ هيا بنا •••

كان يبدو هادئاً ، لكن شفتيه كانتا ترتجفان • وقلت لأعزّيه :

ـ سنسير جميعاً في الطريق نفسه •••

فقال ساخراً :

ـ يا للعزاء الجميل ! هيا بنا •

قلت :

انتظر ، سوف يأخذونها • انتظر لنرى ••• الا تستطيع ان تثبت الى النهاية ؟

فأجاب بصوت ذبيح :

ـ سأثبت

ووضع القفص على الارض وصلّب ذراعيه •

وخرج من غرفة الميتة ، الأب انانيوستي ، وكوندومانوليـــو ، حاسري الرأس ، ورسما اشارة الصليب • وكان وراءهما ، اربعة مـــن الراقصين ، وردة نيسان ما تزال خلف آذانهم ، نصف سكارى ، يبدو عليهم المرح ، يمسك كل منهم بزاوية من الباب الذي مددت عليه الميتة • وفي الخلف ، يجيء عازف القيثارة مـع آلته ، وعشرة من الرجـال ، شعورهم مشعثة قليلا ، لا يزالون يمضغون ، وخمس نساء او ست ، تحمل كل منهن ابريقاً او مقعداً • وكـان الأخير ميميتو وهو يحمل النعلين الباليين المتدليين من عنقه • وكان يصيـح مازحاً :

ـ القتلة ! القتلة ! القتلة !

كانت ثمة ريح حارة ورطبة تهب ، وغضب البحر • ورفع عازف القيثارة معزفه ، وتدفق صوته غضاً ، مرحاً ، هازئاً ، في الليل الدافيء :

« لماذا ، واشمساه ، قد عجلت بالاختفاء بمثل هذه السرعة ••• » ؟

وقال زوربا :

ـ كفى ! لقد انتهى الامر •••

- ٢٤ -

كنا نسير ، صامتين ، عبر ازقة القرية الضيقة • كانت المنازل المعتمة تبدو كلطخة سوداء ، وفي مكان ما كان ثمة كلب ينبح ، وبقرة تخور • وكانت تصلنا من بعيد ، مع فحيح الريح ، اصوات القيثارة المرحـــة ، وهي تتدفق كمياه عابثة •

وقلت كي احطم جدار الصمت الثقيل :

ـ زوربا ، ما هذه الريح ؟ أريح الجنوب ؟

لكن زوربا كان يمشي في المقدمة ، ممسكاً بقفص الببغاء وكأنه يمســك بفانوس ، ولم يجب • وعندما وصلنا الى الشاطيء ، استدار ، وسألني :

ـ أجائع ، ايها الرئيس ؟

ـ لا ، لست جائعاً ، يا زوربا •

ـ أنعسان ؟

ـ لا •

ـ ولا انا • لنجلس قليلا فوق الحصى • ولدي ما اريد ان اسألك عنه •

كنا ، كلانا ، متعبين ، لكننا لم نكن نريد ان ننام • لم نكن نريــد أن نفقد سمّ ذلك النهار • أن النوم يبدو لنا وكأنه هرب في ساعة الخطر • وكنا خجلين من الذهاب للنوم •

وجلسنا عند شاطيء البحر • ووضع زوربـا القفص بين ركبتيه وظلّ صامتاً فترة طويلة • وظهرت ، وراء الجبل ، مجموعة قلقة من النجوم ، وكأنها مسخ اسطوري له الف عين ، ذنبه حلزوني الشكل • ومـــن حين الى حين كانت احدى النجوم تنفصل وتهوي •

وتطلع زوربا الى السماء واجداً ، فاغر الفم ، وكأنه يراها للمرة الاولى • وتمتم :

ـ ما الذي يمكن ان يجري هناك عالياً ؟

وبعد لحظة ، قرر ان يتكلم ، وقال بصوت رصين منفعل ، رن في الليل الدافيء :

. هل يمكنك ان تقول لي ، ايها الرئيس ، ماذا تعني هذه الاشياء كلها ؟ من الذي صنعها ؟ لماذا صنعها ؟ وعلى الأخص (وارتجف صوت زوربا غضباً وخوفاً) : لماذا نموت ؟

فأجبت خجلا ، وكأنني أسأل عن أبسط شيء ضروري ، ومع ذلك يستحيل علي ان افسره :

ـ لست ادري ، ، زوربا !

فقال زوربا :

ـ لست تدري !

واستدارت عيناه ، تماماً كما استدارتا في تلك الليلة الاخرى التي اعترفت له فيها انني لا اعرف الرقص .

وظلّ صامتاً لحظة ، ثم انفجر فجأة :

ـ اذن ، فكل تلك الكتب القذرة التي تقرأها ، ماذا تنفع ، قل لي ؟ لماذا تقرأها ؟ واذا كانت لا تجيب عن ذلك ، فماذا تقول اذن ؟

ـ انها تتحدث عن حيرة الانسان الذيلا يستطيع ان يجيب عما يسأل ،يا زوربا .

فصرخ غاضباً وهو يضرب الأرض برجله :

ـ الى الشيطان بحيرتها !

وعند هذه الصرخات المفاجئة ، قفز الببغاء ، وصاح كأنه يستغيث :

ـ كانافارو ! كانافارو !

فصاح زوربا وهو يضرب القفص بقبضته :

ـ اطبق فمك ، انت !

والتفت نحوي :

ـ انا ، اريد ان تقول لي من اين نأتي والى اين نذهب ؟ لا بد انك بعد هذه السنوات الطويلة التي امضيتها وانت تستهلك نفسك في الكتب ، قد عصرت الفين او ثلاثة آلاف كيلو من الورق ، فأي عصير استخلصته منها ؟

لقد كان صوته قلقاً جداً الى حد ان انفاسي تلاحقت ولهثت . آه ! كم وددت لو آستطيع اجابته !

كنت احس احساساً عميقاً بأنأعلى ذروة يمكن ان يبلغها الانسان ، ليست هي المعرفة ، ولا الفضيلة ، ولا الطيبة ، ولا النصر ، بل شيء اكبر ، واكثر

بطولة ، واشد يأساً : الرعب المقدس ·

وقال زوربا بقلق :

ـ الا تجيب ؟

وحاولت ان أفهم صديقي ما هو الرعب المقدس :

ـ زوربا ، اننا ديدان صغيرة ، ديدان صغيرة جداً تقف على ورقة صغيرة من اوراق شجرة هائلة · وهذه الورقة الصغيرة هي أرضنا · والاوراق الأخرى هي النجوم التي تراها تضطرب في الليل · اننا نسير فوق ورقتنا الصغيرة ونحن نتفحصها بقلق · اننا نشمها ، فتفوح منها رائحة طيبة أو كريهة · نذوقها فنجد فيها الغذاء · نفقز فوقها ، فترن وتصرخ وكأنها كائن حي ·

« بعض البشر ، ممن هم اشجعهم ، يصلون الى حافة الورقة · ومن هناك ، ننحني ، واعيننا جاحظة ، وآذاننا ممدودة ، لمحو الفراغ · ونرتعد · اننا نخزر تحتنا الهوة المرعبة ، ونسمع من بعيد أكثر فأكثر حفيف اوراق الشجرة الهائلة الأخرى ، ونحس بالنسغ يصعد من جذور الشجرة ، وينتفخ قلبنا · وهكذا ، ونحن منحنون على الهاوية ، نأخذ بالارتعاد ، بكل جسدنا ، وبكل روحنا ، رعباً · وبدءاً من تلك اللحظة يبدأ ··· » ·

وتوقفت · كنت أريد ان اقول : بدءاً من تلك اللحظة يبدأ الشعر ، لكن زوربا كان لن يفهم · وصمت ·

وسأل صوت زوربا القلق :

ـ ما الذي يبدأ ؟ لماذا توقفت ؟

ـ ··· يبدأ الخطر الأكبر ، يا زوربا · يصيب الدوار البعض فيهذون ، وآخرون يخافون ، ويجهدون في ايجاد جواب يثبت قلوبهم ، ويقولون : «الله» · وآخرون أيضاً ، ينظرون ، من طرف الورقة ، الى الهوة ، بهدوء وشجاعة ، ويقولون : « انها تعجبني » ·

وفكر زوربا ملياً · كان من الصعب عليه ان يتمكن من الفهم · واخيراً قال :

ـ انا ، انظر كل لحظة الى الموت · انظر اليه ولا اخاف · ومع ذلك فانني لا اقول ابداً ، ابداً : « انه يعجبني » · كلا · انه لا يعجبني مطلقاً ! انني لست موافقاً على ذلك !

وصمت ، لكنه سرعان ما انفجر :

ـ لا ، لست انا الذي سيمد عنقه للموت كخروف ، قائلا له : « اقطع

رأسي ، كي اذهب مباشرة الى الجنة ! » ٠

كنت اصغي الى زوربا ، حائراً ٠ من كان ذلك الحكيم الذي حاول ان يعلم تلاميذه ان ينفذوا عن طواعية ما يأمر به القانون ؟ ان يقولوا « نعم » للضرورة ، ان يحولوا ما لا بد منه الى ارادة حرة ؟ ـ لعل هذا الطريق هو الطريق الانساني الوحيد نحو الخلاص ٠ انه يستدعي الرثاء ، لكن ليس هناك غيره ٠

لكن التمرد ، اذن ؟ قفزة الانسان الدونكيشوتية لقهر الضرورة ، لاخضاع القانون الخارجي لقانون روحه الداخلي ، لنفي كل ما هو كائن ، ولخق عالم جديد ، افضل ، واكثر نقاء واخلاقية ، لخلقه حسب قوانين قلبه ، التي هي نقيض قوانين الطبيعة غير الانسانية ؟

ونظر الي زوربا ، ورأى انه ليس عندي ما اقوله له ٠ وتناول القفص بلطف كي لا يوقظ الببغاء ، ووضعه قرب رأسه ، وتمدّد ٠ وقال :

ـ ليلة سعيدة ، أيها الرئيس ! هذا يكفي ٠

كانت ريح جنوبية حارة تهبّ ، تأتي من هناك ، من افريقيا ٠ ريح تنضج خضار كريت ، وثمارها ، وصدورها ٠ كنت احس بها تمر على جبيني ، وشفتي ، وعنقي ، وكان عقلي يطقطق وينتفخ وكأنه ثمرة ٠

لم اكن استطيع ، ولا اريد النوم ٠ ولم اكن افكر بشيء ٠ كنت احس فقط ، في هذه الليلة الدافئة ، بشيء ما ، بانسان ما ، ينضج فيّ ٠ كنت اعيش بوضوح هذا المنظر المدهش : انني ارى نفسي تتبدل ٠ ان كل ما يجري عادة في اظلم سراديب احشائنا ، كان يجري هذه المرة في وضح النهار ، مكشوفاً ، امام عيني ٠ ورحت وانا جالس على شاطيء البحر ، اراقب المعجزة ٠

وكبت النجوم ، وراق اديم السماء ، وفوق هذه الخلفية من النور ، ظهرت الجبال ، والاشجار ، وطيور النورس ، وكأنها رسمت بالريشة باتقان ٠

كان النهار يشرق ٠

* * *

مضت عدة ايام ٠ ان السنابل قد نضجت وحنت رؤوسها الثقيلة بالحب ٠ والزيز ، على اشجار الزيتون ، يشق الهواء ، والحشرات المضيئة تطن في النور المحموم ٠ ومن البحر يتصاعد البخار ٠

كان زوربا يمضي منذ الفجر الى الجبل صامتاً ٠ ان انشاء المصعد يكاد ينتهي ٠ لقد وضعت الاوتاد في مكانها ، ومدت الحبال ، وعلقت البكرات ٠

وكان زوربا يعود عند هبوط الليل ، منهكاً . فيشعل النار ، وبعد الطعام ، ونتعشى . كنا نتفادى ان نوقظ شياطيننا الداخلية المرعبة : الحب ، والموت ، والخوف . ولم نكن لنتحدث عن الارملـــة ، او السيدة هورتانس ، او الله . كنا ننظر ، صامتين ، الى البحر ، من بعيد .

امام صمت زوربا ، كانت الأصوات الازلية اللامجدية ترتفع في داخلي . ومن جديد امتلأ صدري بالقلق . انني اسأل نفسي باستمرار : ما هذا العالم ؟ ما هدفه وما الذي تستطيع حياتنا الفانية ان تفعله لتبلغه ؟ يزعم زوربـا ان هدف الانسان هو ان يفرح بالمادة ، وآخرون يقولون : بالفكر ، وهذا سواء اذا نظر اليه من صعيد آخر . لكن لماذا ؟ من أجل ماذا ؟ وعندما ينحلّ الجسد ، هل يبقى منه شيء مما نسميه روحاً ؟ ام انه لا يبقى منه شيء ، وعندما يكون ظمأنا ، الذي لا يروى له غليل ، الى الخلود ، ناتجاً لا عن كوننــا خالدين ، بل عن اننا ، اثناء اللحظة القصيرة التي نتنفس فيها ، نخدم شيئاً ما خالداً ؟

استيقظت ذات يوم واغتسلت . وخيل الي ان الأرض ايضاً قد استيقظت واغتسلت . كانت تتألق وكلها جدة . وسرت في طريق القرية ، الى يساري ، كان البحر الازرق اللازوردي ساكناً ، والى يميني ، من بعيد ، تنتصب حقول القمح ، وكأنها جيوش مسلحة بحراب ذهبية . وتجاوزت تينة الآنسة ، المغطاة بالاوراق الخضر وبتينات صغيرة جداً ، وعبرت بسرعـــة ، دون ان التفت ، حديقة الارملة ، ودخلت القرية . ان الفندق الصغير مهجـــور الآن ، مقفر . الابواب والنوافذ تنقصه ، وفي الباحة كلاب تدخل وتخرج ، والغرف فارغة . لم يعد هناك وجود ، في غرفة الميتة ، لسرير ، او سبت ، او مقاعد . لم يبقَ في احدى الزوايا الا شبشب بالٍ ، ممزق ، له طرة حمــراء . شبشب مخلص لا يزال يحتفظ بشكل قدم سيدته . ان هذا الشبشب الحقير ، الاكثر شفقة من الروح البشرية ، لم ينس بعد القدم الحبيبة التي طالما تعذبت .

وتأخرت في العودة . كان زوربا قد اشعل النار واخـذ يستعد لطبـــخ الطعام . وما ان رفع رأسه ، حتى أدرك من اين انا قادم . وقطب حاجبيــه . وبعد تلك الايام الطويلة من الصمت ، ازاح المصراع عن قلبه في هذه الليلة ، وبدأ يتكلم . وقال كأنه يريد ان يبرر نفسه :

ـ ان الاحزان كلها ، ايها الرئيس ، تشطر قلبي الى قطعتين . لكنه هذا المليء بالندوب ، المثخن بالجراح ، سرعان ما يلتصق على نفسه ، ولا يعـــود للجرح وجود . انني مليء بالجراح التي تحولت الى مجرد نـدوب ، ولهـــذا

فانني استطيع ان أتحمل الضربات ٠

فقلت بصوت خرج ، على الرغم مني ، قاسياً :

ـ لقد نسيتها بسرعة تلك المسكينة بوبولينا ٠

لكن زوربا غضب ورفع صوته ، وصاح :

ـ طريق جديد ، مشاريع جديدة ! لقد كففت عن التفكير بما جرى بالامس ، كففت عن التساؤل عما سيجري غداً ٠ ما يجري اليوم ، في هذه اللحظة ، هذا ما اهتم به ٠ انني : « ماذا تفعل في هذه اللحظة ، يا زوربا ؟
ـ انني انام ـ اذن ، نم جيداً ! ـ ماذا تفعل في هذه اللحظة ، يا زوربا ؟
ـ انني اشتغل ـ اذن ، اشتغل جيداً ! ـ ماذا تفعل في هذه اللحظة ، يا زوربا ؟
ـ انني اعانق امرأة ـ اذن ، عانقها جيداً ، يا زوربا ، وانس كل الباقي ، فليس في العالم شيء آخر ، ليس فيه الا هي وانت ، هيا ! » ٠

وبعد لحظة :

ـ ان اي كانافارو آخر لم يمنح بوبولينتنا من السعادة ما منحتها انا الذي يحدثك ، انا زوربا العجوز ، الهرم ٠ ستقول لي لماذا ؟ لان كل امثال كانافارو في العالم كانوا يفكرون ، في اللحظة التي يعانقونها فيها ، بأسطولهم ، بكريت ، بملكهم ، برتبهم او بامرأتهم ٠ لكنني انا ، كنت انسى كل شيء ، كل شيء ، وكانت هي ، العاهرة ، تفهم ذلك جيداً ٠ اعلم هذا ، ايها العلامة ، ليس في العالم ما يسعد المرأة اكثر من ذلك ٠ ان المرأة الحقيقية ، استمع الى هذا لتعرف كيف تتصرف ، تتمتع باللذة التي تمنحها اكثر من تمتعها باللذة التي تأخذها من الرجل ٠

وانحنى كي يلقم النار حطباً ، وصمت ٠

كنت انظر اليه ، وكان فرحي عظيماً ٠ انني احس ان هذه الدقائق ، فوق هذا الساحل المقفر ، غنية بسيطة ، ذات قيمة انسانية عميقة ٠ ان عشاء كل ليلة يشبه ذلك الطعام الذي يعده البحارة عندما ينزلون الى شاطيء مقفر ـ من السمك ، والمحار ، والصدف ـ وهو ألذ من أي طعام آخر وليس له مثيل كغذاء لروح الانسان ٠ هنا ، عند نهاية العالم ، كنا نحن ايضاً كغريقين ٠
قلت :

ـ أتذكر ، يا زوربا ، اي طعم ألقيته لي في مقهى البيريه كي أعض الصنارة ؟ ادعيت انك تحسن صنع أشهر انواع الحساء ، وقد شاء حظك ان يكون الحساء ألذ طعام عندي ٠ كيف فهمت ذلك ؟

فهز زوربا رأسه بشيء من الاحتقار :

ـ لست ادري ايها الرئيس ! لقد خطر لي ذلك هكذا . من الشكل الذي رأيتك جالساً به في زاوية المقهى ، مطمئناً ، متحفظاً ، ومحنياً على كتاب صغير مذهب من جوانبه ـ لست ادري ، قلت في نفسي انك تحب الحساء . لقد خطر هذا هكذا ، أؤكد لك ، وليس من الواجب ان تبحث عن السبب !

وصمت ، واصاخ السمع ، وقال :

ـ اصمت ، هناك شخص قادم !

وسمعنا خطوات مستعجلة ، ولهاث انسان يجري . وفجأة برز أمامنا ، على ضوء النار ، راهب ممزق الثياب ، حاسر الرأس ، بلحية محترقة ، ونصف شارب .

وكانت تفوح منه رائحة بترول نفاذة .

وصرخ زوربا :

ـ ايه ! أهلا بك ، ايها الأب زكريا ! من الذي جعلك على هذه الحالة ؟

وانهار الراهب أرضاً ، قرب النار . كانت ذقنه ترتعد .

وانحنى زوربا عليه وغمز بعينه ، فأجاب الراهب :

ـ نعم .

فصاح زوربا :

ـ مرحى ، ايها الراهب ! من المؤكد الآن انك ستذهب الى الجنة ، حاملا صفيحة الوقود بيدك ، دون ان تلتفت يميناً او شمالا .

فتمتم الراهب وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ آمين !

ـ كيف جرى الأمر ؟ متى ؟ حدثني !

ـ رأيت الملاك ميخائيل ، أيها الأخ كانافارو . واصدر الي امراً . اسمع وانظر . كنت بمفردي في المطبخ ، والباب مغلق ، وانا اقشر الفاصولياء الخضراء . وكان الآباء يصلون صلاة العصر ، وكل شيء هادئاً ، وسمعت العصافير تغرد وخيل الي انها ملائكة . كنت مطمئناً جداً ، وقد هيأت كل شيء ، ورحت انتظر . وقد اشتريت صفيحة من البترول ، وخبأتها في كنيسة المقبرة ، تحت المائدة المقدسة ، كي يباركها الملاك ميخائيل .

« اذن ، البارحة ، بعد الظهر ، كنت اقشر الفاصولياء الخضراء ، ورأسي عامر بالجنة ، وكنت اقول في نفسي : « ايها السيد يسوع ، اجعلني ، انا

أيضاً ، استحق ملكوت السماوات ، فأقبل بتقشير الخضار حتى الابـــد في مطابخ الجنة ! » ٠ هذا ما كنت افكر فيه ، ودموعي تنساب ٠ وفجأة سمعت ، فوقي ، خفق أجنحة : « زكريا ، ارفع عينيك ، لا تخـــف ! » ٠ لكنني كنت ارتعد ، وسقطت أرضاً ٠ وقال الصوت من جديد : « ارفع عينيك ، يا زكريا ! » ورفعت عيني ورأيت : كان الباب مفتوحاً ، والملاك ميخائيل واقفاً على العتبة ، كما هو مرسوم على باب المعبد تماماً : بجناحين أسودين ، ونعلين أحمرين ، وخوذة ذهبية ٠ لكنه كان يمسك بمشعل ملتهب بدلا من السيف ٠ وقال لي : « السلام ، يا زكريا ! » ٠ فأجبت : « انني خادم الله ، وانا رهن اوامرك ! » ٠ قال : « خذ المشعل وليكن السيد معك ! » ٠ ومددت يدي واحسست براحتي تحترق لكن الملاك كان قد اختفى ٠ ورأيت فقط من الباب لسان نار في السماء، وكأنه نجمة هاوية » ٠

وجفف الراهب العرق عن وجهه ٠ لقد شحب لونه ٠ وكانت اسنانـــه تصطك وكأنه محموم ٠

وقال زوربا :

ـ ثم ؟ تشجع ، ايها الراهب !

ـ في تلك الاثناء ، أخذ الآباء يخرجون من الكنيسة ويدخلون الى قاعـة الطعام ٠ وبينما كان رئيس الدير ماراً من امامي رفسني برجله وكأنني كلب ٠ واندفع الآباء يضحكون ٠ وبقيت ، انا ، صامتاً ٠ كان الجـو ، منـــذ مرور الملاك ، تفوح منه رائحة اشبه برائحة الكبريت ، لكن لم ينتبه اليها احـــد ٠ وجلسوا الى المائدة ٠ وقال لي المشرف على الطعام : « زكريـــا ، ألا تـــأتي لتأكل ؟ » ٠ لكن فمي ظل مطبقاً ٠

« وقال دوميتيوس اللوطي : « خبز الملائكة يكفيه ! » ٠ وضحك الآبـاء ثانية ٠ عندئذ نهضت واتجهت نحو المقبرة ٠ وانكفأت على وجهي عنـد قدمي الملاك ٠ واحسست ، طوال ساعات ، بقدمـه تدوس فـوق رقبتي ٠ ومضى الوقت كالبرق ٠ هكذا تمضي الساعات والعصور في الجنة ٠ وجـاء منتصـف الليل ٠ كان كل شيء هادئاً ٠ وذهب الرهبان للنوم ٠ ونهضت ٠ ورسمـت اشارة الصليب وقبلت قدم الملاك ٠ وقلت « لتكن مشيئتك ! » ٠ وامسـكت بصفيحة البترول وفتحتها ٠ كنت قد حشوت ثيابي بالخرق ٠ وخرجـت ٠

« كانت الظلمة شديدة ٠ ولم يكن القمر قد أشرق بعد ٠ وكان الديـــر اسود تماماً ، كأنه جهنم ٠ ودخلت الى الباحة ، وصعدت الدرج ، ووصلت الى غرفة رئيس الدير ، وصببت بترولا على الباب ، والنوافذ ، والجـــدران ٠

واسرعت الى غرفة دوميتيوس · ومن هناك رحت أبلل الغرف والممر الخشبي الطويل ، تماماً كما بينت لي · ثم دخلت الى الكنيسة ، واشعلت شمعة من قنديل المسيح ، وأضرمت النار » ·

وصمت الراهب لاهثاً · واشتعلت عيناه · وزمجر وهو يرسم اشارة الصليب :

« ليتمجد اسم الرب ! ليتمجد اسم الرب ! فقد التهب الدير دفعة واحدة وصرخت : « الى نار جهنم ! » ، وركضت هارباً · كنت اجري بكل قواي ، واسمع الاجراس تقرع ، والرهبان يصرخون ···

« وطلع النهار · واختبأت في الغابة · كانت اسناني تصطك · واشرقت الشمس ، وسمعت الرهبان ينقبون بين الاشجار بحثاً عني · لكن الاله الرحيم القى ضباباً عليّ فلم يروني · وعند الغسق سمعت صوتاً : « انزل حتى البحر ، وانجُ بنفسك ! » فهتفت : « أيها الملاك قدني ! » ، وتابعت السير · لم اكن ادري أين اذهب ، بل كان الملاك هو الذي يقودني ، مرة في شكل برق ، ومرة في شكل طير اسود بين الاشجار ، أو أيضاً في شكل درب نازل · وكنت اجري ما استطعت في اثره ، وثقة كبيرة تغمر قلبي · وهأنذا ، آه يا لطيبة قلبه ! لقد وجدتك ، أيها العزيز كانافارو · لقد نجوت » ·

لم يكن زوربا ليتكلم ، لكن انتشرت على طول وجهه ضحكة عريضة ، آسرة ، صامتة ، تذهب من اطراف فمه الى اذنيه الطويلتين المليئتين بالشعر · وسأل :

ـ زكريا ، ما هو « خبز الملائكة » ذاك ؟

فأجاب الراهب وهو يرسم اشارة الصليب :

ـ الروح ·

ـ الروح ؟ تعني الهواء ؟ انها لا تغني من جوع ، يا صاح ، تعالَ كلْ خبزاً ، وحساء ، وسمكاً ، وقطعة من اللحم لتشد من عزيمتك · لقد اشتغلت جيداً ، اذن ، كلْ !

فقال الراهب :

ـ لست جائعاً ·

ـ زكريا ليس جائعاً ، لكن يوسف ؟

فقال الراهب بصوت خفيض ، وكأنه يكشف عن سر كبير :

ـ يوسف ، اللعين ، قد احترق ، ليتمجد اسم الرب !

فصاح زوربا ضاحكاً :

ـ احترق ! كيف ؟ متى ؟ أرأيته ؟

ـ ايها الاخ كانافارو ، لقد إحترق في اللحظة التي كنت اشعل فيها الشمعة من قنديل المسيح • رأيته بأم عيني يخرج من فمي ، كشريط بأحرف من نار • لقد سقط لهيب الشمعة عليه ، فتلوى كثعبان واستحال الى رماد • يا للراحة ! يخيل الي انني قد دخلت الجنة !

ونهض من قرب النار حيث كان قابعاً •

ـ سأذهب لأنام قرب البحر ، فهذا هو الأمر الذي تلقيته •

وخطا عدة خطوات على الشاطيء ، ثم اختفى •

وقلت :

ـ انك مسؤول عنه ، يا زوربا ، واذا ما وجده الرهبان ، فهو هالك •

ـ لن يجدوه ، لا تهتم ، ايها الرئيس • انني اعرف هذا النوع من قطاع الطريق • غداً صباحاً سألحق به ، واعطيه ثياباً بشرية ، وأركبه البحر • لا تهتم له ، فالأمر لا يستحق ذلك • هل الحساء طيب ؟ كلْ بشهية جيدة خبز البشر ولا تقلق •

وتعشى زوربا بشهية ، وشرب ، ومسح شاربه • انه يرغب الآن في الكلام • قال :

ـ أرأيت ، ان شيطانه قد مات • وها هو الآن فارغ ، فارغ تماماً ، التعيس ، انه هالك ! لقد أصبح الآن كالآخرين •

وفكر لحظة ثم قال فجأة :

ـ أتعتقد ، ايها الرئيس ، ان هذا الشيطان كان •••

فأجبت :

ـ بالتأكيد • لقد سيطرت عليه فكرة حرق الدير ، فأحرقه ، وهدأت نفسه • تلك الفكرة كانت تريد ان تأكل اللحم ، وتشرب الخمر وتنمو ، وتصبح عملا • ولم يكن زكريا الآخر بحاجة الى اللحم او الخمر • فهو قد نما بالصوم •

وقلب زوربا هذا الكلام في رأسه مرة واثنتين •

ـ بحق السماء ! اعتقد انك على حق ، ايها الرئيس ، يخيل الي أن فيَّ خمسة شياطين او ستة !

ـ كلنا فينا شياطين ، يا زوربا ، لا تخف • وكلما كان فينا عدد اكبر ،

كان الامر احسن • يكفي ان يتجهوا جميعاً نحو الهدف نفسه بطرق مختلفة •

واثارت هذه الكلمات زوربا • فخبأ رأسه الضخم بين ركبتيه ، وراح يفكر • وسألني اخيراً وهو يرفع عينيه :

ـ اي هدف ؟

ـ لست ادري يا زوربا ! انك تسألني اموراً صعبة جداً ، فكيف اشرح لك ؟

ـ قل ذلك ببساطة ، فأفهم • لقد تركت ، انا ، كل شياطيني حرة حتى الآن في ان تفعل ما تريد ، وتسير في الطريق التي يعجبها • ولهذا يدعوني البعض غير شريف ، وغيرهم شريفاً ، وغيرهم مجنوناً ، وغيرهم سليمان الحكيم • انني هذا كله واشياء أخرى ايضاً • صلَة روسية حقيقية • اذن ، أضيء عقلي قليلا اذا كنت تستطيع ، اي هدف ؟

ـ اعتقد يا زوربا ، لكنني قد اكون مخطئاً ، ان هناك ثلاثة انواع من البشر : الذين يحددون هدفاً لهم ان يعيشوا حياتهم ، كما يقولون ، ويأكلوا ، ويشربوا ، ويحبوا ، ويغتنوا ، ويصبحوا مشاهير • ثم ، الذين يحددون هدفاً لهم ، لا لأجل حياتهم الخاصة ، بل حياة جميع البشر • انهم يشعرون ان جميع البشر ليسوا الا واحداً ، ويجهدون في محاولة تفتيح عقولهم ، وحبهم بقدر ما يستطيعون ، ويحسنون اليهم • واخيراً هناك الذين هدفهم ان يعيشوا حياة الكون اجمع : اننا كلنا ، من بشر ، وحيوانات ، ونباتات ، وكواكب ، لسنا الا كلا واحداً ، لسنا الا من جوهر واحد يشن المعركة الرهيبة نفسها • اية معركة ؟ تحويل المادة الى روح •

وحكّ زوربا رأسه :

ـ ان جمجمتي قاسية ، انني لا أفهم بسهولة ••• آه ! ايها الرئيس ، لو كنت تستطيع ان ترقص كل ما تقوله ، كي افهم !

وعضضت على شفتي مذهولا • لو كنت استطيع ان ارقص كل هذه الافكار اليائسة ! لكنني عاجز عن ذلك ، لقد أسأت استخدام حياتي •

ـ او لو كنت تستطيع ، ايها الرئيس ، ان تقول لي كل هذا كحكاية • كما كان يفعل حسين آغا • كان تركياً هرماً ، جارنا هرماً جداً ، فقيراً جداً ، بلا زوجة ولا اطفال ، وحيداً تماماً • كانت ثيابه بالية ، لكنها كانت تتألق نظافة • وكان هو الذي يغسلها ، ويطبخ وينظف ارض الغرفة • وعند المساء ، كان يأتي الى بيتنا ، ويجلس في الباحة مع جدتي وعجائز غيرها ، ويحيك الجوارب •

« لقد كان حسين آغا هذا رجلا قديساً . وذات يوم أخذني على ركبتيه ووضع يده على رأسي كأنه يمنحني بركته ، وقال لي : « الكسيس ، سأسر لك بأمر . انك اصغر من ان تفهم ، لكنك ستفهم عندما تكبر . اصغ الي ، يا بني : ان الاله الرحيم ، كما ترى ، لا تستطيع طبقات السماء السبع وطبقات الأرض السبع ان تسعه . لكن قلب الانسان يسعه . اذن ، إحذر ، يا ألكسيس ، من ان تجرح ذات يوم قلب الانسان ! » .

كنت اصغي الى زوربا بصمت ، واقول في نفسي : ليتني استطيع ألا افتح فمي الا عندما تبلغ الفكرة المجردة أعلى ذروة لها ، عندما تصبح حكاية ، لكن هذا لا يستطيعه الا شاعر كبير ، أو شعب ، بعد عدة عصور من النضج الصامت .

ونهض زوربا .

ـ سأذهب لأرى ما يصنعه راهبنا الحارق ، وارمي له ببطانية كي لا يصاب ببرد . وسآخذ مقصاً ، فقد يفيده .

وأخذ هذه الاشياء ، وانطلق ضاحكاً ، على طول البحر . كا القمر قد تربع السماء . وراح ينشر فوق الأرض لوناً شاحباً ، مريضاً .

كنت ازن ، وانا بمفردي قرب النار المنطفئة ، كلمات زوربا ، الغنية بالمعنى والفائحة منها رائحة أرض حارة . وكأنها تصعد من اعمق احشائه ، وهي لا تزال محتفظة بالحرارة الانسانية . اما كلماتي ، انا، فكانت من ورق . انها تنزل من رأسي ، لا تكاد تلطخها نقطة دم واحدة . ولو كانت لها قيمة ما ، فانما هي مدينة بها لنقطة الدم هذه بالذات .

كنت ، وانا ممدد على بطني ، انقب في الرماد الحار عندما عاد زوربا فجأة ، متدلي الذراعين ، ذاهلا .

ـ أيها الرئيس ، لا تذهل ...

ونهضت قافزاً . فقال :

ـ لقد مات الراهب .

ـ مات ؟

ـ وجدته ممدداً على الصخرة . كان القمر يضيئه . فركعت وبدأت أقص لحيته وما تبقى من شاربه . كنت اقص ، وافصل ، لكنه لم يتحرك . بل انني وصلت الى الجلد وانا مندفع في عملي . لا بد انني قصصت نصف كيلو من الشعر . عندئذ ، عندما رأيته هكذا ، حليقاً كخروف ، انفجرت ضاحكاً . وصرخت به وانا اهزه : « قل اذن ، أيها السيد زكريا ، استيقظ كي ترى

معجزة العذراء ! » • لكنه لم يتحرك • وهززته مرة أخرى ، لا شيء ! وقلت في نفسي : انه ما كان ليموت ، في مرات سابقة • وفتحت رداءه ، وكشفت عن صدره ، ووضعت يدي على قلبه : لكن ليس هناك تاك تاك ! لا شيء مطلقاً ! ان الآلة قد كفت عن الدوران •

كان زوربا كلما تكلم ، ازداد مرحاً • لقد خضَّه الموت للحظة ، لكنه سرعان ما اعاده الى مكانه •

ـ والآن ، ماذا سنفعل ، أيها الرئيس ؟ انا ، من رأيي ان نشعل فيه النار • من يقتل بالبترول ، بالبترول يقتل ، أليس هذا ما يقوله الانجيل ؟ أو تعرف ، تعرف انه بثيابه المتصلبة من الدهن والمبللة بالبترول بالاضافة إلى ذلك ، سيشتعل جيداً مثل يهوذا يوم الخميس المقدس !

قلت مستاء :

ـ افعل ما يحلو لك •

وغرق زوربا في تأمل عميق ، وأخيراً قال :

ـ انه لأمر مزعج جداً ••• لو وضعت فيه النار ، لالتهبت ثيابه كمشعل ، لكن هو ، المسكين ، ليس لديه سوى الجلد والعظام ! انه سيستغرق زمناً طويلا ، بسبب نحافته ، الى ان يتحول الى رماد • بل ليس فيه اقة شحم واحدة حتى يساعد النار •

واضاف وهو يهز رأسه :

ـ لو كان الاله الرحيم موجوداً ، الا تعتقد انه كان توقَّع كل هذا ، وخلقه بديناً ، فيه كثير من الشحم ، حتى ينقذنا من هذه الورطة ؟ ما رأيك ؟

ـ لا تزجَّ بي في هذه القصة ، اقول لك • افعل ما يحلو لك ، لكن بسرعة •

ـ الافضل هو ان تخرج معجزة من كل هذا ! لا بد ان الرهبان سيعتقدون ان الاله الرحيم قد اختار ان يكون حلاقاً ، وانه بعد ان حلق له شعره قتله ليجازيه لكونه أضر بالدير •

وحك جمجمته :

ـ لكن اية معجزة ؟ اية معجزة ؟ ها هنا أنتظرك ، يا زوربا !

كان الهلال ، وهو على وشك المغيب ، وقد اصبح الآن عند طرف الافق ، ذهبياً ارجوانياً ، كقطعة من معدن حمرتها النار

وذهبت لأنام ، متعباً • وحين استيقظت عند الفجر ، رأيت زوربا

بقربي وهو يعد القهوة • كان شاحباً ، وعيناه حمراوين ومنتفختين بسبب سهره طول الليل • لكن شفتيه الغليظتين الشبيهتين بشفتي تيس كانتا تبتسمان بخبث •

ـ لم انم الليل ، أيها الرئيس ، فقد كان عندي شغل •

ـ أي شغل ، أيها السافل ؟

ـ كنت اقوم بالمعجزة •

وضحك ووضع اصبعاً على شفتيه :

ـ لن اقول لك ! غداً سيدشن المصعد • سيأتي الكهنة المترهلون ليمنحوا البركة ، وعندئذ سيعلم الناس بالمعجزة الجديدة لسيدة الانتقام •

وقدم لي القهوة • وتابع :

ـ يا صاح ، انني صالح لأن أرأس ديراً • لو فتحت ديراً ، فانني اراهنك على انني سأضطر جميع الاديرة الأخرى الى الاغلاق وسآخذ منها كل زبائنها • أهي الدموع التي تريد ؟ اسفنجة صغيرة ندية وراء الايقونات ، ويأخذ جميع قديسيَّ بالبكاء ، أأصوات رعد ؟ سأدسّ تحت المائدة المقدسة آلة ميكانيكية تفرقع • أأشباح ؟ اثنان من رهباني الاوفياء سيطوفون ليلا على اسطحة الدير، متلفحين بالبطانيات • وكل سنة ، سأهيء ، بمناسبة عيد نعمتها ، موكباً من العرجان والعميان والمشلولين يحصلون على النور من جديد ، وينتصبون على اقدامهم ليرقصوا •

« لماذا تهزأ ، أيها الرئيس ؟ لقد وجد عمٌ لي بغلا هرماً على وشك الموت • كانوا قد تركوه على الجبل ليفطس • فأخذه • وشرع ، كل صباح ، يقوده الى المرعى ، وعند المساء ، يعود به الى بيته ، وكان أهل القرية يصيحون به : « ايه ، أيها الأب هارالامبوس ، ماذا تريد ان تفعل بهذا البغل المسن الذي لا حيلة له؟» وكان عمي يجيب: «انني استخدمه كمصنع للروث!»• حسناً ! ايها الرئيس ، انني سأستخدم الدير كمصنع للمعجزات » •

- ٢٥ -

انني لن انسى في حياتي ابداً عشية الاول من أيار تلك · كان المصعد قد أعدّ والأوتاد ، والحبال ، والبكرات ، تلمع تحت شمس الصباح · وجذوع ضخمة من الصنوبر مكومة في قمة الجبل ، وعمال ينتظرون هنـــاك عالياً ، اللحظة التي يعلقونها فيها بالحبال ويتركونها تتدحرج نحو البحر ·

كان علم يوناني كبير يخفق في أعلى وتد الانطلاق ، فوق الجبل ، وعلم آخر في اعلى وتد الوصول ، على الساحل · وكان زوربا قد وضع أمام الكوخ برميلا صغيراً من الخمر · وكان يقف الى جانبه احد العمال وهو يشوي على السفود خروفاً سميناً ، وكان على المدعوين ، بعـد البركـــة والتدشين ، ان يتناولوا كأس خمر ليتمنوا لنا الازدهار ·

وكان زوربا قد انزل ايضاً قفص الببغاء ، ووضعه على صخرة الى جانب اول وتد ·

وتمتم وهو ينظر اليه بحنان :

ـ كأنني ارى سيدته مكانه ·

واخرج من جيبه قبضة من الفستق وقدمها له ·

كان يرتدي ثياب العيد : قميصاً ابيض مفكوك الأزرار ، وسترة خضراء ، وبنطالا رمادياً ، وحذائيه المطاطيين الجميلين · وكان ، بالاضافة الى ذلك ، قد طلى شاربه الذي بدأ لونه يبهت ·

واسرع يستقبل ، كسيد كبير ، سادة كباراً آخرين ، الاعيان الذيـــن كانوا يقدمون ، فيشرح لهم ما هو المصعد ، وما سيستفيد منه البلـــد ، وان العذراء القديسة هي التي ألهمته فكرة هذا العمل الرائع ·

كان يقول :

ـ انه عمل هام · وكان لا بد من أن اجد الميل اللازم · قضية علميـــة

تماماً ! واجهدت مخي خلال شهور ، لكن بلا فائدة • ان عقل الانسان ليس كافياً ، للأعمال الكبرى ، ولا بد فيها من معونة الهية • عند ذاك رأتني العذراء القديسة جداً وأنا اكدّ واجهد ، فأشفقت علي ، وقالت ان هذا المسكين ، زوربا ، شخص شجاع طيب ، انه يفعل ذلك لخير القرية ، سأساعده قليلا • ويا للمعجزة !

وتوقف زوربا ورسم اشارة الصليب ثلاث مرات :

ـ يا للمعجزة ! حضرت امامي ، ذات ليلة ، وانا نائم ، امرأة في ثياب سود : كانت العذراء القديسة • وكانت تمسك بيدها سكة حديدية هوائية صغيرة ، ليست اكبر من ذلك • وقالت لي : « زوربا ، انني احمل اليك التصميم • خذ ، اتبع هذا الميل ، ولك بركتي ! » • وما ان قالت ذلك ، حتى اختفت • عندئذ استيقظت واثباً • واسرعت الى حيث كنت اجري تجاربي ، وماذا رأيت ؟ كان السلك قد أخذ من نفسه الميل اللازم ! وكانت تفوح منه رائحة اللبان ، دليلا على ان يد العذراء قد لمسته !

وفتح كوندومانوليو فاه ليطرح سؤالا ، عندما ظهر ، عند أقصى الدرب الوعر ، خمسة رهبان يمتطون بغالا • وكان راهب سادس ، يحمل صليباً كبيراً من الخشب على كتفه ، يركض امامهم وهو يصرخ • ماذا كان يصرخ ؟ لم نكن نستطيع بعد ان نميز •

وسمعنا تراتيل ، وكان الرهبان يهزون ايديهم ، ويرسمون اشارة الصليب ، والحجارة تقدح شرراً •

ووصل الراهب الذي كان يسير راجلا الى مقربة منا ، والعرق يسيل منه •

ورفع صوته عالياً ، صارخاً :

ـ ايها المسيحيون ، المعجزة ! المعجزة ! ايها المسيحيون ، المعجزة ! الآباء يحملون العذراء القديسة جداً • اركعوا على ركبكم ، واعبدوها !

واسرع القرويون منفعلين ـ الاعيان والعمال ـ واحاطوا بالراهب وهم يرسمون اشارة الصليب • ووقفت انا جانباً • ورماني زوربا بنظرة سريعة تقدح شرراً • وقال لي :

ـ اقترب ، انت ايضاً ، ايها الرئيس ، اذهب لسماع العذراء القديسة جداً !

واخذ الراهب يتحدث بعجلة لاهثاً :

ـ اركعوا على ركبكم ، ايها المسيحيون ، استمعوا الى المعجزة ، الآلهية !

استمعوا اليها ، ايها المسيحيون ! لقد أسر ابليس روح زكريا اللعين ، ودفعه ، يوم أمس الأول ، الى رش الدير المقدس بالبترول • وعند منتصف الليل ، شاهدنا ألسنة النار • ونهضنا بسرعة كبيرة • كانت الكنيسة ، والممر ، والغرف ، تلتهب • وقرعنا الاجراس ونحن نصرخ : « النجدة ، يا سيدة الانتقام ! » ، واسرعنا بالجرار والدلاء • وعند الفجر كانت النار قد اطفئت •

« وذهبنا الى الكنيسة التي تتصدرها ايقونتها العجائبية وركعنا أمامها صارخين : « يا عذراء الانتقام ، استلي رمحك واضربي المجرم ! » • ثم تجمعنا في الباحة ولاحظنا غياب زكريا ، يهوذا الدير • ورحنا نصرخ : « انه هو الذي أحرقنا ، هو ! » وانطلقنا نبحث عنه • وفتشنا طيلة النهار ، ولم نجده ، وفتشنا طيلة الليل ، ولم نجده • واليوم ، عند طلوع النهار ، وذهبنا من جديد الى الكنيسة ، فماذا رأينا ، يا اخوتي ؟ معجزة رهيبة ! كان زكريا ممدداً ، ميتاً ، عند قدمي الايقونة المقدسة ، ورأس رمح العذراء لا يزال ملطخاً بقطرة دم كبيرة ! » •

وأخذ القرويون المرعوبون يتمتمون :

ـ يا الهي ، ارحمنا !

وتابع الراهب وهو يبلع لعابه :

ـ واليكم ما هو رهيب ايضاً ! عندما انحنينا لنرفع زكريا اللعين ، وقفنا فاغري الافواه : لقد حلقت العذراء شعره ، شاربه ولحيته ـ مثل كاهن كاثوليكي !

والتفتُ نحو زوربا ، وانا لا أكاد استطيع امساك نفسي عن الضحك ، وقلت له بصوت خافت :

ـ ايها اللص !

لكنه كان ينظر الى الراهب ، جاحظ العينين ، ويرسم اشارات الصليب بندم ، دون توقف ، دلالة على الذهول المطلق • وكان يتمتم :

ـ انك كبير ، ايها السيد ، انك كبير ايها السيد ! ورائعة هي أعمالك ، واثناء ذلك وصل سائر الرهبان ، وحطوا رحالهم ارضاً • كان الأب المضيف يمسك بالايقونة بين ذراعيه • وتسلق صخرة ، واسرع الجميع وهم يتزاحمون ، ليسجدوا أمام العذراء العجائبية • وفي الخلف كان الاب دوميتيوس الضخم ، يلم الصدقات في صينية ، ويرش ماء الورد على جباه الفلاحين الغليظة • وكان ثلاثة رهبان ملتفين حوله ، وقد عقدوا ايديهم المليئة بالشعر على بطونهم ، وقطرات كبيرة من العرق تنسال منهم ، وهم ينشدون التراتيل •

وقال دوميتيوس الضخم :

ـ سنذهب للقيام بجولة في قرى كريت ، حتى يسجد المؤمنون امـــام « نعمتها » ويأتوا بعطاياهم • اننا بحاجة للمال ، لكثير من المال كي نرمم الدير المقدس •••

فدمدم زوربا : « يا لذوي البطون الضخمة ! انهم سيخرجون من القضية رابحين ايضاً • »

واقترب من رئيس الدير :

ـ ايها الرئيس المقدس ، ان كل شيء معدّ للاحتفال • لتبارك العـذراء القديسة عملنا !

كانت الشمس قد اصبحت عالية ، والجو حاراً جداً ، لا تهبّ فيه نسمة هواء ، واجتمع الرهبـان حـول الوتد المرفوع عليه العلم • وجففـوا جباههم بأكمامهم العريضة وشرعوا ينشدون صلاة « تأسيس المنزل » :

« ايها السيد ، ايها السيد ، ابنِ هذه الآلة على صخرة قوية ، بحيث لا يؤثر بها المطر أو الريح ••• » •

وغمسوا مرشة الماء المقدس في الاناء النحاسيّ ورشوا الاشياء والنـاس ، والوتد ، والحبـل ، والبكرات ، وزوربا ، وأنا ، ثم الفلاحين ، والعمال ، والبحـر •

وبعد ذلك رفعوا الايقونة ، بحذر شديد كأنهم يرفعون امرأة مريضة ، ووضعوها قرب الببغاء وصنعوا دائرة حولها • ومن الجهـة الاخرى وقـف الاعيان ، وفي الوسط زوربا • اما انا فانسحبت الى مقربة من البحر ، ورحت انتظر •

كانت التجربة ستجري بثلاثة اشجار ، كرمز للثالوث الاقدس • ثـم سيضاف اليها شجرة رابعة دلالة على الاعتراف بالجميل تجاه سيدة الانتقام •

ورسم الرهبان ، والقرويون ، والعمال ، اشارة الصليب ، وتمتموا :

ـ باسم الثالوث الاقدس والعذراء !

وبخطوة واحدة ، كان زوربا قد اصبح قرب الوتد الاول • وسحب الحبل وانزل العلم • وكانت هذه هي الاشارة التي ينتظرها العمال ، هناك في أعلى الجبل • وتراجع جميع الحضور وثبتوا أعينهم على قمة الجبل •

هتف رئيس الدير :

ـ باسم الآب !

يستحيل ان أصف ما جرى بعد ذلك • لقد انفجرت الكارثة كصاعقة •

ولم يكن بين الحضور وبين الهلاك الا ثانية واحدة • فقد ارتج المصعد كله • واندفعت شجرة الصنوبر التي كان العمال قد ربطوها بالحبل بسرعة شيطانية• وقدح الشرر ، وتطايرت قطع من الخشب في الهواء • وعندما وصلت الشجرة الى الاسفل بعد عدة ثوانٍ ، كانت قد استحالت حطبة نصف محترقة •

ورماني زوربا بنظرة كلب تلهبه السياط • وتراجع الرهبان والقرويون الى الوراء بحذر • واخذت البغال المربوطة تلبط • وانهار دوميتيوس الضخم لاهثاً ، وراح يتمتم مذعوراً :

– ايها السيد ، ارحمنا !

ورفع زوربا ذراعه ، وقال باطمئنان :

– ليس الامر بذي بال • هكذا يحدث دوماً بالنسبة للجذع الاول • اما الآن فان الآلة قد اعتادت ، انظروا !

وأعاد رفع العلم ، واعطى الاشارة من جديد ، وابتعد راكضاً • وصاح رئيس الدير بصوت يرتعد قليلا :

– والابن !

ودفع الجذع الثاني • وارتجَّت الاوتاد ، وانطلق الجذع • وراح يثب مثل درفيل ، وينقضُ نحونا انقضاضاً • لكنه لم يذهب بعيداً جداً ، اذ انسحق عند منتصف الجبل •

فدمدم زوربا وهو يعضّ على شاربيه :

– ليأخذه الشيطان ! ان هذا الميل اللعين ليس دقيقاً كما يجب !

ووثب نحو الوتد ، وبحركة حانقة ، انزل العلم اشارة الى انزال الجذع الثالث • ورسم الرهبان ، الذين احتموا وراء بغالهم ، اشارة الصليب • وكان الاعيان ينتظرون ، رجلا في الهواء ورجلا على الأرض ، استعداداً للهرب • وتمتم رئيس الدير ، وهو يشمر ثوبه :

– والروح القدس !

كان الجذع الثالث ضخماً • وما ان دُفع حتى تعالى هدير مخيف • وزعق زوربا وهو يهرب :

– انبطحوا أرضاً ، ايها الاشقياء !

وسقط الرهبان على وجوههم ، وهرب القرويون •

وقفز الجذع قفزة ، ثم سقط على الحبل ، واطلق حزمة من الشرر • وقبل ان يتاح لنا الوقت لنرى اي شيء ، تجاوز الجبل والشاطيء وغاص

بعيداً في البحر ، تاركاً خلفه زبداً عالياً ٠

كانت الأوتاد تهتز بشكل يدعو للقلق ٠ ومال كثير منها وقطعت البغال حبالها واطلقت عنانها هرباً ٠

وصرخ زوربا بغيظ :

ــ لا شيء ! لا شيء ! لقد تدربت الآلة الآن ٠ الى الامام !

ورفع العلم مرة أخرى وكان واضحاً عليه انـه يائس يستعجل ان يرى كل ذلك منتهياً ٠

وتمتم رئيس الدير وهو يطلق ساقيه للريح :

ــ وسيدة الانتقام !

واندفع الجذع الرابع ٠ وتعالت طقطقة مخيفـــة ، وتبعتهـــا أخرى ، وانهارت كل الاوتاد ، الواحد تلو الآخر ، كقصر من ورق اللعب ٠

وهتف العمال والقرويون والرهبان وهم يهربون في كل الاتجاهات :

ــ ايها السيد ، ارحمنا !

واصابت شظية دوميتيوس في ساقه ٠ وكادت شظية أخرى ان تفقأ عين رئيس الدير ، وتوارى القرويون ٠ كانت العذراء بمفردها فقـــط لا تزال منتصبة فوق صخرتها ، رمحها في يدها ، تنظر الى الرجال بعينيها الحادتين ٠ والى جانبها ، كان الببغاء المسكين يرتعد ، ميتاً أكثر منه حياً ، وقـــد ازبأر ريشه الأخضر ٠

واخذ الرهبان العذراء ، وشدوا عليها بين اذرعهم ، ورفعوا دوميتيوس الذيكا ن يئن من الألم ، وجمعوا البغال ، وامتطوها ، وســـاروا القهقرى ٠ وكان العامل الذي يشرف على عملية الشواء ، قد ترك ، في لحظـــة ذعره ، الخروف الذي أخذ يحترق ٠

وصرخ زوربا قلقاً وهو ينقض نحوه ليديره :

ــ ان الخروف سيتحول الى فحم !

وجلست قربه ٠ كان الشاطيء قد اقفر من الجميع ، وبقينا بمفردنـا ٠ واستدار نحوي وحدجني بنظرة قلقة ، مترددة ٠ لم يكن يعرف كيف يواجـه هذه الكارثة ولا كيف ينهي هذه المغامرة ٠

وتناول سكيناً ، وانحنى من جديد على الخروف ، واقتطع منه قطعة ، وذاقها ، ثم سحب الحيوان من فوق النار وأسنده منتصباً على ســـفوده الى جذع شجرة ٠ وقال :

- لقد شوي كما ينبغي ، كما ينبغي أيها الرئيس ! هــل تريد قطعة صغيرة ؟

فأجبــت :

- جيء أيضاً بالخمر والخبز ، فأنا جائع ٠

واندفع زوربا بخفة ، ودحرج الدن الى مقربة من الخـروف ، وجــاء بقرص خبز ابيض وكأسين ٠

واخذ كل منا سكيناً ، وقطع شريحتين من اللحم ، وقطعاً كبيرة مــن الخبز ، وأخذ يأكل بشره ٠

- أترى كم هو لذيذ ، ايها الرئيس ؟ انه يذوب في الفم ! فهنا ، كمـا ترى ، لا توجد مراعٍ خصبة ، والحيوانات تكلأ العشب الجاف ، لذلك فـان للحمها هذا الطعم اللذيذ ٠ انني لم آكل في حياتي من مثل هذا اللحم اللذيذ الا مرة واحدة٠ اذكر ان ذلك كان في الايام التي طرزت فيها بشعري ايقونة لصوفيا المقدسة ، كنت احملها كتعويذة ٠ لقد رويتها لك ، انها قصة قديمة !

- اروها ! اروها !

- قصص قديمة ، اقول لك ، أيها الرئيس ! هوس يوناني ، هــوس جنونــي !

- هيا ، ارو ، يا زوربا ٠ هذا يعجبني !

-اذن في ذلك المساء ، طوقنا البلغاريون ٠ كنا نراهم حولنا مــن كل الجهات على منحدرات الجبل وهم يشعلون النيران ٠ وراحوا ، كي يخيفونا ، يضربون على الصنوج ويعوون كالذئاب ٠ كان عددهم ثلاثمئة ، ولا شك ٠ اما نحن فكنا ثمانية وعشرين ، بالاضافة الى الكابتن « روفاس » - ليرحــم الله نفسه ، ان نفسه ،ان كان قد توفي ، فقد كان فتى جسوراً ! - قائدنا ٠ وقال لي : ايه ! زوربا ، ضع الخروف على السفود ! » فقلت : « ان طعمه سيكون ألذ اذا شويناه في حفرة ، أيها الكابتن » ٠ فقال : « افعل كما تشاء ، لــكن بسرعة ، فنحن جائعون ! » ٠ وحفرنا حفرة ،وملأتها بجلــد الخـــروف ، ووضعنا طبقة سميكة من الفحم فوقها ، واخرجنا الخبز من زوادتنا ، وجلسنا حول النار ٠ وقال الكابتن روفاس : « لعله آخر خروف نأكله ! هل ثمة مــن هو خائف هنا ! » ٠ فبدأ الجميع يضحكون ولم يتنازل أي شخص للاجابة ٠ وتناولنا ابريق الماء « في صحتك ، أيها الكابتن ! » ٠ وشربنا جرعة ، وشربنا جرعتين ، واخرجنا الخروفمن الحفرة ٠ آه ! يا صاح ، يا له من خــروف ،

أيها الرئيس ! ان اللعاب يتصاعد الى فمي ، عندما افكر به ! يذوب في الفم ذوباناً ، كالحلوى ! وارتمينا عليه بأفواه جائعة . وقال الكابتن : « في حياتي لم اذق قط ألذ من هذا اللحم ! ليحمنا الله ! » . ثم جرع كأسه دفعة واحدة ، وهو الذي لم يكن يشرب أبداً . وأمر : « انشدوا انشودة كليفتية ، أيها الأولاد ! انهم يعودون ، هناك ، كذئاب ، اما نحن ، فسوف ننشد كرجال . انشدوا « ديموس الشيخ » ! . وبلعنا بسرعة ، وشربنا أيضاً جرعة أخرى . وارتفع النشيد ، وتعاظم ، يردده صدى الوديان : « لقد هرمت أيها الرفاق ، منذ اربعين سنة وانا كليفتي ... » . جذل يحطم كل شيء . وقال الكابتن : « ايه ! ايه ! يا للمرح ! آه لو يدوم ! قل ، الكسيس ، انظر قليلا الى ظهر الخروف ... ماذا يقول ؟ » . وشرعت اسلخ بالموسى ظهر الخروف ، واقتربت من النار كي أرى بشكل اوضح . وهتفت : « انني لا ارى قبوراً ، أيها الكابتن ، انني لا ارى امواتاً . سننجو بأنفسنا مرة أخرى ايها الرفاق !» . فقال قائدنا الذي تزوج حديثاً : « يسمعك الله . لأتمكن على الاقل من انجاب ولد ، وبعد ذلك ، ليحدث ما سيحدث ! » .

وقطع زوربا شريحة كبيرة من صلب الخروف ، وقال :

ــ لقد كان طيباً ذلك الخروف ، لكن هذا المسكين الصغير ، لا يدين له بشيء !

قلت :

ــ هات لنشرب ، زوربا . املأ الكأسين حتى تطفحا ولنفرغهما !

وبعد ان قرعنا الكأسين ، ذقنا خمرنا ، خمراً كريتياً لذيذاً ، قاني اللون كدم الارنب البري . ان المرء يشعر عندما يشربه، انه يتناول دم الأرض، وانه يصبح غولا . ان الاوردة تطفح بالقوة ، والقلب بالطيبة . والحمل يتحول الى اسد . وتُنسى صغائر الحياة ، وتطقطق الاطارات الضيقة . اننا اصبحنا كلاً واحداً مع الكون ، اذ اتحدنا بالبشر ، بالحيوانات ، بالله . وقلت :

ــ لنرَ نحن أيضاً ما يقوله ظهر الخروف . اذهب ، هيا ، يا زوربا !

وسلخ الظهر بعناية ، وكشطه بسكينه ، وقربه من النور ، وحدق فيه بانتباه . وقال :

ــ كل شيء على ما يرام . سنعيش الف سنة ، ايها الرئيس ، وبقلب كالفولاذ !

وانحنى ، وشرع يفحص من جديد ، وقال .

ــ أرى سفراً ، سفراً كبيراً كبيراً ، وأرى في نهاية السفر منزلا كبيراً، له أبواب

كثيرة • انها ولا شك عاصمة مملكة ما ، أيها الرئيس • أو بالاحرى الـــدير الذي سأصبح بوابه ، حيث اقوم بقطع الطريق ، كما قلنا •

ـ صبَّ لنا لنشرب ، يا زوربا ، ودع التنبؤات • سأقول لك ، انا ، ما هو هذا المنزل الكبير ذو الأبواب العديدة : انها الأرض بقبورها ، يا زوربا • تلك هي نهاية السفر • في صحتك ، أيها اللص !

ـ في صحتك ، أيها الرئيس ! يبدو لي ان الحظ اعمى • لا يعرف أيـن يذهب ، فيصطدم بالمارة ، ومن يسقط عليه ، يدعونه محظوظاً • الى الشيطان بمثل هذا الحظ ، فنحن لا نريده ، أيها الرئيس ، أليس كذلك ؟

ـ اننا لا نريده ، يا زوربا ، في صحتك !

وشربنا ، واكلنا باقي الخروف • كان العالم يخف وزنه ، والبحـــر يضحك ، والأرض ترتجُ كجسر سفينة ، وطائران من طيور النورس يمشيان على الحصى ، وهما يتحدثان كالبشر •

ونهضت هاتفاً :

ـ تعالَ ، يا زوربا ، علِّمني الرقص !

وقفز زوربا ، وقدح وجهه شرراً • وقال

ـ الرقص ، ايها الرئيس ؟ الرقص ؟ هيا ! تعالَ !

ـ هيا بنا ، يا زوربا ، لقد تبدلت حياتي ، تشجَّع !

ـ في البدء ،سأعلمك رقصة زيمبيكيكو • رقصة وحشية ، حربية ، كنا، نحن المتطوعين ، نرقصها قبل المعركة •

وخلع نعليه ، وجوربيه الباذنجانيين ، ولم يحتفظ الا بقميصه • لكنــه كان يضايقه ، فخلعه أيضاً • وأمرني :

ـ انظر الى قدمي ، أيها الرئيس انتبه !

ومد قدمه ، ومس الأرض بخفة ، ومد القدم الأخـرى • واشـــــتبكت الخطا بعنف ، ومرح ، ورنت الأرض •

وشدني من كتفي ، وقال :

ـ هيا ، يا بني ،كلانا معاً !

واندفعنا في الرقص • كان زوربا يصلح اخطائي ، بجديـــة ، وصبر ، وحنان • وتشجعت ، وشعرت كأن أجنحة تنمو في قدمي الثقيلتين •

وصرخ زوربا وهو يصفق بيديه ضبطاً للايقاع :

ـ مرحى ! مرحى يا بني ! الى الشيطان بالقرطاس والمحابر! الى الشيطان

بالاملاك والمصالح ! الآن وقد اصبحت ترقص وتعلمت لغتي ، فما الذي لا نستطيع ان نتفاهم حوله !

ودق الحصى بقدميه ، وصفق بيديه ، وهتف :

ـ أيها الرئيس ، لديّ اشياء كثيرة اقولها لك ، انني لم احب في حياتي شخصاً كما احببتك ، لديّ اشياء كثيرة اقولها لك ، لكن لساني قاصر عن ذلك • اذن فسأرقصها لك ! قف جانباً حتى لا اصدمك ! الى الامام ، هوب ! هوب !

وقفز ، واصبحت قدماه ويداه أجنحة • كان يشبه ، وهو يندفع هكذا ، مستقيماً ، فوق الأرض ، على هذه الخلفية من السماء والبحر ، ملاكاً مسناً متمرداً • اذ ان هذه الرقصة الزوربوية كانت كلها تحدياً ، وعناداً ، وتمرداً • وكأنه يصرخ : « ماذا تستطيع ان تفعل معي ، أيها الفائق القوة ؟ انك لا تستطيع شيئاً ، اللهم الاقتلي • اقتلني ، فأنا غير مبالٍ • لقد افرغت غضبي، وقلت كل ما اردت قوله : لقد اتيح لي الوقت للرقص ، ولم اعد بحاجة اليك ! » •

وبينما انا انظر الى زوربا يرقص ، فهمت لأول مرة جهد الانسان الخيالي ليقهر الثقالة • لقد اعجبت بتجلده ، وخفته ، وكبريائه • كانت خطى زوربا المحمومة الرشيقة ، ترسم ، على الحصى ، تاريخ الانسان الشيطاني •

وتوقف ، وتأمل المصعد المنهار الذي تحول الى سلسلة اكداس • كانت الشمس تميل نحو المغيب، والظلال تتمدد•وجحظ زوربا عينيه كأنه تذكر فجأة شيئاً ما • واستدار نحوي ، وبحركة تعوّد عليها ، غطى فمه براحته • وقال :

ـ آه ! آه ! أيها الرئيس ، ما الذي كان يقدحه كالشرر ، هذا اللعين ؟ وانفجرنا ضاحكين •

والقى زوربا بنفسه علي ، واخذني بين ذراعيه ، وراح يقبلني • وصاح بي بحنان :

ـ أتمزح ، أنت أيضاً ؟ أتمزح ، انت أيضاً ، أيها الرئيس ، مرحى ، يا غلامي !

وبينما نحن نغرب في الضحك ، رحنا نتصارع فترة طويلة ، لاعبين فوق الحصى • ثم تهالكنا أرضاً كلانا معاً ، وتمددنا على الحصباء ، ونمنا ، متعانقين •

* * *

عند الفجر ، ، نهضت وسرت بسرعة ، على طول الشاطيء ، نحو القرية ٠
كان قلبي يثب وثباً ، فقلما شعرت بمثل هذا الفرح في حياتي ٠ بل لم يكن الفرح ، انما غبطة رائعة ، عبثية ، لا تبرير لها ٠ ليس فقط لا تبرير لها ، بل مناقضة لكل تبرير ٠ لقد خسرت هذه المرة مالي كله ، والعمال ، والمصاعد ، والعربات ٠ لقد انشأنا مرفأ صغيراً لتصدير الفحم ، والآن لم يعد عندنا شيء نصدره ٠ كل شيء ضاع ٠

الا انني في تلك اللحظة بالذات شعرت بذلك الاحساس بالخلاص غير المتوقع ، وكأنني اكتشفت بين ثنايا الضرورة القاسية الشكسة ، الحرية لاهيةً في احدى الزوايا ٠ وقد رحت ألهو معها ٠

أي فرح يتملك الانسان ، عندما يسير كل شيء عكساً ، فيعرض روحه للامتحان ليرى اذا كان لها احتمال وقيمة ! وكأن عدواً غير مرئي وفائق القوة ـ البعض يسمونه الله والبعض ابليساً ـ يندفع ليصرعنا ، لكننا نظل واقفين٠ وفي كل مرة ينتصر فيها الانسان الحقيقي داخلياً ، في حين يقهر قهراً تاماً من الناحية الخارجية ، يشعر بكبرياء وفرح لا يمكن التعبير عنهما ٠

انني أتذكر ما رواه زوربا الي ذات مساء : « ذات ليلة ، فوق جبل في ماسيدونيا ، مغطى بالثلج ، هبت ريح مخيفة٠ كانت تهز الكوخ الصغير الذي اختبأت فيه ، تريد ان تقلبه ٠ لكني كنت قد دعمته جيداً ٠ وجلست بمفردي امام المدفأة حيث كانت النار تشتعل ٠ ورحت اضحك واتحدى الريح صارخاً : « لن تدخلي كوخي ، لن افتح لك الباب ، لن تطفئي ناري ، لن تستطيعي قهري ! » ٠

لقد فهمت ، اذ تذكرت كلمات زوربا هذه ، كيف يجب على الانسان ان يتصرف ، واية لغة يجب ان يخاطب بها الضرورة الغاشمة العمياء ٠

كنت اسير بسرعة على الشاطيء واتحدث أنا أيضاً مع العدو غير المرئي ، واصيح : « لن تدخل الى روحي ، لن افتح لك الباب ، لن تطفيء ناري ، لن تستطيع قهري ! » ٠

لم تكن الشمس قد تربعت بعد قمة الجبال ، وكانت الألوان تلهو في السماء وعلى البحر ، ألوان زرقاء ، وخضراء ، ووردية ، ولؤلؤية ، والعصافير الصغيرة تستيقظ ، على اشجار الزيتون ، مغردة ، قد اسكرها النور ٠

كنت أسير بحذاء الماء لأودع هذا الشاطيء المنعزل ، واحفره في ذهني ، واحمله معي ٠

لقد عرفت افراحاً عديدة على هذا الساحل ، وزادت الحياة مع زوربا قلبي اتساعاً ، وحملت بعض كلماته الهدوء الى نفسي • كان هذا الانسان ، بغريزته المعصومة ، وبنظراته البدائية الكاسرة ، يسلك اقصر الطرق وآمنها ، ويصل ، دون ان تلهث انفاسه ، الى ذروة الجهد ، الى ما هو أعلى من الجهد •

ومرت مجموعة ، من الرجال والنساء ، تحمل سلالا مليئة ، وقناني خمر كبيرة • كانوا ذاهبين الى البساتين ليحتفلوا بالأول من ايار • وتدفق صوت صبية كفوارة ماء وغنى • ومرت بي فتاة صغيرة ، نهد صدرها قبل الاوان ، لاهثة ، والتجأت الى صخرة عالية • وكان يطاردها رجل اسود اللحية ، شاحب ، غاضب • وراح يصرخ بها بصوت أبح :

ـ انزلي ••• انزلي •••

لكن الصغيرة ، الملتهبة الخدين ، رفعت ذراعيها، وصلبتهما وراء رأسها، وراحت تتابع أغنيتها ، وهي تهز جسدها الخضل على مهل :

قله لي مازحاً ، قله لي متدللا •

قل لي انك لا تحبني ، فأنا لا أهتم بذلك مطلقاً •

وكان الرجل الملتحي يصيح بها وصوته المبحوح يتضرع ويهدد :

ـ انزلي ••• انزلي •••

وعلى حين غرة ، وثب ، وأمسك بقدمها ، وضغط عليها بعنف ، وانفجرت الفتاة باكية ، وكأنها لم تكن تنتظر الا هذه البادرة الفظة حتى تفرج عن كربها •

ومضيت بخطى سريعة • كانت هذه الافراح كلها تهيج قلبي • وبرزت الجنية العجوز في ذاكرتي ، بدينة ، معطرة ، قد ارتوت من القبل ، ممددة على الأرض • لا شك في انها قد انتفخت واخضرت ، وتفسخت ، وسالت منها الأخلاط ، وظهرت الديدان •

وهززت رأسي بقرف • ان الأرض تصبح احياناً شفافة، فنلمح الرئيس الكبير ، الدود ، يعمل ليل نهار في ورشاته تحت الأرض • لكننا نسرع في اشاحة بصرنا ، لأن الانسان يستطيع تحمل كل شيء ، باستثناء مرأى الدود الصغير الأبيض •

عند مدخل القرية ، صادفت ساعي البريد الذي كان يهم بالنفخ في بوقه • فصاح بي وهو يمد الي بغلاف أزق :

ـ رسالة ، ايها الرئيس !

وانتفضت ، مغتبطاً ، وانا أتعرف الخط الناعم · واجتـــزت القرية بسرعة ، وانتهيت الى غابة الزيتون ، وفتحت الرسالة بنفاد صبر · كانـــت مختصرة ، موجزة ، وقرأتها دفعة واحدة :

« لقد بلغنا حدود جورجيا ، وافلتنا من الاكراد ، وكـــل شـــيء على ما يرام · انني اعرف اخيراً ما هي السعادة · انني الآن فقط استطيع ان افهـم الحكمة القديمة جداً : السعادة هي ان تؤدي واجبك ، وكلما كان الواجـــب أصعب ، كانت السعادة أعظم ، لأنني أعيشها ·

« بعد عدة ايام، ستصل هذه المخلوقات المطارَدة المحتضرة الى «باطوم» ، وقد تلقيت تواً برقية : « لقد ظهرت المراكب الاولى ! » ·

« ان هذه الالوف من اليونانيين الاذكياء النشيطين ، مـــع نسائهـم العظيمات الكشح ، واولادهم الملتهبي العيون ، سوف ينقلـون قريبـــاً الى ماسيدونيا وتراسيا · سوف نحقن اوردة اليونان العجوز بدم جديد قوي ·

« لقد تعبت قليلا ، وأنا اعترف بذلك ، لكن ما الضرر ! لقد قاتلنـــا ، ايها المعلم ، ولقد انتصرنا ، فأنا سعيد » ·

اخفيت الرسالة ، وحثثت الخطى · كنت سعيداً ، انا ايضاً · وسـرت في درب الجبل الوعر ، وانا أهصر بين اصابعي غصن صعتر مزهراً عبقـــاً · كان الظهر يقترب ، والظل يتكاثف عند قدمي ، أسود ، وحلق صقر عالياً جداً، وكان جناحاه يخفقان بسرعة شديدة حتى انه ليبدو ساكناً · وسمع حجـــل وقع اقدامي ، فاندفع خارج الشوك ورن صوت جناحيه في الهواء ·

كنت سعيداً · ولو استطعت ، لغنيت لأعيد الهدوء الى نفسي ، لكنني لم أتمكن الا من اطلاق صرخات مبهمة · وسألت نفسي هازئاً : « ماذا بك ؟ هل انت وطني متحمس جداً دون ان تعرف ؟ ام هل تحب صديقك الى هذا الحد ؟ ألا تخجل ؟ تمالك نفسك ، وابق هادئاً » ·

لكنني تابعت السير في الدرب ، وانا أعوي ، وقد حلـــق بي الفـرح · وتعالى صوت جلاجل ، وظهرت على الصخور عنزات سود ، سمر ، رمادية ، تسبح في العرق ، بسبب الشمس · وكان يسير ، في مقدمتها ، التيس ، وقد تصلبت رقبته · وملأت الجو رائحته النتنة ·

وقفز راعٍ على صخرة وناداني وهو يصفر بأصابعه :

ـ ايه ! ايها الصديق ! أين انت ذاهب ؟ تجري وراء من ؟

فأجبت وانا اتابع الصعود :

ـ عندي عمـــل .
فصرخ الراعي من جديد ، وهو يقفز من صخرة الى صخرة :
ـ قف ، تعالَ اشرب شيئاً من اللبن لترطب حلقك !
فصرخت ثانية ، اذ لم اكن اريد ان افقد فرحي ، بالحديث :
ـ عندي عمـــل .
فقال الراعي بخيبة :
ـ ايه ! انت تحتقر لبني ! اذن ، رحلة موفقة ، على رسلك !

ووضع أصابعه في فمه ، وصفر لقطيعه ، وبعد لحظات ، اختفى الجميع، العنزات والكلاب والراعي ، وراء الصخور .

وبعد قليل بلغت قمة الجبل . وسرعان ما هدأت نفسي ، وكأن هـــذه القمة كانت هدفي . وتمددت على صخرة ، في الظل ، ونظرت الى الســـهل والبحر بعيداً . ورحت استنشق عميقاً الهواء العبق برائحـــة القويســـة والصعتر .

نهضت ، وقطفت حزمة قويسة ، وصنعت منها وسادة ، ورقدت . كنت متعباً ، فأغلقت عيني .

وطار فكري ، لحظة ، هناك ، نحو الهضاب العالية المغطاة بالثلـــج . وبذلت جهدي لأتصور قطيع الرجال ، والنساء ، والابقار ، المتجـــه نحـو الشمال ، وصديقي يسير في المقدمة ، كالكبش الذي يقود القطيـــع . لـــكن سرعان ما اظلم عقلي ، وشعرت برغبة في النوم لا تقهر .

اردت ان اقاوم ، وأن لا أغوص في النعاس ، وفتحت عيني . كان ثمـة غراب قد حط امامي على الصخرة ، فوق قمة الجبل تماماً . كان ريشـــه الأسود الأزرق يلمع تحت الشمس ، وتبينت بوضوح منقاره الاصفر الكبير . وتملكني الغضب ، فقد تشاءمت من هذا الغراب . واخذت حجراً ورميته به . ونشر الطائر جناحيه ، بهدوء وبطء .

واغلقت عيني من جديد ، بعد ان لم اعد استطيع مقاومـــة ، وغلبني النعاس ، دفعة واحدة ، كالصاعقة .

ـ لم يكن نومي قد استغرق ثواني ، عندما اطلقت صرخة وانتصبت مرة واحدة . كان الغراب في تلك اللحظة يمر فوق رأسي . واستندت الى الصخرة، وانا ارتعد . ثمة حلم عنيف قد اخترق فكري كضربة سيف .

رأيت نفسي في أثينا ، اصعد شارع هرمس ، بمفردي ، كانت الشمس

تتلظى ، والشارع مقفراً ، والمخازن مغلقة ، والعزلة كاملة. وعندما مررت امام كنيسة كابنيكاريا ، رأيت من ساحة « الدستور » ، صديقي يجري ، شاحباً ، لاهثاً . وكان يتبع رجلا فارع الطول ، بالغ النحافة ، يسير بخطى واسعة كخطى مارد . وكان صديقي يرتدي زيه الدبلوماسي الفخم ، ورآني وصاح بي من بعيد ، لاهثاً :

– ايْ ، يا معلم ، كيف حالك ؟ ، منذ قرن لم اشاهدك . تعال هذا المساء ، فسوف نتحدث .

فصحت انا ايضاً ، بقوة عظيمة ، وكأن صديقي بعيد جداً ، وكأن علي ان ارفع صوتي الى اقصى ما استطيع حتى يسمعني :

– الى اين ؟

– الى ساحة الكونكورد ، هذا المساء ، في الساعة السادسة . في مقهى « نبع الفردوس » .

فأجبت :

– حسناً سآتي .

فقال بلهجة فيها تأنيب :

– انت تقول هذا ، انت تقول هذا ، لكنك لن تأتي .

فصحت :

سآتي بالتأكيد ! أعطني يدك !

– انني مستعجل .

– لماذا انت مستعجل ؟ أعطني يدك .

ومد ذراعه ، لكنها انفصلت فجأة عن كتفه ، وجاءت ، مخترقة الفضاء ، لتمسك بيدي .

وذعرت لهذا الاحتكاك البارد ، واطلقت صرخة ، واستيقظت منتفضاً .

وفاجأت آنذاك الغراب محلقاً فوق رأسي . وكانت شفتاي تقطران سماً .

واستدرت نحو الشرق ، وسرحت عيني في الآفق ، وكأنني اريد ان اثقب المدى وأرى ... كان صديقي ، انا واثق من ذلك ، في خطر . وهتفت ثلاث مرات باسمه :

– ستافريداكي ! ستافريداكي !

وكأنني اريد ان ابثه الشجاعة ٠ لكن صوتي ضاع على بعد عدة امتار امامي وتبخر في الهواء ٠

وعدت أدراجي ٠ كنت اتدحرج من الجبل محاولا ، بشدة التعب ، ان ابدل مكان الالم ٠ كان عقلي يحاول عبثاً ان يفك رموز الرسائل الغامضة التي تنجح احياناً في اختراق الجسد وبلوغ الروح ٠ في اعماق كياني ، كان يقين بدائي ، اعمق من العقل ، حيواني يمتلىء بالرعب ، اليقين نفسه الذي تشعر به بعض الحيوانات ، كالخرفان والجرذان ، قبل ان ينفجر زلزال الأرض ٠ واستيقظت في داخلي روح البشر الأوائل كما كانت قبل ان تنفصل نهائيا عن الكون، عندما كانت تحس، مباشرة، ودون تدخل العقل المشوه، بالحقيقة ٠ وتمتمت :

ـ انه في خطر ! انه في خطر ٠٠٠ سوف يموت ٠ لعله نفسه لا يدري ذلك بعد ٠ لكني، انا ، اعرف ، انني واثق ٠٠٠

كنت اهبط الجبل راكضاً ، وتعثرت بكومة حجارة وتدحرجت ، مدحرجاً معي الحصى ٠ ونهضت ، ويداي وساقاي دامية ، كلها خدوش ٠ كان قميصي قد تمزق ، لكني شعرت بنوع من الاطمئنان ٠

كنت اقول في نفسي وانفاسي تختنق : «سوف يموت ! سوف يموت!»٠

يزعم الانسان ، التعيس ، انه قد بنى حول وجوده المسكين الصغير ، حصناً عالياً لا يمكن اقتحامه ، فهو يلتجيء اليه ويحاول أن يجد فيه بعض النظام والأمن ، بعض السعادة ٠ وكل شيء فيه يجب ان يسير في الطرق المعبدة ، حسب الروتين الأقدس ، ويخضع لقوانين بسيطة ومضمونة ٠ وفي هذا المكان المسور المحصن ضد غارات السر العنيفة ، تجرجر القينات الصغيرة ذوات الالف رجل نفسها ، بثقة ٠ وليس ثمة الا عدو واحد رهيب ، يخشاه الانسان ويكرهه حتى الموت ، هو : اليقين الاكبر ٠ وها هو هذا اليقين الاكبر قد اجتاز الآن الجدران العالية وانقضّ على روحي ٠

عندما بلغت شاطئي ، لهثت قليلا ٠ وفكرت : « هذه الرسائل كلها تولد من قلقنا الخاص وتبدو لنا في نومنافي زي الرمز اللامع ٠ ولكن انما نحن الذين نخلقها ٠٠٠ » ٠ واطمأننت قليلا ٠ لقد رد العقل النظام الى قلبي ، وقطع اجنحه الخفاش الغريب ، وشذّبه وقلّمه ، الى ان جعل منه فأرة اليفة ٠

عندما وصلت الى الكوخ ، كنت ابتسم من سذاجتي ٠ كنت خجلا من ان يكون عقلي قد وقع بمثل هذه السرعة في حبائل الرعب ٠ وسقطت ثانية في

الواقع الروتيني ، فشعرت بالجوع ، والعطش ، واحسست بنفسي منهكاً .
وكانت الجروح التي سببتها لي الصخور تحرقني · لكنني كنت اشعر ، على
الاخص ، باطمأنان كبير : فالعدو المخيف الذي اجتاز الجدران قد تراجع امام
الخط المحصن الثاني لروحي ·

- ٢٦ -

لقد انتهى الأمر · جمع زوربا الجبال ، والادوات، والعجلات ،والحدائد، وخشب البناء ، وكومها على الشاطيء بانتظار ان يأتي المركب ليحملها ، وقلت :

ـ انني اهديكها ، يا زوربا ، انها لك ، حظ طيب !

وضغط زوربا على حنجرته ، كأنه يريد ان يكبت نحيباً · وتمتم :

ـ أمفترقان ؟ الى أين ستذهب ، أيها الرئيس ؟

ـ انني راحل الى الخارج ، يا زوربا · ان العنزة التي في داخلي لا يزال لديها الكثير من الورق لتقضمه ·

ـ ألم تصلح نفسك بعد ، أيها الرئيس ؟

ـ بلى ، يا زوربا ، بفضلك ، لكنني اسير في الطريق نفسه الذي تسير فيه انت · سأفعل بالكتب ما فعلته انت بالكرز · سآكل الكثير من الورق الى ان اصاب بالقرف ، وعندئذ سأتقيأ واكون قد تحررت ·

ـ وماذا سيحدث لي انا ، بدون رفقتك ، أيها الرئيس ؟

ـ لا تحزن ، يا زوربا ، سنلتقي أيضاً ، ومن يدري ، ان قوة الانسان رهيبة ! سنحقق ذات يوم مشروعنا الأكبر · سنبني ديراً لنا ، دون إله ، دون ابليس ، مع رجال احرار · وستكون ، انت يا زوربا ، على الباب ، ممسكاً بالمفاتيح الضخمة ، مثل القديس بطرس ، لتفتح وتغلق ···

كان زوربا ، وهو جالس أرضاً ، مسنداً ظهره الى الكوخ ، يملأ كأسه ويشرب دون توقف ، ولا يقول شيئاً ·

كان الليل قد ارخى سدوله ، وكان عشاؤنا قد انتهى ، ونحن نتحادث حديثنا الأخير ونشرب · وغداً ، في الصباح الباكر ، سنفترق ·

كان زوربا يقول وهو يشدّ شاربه ويشرب :

– نعم ، نعم ... نعم ، نعم ...

كانت السماء مليئة بالنجوم ، والليل فوقنا يرشح ، شديد الزرقة . وكان قلبنا ، في داخلنا ، يريد ان يندمل ، لكنه كان يتمالك نفسه .

كنت افكر « ودّعه وداعك الأخير ، انظر اليه جيداً ، فعيناك لن تريا زوربا بعد الآن ، مطلقاً ، مطلقاً ! » .

وكدت القي بنفسي على الصدر الهرم وآخذ بالبكاء ، لكني خجلت . وحاولت ان اضحك لأخفي انفعالي ، لكني لم استطع . كان حلقي مخنوقاً .

ونظرت الى زوربا يمد رقبته الشبيهة برقبة طير كاسر ، ويشرب بصمت . كنت انظر اليه وعيناي تغرورقان . ما هو اذن هذا السر الفظ : الحياة؟ان البشر يتلاقون ويفترقون كأوراق الاشجار التي تطردها الريح . وعبثاً يحاول النظر ان يحتفظ بوجه المخلوق الحبيب ، وجسده ، وحركاته . فبعد عدة سنوات لن يذكر ابداً ما اذا كانت عيناه زرقاوين أو سوداوين .

وهتفت في داخلي : « كان يجب ان تكون من البرونز ، كان يجب ان تكون من الفولاذ ، لا من الهواء ، النفس الانسانية ! » .

كان زوربا يشرب ، ورأسه الضخم منتصب مستقيماً ، ساكناً . وكأنه يصغي في الليل الى وقع خطى تقترب او خطى تبتعد في أعماق كيانه .

– بمَ تفكر ، يا زوربا ؟

– بمَ تريدني ان افكر ، ايها الرئيس ؟ بلا شيء . بلا شيء ، أقول لك ! انني لا افكر بشيء .

وبعد لحظات ، اضاف ، وهو يملأ كأسه من جديد :

– في صحتك ، أيها الرئيس !

وقرعنا كأسينا . كنا نشعر كلانا ان مثل هذه الكآبة الحادة لا يمكن ان تدوم اطول من ذلك . كان علينا اما ان ننفجر بكاء أو نسكر ، أو نرقص رقصاً جنونياً . واقترحت :

– اعزف ، يا زوربا !

– ان السانتوري ، لقد قلت هذا سابقاً ، ايها الرئيس ، ان السانتوري يريد قلباً سعيداً . لعلي سأعزف بعد ، بعد شهرين ، بعد سنتين ، لست ادري ! سأغني آنذاك كيف يفترق انسانان فراقاً أبدياً .

فصرخت مذعوراً :

– ابدياً !

كنت اردداها في داخلي ، هذه الكلمة التي لا دواء لها ، لكني لم اكن اتوقع ان اسمعها تُلفظ • فخفت • وكرر زوربا وهو يبلع لعابه بصعوبة :

ـ ابدياً ! نعم ، أبدياً • ان ما تقوله لي الآن ، من اننا سنلتقي ثانية ، وسنبني ديراً ، ليس الا عزاء فظيعاً • انني لا اقبله ! لا اريده ! ماذا ؟ هل نحن نساء لنحتاج الى العزاء ؟ نعم ، ابدياً !

فقلت ، وقد اخافني حنان زوربا المستفرس :

ـ لعلي سأبقى معك ، هنا ••• لعلي أيضاً سآتي معك • انني حر !

فهز زوربا رأسه ، وقال :

ـ كلا ، لست حراً • أن الحبل الذي ربطت به نفسك اطول قليلا من حبل الآخرين • هذا كل شيء • ان لديك ، ايها الرئيس ، حبلا طويلا ، فأنت تذهب، وتأتي ، وتعتقد انك حر ، لكنك لا تقطع الحبل • وعندما يقطع الانسان الحبل •••

فقلت بتحدٍ ، لأن كلمات زوربا قد لمست فيّ جرحاً مفتوحاً ، فتوجعت :

سأقطعه ذات يوم !

ـ هذا صعب ، ايها الرئيس ، صعب جداً • لا بدّ لذلك من شيء من الجنون • الجنون ، أتسمعني ؟ ان تجازف بكل شيء ! لكنّ لك ، انت ، عقلا متيناً ، وسوف يتغلب عليك • ان العقل عطار ، لديه سجلات : دفعت كذا ، ووفرت كذا ، هي ذي ارباحي ، هي ذي خسائري ! انه صاحب دكان صغير حذر • انه لا يقامر بكل شيء ، بل يحتفظ دوماً باحتياطي • انه لا يقطع الخيط، كلا ! انه يمسكه بقوة في يده ، الصعلوك • واذا ما أفلت منه ، فقد هلك ، هلك المسكين ! لكن اذا لم تقطع الخيط ، قل لي ، أية لذة يمكن ان تكون للحياة ؟ ستكون كطعم البابونج ، البابونج الذابل ! وليس كطعم الروم الذي يجعلك ترى الدنيا بالمقلوب !

وصمت ، وصبّ ليشرب ، لكنه بدل رأيه • وقال :

ـ يجب ان تعذرني ، ايها الرئيس ، انني فظ • ان الكلمات تلتصق بأسناني التصاق الوحل بالاقدام • انني لا استطيع ان اؤلف جملا حلوة واتصنع المجاملات • لا استطيع • لكنك ، انت ، تفهم •

وافرغ كأسه ونظر الي • وصاح ، وكأن الغضب تملكه فجأة :

ـ انت تفهم ! انت تفهم وهذا ما سيضيعك ! لو كنت لا تفهم ، لكنت سعيداً • ماالذي ينقصك ؟ انت شاب ، ذكي ، عندك مال ، وصحة جيدة ،

وانت فتى شجاع ، لا ينقصك شيء ، بحق الشيطان ! لا ينقصك الا شيء واحد : الجنون . وعندما يكون هذا ناقصاً ، ايها الرئيس ...

وهز رأسه الضخم وصمت من جديد .

لم يكن بيني وبين البكاء الا بضع ثوان . كان كل ما يقوله زوربا صحيحاً . فعندما كنت طفلا ، كنت كلي اندفاعات مجنونة ، رغبات تتجاوز الانسان ، وكان العالم لا يستطيع ان يحتويني .

وشيئاً فشيئاً ، مع مر الزمن ، ازددت حكمة . فكنت اضع حدوداً ، وأفصل الممكن عن المستحيل ، والانساني عن الالهي ، وامسك بطيارتي بقوة حتى لا تفلت مني .

وشقّت نجمة ضخمة هاوية كبدء السماء ، فانتفض زوربا ، وجحظ عينيه وكأنه يرى للمرة الاولى نجمة تهوي . وقال لي :

ـ أرأيت النجمة ؟

ـ نعم .

وصمتنا .

وفجأة ، نصب زوربا عالياً جداً عنقه النحيفة ، ونفخ صدره وأطلق صرخة وحشية يائسة . وسرعان ما تحولت الصرخة الى كلمات انسانية ، وصعد من احشاء زوربا لحن تركي قديم رتيب ، كله كآبة ووحدة . وتمزق قلب الأرض ، وانتشر السم الشرقي الكثير العذوبة . وشعرتَ في داخلي بجميع الخيوط التي كانت لا تزال تربطني الى الفضيلة والرجاء تتقطع .

كان حجلان يغنيان على تل .

لا تغنِّ ، ايها الحجل ، فألمي وحده يكفيني ، آمان ! آمان ! الصحراء ، الرمل الناعم على مد النظر ، الهواء يرجف ، وردياً ، وأزرق ، وأصفر ، الاصداغ قد تفتحت ، والنفس تطلق صرخة مجنونة وتتهلل لأنه ما من صرخة أخرى تجيبها . وامتلأت عيناي بالدموع .

وصمت زوربا . وبحركة عنيفة مسح عرق جبينه باصبعه . وانحنى وحدق الى الارض . وسألته بعد برهة طويلة :

ـ ما هذه الأغنية التركية يا زوربا ؟

ـ اغنية الجمّال . الاغنية التي ينشدها الحادي في الصحراء . منذ سنوات لم اتذكرها مرة . وهذا المساء ...

ورفع رأسه ونظر الي ، كان صوته جافاً ، وحنجرته يابسة . وقال :

ـ ايها الرئيس ، قد حان ان تذهب لتنام • غداً ، ستستيقظ عند الفجر لتذهب الى كاندي لتستقل المركب • ليلة سعيدة !

فأجبت :

ـ لا أشعر بنعاس • سأبقى معك • انها الليلة الأخيرة التي نقضيها معاً •

فصاح :

ـ لكن لهذا السبب بالذات يجب ان ننتهي منها بسرعة •

وقلب كأسه الفارغة ، اشارة الى انه لا يريد الشرب اكثر من ذلك • هكذا ، هكذا يفعل الرجال الحقيقيون عندما يكفّون دفعة واحدة ، وبشجاعة ، عن تعاطي التبغ ، أو الخمر ، أو القمار •

ـ « يجب ان تعلم هذا : كان والدي شجاعاً ، ليس ثمة من يوازيه شجاعة قط • لا تنظر الي ، فأنا لست جباناً ، ولا اصل الى كعبه • لقد كان ، هو ، من اولئك اليونانيين ايام زمان ••• اذا ما شدّ على يدك هرس عظامك • انا ، استطيع الكلام من حين لآخر ، لكن ابي كان يزمجر ، ويصهل ، ويغني • لم تكن تخرج من فمه كلمة انسانية حقاً الا نادراً •

« حسناً ، كان ، هو ، يعرف جميع الاهـــواء ، لكنه كان يقطعها بضربة سيف • فمثلا ، كان يدحن كمدفأة • وذات صباح ، نهض وذهب الى حقلـــه ليحرث • ووصل ، واستند الى سياج الاشجار ودس يده بحركة محمومة الى حزامه ليخرج كيس تبغه ويلف سيجارة قبل أن يبدأ عمله • وسحب كيس التبغ ••• فوجده فارغاً • لقد نسي ان يملأه في البيت •

« راح يزبد غضباً ويزمجر ، وفجأة ، بقفزة واحدة ، اخذ يجري نحو القرية ، كان الهوس مسيطراً عليه ، كما ترى • لكن اذا به يتوقف فجأة بينما كان يركض ـ الانسان سر ، اقول لك ـ وكله خجل ، وأخذ كيس تبغه ومزقه الى ألف قطعة بأسنانه • وداس عليه ، وبصق فوقه ، وهو يشتم :

« القذرة ! القذرة ! العاهرة

ومنذ تلك اللحظة ، الى آخر ايامه ، لم يضع قط سيجارة واحدة في فمه•

« هكذا يفعل الرجال الحقيقيون ، ايها الرئيس ، ليلة سعيدة » •

ونهض ، واجتاز الفسحة بخطوات عريضة • بل انه لم يستدر • وبلغ أقصى شط للبحر وتمدد على صخرة •

ولم أره ثانية قط • وقبل صياح الديك ، جاء المكار • وامتطيت صهوة البغل ومضيت • انني اشك ولعلي مخطيء ، انه كان ، في ذلك الصباح ،

مختبئاً في مكان ما ينظر الي ارحل · لأنه لم يكن موجوداً على الصخرة ، الا انه لم يركض ليوجه لي كلمات الوداع المعتادة ، كي تتفطر قلوبنا وننوح ، ونلوّح بأيدينا وبالمناديل ، ونتبادل الأيمان ·

لقد افترقنا بضربة سيف ·

في كاندي ، سلموني برقية · اخذتها ونظرت اليها ملياً ، ويدي ترتعد · كنت أعلم محتواها ، وارى بيقين مرعب عدد ما فيها من كلمات ، ومن احرف·

وأخذتني الرغبة في ان امزقها دون ان افتحها · فلمَ أقرأها ، ما دمت اعلم ؟ لكن ليس لنا ثقة بعد ، مع الاسف ، في روحنا · ان العقل ذاك العطار، يسخر من الروح كما نسخر نحن من البصارات العجائز والساحرات · فتحت اذن البرقية · انها مرسلة من تفليس · ورقصت الحروف ، اللحظة ، أمام عيني ، فلم اميز شيئاً · لكنها ، شيئاً فشيئاً ، سكنت ، وقرأت :

« البارحة ، بعد الظهر ، على إثر التهاب رئوي ، مات ستافريداكي » ·

* * *

مضت خمس سنين ، خمس سنين طويلة رهيبة ، جرى الزمن فيهــــا جامحاً · ودخلت الحدود الجغرافية في الرقصة ، وكانت الدول تتباعد وتتلاحم كالأكورديونات · وتملكنا ، لبعض الوقت ، أنا وزوربا ، الغضب · وكنت ، من حين لآخر ، في السنوات الثلاث الاولى ، أتلقى بطاقة موجزة منه ·

مرة من جبل آتوس ـ بطاقة العذراء ، حارسة الباب ، بعينيها الكبيرتين الحزينتين وذقنها القوية العنيدة · وكان زوربا قد كتب لي ، تحت العذراء ، بريشته الثقيلة الضخمة التي تمزق الورق : « هنا ، لا مجال للقيام بمشاريع الرهبان ، هنا ، يقيدون حتى البرأغيث · سوف أرحل ! » · وبعد عدة أيام، وصلتني بطاقة أخرى : « لا أستطيع أن اتنقل بين الاديرة ، وأنا احمل بيدي الببغاء كبائع متنقل ، لهذا اهديته الى راهب ظريف علَّم شــحروره أن ينشد كيرياليسون · انه ينشد ، كراهب حقيقي ، اللعين · هذا لا يُصدَّق ! اذن ، فهو سيعلم ايضاً الانشاد لببغائنا المسكين · آه ! كم شـــاهد في حياته ، الظريف ! وها هو الآن قد أصبــح الأب ببغـــاء ! انني اقبلك بمودة · الأب الكسيوس ، الناسك القديس » ·

بعد ستة او سبعة أشهر ، تلقيت من رومانيا بطاقة تمثل امرأة مليئـــة عارية الكتفين : « انني ما أزال أحيا ، وآكل من المامالیغا ، وأشرب البيرة ، وأعمل في آبار البترول القذر ، المنتن كجرذ بالوعة · لكن ماذا يهم ! انك لتجد

هنا بوفرة كل ما يمكن أن يشتهيه قلب الانسان ومعدته · جنة حقيقية للبحارة الطاعنين في السن أمثالي · أتفهمني ، أيها الرئيس : الحيـــــاة الطيبـة ، الدجاجة وبالاضافة اليها الانثى ، ليتمجد الرب ! انني اقبلك بمودة ، الكسيس زوربيسكو ، جرذ بالوعة » ·

ومضت سنتنان · وتلقيت بطاقة اخرى ، من الصرب هذه المرة : « انني ما أزال أعيش ، الطقس بارد الى حد مخيف ، ولهذا فقد اضطررت الى الزواج · انظر خلفي لأرى خطمي ، امرأة صغيرة جميلة · بطنها منتفخة قليلا ، لأنها ، كما تعلم تهيء ليزوربا صغيراً · وأنا ، الى جانبها ، أرتدي الثياب التي اهديتنيها والخاتم الذي تراه في يدي ، هو خاتم المسكينة بوبولينا — كل شيء يفيد ! لترقد في سلام ! — وهي تدعى ليوبا · المعطف ذو فروة الثعلب الذي أرتديه ، هو مهر زوجتي · ولقد أتتني أيضاً بفرس وسبعة خنازير ، من نوع غريب · وبطفلين من زوجها الأول ، لأنني نسيت أن أقول لك ذلك ، فهي أرمل · لقد وجدت في جبل ، قريب من هنا ، مقلع حجارة بيضاء · ولقـــد أغريت أيضاً رأسمالياً · وأنا التهم امواله بهدوء ، مثل باشا · انني اقبلك بمودة ، الكسيس زوربيتش ، الأرمل السابق » ·

وعلى ظهر البطاقة ، صورة لزوربا ، نضراً ، في ثياب عريس جديد ، مع قبعته التي من الفرو ، وعصا صغيرة صمغية ومعطف طويل جديد · وتتعلق بذراعه ، سلافية جميلة في الخامسة والعشرين على الأكثر ، فرس وحشيــــة كريمة الردف ، مثيرة ، عنيدة ، تحتذي جزمتين طويلتين ، ناهدة الصدر · والى الأسفل ، أحرف زوربا الغليظة من جديد ، المكتـــوبة بضربات كضربات المنجل :

« أنا ، زوربا ، والقضية التي لا تنتهي ، المرأة· هذه المرة ، تدعى ليوبا »·

طوال هذه السنوات ، كنت أسافر في الخارج · وكانت لي أنا قضيتي التي لا تنتهي · لكن لم يكن لها صدر ناهـــد ، ولا معطف تعطيني اياه ، ولا خنازير ·

ذات يوم ، في برلين ، تلقيت برقية : « وجدت حجارة خضراء عظيمة ، تعال فوراً · زوربا » ·

كان ذلك في أيام المجاعة الكبيرة في المانيا · كان المارك قد تدنى كثيرا الى حد أن شراء أبسط الاشياء — طابع بريد — كان يتطلب نقـــل الملايين في حقائب مليئة · المجاعة ، والبرد ، والثياب الممزقة ، والأحذية المهترئة ، والخدود

الالمانية القرمزية التي شحبت • كانت الريح تهب ، وكان الرجال يتساقطون في الشوارع ، كأوراق اشجار • وكان الرضعاء يعطون قطعة مطاط ليمضغوها فلا يبكوا • وفي الليل ، كانت الشرطة تحرس الجسور كي لا تلقي الامهات بأنفسهن منها مع اطفالهن لينتهين من الشقاء •

كان الشتاء ، وكانت تثلج • وفي الغرفة الملاصقة لغرفتي ، كان استاذ الماني ، مستشرق ، يحاول ، كي يتدفأ ، أن يعيد نسخ بعض قصائد صينية قديمة او عبارة لكونفوشيوس ، بواسطة ريشة طويلة ، حسب طريقة الشرق الاقصى الصعبة • كان رأس الريشة ، والمرفق المرتفع ، وقلب العالم تشكل مثلثاً ، وكان يقول لي مسروراً :

– بعد عدة دقائق ، يرشح العرق من تحت ابطي ، وبهذه الطريقة ، أتدفأ •

في أوج أيام المرارة هذه تلقيت برقية زوربا• وفي البدء ، غضبت • بينما كان ملايين الرجال يذلون ويتهاوون لأنهم لا يملكون قطعة خبز واحدة ليسندوا عظامهم وأرواحهم ، كنت اتلقى برقيات تدعوني الى قطع آلاف الكيلومترات لرؤية حجارة خضراء جميلة ! الى ابليس ، بالجمال ! هتفت بذلك، لأن الجمال بلا قلب ، لا يبالي بالألم البشري •

لكنني سرعان ما ذعرت : فبعد ان هدأ غضبي ، تبينت باشمئزاز ان على نداء زوربا اللاانساني ذاك ، كان يجيب في داخلي نداء آخر لاانساني • كنت مسكوناً من قِبَل طائر وحشي يخفق اجنحته كي ينطلق •

ومع ذلك ، لم أذهب • لم أصغ الى الصيحة الالهية المفترسة التي كانت تعلو في داخلي ، ولم أتم بعمل مجاني ولامعقول ، واصغيت الى صوت المنطق ، المعتدل ، البارد ، الانساني • فأخذت اذن ريشتي وكتبت لأشرح له •

وأجابني :

« أنت ، مع احترامي لك ، كاتب سفساف • كنت تستطيع ، انت ايضاً ، ايها الشقي ، أن ترى مرة في حياتك حجارة خضراء جميلة ولم ترها • وبديني، لقد اتفق لي ، عندما لا يكون عندي عمل ، ان أتساءل : « أهناك او ليس هناك جحيم ؟ » • ولكن بالأمس ، عندما استلمت رسالتك ، قلت : « لا بد ان يكون هناك بالتأكيد جحيم ، لبعض الكتاب السفسافين ، أمثالك » •

ومنذ ذلك الحين لم يكتب لي ثانية•ومن جديد ، فصلتنا احداث رهيبة، وتابع العالم ترنحه كجريح، كرجل سكران ، وأضمحلت الصداقات والهموم الشخصية •

كنت غالباً ما أحدث اصدقائي عن تلك النفس الكبيرة · وكنا نعجب بالمشية المتكبرة الواثقة ، فيما وراء العقل ، لذلك الرجل غير المصقول · كانت القمم الروحية التي نحتاج الى سنوات من النضال الشاق لتسلقها ، يبلغها زوربا بقفزة واحدة · وكنا نقول آنذاك : « زوربا نفس كبيرة » · أو كان يتجاوز هذه القمم فنقول : « زوربا مجنون » ·

وهكذا كان يمضي الوقت ، مسموماً بعذوبة بالذكريات · وكان الظل الآخر ، ظل صديقي ، يثقل ايضاً على روحي · ولم يكن يتركني لأنني انا الذي لا يريد تركه ·

لكن عن هذا الظل لم أكن أحدّث انساناً · كنت اخاطبه خلسة ، وبفضله، تصالحت مع الموت · كان جسري السري الى الضفة الاخرى · وعندما كانت روح صديقي تعبره ، كنت اشعر بها منهكة شاحبة ، لم يعد فيها قوة لمصافحة يدي ·

احياناً كنت أفكر في ذعر : لعل صديقي لم يتح له الوقت على هذه الارض ليسمو بعبودية جسده الى حرية ، لينشيء روحه ويؤكدها ، كي لا تؤخذ ، في اللحظة النهائية الفاصلة ، برعب الموت وتفنى · كنت أفكر : لعل الوقت لم يتح له ليخلد ما كان فيه قابلا للخلود ·

لكنه كان بين الحين والآخر يتمالك قواه ـ أو لعلي انا الذي كان يذكره فجأة بحنان اعظم ؟ ـ فيأتي عندئذ وقد عاد اليه شبابه وتطلبه ، بل كان يخيل اليّ أنني أسمع وقع خطاه على الدرج ·

لقد قمت ، في هذا الشتاء ، بمفردي بحج الى جبال آنغاوين العالية ، حيث كنا امضينا ، أنا وصديقي ، مع امرأة نحبها ، ساعات لذيذة ·

كنت راقداً في الفندق نفسه الذي نزلنا فيه آنذاك · وكنت نائماً · وكان القمر يتسلل من النافذة المفتوحة ، فأشعر في عقلي النائم بجبال تدخل ، وبصنوبرات مكللة بالثلج ، وبالليل الازرق العذب ·

وأحسست بغبطة لا توصف ، وكأن النوم بحر عميق ، هاديء وشفاف ، وكأنني ممدد في حضنه ، ساكناً سعيداً · وكانت حساسيتي شديدة الى حد ان مركباً ماراً على سطح الماء ، على علو آلاف الامتار فوقي ، كان باستطاعته ان يحز جسدي ·

وفجأة سقط ظل علي · وأدركت من هو · ورن ّ صوته ، مليئاً بالتأنيب :

ـ أتنام ؟

فأجبت باللهجة نفسها :

ـ لقد اطلت انتظاري لك · فمنذ شهور لم أسمع جرس صوتك · أين كنت تتسكع ؟

ـ أنا دائماً الى قربك ، لكنك انت الذي ينساني · أنني لا املك دوماً القوة على النداء ، وانت تسعى الى هجراني · ضوء القمر ، هذا شيء رائع ، وكذلك الأشجار المكللة بالثلج ، والحياة على الارض · لكنك ، ارجوك ، لا تنسني !

ـ أنا لا أنساك مطلقاً ، وانت تعلم ذلك حق العلم · في الايام الاولى من تركك لي ، كنت أجتاز الجبال الوعرة ، وأنهك جسدي ، وأمضي الليالي دون نوم وأنا أفكر بك · بل لقد قرضت اشعاراً كي لا اختنق · لكنها كانت اشعاراً حقيرة لا تخلصني من ألمي · وثمة قصيدة منها تبدأ هكذا :

« بينما كنت تسير الى جانب الموت ، كنت أعجب بقامتك وبمرونتكما كليكما على الدرب الوعر ·

كرفيقين يستيقظان عند الفجر ويذهبان · »

« وفي قصيدة اخرى ، غير منتهية هي أيضاً ، أصيح بك :

« شد على أسنانك ، واحبيباه ، كي لا تطير روحك ! »

وابتسم بمرارة · وأمال وجهه علي وارتعدت اذ تبينت شحوبه ·

ونظر الي ّ ملياً بمحجريه الاجوفين اللذين لم تعد فيهما عينان · بل مجرد كرتين صغيرتين من التراب · وتمتمت :

ـ بم َ تفكر ؟ لم َ لا تتكلم ؟

ومن جديد رن صوته كتنهدة بعيدة :

ـ آه ! ماذا يبقى لنفس كان العالم بالنسبة لها صغيراً جداً ! بضعة أشعار لشخص آخر ، متفرقة ومبتورة ، لا تشكل حتى رباعية كاملة ! انني اتسكع على الأرض ، وازور الذين كانوا اعزاء علي ، لكن قلبهم قد انغلق على نفسه · من اين ادخل ؟ كيف اعيد الحياة لنفسي ؟ انني ادور في حلقة مفرغة ككلب حول منزل موصد الابواب · آه ! لو كنت استطيع ان اعيش حراً ، دون ان اتشبث ، كغريق ، بأجسادكم الحارة الحية !

وانبجست الدموع من عينيه ، واستحالت الأرض الى طين من كثرتها ·

لكن سرعان ما عاد صوته واثقاً من نفسه ، وقال :

ـ اعظم فرح وهبتني اياه ، كان ذلك ذات مرة ، يوم عيدي ، في زوريخ ، أتذكر ؟ عندما رفعت كأسك لتشرب نخب صحتي · أتذكر ؟ كان هناك شخص آخر معنا ···

فأجبت :

ـ انني اذكر ، الشخص الذي كنا ندعوه سيدتنا ···

وسكتنا · كم من قرون مرت منذ ذلك الحين ! في زوريخ ، وكانت تثلج في الخارج ، وأزهار على المائدة ، وكنا ثلاثة · وسأل الشبح في سخرية خفيفة:

ـ بمَ تفكر ، أيها المعلم العزيز ؟

ـ بأشياء ، كثيرة ، بكل ···

ـ أما أنا ، فأفكر بكلماتك الأخيرة · لقد رفعت كأسك ولفظت هذه الكلمات ، بصوت مرتعد : « صديقي ، عندما كنت طفلا رضيعاً ، كان جدك الهرم يضعك على احدى ركبتيه ، وعلى الأخرى كان يضع القيثارة الكريتية ويعزف الحاناً يونانية قديمة · انني أشرب هذا المساء نخب صحتك : ليعمل القدر على ان تكون دوماً جالساً على هذا النحو على ركبتي الله ! »

ـ لقد استجاب الله بسرعة كبيرة لصلاتك !

فهتفت :

ـ ماذا يهم ! ان الحب أقوى من الموت ·

وابتسم ، بمرارة ، لكنه لم يقل شيئاً · كنت أشعر بجسده ينحلُ في الظلمة ، ويصبح نحيباً ، وتنهداً ، وسخرية ·

وطوال أيام ظل طعم الموت على شفتي · لكن قلبي قد اطمأنّ · فقد دخل الموت الى حياتي بوجه معروف حبيب ، كصديق جاء ليأخذنا ، ينتظر في زاوية ان ننهي عملنا ،دون ان يفقد الصبر ·

لكن ظلّ زوربا كان يجول حولي دوما ، في غيرة ·

وذات ليلة ، كنت بمفردي في المنزل على شاطىء البحر ، في جزيرة ايجين · وكنت أشعر انني سعيد · وكانت النافذة المطلة على البحر مفتوحة على مصراعيها ، والقمر يدلف منها ، والبحر يتنهد ، سعيداً هو أيضاً · وكان جسدي الذي تملكه التعب اللذيذ من كثرة السباحة ، ينام نوماً عميقاً ·

وها هو زوربا ، وسط هذهالسعادة العظيمة ، يبرز في حلمي عند الفجر ٠ انني لا أذكر ما قاله ، ولا لماذا جاء ٠ لكن عند يقظتي ، كان قلبي على وشك الانفجار ٠ ودون أن ادري السبب ، امتلأت عيناي بالدموع وسرعان ما تملكتني رغبة لا تُدفع في ان 'أعيد تكوين الحياة التي عشناها معاً على الساحل الكريتي، وأن 'أرغم ذاكرتي على التذكر ، وعلى جمع كل الكلمات ، والصيحات ، والحركات ، والضحكات ، والدموع ، والرقصات التي قام بها زوربا لانقاذها ٠

وكانت هذه الرغبة عنيفة جداً الى حد انني خفت ان أرى فيها اشارة الى ان زوربا في مكان ما على الأرض ، في هذه الأيام ، يحتضر ٠ ذلك انني كنت اشعر بروحي متحدة بروحه بقوة ، الى حد كان يبدو لي معه ان من المستحيل ان تموت واحدة منهما دون ان تهتز الأخرى وتصرخ ألماً ٠

وترددت لحظة في جمع كل الذكريات التي تركها زوربا ، وفي صياغتها في كلمات ٠ واستولى علي خوف طفولي ٠ كنت أقول في نفسي : « اذا فعلت ذلك ، فهذا معناه ان زوربا يواجه حقاً خطر الموت ٠ يجب ان اقاوم اليد التي تدفع يدي » ٠

وقاومت يومين ، وثلاثة ، واسبوعاً ٠ وغرقت في كتابات اخرى ، وقمت برحلات ، وقرأت كثيراً ٠ وبمثل هذه الحيل ، كنت احاول خداع الحضور اللامرئي ٠ لكن عقلي بأكمله كان يتركز في قلق ثقيل على زوربا ٠

وذات يوم ، كنت جالساً على سطح منزلي ، فوق البحر ٠ وكان الوقت ظهراً ، والشمس تحترق ، وانا أنظر امامي الى سفوح سالامين العارية الأنيقة ٠ وفجأة ، تناولت ، مدفوعاً باليد اللامرئية ، ورقاً ، وتمددت على بلاط السطح المحرق وبدأت اسجل أفعال زوربا وحركاته ٠

كنت اكتب بحدة ، واحيي الماضي بسرعة ، واحاول ان اتذكر وابعث زوربا كله ٠ وكأنني اعتبر انه ، اذا ما اختفى زوربا ، فأنا المسؤول ٠ كنت اعمل اذن ليل نهار لأثبت وجهه كما هو ٠

وفي بضعة اسابيع كانت أسطورة زوربا الذهبية قد اكتملت ٠

في ذلك اليوم ، كنت ما ازال جالساً ، عند نهاية بعد الظهر ، على

السطح ، انظر الى البحر · وكان المخطوط المنتهي على ركبتي ، وكنت أشعر بالفرح والطمأنينة ، كأن حملا ثقيلا قد ازيح عن كاهلي · كنت اشبه بامرأة وضعت مؤخراً ، تمسك بطفلها الوليد بين ذراعيها ·

وراء جبال البيلوبونيز ، كانت الشمس تأفل ، حمراء · وصعدت سولا ، وهي فلاحة صغيرة تحمل الي البريد من المدينة ، الى السطح · وناولتني رسالة وانصرفت راكضة · وفهمت أو خيِّل الي ، على الاقل، انني فهمت، لانني عندما فتحت الرسالة وقرأتها ، لم انتصب لأطلق صرخة ، ولم يذهلني الخوف · كنت واثقاً · وكنت أعلم انني ، في تلك الدقيقة المحددة التي وضعت فيها على ركبتي المخطوط المنتهي ورحت انظر الى البحر ، كنت في سبيلي الى استلام هـــذه الرسالة ·

وبهدوء ، ودون عجلة ، قرأتها · انها قادمة من قرية قرب سكوبليج ، في الصرب ، ومكتوبة بلغة ألمانيه ركيكة · وها انا أترجمها :

« انني معلم القرية ، واكتب لك لأعلمك بالنبأ المحزن ، وهو ان الكسيس زوربا ، الذي كان يملك هنا مقلعاً للحجارة البيضاء ، قد توفي يوم الاحـــد الماضي ، في الساعة السادسة بعد الظهر · واثناء احتضاره ناداني وقال لي :

« ــ تعال هنا ، يا معلم المدرسة · لي صديق فلان ، في اليونان · عندما أموت ، أكتب له أنني حتى اللحظة الاخيرة كنت محتفظاً بكامل عقلي ، وأفكر به ، وانني لا آسف البتة على ما فعلته ، وليعش في صحة جيدة · وليعلم انه قد حان الوقت بالنسبة له ليصبح منطقياً ·

« ــ اسمع ايضاً · أذا جاء كاهن ليعرِّفني ويناولني القربان المقدس ، فقل له ان يهرب بسرعة وان يمنحني لعنته ! لقد فعلت اشياء واشياء في حياتي، واعتقد ان ما فعلته ليس بكافٍ · ان الرجال امثالي يجب ان يعيشوا ألف سنة · ليلة سعيدة !

« وكانت هذه آخر كلماته · وبعد ذلك ، اتكأ على وسادته ، ورمـــى اللحاف ، واراد ان ينهض · وركضنا لنسنده ، ليوبا زوجته ، وأنا ، وبعض الجيران الاقوياء · لكنه أبعدنا فجأة ، وقفز من السرير ، وذهب حتى النافذة · وهناك ، تشبث بالفرجة ، ونظر بعيداً نحو الجبال ، وجحظ عينيه وأخـــذ يضحك ، ثم يصهل كجواد · وهكذا ، وهو واقف ، واظـــافره مغروزة في

النافذة ، اسلم الروح ٠

« زوجته ، ليوبا ، كلفتني بأن اكتب اليك بأنها تحييك ، وان المرحوم كان يحدثها غالباً عنك ، وانه أمر باعطائك السانتوري ، كذكرى ، بعد وفاته٠

« فالارملة ترجوك اذن ، عندما تتاح لك فرصة المرور بقريتنا ، ان تتكلف مشقة المجيء لتمضية الليل في بيتها ، وفي الصباح ، عند ذهابك ، ان تأخذ السانتوري » ٠

انتهت

هذا الكتاب

على أحـــد شواطىء كريت ، يلتقي رجلان لاستثمار منجم لليفنيت . ويحاول أحدهما ، وهو الراوي ، ان يفرّ من عـــالم المعرفة المحموم المخيّب . وقد التقى رفيقاً هو الماسيدوني الكسي زوربا ، وهو انسان مدهش ، مغامر ، سندباد بحري ، فعهد اليه في ادارة الأعمال . وسرعان مـــا انعقدت أواصر صداقة عميقة بين ذلك المتحضّر الممتلئة نفسه بالفلسفة الشرقية ، وهذا المتوحّش الرائع الذي تقوده غرائز قوية ، والذي يعيش الحياة بكـــل امتلائها وزخمها ، ويحب الطبيعة والمـــرأة ، ويروي مغامراته الغرامية بحيوية نادرة المثال ، وينطق بالحكمة اروع مما ينطق بها فيلسوف .

وقد انتهى استثمار المنجم باخفاق؛ ولكن القصة التي يعيشها القارىء مـــع هذين البطلين والابطال الآخرين ، ولا سيما تلك المرأة المغامرة التي وقعت في غرام زوربا ، تظلّ احدى الروائع الكبرى في الأدب الحديث . وقد أخرجت حديثاً في فيلم ممتاز تولى دور زوربا فيه الممثل انطوني كوين ، الى جانب ايرين باباس التي مثلت دور تلك الارملة التي ضحت بنفسها لمجد القرية .

رواية مدهشة ، ستظل في طليعة الروايات العالمية .

الثمن : ١٣ ل٠ ل. أو ما يعادلها